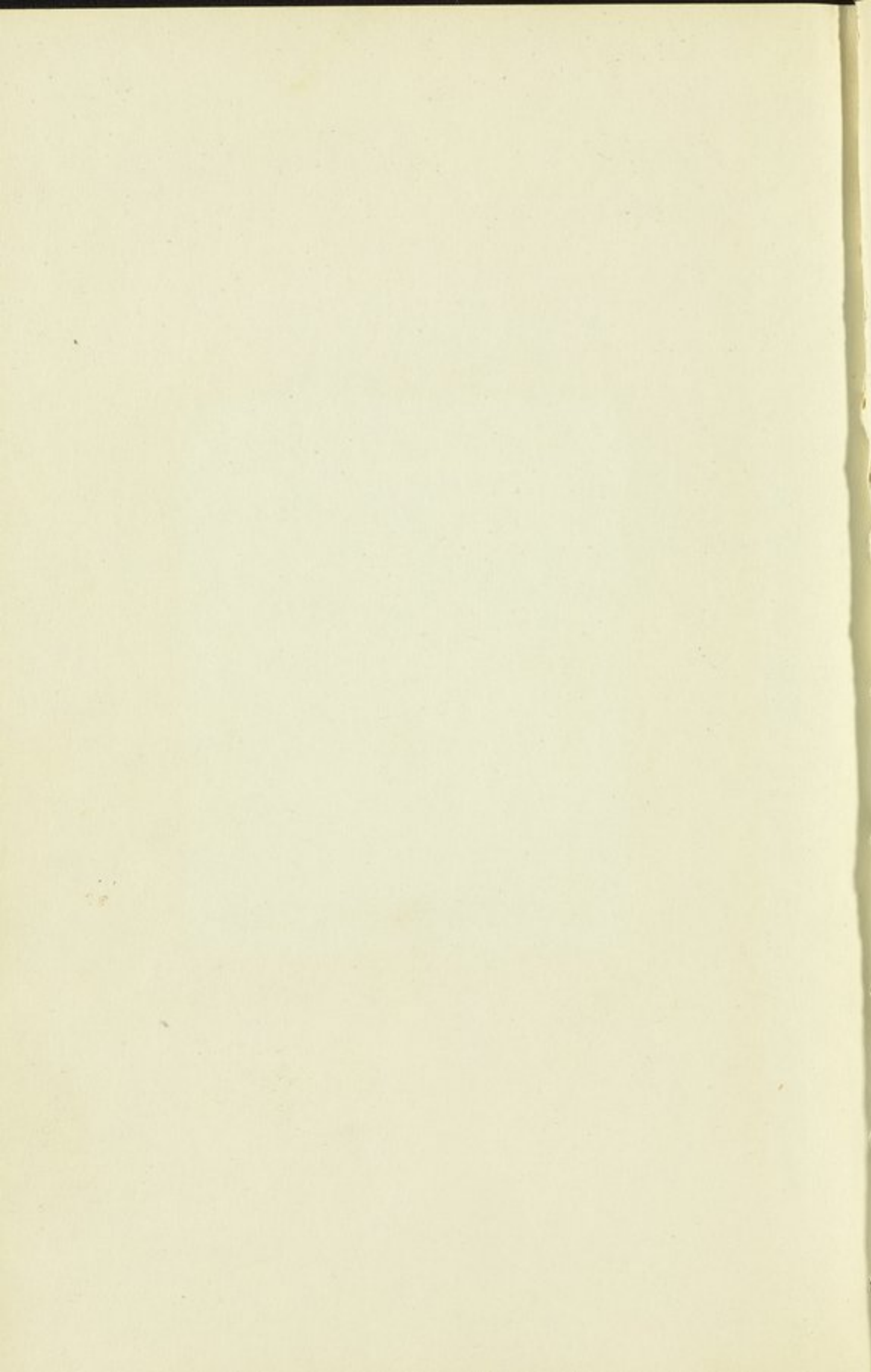


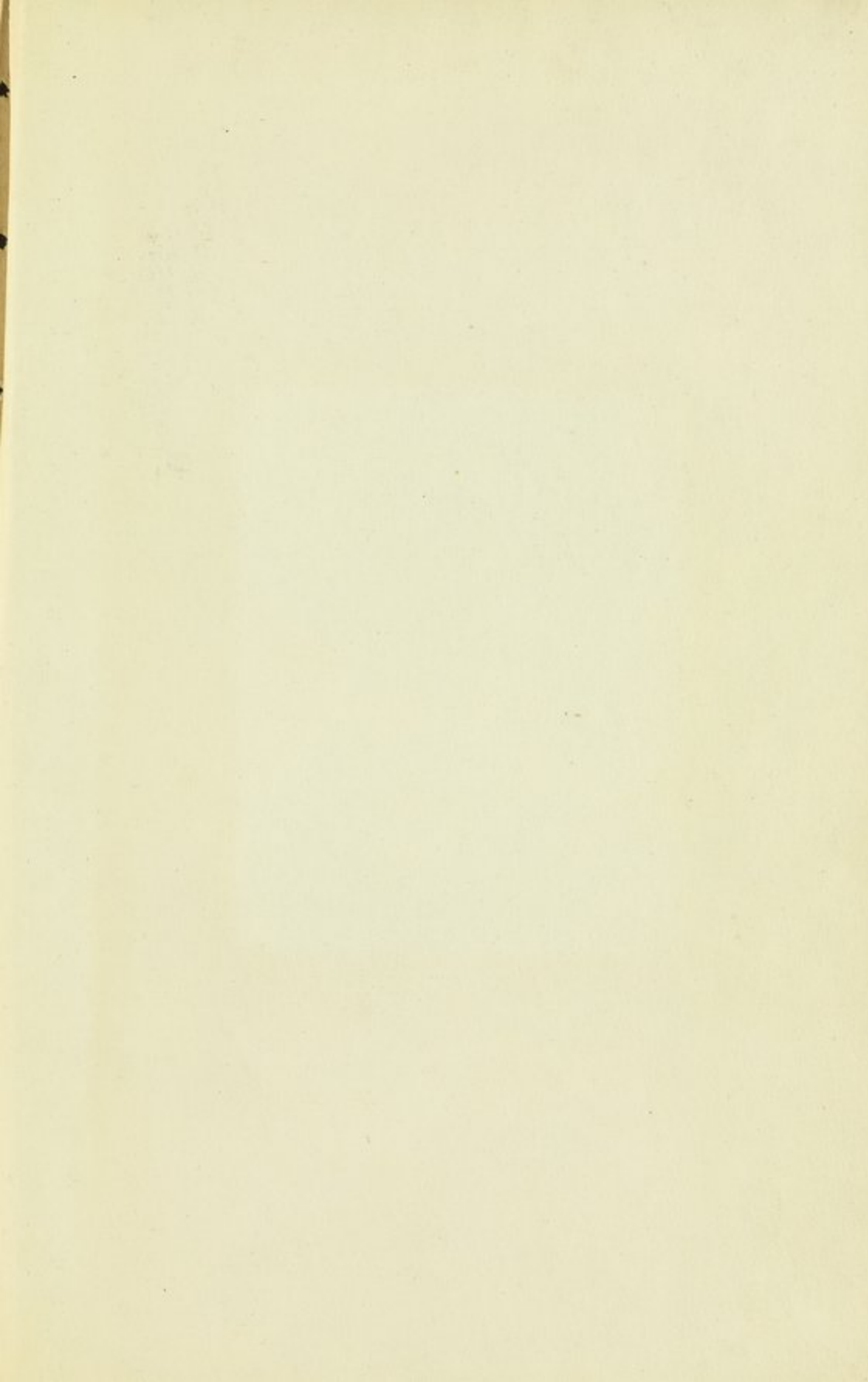




THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY







وزارة المعارف العمومية

مهذب رحلة ابن بطوطة

المسماة

تحفة النظار ، في غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار

وقف على تهذيبه وضبطه غريبه وأعلامه

أحمد العوامري بك و محمد أحمد جاد المولى بك

المقتس
بوزارة المعارف

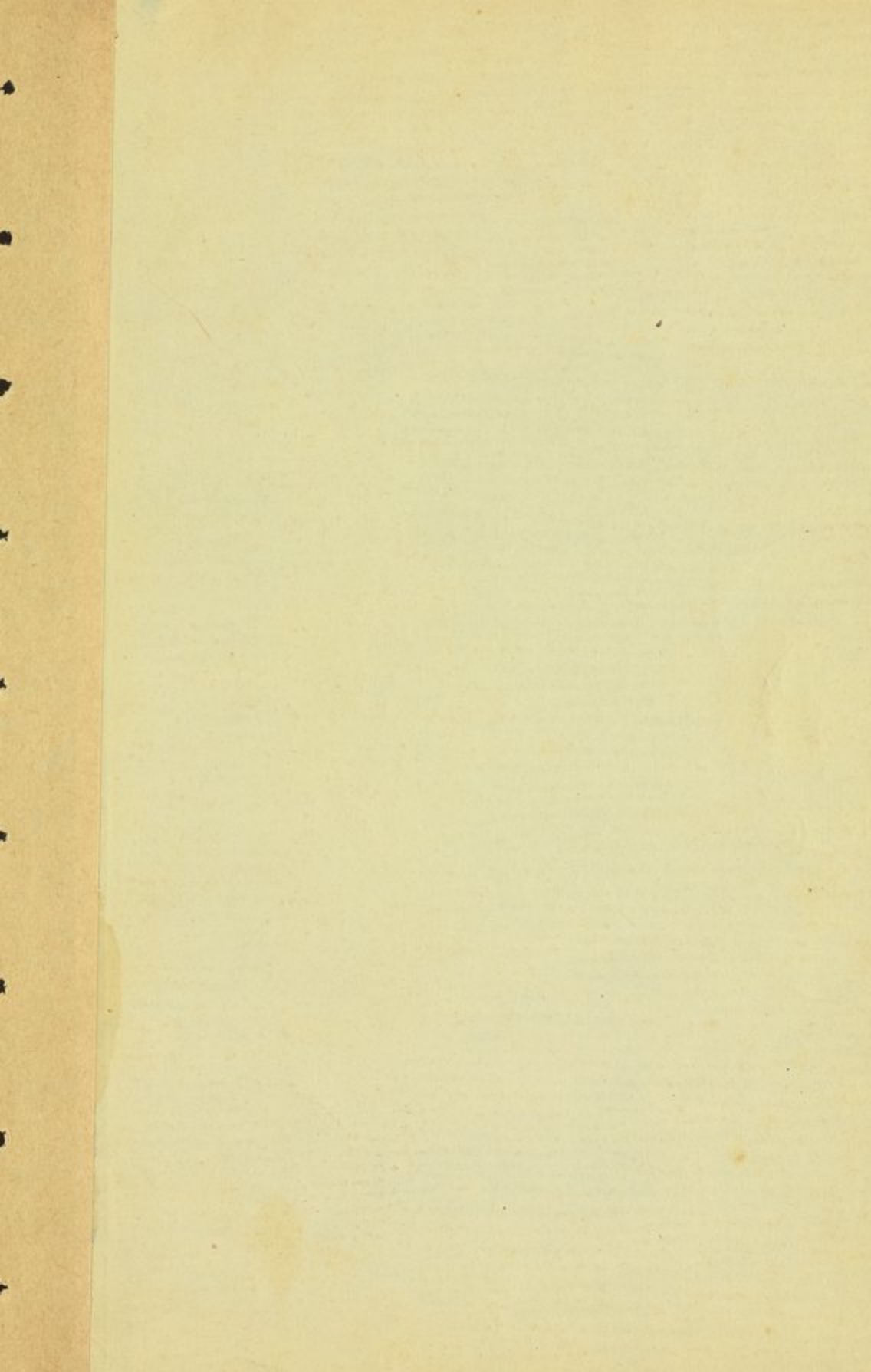
المقتس الأول للغة العربية
بوزارة المعارف

(حقوق الطبع محفوظة للوزارة)

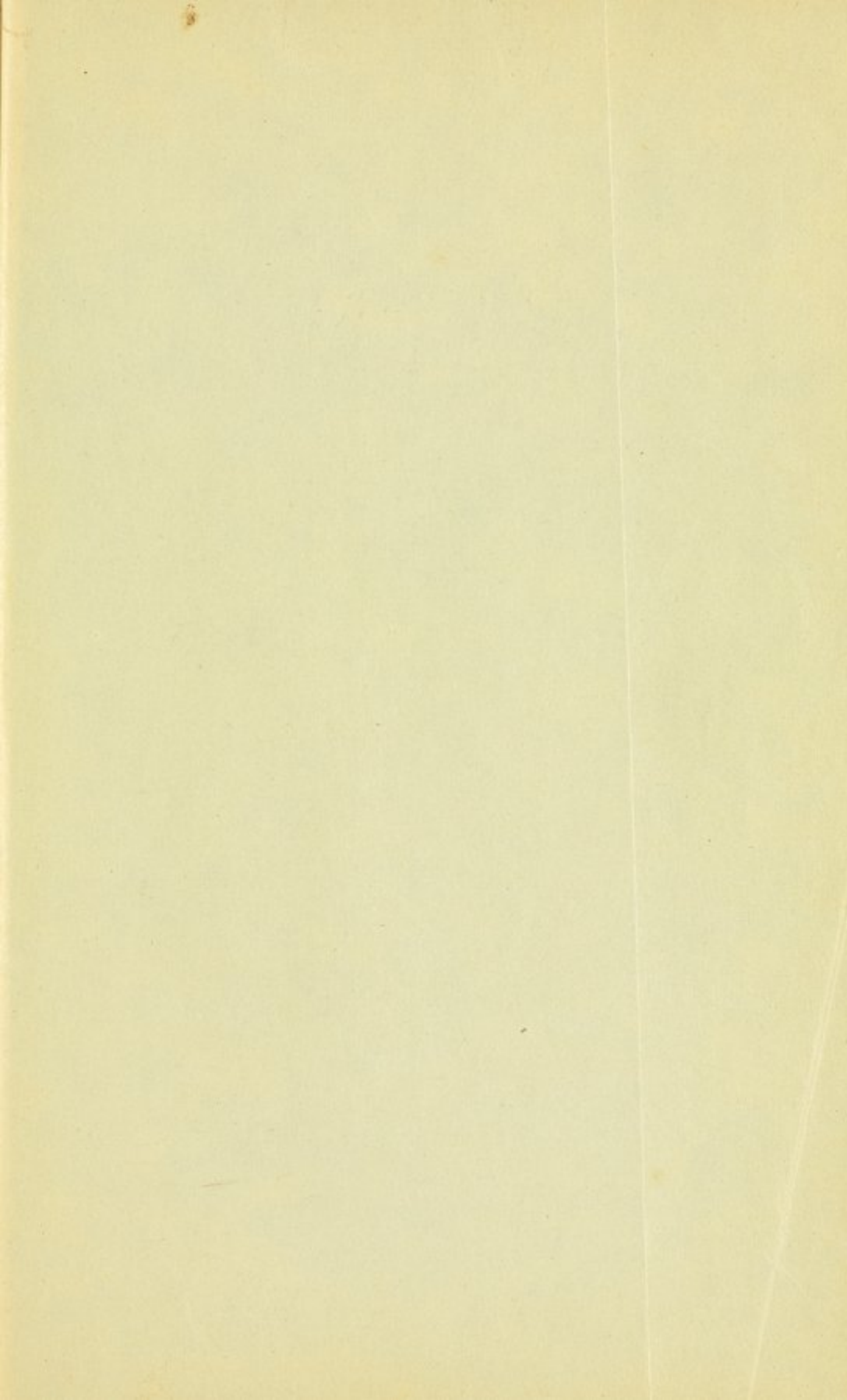
الجزء الثاني

المطبعة الأميرية بالقاهرة

١٩٣٣



Handwritten signature or scribble in the upper left corner, possibly containing the name "P. ...".



وزارة المعارف العمومية

مَهْدِيَّةُ حَلِّ بْنِ طُوطِيَّةَ

المسماة

تحفة النظر، في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار

وقف على تهذيبه وضبط غريبه وأعلامه

أحمد العوامري بك و محمد أحمد جاد المولى بك

المفتش
بوزارة المعارف

المفتش الأول للغة العربية
بوزارة المعارف

(حقوق الطبع محفوظة للوزارة)

الجزء الثاني

المطبعة الأميرية بالقاهرة
١٩٣٣

893.711

B3211

v. 2

فهرس الجزء الثانى من مهذب رحلة ابن بطوطة

صفحة

١	المقدمة
٢	ذكر البريد
٤	ذكر الكركن
٦	حكاية
٨	ذكر السفر فى نهر السند وترتيب ذلك
٩	ذكر غريبة رأيتها بخارج هذه المدينة (مدينة لاهرى)
١١	مكرمة لهذا الملك (جلال الدين الكبجى)
١٢	ذكر أمير ملتان وترتيب حاله
١٣	« من اجتمعت به فى هذه المدينة (ملتان) من الغرباء الوافدين على حضرة ملك الهند
١٥	« أشجار بلاد الهند وفواكهها
١٧	« الحبوب التى يزرعها أهل الهند ويقتاون بها
١٩	« غزوة لنا بهذا الطريق الخ
٢٠	« أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار
٢٤	« وصفها (دهلى)
٢٤	« سوردهلى وأبوابها
٢٥	« جامع دهلى
٢٧	« الحوضين العظيمين بخارجها
٢٨	« بعض مزاراتها
٢٨	« بعض علمائها وصالحاتها
٢٩	حكاية — كرامة
٣٠	ذكر فتح دهلى ومن تداولها من الملوك
٣١	« السلطان شمس الدين للش
٣٢	« السلطان ركن الدين ابن السلطان شمس الدين

- ٣٣ ذكر السلطنة رضية
- ٣٣ « السلطان ناصر الدين ابن السلطان شمس الدين... »
- ٣٤ « السلطان غياث الدين بلبن ... »
- ٣٥ حكاية... »
- ٣٧ ذكر السلطان معز الدين بن ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن
- ٣٨ « جلال الدين ... »
- ٤٠ « علاء الدين محمد شاه اخلجى... »
- ٤٢ « ابنه شهاب الدين ... »
- ٤٣ « السلطان قطب الدين ابن السلطان علاء الدين ... »
- ٤٥ « السلطان خسروخان ناصر الدين ... »
- ٤٧ « غياث الدين تغلق شاه ... »
- ٤٩ « ما رآه ولده من القيام عليه فلم يتم له ذلك ... »
- ٥٠ « مسير "تغلق" إلى بلاد الكنتوق وما اتصل بذلك من وفاته ... »
- « السلطان أبي المجاهد محمد شاه ابن السلطان غياث الدين تغلق شاه ملك الهند والسند الذى قدمنا عليه ... »
- ٥٢ ذكر وصفه ... »
- ٥٣ « أبوابه ومشوره وترتيب ذلك ... »
- ٥٥ « ترتيب جلوسه للناس ... »
- ٥٧ « دخول الغرباء وأصحاب الهدايا عليه ... »
- ٥٧ « دخول هدايا عماله عليه... »
- ٥٨ « خروجه للعبيد وما يتصل بذلك ... »
- ٦٠ « جلوس يوم العيدين وذكر السرير الأعظم والمبخرة العظمى ... »
- ٦٢ « ترتيبه إذا قدم من سفره... »
- ٦٣ « ترتيب الطعام الخاص ... »
- ٦٣ « ترتيب الطعام العام... »
- ٦٥ « بعض أخباره في الجود والكرم ... »
- ٦٥ « عطائه لشيخ الشيوخ ركن الدين ... »

صفحة

- ٦٦ ذكر عطائه للواعظ الأرمذى ناصر الدين
- ٦٧ « » لعبد العزيز الأردوبلى
- ٦٨ « » لشمس الدين وعضد الدين والقاضى محمد الدين
- ٦٩ « » لبرهان الدين وحاجى كاون
- ٧٠ « » قدوم ابن الخليفة عليه وأخياره
- ٧٢ حكاية من تعظيمه إياه
- ٧٢ « » نحوها
- ٧٤ « » عن بجل ابن الخليفة
- ٧٤ « »
- ٧٥ « »
- ٧٦ ذكر ما أعطاه السلطان الأمير سيف الدين غدا بن هبة الله بن مهنا أمير عرب الشام
- ٧٧ « » تزوج الأمير سيف الدين بأخت السلطان
- ٧٩ « » سجين الأمير غدا
- ٨١ « » تزوج السلطان بتى وزيره من ابنى خداوند زاده قوام الدين
- ٨٢ حكاية فى تواضع السلطان وإنصافه وبعض حكايات أخرى
- ٨٣ ذكر اشتداده فى إقامة الصلاة وأحكام الشرع
- ٨٤ « » رفعه للغارم والمظالم وإطعامه فى الغلاء
- ٨٥ « » فتكات هذا السلطان وقتله لأخيه
- ٨٦ « » قتله ثلاثمائة وخمسين رجلا وتعذيبه للشيخ شهاب الدين
- ٨٨ « » الفقيه المدرس غفيف الدين الكاسانى وفقهين معه
- ٨٩ « » لفقيرين من أهل السند
- ٩٠ « » للشيخ هود
- ٩٢ « » سجنه لابن تاج العارفين الخ
- ٩٣ « » قتله للشيخ الحيدرى وطوغان وأخيه
- ٩٤ « » ابن ملك التجار وضرره لخطيب الخطباء
- ٩٥ « » تخريبه لدهلى ونفى أهلها

- ٩٦ ذكر ما افتتح به أمره أول ولايته من منه على بهادور بوره
- ٩٦ « ثورة ابن عمته وما اتصل بذلك
- ٩٨ « كشلوخان وقتله
- ٩٩ « هزيمة جيش السلطان بجبل قراجيل
- ١٠٠ « ثورة الشريف جلال الدين ببلاد المعبر
- ١٠٢ « ثورة هلاجون
- ١٠٣ « وقوع الوباء في عسكر السلطان — وذكر الإرجاف بموته وفرار الملك هوشنج
- ١٠٤ « ثورة الشريف إبراهيم
- ١٠٥ « خلاف نائب السلطان ببلاد التلنك
- ١٠٦ « انتقال السلطان إلى نهر الكنك وقيام عين الملك
- ١١١ « عودة السلطان لحضرته الخ
- ١١٢ « فرار أمير بخت
- ١١٤ « خلاف شاه أفغان بأرض السند وخلاف القاضي جلال
- ١١٥ « خلاف ابن الملك مل
- ١١٦ « خروج السلطان إلى كنباية
- ١١٧ « قتال مقبل وابن الكولمي
- ١١٨ « الغلاء الواقع بأرض الهند
- ١١٩ « وصولنا إلى دار السلطان عند قدومنا وهو غائب
- ١٢٠ « أم السلطان وذكر فضائلها
- ١٢١ « الضيافة
- ١٢٣ « وفاة بتي وما فعلوا في ذلك
- ١٢٥ « إحسان السلطان والوزير إلى
- ١٢٦ « العيد الذي شهدته أيام غيبة السلطان ، وقدم السلطان
- ١٢٨ « دخول السلطان حضرته
- ١٢٩ « دخولنا عليه
- ١٣٢ « عطاء نان أمر لي به

صفحة

- ١٣٣ ذكر طلب الغرماء ما لهم قبلى
 ١٣٦ « خروج السلطان إلى الصيد
 ١٣٨ « الجمل الذى أهديته إلى السلطان
 ١٣٩ « الجملين اللذين أهديتهما إليه الخ
 ١٤١ « خروج السلطان وأمره لى بالإقامة بالحضرة
 ١٤٣ « ما فعلته فى ترتيب مقبرة السلطان قطب الدين
 ١٤٤ « نادتهم فى إطعام الناس فى الولايم
 ١٤٥ « خروجى إلى "هزار أمروها"
 ١٤٧ « مكرمة لبعض الأصحاب
 ١٤٨ « خروجى إلى محلة السلطان وذكر ما هم به السلطان من عقابى
 ١٤٩ « انقباضى عن الخدمة الخ
 ١٥٠ « بعث السلطان إلى "وإبانى الرجوع" وذكر توجهى إلى الصين
 ١٥١ « سبب إرساله بالهدية إلى الصين
 ١٥٤ « غزوة شهدناها بكونه وذكر محنتى بالاسر
 ١٦٠ حكاية الشيخ محمد العريان
 ١٦١ « أحد القضاة
 ١٦٢ « قتم سلطان جنبيل
 ١٦٣ ذكر أمير غلابور واستشهاده
 ١٦٥ « السحرة الجوكية — حكاية
 ٢٦٦ حكاية
 ١٦٨ «
 ١٧٠ « — ذكر سوق المغنين بمدينة دولة آباد
 ١٧٢ «
 ١٧٣ «
 ١٧٤ ذكر سلطان قدهار — ذكر ركوبنا البحر

صفحة	
١٧٥	ذكر سلطان قوفة
١٧٦	حكاية أحد الجوكية
١٧٨	ذكر سلطان هنور - ذكر ترتيب طعامه
١٨١	« الفلفل ... »
١٨٢	« سلطان فاكور
١٨٣	« منجور
١٨٤	« جرفن
١٨٥	« الشجرة العجيبة الشأن التي يازاء جامع ده قن
١٨٦	حكاية - ذكر سلطان فالقوط
١٨٧	ذكر مرآكب الصين
١٨٨	« أخذنا في السفر إلى الصين ومنتهى ذلك
١٩١	« القرفة واليقم - ذكر سلطان كولم - حكاية
١٩٢	حكاية - حكاية
١٩٤	ذكر توجهنا إلى الغزو وفتح سندابور
١٩٦	« أشجار جزائر ذية المهل - ذكر أهل هذه الجزائر وبعض عاداتهم الخ
٢٠٠	« نساؤها
٢٠١	« السبب في إسلام أهل هذه الجزائر وذكر العفاريات من الجن الخ
٢٠٢	« سلطنة هذه الجزائر
٢٠٤	« وصول إلى هذه الجزائر وتقل حالها بها
٢٠٧	« بعض إحسان الوزير إلى - ذكر تغيره وما أردته من الخروج ومقام بعد ذلك
٢٠٩	« العيد الذي شاهدته معهم
٢١٠	« تزوجي وولايي القضاء
	« قدوم الوزير عبد الله بن محمد الحضرمي الذي نقاه السلطان شهاب الدين إلى السويد
٢١١	وما وقع بيني وبينه
٢١٣	ذكر انفصالي عنهم
٢١٢	« سلطان سيلان

صفحة	
٢١٥	ذكر سلطان كنگار — ذكر الباقوت
٢١٦	« القروود
٢١٧	« الملئ الطيار
٢١٨	« جبل مرنديب
٢١٩	« القدم (قدم آدم عليه السلام)
٢٢١	« سلطان بلاد المعبر
٢٢٢	« وصول إلى السلطان غياث الدين
٢٢٣	« ترتيب رحيله وشنيع فعله في قتل النساء والولدان
٢٢٤	« هزيمته للكفار وهي من أعظم فتوحات الإسلام
٢٢٧	« وفاة السلطان وولاية ابن أخيه وانصرافه عنه
٢٢٩	« سلب الكفار لنا
٢٣١	« سلطان بجمالة
٢٣٢	حكاية
٢٣٣	ذكر الشيخ جلال الدين — كرامة له — كرامة له أيضا
٢٣٤	حكاية عجيبة في ضمنها كرامات له
٢٣٧	ذكر سلطان البرهنكار
٢٣٨	« سلطان الجاوة — ذكر دخولنا داره وإحسانه إلينا
٢٤٠	« انصرافه إلى داره وترتيب السلام عليه
٢٤١	« اللبان — ذكر الكافور — ذكر العود الهندي
٢٤٢	« القرظل — ذكر سلطان مل جاوة
٢٤٣	« عجيبة رأيها يجلسه
٢٤٤	« ملكة كلوكري
٢٤٧	« الفخار الصيني — ذكر دجاج الصين — ذكر بعض أحوال أهل الصين
٢٤٨	« دراهم الكاغد التي بها يبيعون ويشترون
٢٤٩	« التراب الذي يوقدونه مكان الفحم — ذكر ما خصوا به من إحكام الصناعات
٢٥٠	« عاداتهم في تقييد ما في المراكب

صفحة	
٢٥١	ذكر عاداتهم في منع التجاوز عن الفساد
٢٥٢	« حفظهم للسافرين في الطريق
٢٥٥	حكاية عجيبة
٢٥٧	»
٢٠٦	ذكر الأمير الكبير قرطى
١٦٢	حكاية المشعوذ
٢٦٣	ذكر سلطان الصين والخطا الملقب بالقان — ذكر قصره
٢٦٤	« خروج القان لقتال ابن عمه وقتله
٢٦٦	« رجوعى إلى الصين ثم إلى الهند
٢٦٧	« الرخ
٢٦٨	« أعراس ولد الملك الظاهر
٢٦٩	« سلطان ظفار
٢٧٠	« » بغداد
٢٧١	حكاية
٢٧٢	»
٢٧٣	»
٢٧٤	ذكر سلطان مصر
٢٧٦	« » تونس
٢٨٠	« بعض فضائل السلطان (أبى عنان)
٢٩٣	« سلطان غرناطة
٢٩٦	« التكشيف
٢٩٧	حكاية
٢٩٩	ذكر مسوقة الساكنين بإيالاتن
٣٠٣	« سلطان مالى — ذكر ضياقتهم النافهة وتمظيمهم لها
٣٠٣	« كلامى للسلطان بعد ذلك وإحسانه إلى وذكر جلوسه بقبته
٣٠٥	« جلوسه بالمشور — ذكر تذلل السودان للمكهم الخ
٣٠٦	« فعله فى صلاة العيد وأيامه

(ك)

صحة	
٣٠٨ ذكر الأضحوكة في إنشاد الشعراء للسلطان
٣٠٩ حكاية — حكاية
٣١٠ »
٣١١ »
٣١٢ ذكر ما استحسنته من أفعال السودان وما استقبحته منها
٣١٣ » سفرى عن مالى — ذكر الخيل التى تكون بالنيل
٣١٤ حكاية
٣١٥ » حكاية
٣١٦ »
٣١٩ »
٣٢٠ ذكر معدن النحاس — ذكر سلطان تكداً
٣٢١ » وصول الأمر الكريم إلى
٣٢٤ قال ابن جزى

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

(وصلی اللہ علی سیدنا محمد وعلی آلہ وصحبہ وسلم)

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي ،
المعروف بابن بطوطة ، رحمه الله تعالى .

ولما كانت بتاريخ الغرة من شهر الله المحرم مفتتح عام أربعة وثلاثين
وسبعمائة ، وصلنا إلى وادي السند المعروف ببنج آب . ومعنى ذلك المياه
الخمسية . وهذا الوادي من أعظم أودية الدنيا . وهو يفيض في أوان الحر
فيزرع أهل تلك البلاد على فيضه ، كما يفعل أهل الديار المصرية في فيض
النيل . وهذا الوادي هو أول عمالة السلطان المعظم محمد شاه ملك الهند
والسند . ولما وصلنا إلى هذا النهر جاء إلينا أصحاب الأخبار الموكلون بذلك .
وكتبوا بخبرنا إلى قطب الملك أمير مدينة ملتان . وكان أمير أمراء السند
على هذا العهد مملوكا للسلطان يسمى سرتيز ، وبين يديه تعرض عساكر
السلطان . ومعنى اسمه : الحاد الرأس ، لأن سره هو الرأس ، وتيز معناه الحاد .
وكان في حين قدومنا بمدينة سيوستان من السند . وبينها وبين ملتان مسيرة
عشرة أيام . وبين بلاد السند وحضرة السلطان مدينة دهلي مسيرة خمسين
يوما . وإذا كتب المخبرون إلى السلطان من بلاد السند يصل الكتاب إليه
في خمسة أيام بالبريد .

ذكر البريد

والبريد ببلاد الهند صنفان . فأما بريد الخيل فيسمونه الولاقي ، وهو خيل تكون للسلطان في كل مسافة أربعة أميال . وأما بريد الرجالة فيكون في مسافة الميل . الواحد منه ثلاث رُتب ويسمونها الداوة . والداوة هي ثلث ميل . والميل عندهم يسمى الكروة . وترتيب ذلك أن يكون في كل ثلث ميل قرية معمورة . ويكون بخارجها ثلاث قباب يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة ، قد شدوا أوساطهم . وعند كل واحد منهم مقرة مقدار ذراعين ، بأعلاها جلاجل نحاس . فإذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده ، والمقرة ذات الجلاجل باليد الأخرى ، ونحرج يشد بمتى جُهدته . فإذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تاهبوا له . فإذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده ومر بأقصى جُهدته ، وهو يحرك المقرة حتى يصل إلى الداوة الأخرى . ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب إلى حيث يراد منه . وهذا البريد أسرع من بريد الخيل . وربما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة بالهند من فواكه نخراسان ، يجعلونها في الأطباق ويشندون بها حتى تصل إلى السلطان . وكذلك يحملون أيضا الكبار من ذوى الجنائيات : يجعلون الرجل منهم على سرير ، ويرفعونه فوق رءوسهم ويسرون به شدا . وكذلك يحملون الماء لشرب السلطان إذا كان بدولة أباد ، يحملونه من نهر الكينك الذي تتحج الهنود إليه . وهو على مسيرة أربعين يوما منها . وإذا كتب المخبرون إلى السلطان بخبر من يصل إلى بلاده ، استوعبوا الكتاب وأمعنوا في ذلك ، وعرفوه أنه ورد رجل صورته كذا ولباسه كذا . وكتبوا عدد أصحابه وغلماه وخدامه ودوابه وترتيب حاله في حركته وسكونه وجميع تصرفاته ، لا يغادرون من ذلك كلة شيئا . فإذا وصل الوارد إلى مدينة

مُتَّان، وهي قاعدة بلاد السند، أقام بها حتى ينفذ أمر السلطان بقدمه وما
يجرى له من الضيافة . وإنما يكرم الإنسان هنالك بقدر ما يظهر من أفعاله
وتصرفاته وهمته ، إذ لا يعرف هنالك ما حسبه ولا أبأوه . ومن عادة ملك الهند
السلطان أبي المجاهد محمد شاه إكرام الغرباء ومحبتهم وتخصيصهم بالولايات
والمراتب الرفيعة . ومعظم خواصه وحجابه ووزرائه وقضاته وأصحابه غرباء .
وتنفذ أمره بأن يسمى الغرباء في بلاده بالأعززة . فصار لهم ذلك اسماً عاماً .
ولا بد لكل قادم على هذا الملك من هدية يهديها إليه ويقدمها وسيلة بين
يديه . فيكافئه السلطان عليها بأضعاف مضاعفة . وسير من ذكر هدايا
الغرباء إليه كثير . ولما تعود الناس ذلك منه صار التجار الذين ببلاد السند
والهند يعطون كل قادم على السلطان الآلاف من الدنانير ديناً ، ويجهزونهم
بما يريد أن يهديه إليه أو يتصرف فيه لنفسه من الدواب للركوب والجمال
والأمتعة ، ويخدمونه بأموالهم وأنفسهم ، ويقفون بين يديه كالحشم . فإذا
وصل إلى السلطان أعطاه العطاء الجزيل ، ففضى ديونهم ، ووفاهم حقوقهم .
فنفقت تجارتهم ، وكثرت أرباحهم ، وصار لهم ذلك عادة مستمرة .

ولما وصلت إلى بلاد السند سلكت ذلك المنهج واشترت من التجار الخيل
والجمال والماليك وغير ذلك . ولقد اشترت من تاجر عراقي من أهل تكريت يعرف
بمحمد الدرري بمدينة غزنة نحو ثلاثين فرساً ، وجملاً عليه حمل من النشاب ،
فإنه مما يهدي إلى السلطان ، وذهب هذا التاجر إلى خراسان ثم عاد إلى
الهند . وهنالك تقاضى مني ماله ، واستفاد بسببي فائدة عظيمة ، وعاد من
كبار التجار . ولقيته بمدينة حلب بعد سنين كثيرة وقد سلبنى الكفار ما كان
بيدي فلم ألق منه خيراً .

ذكر الكركدن

ولما أجزنا نهر السند المعروف ببنج آب دخلنا غيضة قصب لسلك الطريق لأنه في وسطها ، فخرج علينا الكركدن . وصورته أنه حيوان أسود اللون عظيم الحجم ، رأسه كبير متفاوت الضخامة . ولذلك يضرب به المثل فيقال : الكركدن رأس بلا بدن . وهو دون الفيل ، ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف . وله قرن واحد بين عينيه طوله نحو ثلاثة أذرع . وعرضه نحو شبر . ولما خرج علينا عارضه بعض الفرسان في طريقه ، فضرب الفرس الذي كان تحته بقرنه فأنفذ نخذه وصرعه ، وعاد إلى الغيضة فلم تقدر عليه . وقد رأيت الكركدن مرة ثانية في هذا الطريق ، بعد صلاة العصر ، وهو يري نبات الأرض . فلما قصدناه هرب منا . ورأيت مرة أخرى ونحن مع ملك الهند : دخلنا غيضة قصب ، وركب السلطان على الفيل وركبنا معه الفيلة ، ودخات الرجالة والفرسان فأثاروه وقتلوه واستاقوا رأسه إلى المحلة . وسرنا من نهر السند يومين ووصلنا إلى مدينة جناني ، مدينة كبيرة حسنة على ساحل نهر السند ، لها أسواق مليحة ، وسكانها طائفة يقال لهم السامرة ، استوطنوها قديما واستقر بها أسلافهم حين فتحها على أيام الحجاج بن يوسف ، على ما أثبت المؤرخون في فتح السند . وأخبرني الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد العابد ركن الدين ، ابن الشيخ الفقيه الصالح شمس الدين ، ابن الشيخ الإمام العابد الزاهد بهاء الدين زكريا القرشي ، وهو أحد الثلاثة الذين أخبرني الشيخ الولي الصالح برهان الدين الأعرج بمدينة الإسكندرية أني سألقاهم في رحلتي ، فلقيتهم والحمد لله — أخبرني أن جده الأعلى كان يسمى بمحمد بن قاسم القرشي ، وشهد فتح السند في العسكر الذي بعثه لذلك الحجاج بن يوسف أيام إمارته على العراق ، وأقام بها وتكاثر ذريته .

وهؤلاء الطائفة المعروفون بالسامرة لا يأكلون مع أحد ، ولا ينظر إليهم أحد حين يأكلون ، ولا يصاهرون أحدا من غيرهم ، ولا يصاهرهم أحد . وكان لهم في هذا العهد أمير يسمى وُتار ، وسند ذكر خبره .

ثم سافرنا من مدينة جَنَانِي إلى أن وصلنا إلى مدينة سِيوِسْتَان ، وهي مدينة كبيرة . وخارجها صحراء ورمال لا شجر بها إلا شجر أم غِيلَان . ولا يزرع على نهرها شيء ما عدا البَطِيخ . وطعامهم الذرة والجُلْبَان ومنه يصنعون الخبز . وهي كثيرة السمك والألبان الجاموسية . وأهلها يأكلون السَّقَنْجُور ، وهي دُوْبِيَّة يسميها المغاربة حُنَيْشَةَ الجَنَّة ، إلا أنها لا ذنب لها . ورأيتهم يحتفرون الرمل ويستخرجونها منه ، ويشقون بطنها ويرمون بما فيه ويحشونه بالكُرْم . وهو عندهم عَوْضُ الزعفران .

ودخلنا هذه المدينة في احتدام القيظ . وحرها شديد . فكان أصحابي يقعدون عُربَانِينَ ، يجعل أحدهم فُوْطَةَ على وَسَطِهِ وفُوْطَةَ على كتفيه مبلولة بالماء ، فما يمضي السير من الزمان حتى تَبَيَّنَ تلك الفُوْطَةَ فيبليها مرة أخرى ، وهكذا أبدا . ولقيت بهذه المدينة خطيبها المعروف بالشَّيْبَانِي ، وأراني كتاب أمير المؤمنين الخليفة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه بلده الأعلى ، بخطابة هذه المدينة . وهم يتوارثونها من ذلك العهد إلى الآن .

(ونص الكتاب) : هذا ما أمر به عبد الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لفلان . وتاريخه سنة تسع وتسعين . وعليه مكتوب بخط أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز : الحمد لله وحده ، على ما أخبرني الخطيب المذكور . ولقيت بها أيضا الشيخ المُعَمَّرَ محمد البغدادي . وهو بالزاوية التي على قبر الشيخ

الصالح عثمان المرندى . وذكر أن عمره يزيد على مائة وأربعين سنة ، وأنه
حضر قتل المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس رضى الله عنهم ، لما قتله
الكافر هلاون^(١) بن تنكيز التترى . وهذا الشيخ على كبر سنه قوى الجثمة ،
يتصرف على قدميه .

حكاية

كان يسكن بهذه المدينة الأمير ونار السامرى الذى تقدم ذكره ، والأمير
قيصر الرومى ، وهما فى خدمة السلطان ، ومعهما نحو ألف وثمانمائة فارس .
وكان يسكن بها كافر من الهنود اسمه رتن ، وهو من الخذاق فى الحساب والكتابة .
فوفد على ملك الهند مع بعض الأمراء . فاستحسنه السلطان وسماه عظيم
السند ، وولاه بتلك البلاد ، وأقطعه سيوستان وأعمالها ، وأعطاه المراتب
وهى الأبطال والعلامات ، كما يعطى كبار الأمراء . فلما وصل إلى تلك
البلاد عظم على ونار وقيصر وغيرهما تقديم الكافر عليهم ، فأجمعوا على قتله .
فلما كان بعد أيام من قدومه أشاروا عليه بالخروج إلى أحواز المدينة ،
ليطلع على أمورها . فخرج معهم . فلما جن الليل أقاموا ضجة بالمحلة وزعموا
أن السبع ضرب عليها . وقصدوا مضرب الكافر فقتلوه وعادوا إلى المدينة ،
فأخذوا ما كان بها من مال السلطان . وذلك اثنا عشر لكا ، واللك مائة ألف
دينار . وصرف اللك عشرة آلاف دينار من ذهب الهند ، وصرف الدينار
الهندي ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب . وقدموا على أنفسهم ونار
وسموه ملك فيروز . وقسم الأموال على العسكر ، ثم خاف على نفسه

(١) هو (هولاكو) .

لبعده عن قبيلته ، فخرج فيمن معه من أقاربه وقصد قبيلته . وقدم الباقون من العسكر على أنفسهم قيصر الرومي . واتصل خبرهم بعاد الملك سرتيز مملوك السلطان ، وهو يومئذ أمير أمراء السند ، وسكناه بمِلتان ، فجمع العساكر وتجهز في البر وفي نهر السند . وبين ملتان وسيوستان عشرة أيام . وخرج إليه قيصر فتلاقيا . وانهمز قيصر ومن معه أشنع هزيمة . وتحصنوا بالمدينة ، فحصرهم ونصب المجانيق عليهم ، واشتد عليهم الحصار فطلبوا الأمان بعد أربعين يوما من نزوله عليهم ، فأعطاهم الأمان . فلما نزلوا إليه غدّروهم وأخذ أموالهم وأمر بقتلهم . فكان كل يوم يضرب أعناق بعضهم ، ويوسّط^(١) بعضهم ويسأخ آخريين منهم ويملاً جلودهم تبنا ، ويلقها على السور . فكان معظمه عليه تلك الجلود مصلوبة ، تُرعب من ينظر إليها . وجمع رءوسهم في وسط المدينة فكانت مثل التل هنالك . ونزلت بتلك المدينة إثر هذه الواقعة بمدرسة فيها كبيرة . وكنت أنام على سطحها فإذا استيقظت من الليل أرى تلك الجلود المصلوبة فتشمئز النفس منها ، ولم تطب نفسى بالسكنى بالمدرسة فانتقلت عنها . وكان الفقيه الفاضل العادل علاء الملك أنخراساني ، المعروف بفصيح الدين قاضي هراة ، في متقدم التاريخ ، قد وفد على ملك الهند فولاه مدينة لاهري وأعمالها من بلاد السند ، وحضر هذه الحركة مع عماد الملك سرتيز بمن معه من العساكر ، فعزمت على السفر معه إلى مدينة لاهري . وكان له خمسة عشر مركبا قدم بها في نهر السند تحمل أثقاله ، فسافرت .

(١) وسطه تويضا قطعته نصفين كما سبق .

ذكر السفر في نهر السند وترتيب ذلك

وكان للفقير علاء الملك في جملة مرابيه مركب يعرف (بالأهورة) وهي نوع من الطريدة عندنا . إلا أنها أوسع منها وأقصر . وعلى نصفها معرّش من خشب يصعد له على درّج ، وفوقه مجلس مهيا لجلوس الأمير . ويجلس أصحابه بين يديه . ويقف الممالك يمنة ويسرة . والرجال يقذفون . وهم نحو أربعين . ويكون مع هذه الأهورة أربعة من المراكب عن يمينها ويسارها : اثنان منها فيهما مراتب الأمير ، وهي العلامات والطبول والأبواق والأناقار والصرنايات (١) ، والآخران فيهما أهل الطرب . فتضرب الطبول والأبواق نوبة ، ويغنى المغنون نوبة ، ولا يزالون كذلك من أول النهار إلى وقت الغداء . فإذا كان وقت الغداء انضمت المراكب ووصل بعضها ببعض ، ووضعت بينهما الإصقالات (٢) وأتى أهل الطرب إلى أهورة الأمير ، فيغنون إلى أن يفرغ من أكله . ثم يأكلون . وإذا انقضى الأكل عادوا إلى مركبهم وشرعوا أيضا في المسير على ترتيبهم إلى الليل . فإذا كان الليل ضربت المحلاة على شاطئ النهر ، ونزل الأمير إلى مضاربه ، ومدّ السماط وحضر الطعام معظم العسكر . فإذا صلوا العشاء الأخيرة سمر السمار بالليل نوبات ، فإذا أتم أهل النوبة منهم نوبتهم ، نادى مناد منهم بصوت عال : يا خوند ملك (٣) ، قد مضى من الليل كذا من الساعات ، ثم يسمر أهل النوبة الأخرى . فإذا أتموها نادى منادهم أيضا معلما بما مر من الساعات . فإذا كان الصبح ضربت الأبواق والطبول ، وصليت صلاة الصبح ، وأتى بالطعام .

(١) هذا اللفظ ليس بعربي كما تقدم الكلام في الحواشي . وقد تقدم الكلام على الأناقار .

(٢) لعله يقصد خشبات تصل بين المراكب . وليس بعربي فيما نعلم .

(٣) سيد الملوك .

فإذا فرغ الأكل أخذوا في المسير . فإن أراد الأمير ركوب النهر ركب على ما ذكرناه من الترتيب . وإن أراد المسير في البر ضربت الأبطال والأبواق وتقدم حجابيه . ثم تلاهم المشاءون بين يديه . ويكون بين أيدي الحجاب ستة من الفُرسات ، عند ثلاثة منهم أبطال قد تقلدوها ، وعند ثلاثة صُرنايات ، فإذا أقبلوا على قرية أو ما هو من الأرض مرتفع ، ضربوا تلك الأبطال والصرنايات . ثم تضرب أبطال العسكر وأبواؤه . ويكون عن يمين الحجاب ويسارهم المغنون يغنون نوبات . فإذا كان وقت الغداء نزلوا .

وسافرت مع علاء الملك نحسه أيام . ووصلنا إلى موضع ولايته وهو مدينة لاهري ، مدينة حسنة على ساحل البحر الكبير . وبها يصب نهر السند في البحر ، فيلتقي بها بحران . ولها مرسى عظيم يأتي إليه أهل اليمن وأهل فارس وغيرهم . وبذلك عظمت جباياتها وكثرت أموالها . أخبرني الأمير علاء الملك المذكور أن مجي هذه المدينة ستون لكا في السنة . وقد ذكرنا مقدار الملك . وللاُمير من ذلك نصف العشر . وعلى ذلك يعطى السلطان عماله البلاد ، يأخذون منها لأنفسهم نصف العشر .

ذكر غريبة رأيها بخارج هذه المدينة

وركبت يوما مع علاء الملك ، فاتمهينا إلى بسيط من الأرض على مسافة سبعة أميال منها ، يعرف (بتارنا) ، فرأيت هناك مالا يحصره العد من الحجارة ، على مثل صور الآدميين والبهايم . وقد تغير كثير منها ودثرت أشكاله . فيبقى منه صورة رأس أو رجل أو سواهما . ومن الحجارة أيضا على صورة الجبوب من البر والحصّ والفول والعدس . وهنالك آثار سور وجدران دور . ثم رأينا

رسم دار فيها بيت من حجارة منحوتة وفي وسطه دكّانة^(١) حجارة منحوتة كأنها حجر واحد ، عليها صورة آدمي إلا أن رأسه طويل ، وفمه في جانب من وجهه ، ويداه خلف ظهره كالمكتوف. وهناك مياه شديدة التّن ، وكتابة على بعض الجدران بالهندي . وأخبرني علاء الملك أن أهل التاريخ يزعمون أن هذا الموضع كانت فيه مدينة عظيمة ، أكثر أهلها الفساد ، فسُخوا حجارة ، وأن ملكهم هو الذي على الدكّانة في الدار التي ذكرناها ، وهي إلى الآن تسمى دار الملك ، وأن الكتابة التي في بعض الحيطان هنا لك بالهندي هي تاريخ هلاك أهل تلك المدينة ، وكان ذلك منذ ألف سنة أو نحوها .

وأقت بهذه المدينة مع علاء الملك خمسة أيام ، ثم أحسن في الزاد . وانصرفت عنه إلى مدينة بَكَار . وهي مدينة حسنة يشقها خليج من نهر السند . وفي وسط ذلك الخليج زاوية حسنة فيها الطعام للوارد والصادر . عمرها كشُلُوخان أيام ولايته على بلاد السند . وسيقع ذكره . ولقيت بهذه المدينة الفقيه الإمام صدر الدين الحنفي . ولقيت بها قاضيها المسمى بأبي حنيفة . ولقيت بها الشيخ العابد الزاهد شمس الدين محمد الشيرازي . وهو من المُعَمَّرين . ذكر لي أن سنه تزيد على مائه وعشرين عاما . ثم سافرت من مدينة بَكَار . فوصلت إلى مدينة أُوجَة ، وهي مدينة كبيرة على نهر السند لها أسواق حسنة ، وعمارة جيدة . وكان الأمير بها إذ ذاك الملك الفاضل الشريف جلال الدين الكيجي . أحد الشجعان الكرماء . وبهذه المدينة توفي بعد سقطة سقطها عن فرسه .

(١) الذي في كتب اللغة التي بين أيدينا (دكان) لا دكّانة .

مكرمة لهذا الملك

ونشأت بنى وبين هذا الملك الشريف جلال الدين موّدة ، وتأكّدت
بيننا الصّحبة والمحبة ، واجتمعنا بحضرة دهلى . فلما سافر السلطان إلى دولة
أباد كما سنذكره . وأمرنى بالإقامة بالحضرة ، قال لى جلال الدين : إنك تحتاج
إلى نفقة كبيرة ، والسلطان تطول غيبته ، فخذ قريتي واستغلها حتى أعود .
ف فعلت ذلك واستغللت منها نحو خمسة آلاف دينار . جزاه الله أحسن جزائه .
ولقيت بمدينة أوجّة الشيخ العابد الزاهد الشريف قطب الدين حيدر العاوى ،
وألبنى الحرقّة . وهو من كبار الصالحين . ولم يزل الثوب الذى ألبنى به
معى إلى أن سلبنى كفار الهنود فى البحر . ثم سافرت من أوجّة إلى مدينة ملتان ،
وهى قاعدة بلاد السند ومسكن أمير أمرائه . وفى الطريق إليها على مسافة
عشرة أميال منها الوادى المعروف بـ **مُحْسَرُ** آباد ، وهو من الأودية الجبار ، لا يجاز
إلا فى المركب . وبه يبحث عن أمتعة المجتازين أشد البحث ، وتفتش رحالهم .
وكانت عادتهم فى حين وصولنا إليها أن يأخذوا الربع من كل ما يجلبه التجار ،
ويأخذوا على كل فرس سبعة دنانير مغمّرا . ثم بعد وصولنا الهند بسنتين رفع
السلطان تلك المغاريم . وأمر ألا يؤخذ من الناس إلا الزكاة والعشر لما
بايع الخليفة أبا العباس العباسى . ولما أخذنا فى إجازة هذا الوادى وفنشت
الرحال ، عظم على تفتيش رحلى ، لأنه لم يكن فيه طائل ، وكان يظهر فى أعين
الناس كبيرا ، فكانت أكره أن يُطلّع عليه . ومن لطف الله تعالى أن وصل
أحد كبار الأجناد من جهة قطب الملك صاحب ملتان ، فأمر ألا يُعرض لى
يبحث ولا تفتيش . فكان كذلك . فحمدت الله على ما هياه لى من لطائفه .

وبتنا تلك الليلة على شاطئ الوادى . وقدم علينا فى صبيحتها ملك البريد ، واسمه دِهقان ، وهو سَمَرَقَنْدِي الأصل . وهو الذى يكتب للسلطان بأخبار تلك المدينة وعمالتها ، وما يحدث بها ، ومن يصل إليها . فتعرفت به ، ودخلت فى صحبته إلى أمير ملتان .

ذكر أمير ملتان وترتيب حاله

وأمر ملتان هو قطب الملك ، من كبار الأمراء وفضلائهم . ولما دخلت عليه قام لى وصالحنى وأجاسنى إلى جانبه . وأهديت له مملوكا وفرسا وشيئا من الزبيب واللوز . وهو من أعظم ما يهدى إليهم ، لأنه ليس ببلادهم وإنما يجلب من نخراسان . وكان جلوس هذا الأمير على دكان كبير عليه البسط ، وعلى مقربة منه القاضى ، ويسمى سالار ، والخطيب ولا أذكر اسمه . وعن يمينه ويساره أمراء الأجناد وأهل السلاح وقوفاء على رأسه ، والعساكر تعرض بين يديه . وهناك قسي كثيرة . فإذا أتى من يريد أن يثبت فى العسكر راميا أعطى قوسا من تلك القسي يزرع فيها . وهى متفاوتة فى الشدة . فعلى قدر نزعها يكون مرتبه . ومن أراد أن يثبت فارسا فهناك طبلبة منصوبة فيجرى فرسه ويرميها برمح . وهناك أيضا خاتم معلق فى حائط صغير ، فيجرى فرسه حتى يحاذيه . فإن رفعه برمح فهو الجيد عندهم . ومن أراد أن يثبت راميا فارسا فهناك كرة موضوعة فى الأرض ، فيجرى فرسه ويرميها . وعلى قدر ما يظهر من الإنسان فى ذلك من الإصابة يكون مرتبه . ولما دخلنا على هذا الأمير وسلمنا عليه كما ذكرنا ، أمر بيازالتنا فى دار خارج المدينة هى لأصحاب الشيخ العابد ركن الدين الذى تقدم ذكره . وعادتهم ألا يضيفوا أحدا حتى يأتى أمر السلطان بتضييفه .

ذكر من اجتمعت به في هذه المدينة من الغرباء الوافدين على حضرة ملك الهند

فمنهم خُداوندزاده قوام الدين قاضي ترمذ . قديم بأهله وولده . ثم ورد عليه بها إخوته عماد الدين وضياء الدين وبرهان الدين . ومنهم مبارك شاه أحد كبار سمرقند . ومنهم أرُنُّ بَغَا أحد كبار بخارى . ومنهم ملك زاده ابن أخت خداوندزاده . ومنهم بدر الدين الفصّال . وكل واحد من هؤلاء معه أصحابه وخدمته وأتباعه . ولما مضى من وصولنا إلى مُلتان شهران ، وصل أحد حجاب السلطان ، وهو شمس الدين البوشنجي (١) ، والملك محمد الهروي الكُتوال (٢) . بعثهما السلطان لاستقبال خداوندزاده . وقدم معهما ثلاثة من الفتيان بعثتهم المخدمية جهّان ، وهي أم السلطان ، لاستقبال زوجة خداوند زاده . وأتوا بالخلع لهما ولأولادهما ، ولتجهيز من قديم من الوفود . وأتوا جميعا إلى وسألوني لماذا قدمت ؟ فأخبرتهم أني قدمت للإقامة في خدمة خوند (٣) عالم ، وهو السلطان . وبهذا يدعى في بلاده . وكان أمر أن لا يترك أحد من يأتي من خراسان يدخل بلاد الهند إلا إن كان برسم الإقامة . فلما أعلمتهم أني قدمت للإقامة ، استدعوا القاضي والعدول وكتبوا عقدا على وعلى من أراد الإقامة من أصحابي . وأبى بعضهم ذلك .

وتجهزنا للسفر إلى الحضرة ، وبين مُلتان وبينها مسيرة أربعين يوما ، في عمارة متصلة . وأخرج الحاجب وصاحبه الذي بعث معه ما يحتاج إليه في ضيافة قوام الدين . واستصحبوا من مُلتان نحو عشرين طبّاخا . وكان الحاجب

(١) نسبة إلى بوشنج ، بلدة بينها وبين هراة عشرة فراسخ في واد كثير الشجر والفواكه اه

ياقوت .

(٢) رئيس الشرطة ، بلسانهم .

(٣) سيد العالم بلسانهم .

يتقدم ليلًا إلى كل منزل فيجهز الطعام وسواه ، فما يصل خدًا وندزاده حتى يكون الطعام متيسرا . وينزل كل واحد من ذكراهم من الوفود على حدة بمضاربه وأصحابه ، وربما حضروا الطعام الذي يصنع لخدائوندازه . ولم أحضره أنا إلا مرة واحدة . وترتيب ذلك الطعام أنهم يجعلون الخبز ، وخبزهم الرقاق وهو شبه الجراديق ^(١) ، ويقطعون اللحم المشوى قطعًا كبارًا بحيث تكون الشاة أربع قطع أو ستا . ويجعلون أمام كل رجل قطعة . ويجعلون أقراصا مصنوعة بالسمن ، تشبه الخبز (المشرك) ببلادنا ، ويجعلون في وسطها الحلواء الصابونية ، ويغطون كل قرص منها برغيف حلواء مصنوع من الدقيق والسكر والسمن . ثم يجعلون اللحم المطبوخ بالسمن والبصل والزنجبيل الأخضر في صحاف صينية . ثم يجعلون شيئًا يسمونه سموسك ، وهو لحم مهروس مطبوخ باللوز والجوز والفستق والبصل والأبازير ، موضوع في جوف رُقاقة مقلوبة بالسمن ، يضعون أمام كل إنسان خمس قطع من ذلك أو أربعة ، ثم يجعلون الأرز المطبوخ بالسمن وعليه الدجاج ، ثم يجعلون لُقيمات القاضي ، ثم يجعلون القاهرية . ويقف الحاجب على الساط قبل الأكل ، ويحُدُّم إلى الجهة التي فيها السلطان ، ويحُدُّم جميع من حضر لخدمته . والخدمة عندهم حطَّ الرأس نحو الركوع . فإذا فعلوا ذلك جلسوا للأكل . ويؤتى بأقداح الذهب والفضة والزجاج مملوءة بماء النبات ، وهو الجُلَّاب ^(٢) محلولا في الماء ، ويسمون ذلك الشربة ، ويشربونه قبل الطعام . ثم يقول الحاجب : باسم الله . فعند ذلك يشرعون في الأكل . فإذا أكلوا أتوا بأكواز الفُقَّاع ^(٣) ، فإذا

(١) في القاموس : الجردقة بالفتح الرغيف معزب .

(٢) ماء الورد كما في القاموس .

(٣) شراب يعلوه زبد كما في القاموس .

شربوه أُنواباً للتَّنبُّول^(١) والفَوْقَل^(٢) . وقد تقدم ذكرهما ، فإذا أخذوهما قال الحاجب : باسم الله ، فيقومون ويخُدُّمون مثل خدمتهم أولاً وينصرفون . وسافرنا من مدينة مُلتان ، وهم يجرون هذا الترتيب على حسب ما سطرناه ، إلى أن وصلنا إلى بلاد الهند . وكان أول بلد دخلناه مدينة (أَبُوهر) وهي أول تلك البلاد الهندية ، صغيرة حسنة كثيرة العمارة ذات أنهار وأشجار . وليس هنالك من أشجار بلادنا شيء ما عدا النَّبَق . لكنه عندهم عظيم الجرم ، تكون الحبة منه بمقدار حبة العفص ، شديد الحلاوة . ولهم أشجار كثيرة ، ليس منها شيء ببلادنا ولا بسواها .

ذكر أشجار بلاد الهند وفواكهها

فمنها العنبة^(٣) وهي شجرة تشبه أشجار النَّارنج ، إلا أنها أعظم أجراماً وأكثر أوراقاً ، وظلها أكثر الظلال ، غير أنه ثقيل فمن نام تحته وعك . وثمرها على قدر الإحصاص الكبير . فإذا كان أخضر قبل تمام نُضجِه أخذوا ما سقط منه ، وجعلوا عليه الملح وصبروه كما يصبر اللِّيم^(٤) والليمون ببلادنا ، وكذلك يصبرون الزنجبيل الأخضر وعناقيد الفلفل . ويأكلون ذلك مع الطعام يأخذون بياض كل لقمة يسيرا من هذه المملوحات . فإذا نُضجت العنبة في أوان الخريف اصفرت حباتها فأكلوها كالتفاح . فبعضهم يقطعها بالسكين ، وبعضهم يمصها مصاً . وهي حلوة يمازج حلاوتها يسير حموضة ،

(١) هو نبات طعم ورقه كالقرنفل كما في القاموس . وقد سبق شرحه .

(٢) نبات هندي .

(٣) هي شجرة (المنجو) كما يؤخذ من الترجمة الفرنسية . ولم نجد هذه الكلمة في كتب اللغة .

وفي القاموس : والأنج كأحمد وتكسر باؤه ثمرة شجرة هندية ، معرب أُنْب ا ه .

(٤) يظهر أنه نوع من الليمون . وقال في القاموس : إن نون الليمون قد تسقط .

ولها نواة كبيرة يزرعونها فتنبت منها الأشجار ، كما تزرع نوى النارج وغيرها .
ومنها (الشَّكِي) و(الْبَرْكِي) ، وهي أشجار أوراقها كأوراق الجوز . وثمرها يخرج
من أصل الشجرة فما اتصل منه بالأرض فهو الْبَرْكِي . وحلاوته أشد
ومطعمه أطيب . وما كان فوق ذلك فهو الشَّكِي . وثمره يشبه القرع
الجبار ، وجلوده تشبه جلود البقر . فإذا اصفر في أوان الخريف قطعه
وشقوه . فيكون في داخل كل حبة المائة والمائتان فما بين ذلك من حبات
تشبه الخيار ، بين كل حبة وحبة صفاق^(١) أصفر اللون . ولكل حبة نواة
تشبه الفول الكبير . وإذا شويت تلك النواة أو طبخت يكون طعمها كطعم
الفول ، إذ ليس يوجد هنالك . ويدخرون هذه النوى في التراب الأحمر
فتبقى إلى سنة أخرى . وهذا الشَّكِي والْبَرْكِي خير فاكهة ببلاد الهند . ومنها
(التَّنْدُو) وهو ثمر شجر الأبنوس . وحباته في قدر حبات المِشْمِش ولونها . وهو
شديد الحلاوة . ومنها (الجُمُون) وأشجاره عادية^(٢) . ويشبه ثمرة الزيتون . وهو
أسود اللون وله نواة واحدة كالزيتون . ومنها النَّارَنج الحلو^(٣) وهو عندهم كثير .
وأما النارج الحامض فعزيز الوجود . ومنه صنف ثالث يكون بين الحلو
والحامض ، وثمره على قدر اللَّيم . وهو طيب جدا ، وكنت يعجبني آكله . ومنها
(المَهْوَا) ، وأشجاره عادية وأوراقه كأوراق الجوز ، إلا أن فيها حمرة وصفرة ،
وثمره مثل الإجاص الصغير ، شديد الحلاوة . وفي أعلى كل حبة منه حبة
صغيرة بمقدار حبة العنب مجوّفة . وطعمها كطعم العنب ، إلا أن الإثمار
من أكلها يحدث في الرأس صداعا . ومن العجب أن هذه الحبوب إذا
بيست في الشمس كان مطعمها كطعم التين . وكنت آكلها عوضا عن
التين ، إذ لا يوجد ببلاد الهند . وهم يسمون هذه الحبة (الأنكور) ، وتفسيره

(١) يراد به ما يشبه الجلدة .

(٢) يراد به ما يطول عمرها جدا ، نسبة إلى عاد . (٣) البرتقال .

بلسانهم العنب . والعنب بأرض الهند عزيز جدا . ولا يكون بها إلا في مواضع
بمحضرة دِهْلِي ، وبلاد أُحْر . ويثمر مرتين في السنة . ونوى هذا الثمر
يصنعون منه الزيت ويستصبحون به . ومن فواكههم فاكهة يسمونها
(كَسِيرَا) ، يحفرون عليها الأرض وهي شديدة الحلاوة تشبه القَسَطَل (١) .
وببلاد الهند من فواكه بلادنا الرمان . ويثمر مرتين في السنة ، ورأيته
ببلاد جزائر (ذبية المهل (٢)) لا ينقطع له ثمر . وهم يسمونه (أَنَار) . وأظن
ذلك هو الأصل في تسمية الجُلَنَار ، فإن جُل بالفارسية الزهر ، ونار الرمان .

ذكر الحبوب التي يزرعها أهل الهند ويقتاتون بها

وأهل الهند يزرعون مرتين في السنة . فإذا نزل المطر عندهم في أوان
القيظ زرعوا الزرع الحريفي ، وحصدوه بعد ستين يوما من زراعته . ومن
هذه الحبوب الحريفية عندهم (الكُنْدُرُو) ، وهو نوع من الدخن . وهذا الكندرو
أكثر الحبوب عندهم . ومنها (القال) . ومنها (الشاماخ) ، وهو أصغر حبا من
القال . وربما نبت هذا الشاماخ من غير زراعة ، وهو طعام الصالحين وأهل
الورع والفقراء والمساكين . يخرجون لجمع ما نبت منه من غير زراعة ،
فيمسك أحدهم قفة كبيرة يساره ، وتكون يميناه مقرعة يضرب بها الزرع .
فيسقط في القفة ، فيجمعون منه ما يقتاتون به جميع السنة . وحب هذا

(١) هو ما يسمى في مصر (أبافرة) .

(٢) جزائر مالديف .

الشاماخ صغير جدا ، وإذا جمع جعل في الشمس . ثم يدق في مهاريس الخشب . فيطير قشره ويبقى لبه أبيض . ويصنعون منه عصيدة يطبخونها بحليب الجواميس . وهي أطيب من خبزه . وكنت آكلها كثيرا ببلاد الهند وتعجني . ومنها الماش وهو نوع من الجلبان . ومنها المنج ، وهو نوع من الماش ، إلا أن حبوبه مستطيلة ولونه صافي الخضرة . ويطبخون المنج مع الأرز ويأكلونه بالسمن ، ويسمونه (كشري) ، وعليه يفطرون في كل يوم . وهو عندهم كالخيرية ببلاد المغرب . ومنها اللوبياء وهي نوع من الفول . ومنها (الموت) وهو مثل الكدرو ، إلا أن حبوبه أصغر ، وهو من علف الدواب عندهم . وتسمن الدواب بأكله . والشعير عندهم لا قوة له ، وإنما علف الدواب من هذا (الموت) أو الحمص ، يجرشونه ويبلونه بالماء ويطعمونه الدواب . ويطعمونها عوضا عن القصيل^(٢) أوراق الماش بعد أن تسقى الدابة السمن عشرة أيام ، في كل يوم مقدار ثلاثة أرطال أو أربعة . ولا تتركب في تلك الأيام . وبعد ذلك يطعمونها أوراق الماش ، كما ذكرنا ، شهرا أو نحوه .

وهذه الحبوب التي ذكرناها هي الخريفية . وإذا حصدوها بعد ستين يوما من زراعتها اذرعوا الحبوب الربيعية ، وهي القمح والشعير والحمص والعدس . وتكون زراعتها في الأرض التي كانت الحبوب الخريفية مزدرعة فيها . وبلادهم كريمة طيبة التربة . وأما الأرز فإنهم يزرعونه ثلاث مرات في السنة . وهو من أكلة الحبوب عندهم . ويزدرون السمسم وقصب السكر مع الحبوب الخريفية التي تقدم ذكرها .

(١) في القاموس : الماش حب معروف .

(٢) القصيل : ما قطع من الزرع أخضر .

(ولنعد) إلى ما كنا بسبيله فأقول : سافرنا من مدينة أبو هريرة في صحراء مسيرة يوم ، في أطرافها جبال منيعة يسكنها كفار^(١) الهنود . وربما قطعوا الطريق . وأهل بلاد الهند أكثرهم كفار ، فمنهم رعية تحت ذمة المسلمين ، يسكنون القرى ، ويكون عليهم حاكم من المسلمين ، ومنهم عصاة محاربون يمتنعون بالجبال ويقطعون الطريق .

ذكر غزوة لنا بهذا الطريق ، وهي أول غزوة شهدتها ببلاد الهند

ولما أردنا السفر من مدينة أبو هريرة ، خرج الناس منها أول النهار ، وأقمت بها إلى نصف النهار في ليلة^(٢) من أصحابي . ثم خرجنا ونحن اثنان وعشرون فارسا ، منهم عرب ومنهم أعاجم ، فخرج علينا في تلك الصحراء ثمانون رجلا من الكفار وفارسان . وكان أصحابي ذوى نَجْدَةٍ وَعُتَى ، فقاتلناهم أشد القتال ، فقتلنا أحد الفارسين منهم ، وغنمنا فرسه ، وقتلنا من رجالهم نحو اثني عشر رجلا . وأصابني نُسَابَةٌ ، وأصاب فرسي نُسَابَةٌ ثانية ، ومن الله بالسلامة منها ، لأن نُسَابَهُم لاقوة لها . وجرح لأحد أصحابنا فرس عوضناه له بفرس الكافر ، وذبحنا فرسه المحروح فأكله الترك من أصحابنا . وأوصلنا تلك الرؤوس إلى حصن أبي بَكْرٍ فعلقناها على سوره . وكان وصولنا في نصف الليل إليه . وسافرنا منه فوصلنا بعد يومين إلى مدينة أجودَهَن ، مدينة صغيرة ، هي للشيخ الصالح فريد الدين البَدَاوَنِي ، الذي أخبرني الشيخ الصالح الولي برهان الدين الأعرج بالإسكندرية أني سألقاه ، فلقيته والحمد لله . وهو شيخ

(١) يراد بذلك أنهم عبدة أوثان .

(٢) قال في اللسان : لَمَّةٌ الرجل أصحابه إذا أرادوا سفرا فأصاب من يصحبه فقد أصاب لَمَّةً . والواحد لَمَّةٌ والجمع لَمَّةٌ اه .

ملك الهند ، وأنعم عليه بهذه المدينة ، وهذا الشيخ مبتلى بالوسواس والعياذ بالله ، فلا يصاح أحدا ولا يدنو منه . وإذا لصق ثوبه بثوب أحد غسل ثوبه . دخلت زاويته ولقيته وأبلغته سلام الشيخ برهان الدين ، فعجب وقال : أنا دون ذلك . ولقيت ولديه الفاضلين معز الدين ، وهو أكبرهما ، ولما مات أبوه تولى الشيوخة بعده ، وعلم الدين . وزرت قبر جده القطب الصالح فريد الدين البدائني ، منسوباً إلى مدينة بدآون^(١) . ولما أردت الانصراف عن هذه المدينة ، قال لي علم الدين : لا بد لك من رؤية والدي فرأيت ، وهو في أعلى سطح له ، وعليه ثياب بيض وعمامة كبيرة لها ذؤابة ، وهي مائلة إلى جانب . ودعالي وبعث إلى بسكر ونبات .

ذكر أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار

ولما انصرفت عن هذا الشيخ رأيت الناس يهرعون من عسكرنا ، ومعهم بعض أصحابنا . فسألتهم ما الخبر؟ فأخبروني أن كافراً من الهند مات وأبجت النار لإحراقه ، وأمر أنه تُحرق نفسها معه . ولما احترق جاء أصحابي وأخبروا أنها عانقت الميت حتى احترقت معه . وبعد ذلك كنت في تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهند مترينة راكبة ، والناس يتبعونها من مسلم وكافر . والأطبال والأبواق بين يديها ، ومعها البراهمة وهم كبراء الهند . وإذا كان ذلك ببلاد السلطان ، استأذوا السلطان في إحراقها ، فيأذن لهم فيحرقونها . ثم انفق بعد مدة أني كنت بمدينة أكثر سكانها الكفار ، وأميرها مسلم من سامرة السند . وعلى مقربة منها الكفار العصاة . فقطعوا الطريق يوماً ، وخرج الأمير المسلم لقتالهم ، وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار . ووقع بينهم قتال شديد مات فيه من رعية الكفار سبعة . وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات . فاتفقن على إحراق أنفسهن . وإحراق المرأة بعد زوجها

(١) بفتح الباء الموحدة والذال المعجم وضم الواو وآخرها نون . ابن بطوطة .

عندهم أمر مندوب إليه غير واجب . لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها
أحرز أهل بيتها شرفا بذلك ونُسبوا إلى الوفاء ، ومن لم تحرق نفسها لبست
خِشَن الثياب ، وأقامت عند أهلها بأُتْسَة ممتَهنة لعدم وفائها ، ولكنها لا تتركه
على إحراق نفسها . ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللاتي ذكراهن على إحراق
أنفسهن ، أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب وأكل وشرب ، كأنهن
يودعن الدنيا ، وتأتي إليهن النساء من كل جهة . وفي صبيحة اليوم الرابع أُتيت
كل واحدة منهن بفرس فركبته وهي متزينة متعطرة ، وفي يمانها جوزة نارجيل
تلعب بها ، وفي يسراها مرآة تنظر فيها وجهها . والبراهمة يحفون بها ، وأقاربها
معها ، وبين يديها الأبطال والأبواق والأقار . وكل إنسان من الكفار يقول لها :
أبلغني السلام أبي أو أخي أو أمي أو صاحبي . وهي تقول نعم وتضحك لهم .
وركبت مع أصحابي لأرى كيفية صنعهن في الاحتراق ، فسرنا معهن نحو
ثلاثة أميال ، واتمينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار ، متكائف الظلال .
وبين أشجاره أربع قباب ، في كل قببة صنم من الحجارة ، وبين القباب صهريج
ماء قد تكاثفت عليه الظلال ، وتراحت الأشجار ، فلا تخللها الشمس . ولما
وصلنا إلى تلك القباب نزلنا إلى الصهريج ، وانغمسن فيه ، وجردن ما عليهن
من ثياب وحلى فتصدقن به ، وأُتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن
غير مخيط ، فربط بعضه على وسطها وبعضه على رأسها وكتفها ، والنيران
قد أضمرت على قرب من ذلك الصهريج في موضع منخفض ، وصب عليها زيت
الجلجلان^١ . ن زاد في اشتعالها . وهناك نحو خمسة عشر رجلا بأيديهم حزم
من الحطب الرقيق ، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار . وأهل الأبطال
والأبواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة ، وقد حُجبت النار بمحففة يسكها
الرجال بأيديهم ، لئلا يدهشها النظر إليها . فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك

(١) ثمر الكريمة ، وحب السمسم ، قاموس .

الملاحفة نزعتهما من أيدي الرجال بعنف ، وقالت لهم وهي تضحك : أبا لنار
تخوفوني ؟ أنا أعلم أنها نار محرقة . ثم جمعت يديها على رأسها خادمة للنار ،
ورمت بنفسها فيها . وعند ذلك ضربت الأطباء والأنتقار والأبواق ، ورمى
الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها . وجعل الآخرون تلك الخشب من
فوقها لئلا تتحرك . وارتفعت الأصوات ، وكثر الضجيج . ولما رأيت ذلك
كدت أسقط عن فرسي ، لولا أصحابي الذين تداركوني بالماء ، فغسلوا
وجهي وانصرفت . وكذلك يفعل أهل الهند أيضا في الغرق ، يُغرق كثير منهم
أنفسهم في نهر الكنك ، وهو الذي إليه يحجون ، وفيه يرمى برماد هؤلاء
المحرقين . وهم يقولون إنه من الجنة ، وإذا أتى أحدهم ليغرق نفسه يقول
لمن حضره : لا تظنوا أني أغرق نفسي لأجل شيء من أمور الدنيا أو لقلبة
مال . إنما قصدى التقرب الى كساي . وكساي امم الله عز وجل بلسانهم .
ثم يغرق نفسه ، فإذا مات أخرجوه وأحرقوه ورموا برماده في البحر المذكور .

(ولنعد) إلى كلامنا الأول فنقول : سافرنا من مدينة (أجودهن) فوصلنا
بعد مسيرة أربعة أيام منها إلى مدينة سرتسي ، مدينة كبيرة كثيرة الأرز . وأرزها
طيب . ومنها يحمل إلى حضرة دهلي . ولها مجي كثير جدا . أخبرني الحاجب
شمس الدين البوشنجي بمقداره وأنسيته . ثم سافرنا منها إلى مدينة حانسي ،
وهي من أحسن المدن وأكثرها عمارة . ولها سور عظيم ، ذكروا أن بانيه
رجل من كبار سلاطين الكفار يسمى تورة . وله عندهم حكايات وأخبار .
ومن هذه المدينة كمال الدين صدر الجهان قاضي قضاة الهند ، وأخوه قطلوخان
معلم السلطان ، وأخواهما نظام الدين وشمس الدين الذي انقطع إلى الله وجاور
بمكة حتى مات . ثم سافرنا من حانسي فوصلنا بعد يومين إلى مسعود آباد . وهي
على عشرة أميال من حضرة دهلي ، وأقمنا بها ثلاثة أيام . وحانسي (مسعود آباد)

هما للملك المعظم هو شنج ابن الملك كمال كرك . وكرك معناه الذئب ، وسيأتي ذكره . وكان سلطان الهند الذي قصدنا حضرته غائبا عنها بناحية مدينة قنوج . وبينها وبين حضرة دهلي عشرة أيام . وكانت بالحضرة والدته وتدعى المخدومة جهان . وجهان اسم الدنيا . وكان بها أيضا وزيره خواجه جهان ، المسمى بأحمد بن ياس ، الرومي الأصل . فبعث الوزير إلينا أصحابه ليتلقونا . وعين للقاء كل واحد منا من كان من صنفه ، فكان من الذين عينهم للقاء الشيخ البساطمي والشريف المازندراني ، وهو حاجب الغرباء ، والفقير علاء الدين المستاني المعروف بقترة . وكتب إلى السلطان بخبرنا . وبعث الكتاب مع الدواة ، وهي بريد الرحالة على ما ذكرناه . فوصل إلى السلطان ، وأتاه الجواب في تلك الأيام الثلاثة التي أقمتها بمسعود آباد .

وبعد تلك الأيام نخرج إلى لقائنا القضاة والفقهاء والمشايخ وبعض الأمراء . وهم يسمون الأمراء ملوكا . فحيث يقول أهل ديار مصر وغيرها : الأمير ، يقولون هم : الملك . ونخرج إلى لقائنا الشيخ ظهير الدين الزنجاني . وهو كبير المنزلة عند السلطان . ثم رحلنا من مسعود آباد فترانا بمقربه من قرية تسمى بآلم . وهي للسيد الشريف ناصر الدين مطهر الأوهري ، أحد ندماء السلطان ، ومن له عنده الحظوة التامة . وفي غد ذلك اليوم وصلنا إلى حضرة دهلي قاعدة بلاد الهند . وهي المدينة العظيمة الشأن الضخمة ، الجامعة بين الحسن والحصانة . وعليها السور الذي لا يعلم له في بلاد الدنيا نظير . وهي أعظم مدن الهند ، بل مدن الإسلام كلها بالشرق .

ذكر وصفها

ومدينة دهلي كبيرة الساحة ، كثيرة العارة . وهي الآن أربع مدن متجاورات متصلات . إحداهما المسماة بهذا الاسم دهلي ، وهي القديمة من بناء الكفار . وكان افتتاحها سنة أربع وثمانين ونجسمائة . والثانية تسمى سيرى وتسمى أيضا دار الخلافة ، وهي التي أعطاها السلطان غياث الدين حفيد الخليفة المستنصر العباسي لما قدم عليه . وبها كان سكنى السلطان علاء الدين وابنه قطب الدين ، وسند كرهما . والثالثة تسمى تغلق آباد ، باسم بانها السلطان تغلق والد سلطان الهند الذي قدمنا عليه . وكان سبب بنائه لها أنه وقف يوما بين يدي السلطان قطب الدين فقال له : يا خوند عالم ، كان ينبغي أن تبني هنا مدينة . فقال له السلطان متهمكا : إذا كنت سلطانا فابنها فكان من قدر الله أن كان سلطانا فبناها وسماها باسمه . والرابعة تسمى (جهان پناه) ، وهي مختصة بسكنى السلطان محمد شاه ملك الهند الآن ، الذي قدمنا عليه . وهو الذى بناها . وكان أراد أن يضم هذه المدن الأربع تحت سور واحد ، فبنى منه بعضا وترك بناء باقيه ، لعظم ما يلزم فى بنائه .

ذكر سور دهلي وأبوابها

والسور المحيط بمدينة دهلي ليس له نظير . وعرض حائطه إحدى عشرة ذراعا . وفيه بيوت يسكنها السَّامَرُ^(١) وحفاظ الأبواب ، وفيها مخازن للطعام ومخازن للعدد ومخازن للجانيق والرَّعَادَاتُ^(٢) . ويبقى الزرع بها مدة طائلة

(١) الذين يسهرون على حفظ السور ، تسمية اصطلاحية .

(٢) يقصد بها آلات رمى النار .

لا يتغير ولا تطرقه آفة . ولقد شاهدت الأرز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد اسود ، ولكن طعمه طيب . ورأيت أيضا الكدرو^(١) يخرج منها . وكل ذلك من اختران السلطان بلبن منذ تسعين سنة . ويمشى في داخل السور الفرسان والرجال من أول المدينة إلى آخرها . وفيه طيقان مفتحة إلى جهة المدينة يدخل منها الضوء . وأسفل هذا السور مبنى بالحجارة وأعلاه بالأجر . وأبراجه كثيرة متقاربة . ولهذه المدينة ثمانية وعشرون بابا .

ذكر جامع دهلي

وجامع دهلي كبير الساحة ، حيطانه وسقفه وفرشه كل ذلك من الحجارة البيض المنحوتة أبدع نحت ، ملصقة بالرصاص أتقن إلصاق ، ولا خشبة به أصلا . وفيه ثلاث عشرة قبة من حجارة . ومنبره أيضا من الحجر . وله أربعة من الصحون . وفي وسط الجامع العمود الهائل الذي لا يدري من أى المعادن هو . ذكر لى بعض حكمائهم أنه يسمى (هفت جوش) ومعنى ذلك سبعة معادن ، وأنه مؤلف منها . وقد جلي من هذا العمود مقدار السبابة . ولذلك المجلومنه بريق عظيم . ولا يؤثر فيه الحديد . وطوله ثلاثون ذراعا . وأدركنا به عمامة فكان الذى أحاط بدائرته منها ثمانى أذرع . وعند الباب الشرقى من أبواب المسجد صنمان كبيران جدا من النحاس ، مطروحان بالأرض قد ألصقا بالحجارة . ويطوئهما كل داخل المسجد أو خارج منه . وكان موضع هذا المسجد بدخانة ، وهو بيت الأصنام . فلما افتتحت جعل مسجدا . وفي الصحن الشمالى من المسجد الصومعة التى لا نظير لها فى بلاد الإسلام . وهى مبنية بالحجارة الحمر ، خلافا لحجارة سائر المسجد فإنها بيض . وحجارة

(١) سبق تعريفه فى ص ١٧

الصومعة منقوشة . وهى سامية الارتفاع . وحُفِّلَهَا (١) من الرخام الأبيض الناصع . وتفانحها (٢) من الذهب الخالص . وسعة ممرها بحيث تصعد فيه الفيلة . حدثنى من أثق به أنه رأى الفيل حين بنيت يصعد بالحجارة إلى أعلاها . وهى من بناء السلطان معز الدين بن ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بَلْبَن . وأراد السلطان قطب الدين أن يبنى بالصحن الغربى صومعة أعظم منها . فبنى مقدار الثلث منها وأحْتَرِمَ (٣) دون تمامها . وأراد السلطان محمد إتمامها ، ثم ترك ذلك تشاؤما . وهذه الصومعة من عجائب الدنيا فى ضخمتها وسعة ممرها ، بحيث تصعده ثلاثة من الفيلة متقارنة . وهذا الثلث المبنى منها مساو لارتفاع جميع الصومعة التى ذكرنا أنها بالصحن الشمالى . وصعدتها مرة فرأيت معظم دور المدينة ، وعابنت الأسوار على ارتفاعها وسموها منحنطة . وظهر لى الناس فى أسفلها كأنهم الصبيان الصغار . ويظهر لناظرها من أسفلها أن ارتفاعها ليس بذلك ، لعظم حُرْمِها وسعتها . وكان السلطان قطب الدين أراد أن يبنى أيضا مسجدا جامعاً (بِسِيرَى) المسماة دار الخلافة ، فلم يتم منه غير الحائط القبلى والمحراب . وبنائه بالحجارة البيض والسود والجر والخضر . ولو كل لم يكن له مثل فى البلاد . وأراد السلطان محمد إتمامه وبعث عُرَفَاءَ البناء ليقْدروا النفقة فيه ، فزعموا أنه ينفق فى إتمامه خمسة وثلاثون لكا (٤) ، فترك ذلك استكثارا له ، وأخبرنى بعض خواصه أنه لم يتركه استكثارا ، لكنه تشاءم به ، لما كان السلطان قطب الدين قد قتل قبل تمامه .

(١) المراد رأمها .

(٢) جمع تفاعحة أى ما يشبه التفاح فى الاستدارة . ولم نر هذا الجمع فى مراجعنا .

(٣) مات .

(٤) تقدم الكلام عليه فى ص ٦

ذكر الحوضين العظيمين بخارجها

وبخارج دهلي الحوض العظيم المنسوب إلى السلطان شمس الدين لاهوش .
ومنه يشرب أهل المدينة وهو بالقرب من مصلاها . وماؤه يجتمع من ماء
المطر . وطوله نحو ميلين وعرضه على النصف من طوله ، والجهة الغربية منه
من ناحية المصلّى مبنيّة بالحجارة ، مصنوعة أمثال الدكاكين ، بعضها أعلى من
بعض . وتحت كل دكان درج ينزل عليها إلى الماء ، ويجانب كل دكان
قبة حجارة فيها مجالس للنتهزين والمتفرجين . وفي وسط الحوض قبة عظيمة
من الحجارة المنقوشة ، معمولة طبقتين ، فإذا كثر الماء في الحوض لم يكن
سبيل إليها إلا في القوارب ، فإذا قل الماء دخل إليها الناس . وفي داخلها
مسجد . وفي أكثر الأوقات يقيم بها الفقراء المنقطعون إلى الله المتوكلون
عليه . وإذا جف الماء في جوانب هذا الحوض زرع فيها قصب السكر والخيار
والقثاء والبطيخ الأخضر والأصفر ، وهو شديد الحلاوة صغير الحُرْم . وفيما
بين دهلي ودار الخلافة حوض انحصّ (١) ، وهو أكبر من حوض السلطان
شمس الدين ، وعلى جوانبه نحو أربعين قبة . ويسكن حوله أهل الطرب .
وموضعهم يسمى طرب آباد . ولهم سوق هنالك من أعظم الأسواق ومسجد
جامع ومساجد سواء كثيرة . وأخبرت أن النساء المغنيات الساكنات هنالك
يصلين التراويح في شهر رمضان بتلك المساجد مجتمعات . ويؤم بهن الأئمة .
وعددهن كثير ، وكذلك الرجال المغنون . ولقد شاهدت الرجال أهل الطرب
في عرس الأمير سيف الدين غدا بن مهنا ، ولكل واحد منهم مصلى تحت
ركبته ، فإذا سمع الأذان قام فتوضأ وصلى .

(١) في الترجمة الفرنسية أن المقصود (بحوض الخاص) الحوض الملكي .

ذكر بعض مزاراتها

فمنها قبر الشيخ الصالح قطب الدين بختيار الكعكي ، وهو ظاهر البركة كثير التعظيم . وسبب تسمية هذا الشيخ بالكعكي ، أنه كان إذا أتاه الذين عليهم الديون شاكين من الفقر أو القلة ، أو الذين لهم البنات ولا يجدون ما يجهزونهن به إلى أزواجهن ، يعطى من أتاه منهم كعكة من الذهب أو من الفضة ، حتى عرف من أجل ذلك بالكعكي رحمه الله . ومنها قبر الفقيه الفاضل نور الدين الكرلائي . ومنها قبر الفقيه علاء الدين الكرمانى ، نسبة إلى كرمان . وهو ظاهر البركة ساطع النور . وبذلك الموضع قبور رجال صالحين كثير ، نفع الله تعالى بهم .

ذكر بعض علمائها وصلحاءها

فمنهم الشيخ الصالح العالم محمود الكجآ ، وهو من كبار الصالحين . والناس يزعمون أنه يتفق من الكون^(١) ، لأنه لا مال له ظاهرا . وهو يطعم الوارد والصادر ، ويعطى الذهب والدرهم والأثواب . وظهرت له كرامات كثيرة واشتهر بها . رأته مرات كثيرة وحصلت لى بركته . ومنهم الشيخ الصالح العالم علاء الدين النبلى ، كأنه منسوب إلى نيل مصر ، والله أعلم . كان من أصحاب الشيخ العالم الصالح نظام الدين البدائونى . وهو يعظ الناس فى كل يوم جمعة ، فيتوب كثير منهم بين يديه ، ويحلقون رءوسهم ، ويتواجدون^(٢) ويغشى على بعضهم .

(١) يريدون بذلك أن الله يرزقه من حيث لا يحتسب .

(٢) يظهرون الواحد . والمراد بحبة الله تعالى .

حكاية

شاهدته في بعض الأيام وهو يعظ ، فقرأ القارئ بين يديه : (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سُكَّارى وما هم بسكَّارى ، ولكن عذاب الله شديد) ، ثم كررها الفقيه علاء الدين ، فصاح أحد الفقراء من ناحية المسجد صيحة عظيمة ، فأعاد الشيخ الآية فصاح الفقير ثانية ، ووقع ميتا . وكنت فيمن صلى عليه وحضر جنازته . ومنهم الشيخ الصالح العابد صدر الدين الكُهْرَانى ، وكان يصوم الدهر ويقوم الليل . وتجرد عن الدنيا جميعا ونبذها . ولباسه عباءة . ويزوره السلطان وأهل الدولة . وربما احتجب عنهم . فرغب السلطان منه أن يُقطعه قرى يطعم منها الفقراء والواردين ، فأبى ذلك . وزاره يوما وأتى إليه بعشرة آلاف دينار فلم يقبلها . وذكروا أنه لا يفطر إلا بعد ثلاث ، وأنه قيل له في ذلك ، فقال : لا أفطرحتى أضطّر فتحل لي الميتة . ومنهم الإمام الصالح العالم العابد الورع الخاشع ، فريد دهره ووحيد عصره ، كمال الدين عبد الله الغارى ، نسبة إلى غار كان يسكنه خارج دهل ، بمقربة من زاوية الشيخ نظام الدين البَدَاوِنى . زرته بهذا الغار ثلاث مرات .

كرامة له

كان لى غلام فأبى منى . وألفيته بيد رجل من الترك ، فذهبت إلى أنتزاعه من يده ، فقال لى الشيخ : إن هذا الغلام لا يصلح لك فلا تأخذه . وكان التركى راغبا فى المصالحة ، فصالحته بمائة دينار أخذتها منه وتركته له . فلما

كان بعد ستة أشهر قَتَلَ سيده، وأُتِيَ به إلى السلطان ، فأمر بتسليمه لأولاد سيده فقتلوه . ولما شاهدت لهذا الشيخ هذه الكرامة انقطعت إليه ولازمته وتركَت الدنيا ، ووهبت جميع ما كان عندي للفقراء والمساكين ، وأقمت عنده مدة ، فكنت أراه يواصل^(١) عشرة أيام وعشرين يوما ، ويقوم أكثر الليل ، ولم أزل معه حتى بعث^(٢) عنى السلطان ، ونسبتُ في الدنيا ثانية . والله تعالى يختم بالخير . وسأذكر ذلك فيما بعد ، إن شاء الله تعالى ، وكيفية رجوعي إلى الدنيا .

ذكر فتح دهلي ومن تناولها من الملوك

حدثني الفقيه الإمام العلامة قاضي القضاة بالهند والسند كمال الدين محمد ابن البرهان الغزنوي ، الملقب بصدر الجهان : أن مدينة دهلي افتتحت من أيدي الكفار سنة أربع وثمانين وخمسمائة . وقد قرأت أنا ذلك مكتوبا على محراب الجامع الأعظم بها . وأخبرني أيضا أنها افتتحت على يد الأمير قطب الدين أيبيك ، وهو أحد ممالك السلطان المعظم شهاب الدين محمد بن سنّام الغوري ملك غزنة وخراسان ، المتغلب على ملك إبراهيم ابن السلطان الغازي محمود بن سُبُكْتِكِين الذي ابتداء فتح الهند . وكان السلطان شهاب الدين بعث الأمير قطب الدين بعسكر عظيم ، ففتح الله عليه مدينة لاهور ، وسكنها وعظم شأنه . وسُعي به إلى السلطان ، وألقى إليه جلساؤه أنه يريد الانفراد بملك الهند ، وأنه قد عصى وخالف . وبلغ هذا الخبر قطب الدين فبادر بنفسه وقدم على غزنة ليلا ، ودخل على السلطان ، ولاعلم عند الذين وشوا به إليه . فلما كان بالغد قعد السلطان على سريره وأقعد أيبيك

(١) يتابع الصوم . (٢) يريد أرسل في طلبه . وهو تعبير لتؤلف درج عليه .

وند أصلحناه في مواضع كثيرة .

تحت السرير بحيث لا يظهر . وجاء الندماء والخواص الذين سعوا به . فلما استقر بهم الجلوس سألمهم السلطان عن شأن أبيك ، فذكروا له أنه عصي وخالف . وقالوا : قد صحَّ عندنا أنه ادعى الملك لنفسه ، فضرب السلطان سريره برجله وصفق بيديه ، وقال : يا أبيك ، قال : لبيك ، وخرج عليهم ، فسقط في أيديهم ، وفزعوا إلى تقبيل الأرض . فقال لهم السلطان : قد غفرت لكم هذه الزلّة ، وإياكم والعودة إلى الكلام في أبيك . وأمره أن يعود إلى بلاد الهند ، فعاد إليها وفتح مدينة دهلي وسواها . واستقر بها الإسلام إلى هذا العهد ، وأقام قطب الدين بها إلى أن توفي .

ذكر السلطان شمس الدين لالش

وهو أول من ولي الملك بمدينة دهلي مستقلا به . وكان قبل تملكه مملوكا للأمر قطب الدين أبيك وصاحب عسكره نائبا عنه . فلما مات قطب الدين استبد بالملك وأخذ الناس بالبيعة ، فأتاه الفقهاء يقدّمهم قاضى القضاة إذ ذاك وجيه الدين الكاسانى . فدخلوا عليه وقعدوا بين يديه ، وقعد القاضى إلى جانبه على العادة ، وفهم السلطان عنهم ما أرادوا أن يكلموه فيه ، فرفع طرف البساط الذى هو قاعد عليه ، وأخرج لهم عقدا يتضمن عقده ، فقرأه القاضى والفقهاء وبايعوه جميعا . واستقل بالملك وكانت مدته عشرين سنة . وكان عادلا صالحا فاضلا . ومن مآثره أنه اشتد في رد المظالم وإنصاف المظلومين ، وأمر أن يلبس كل مظلوم ثوبا مصبوغا ، وأهل الهند جميعا يلبسون البياض . فكان متى قعد للناس أو ركب فرأى أحدا عليه ثوب مصبوغ نظر في قضيته ، وأنصفه ممن ظلمه . ثم إنه أعيى في ذلك . فقال : إن بعض الناس تجرى عليهم المظالم بالليل وأريد تعجيل إنصافهم . فجعل على

باب قصره أسدين مصورين من الرُّخام ، موضوعين على برجين هنالك .
وفي عنقيهما سلسلتان من الحديد فيهما جرس كبير . فكان المظلوم يأتي ليلا
فيحرك الجرس ، فيسمعه السلطان وينظر في أمره للحين وينصفه . ولما توفى
السلطان شمس الدين خلف من الأولاد المذكور ثلاثة ، وهم ركن الدين الوالى
بعده ، ومُعز الدين وناصر الدين ، وبناتا تسمى رَضِيَّة ، هى شقيقة معز الدين
منهم ، فتولى بعده ركن الدين كما ذكرناه .

ذكر السلطان ركن الدين ابن السلطان شمس الدين

ولما بويغ ركن الدين بعد موت أبيه ، افتتح أمره بالتعدى على أخيه
معز الدين فقتله . وكانت رضية شقيقته ، فأنكرت ذلك عليه فأراد قتلها . فلما
كان فى بعض أيام الأجمع ، نخرج ركن الدين إلى الصلاة ، فصعدت رضية على
سطح القصر القديم المجاور للجامع الأعظم ، وهو يسمى (دولة خانه) ولبست
عليها ثياب المظلومين . وتعرضت للناس وكلمتهم من أعلى السطح ، وقالت لهم :
إن أنسى قتل أخاه وهو يريد قتلى معه ، وذكرتهم بأيام أبيها ، وفعله الخير ،
وإحسانه إليهم ، فناروا عند ذلك إلى السلطان ركن الدين وهو فى المسجد ،
فقبضوا عليه وأتوا به إليها . فقالت لهم : القاتل يقتل . فقتلوه قصاصا
بأخيه . وكان أخوهما ناصر الدين صغيرا ، فاتفق الناس على تولية رضية .

ذِكْرُ السُّلْطَانَةِ رَضِيَّةَ

ولما قتل ركن الدين اجتمعت العساكر على تولية أخته رضية الملك فولوها .
واستقلت بالملك أربع سنين . وكانت تركب بالقوس والترکش^(١) والقُرْبَان^(٢) ،
كما يركب الرجال . ولا تستر وجهها . ثم إنها اتهمت بعبد لها من الحبشة .
فاتفق الناس على خلعه وتزويجها ، فخلعت وزوجت من بعض أقاربها .
وولى الملك أخوها ناصر الدين .

ذِكْرُ السُّلْطَانِ نَاصِرِ الدِّينِ ابْنِ السُّلْطَانِ

شَمْسِ الدِّينِ

ولما خلعت رضية ولى ناصر الدين أخوها الأصغر واستقل بالملك مدة .
ثم إن رضية وزوجها خالفا عليه ، وركبا في مماليكهما ومن تبعهما من أهل
الفساد ، وتبياً لقتاله . وخرج ناصر الدين ومعه مملوكه النائب عنه غياث
الدين بلبن ، متولى الملك بعده ، فوقع اللقاء وانهمزم عسكر رضية ، وفرت
بنفسها ، فأدركها الجوع وأجهدا الإعياء ، فقصدت حرّاً رأته يحرث
الأرض ، فطلبت منه ما تأكله ، فأعطاها كسرة خبز فأكلتها ، وغلب عليها
النوم ، وكانت في زي الرجال . فلما نامت نظر إليها الحرث وهي نائمة ،
فراى تحت ثيابها قبأ مرصعاً ، فعلم أنها امرأة ، فقتلها وسلبها ، وطردها

(١) كلمة هندية فيما يظهر . ومعناها كناية السهام .

(٢) من معاني (القربان) جلوس الملك الخاص . والمعنى عليه ظاهر .

فرسها ودفنها في قَدَانِه^(١) ، وأخذ بعض ثيابها فذهب إلى السوق لبيعها ،
فأنكر أهل السوق شأنه وأتوا به الشَّحْنَة وهو الحاكم ، فضربه فأقر بقتلها ،
ودلَّهم على مدفنهما فاستخرجوها وغسلوها وكفنوها ، ودفنت هنالك وبني عليها
قبة . وقبرها الآن يزار ويتبرك به . وهو على شاطئ النهر الكبير المعروف بنهر
الجُون^(٢) ، على مسافة فرسخ واحد من المدينة . واستقل ناصر الدين بالملك
بعدها ، واستقام له الأمر عشرين سنة . وكان ملكا صالحا ينسخ نُسخًا من
الكتاب العزيز ويبيعها فيقتات بثمنها . وقد وَقَفَنِي القاضي كمال الدين على
مصحف بخطه متقن محكم الكتابة . ثم إن نائبه غياث الدين بلِّبَن قتلَه وملك
بعده . ولبلبن هذا خبر ظريف نذكره .

ذكر السلطان غياث الدين بلِّبَن

ولما قتل بلبن مولاه السلطان ناصر الدين استقل بالملك بعده عشرين
سنة . وقد كان قبلها نائبًا له عشرين سنة أخرى . وكان من خيار السلاطين ،
عادلا حليما فاضلا . ومن مكارمه أنه بنى دارا وسمها دار الأمن : فمن دخلها
من أهل الديون قضى دينه ، ومن دخلها خائفا أمين ، ومن دخلها وقد قتل
أحدا أرضى عنه أولياء المقتول ، ومن دخلها من ذوى الجنايات أرضى أيضا
من يطالبه . وبتلك الدار دفن لما مات . وقد زرت قبره .

(١) يريد الأرض التي يزرعها . وهو غلط ، لأن الفدات الثور أو الثوران يقرن لحرث
بينهما ، أو هو آلة الثورين .

(٢) نهر جُنَّ .

حكاية (١)

يذكر أن أحد الفقراء يُجَارَى رأى بها بلبن هذا، وكان قصيرا حقيرا دميما . فقال له : يا تركك ، وهي لفظة تُعرب عن الاحتقار . فقال له : لبيك يا خوند (٢) ، فأعجبه كلامه . فقال له اشترى من هذا الرمان ، وأشار إلى رمان يباع بالسوق ، فقال نعم ، وأخرج فُليسات لم يكن عنده سواها ، واشترى له من ذلك الرمان . فلما أخذها الفقير قال له : وهبنا لك ملك الهند . فقبل بلبن يد نفسه ، وقال : قبلت ورضيت ، واستقر ذلك في ضميره . واتفق أن بعث السلطان شمس الدين لَمِيش تاجرا يشتري له الممالك بِسَمَرَقَنْدَ وَبُجَارَى وَتَرِمِذَ . فاشترى مائة مملوك كان من حملتهم بلبن . فلما دخل بالممالك على السلطان أعجبه جميعهم إلا بلبن ، لما ذكرناه من دمامته . فقال : لا أقبل هذا . فقال له بلبن : يا خوند عالم ، لمن اشتريت هؤلاء الممالك ؟ فضحك منه وقال : اشتريتهم لنفسى . فقال له : اشترى أنا لله عز وجل . فقال نعم وقبله . وجعله في جملة الممالك . فاحتقر شأنه وجعل في السقائين . وكان أهل المعرفة بعلم النجوم يقولون للسلطان شمس الدين : إن أحد ممالكك يأخذ الملك من يد ابنك ويستولى عليه . ولا يزالون يلقون له ذلك وهو لا يلتفت إلى أقوالهم ، لصلاحه وعدله ، إلى أن ذكروا ذلك للخاتون الكبرى أم أولاده ، فذكرت له ذلك وأثرت في نفسه . وبحث عن المنجمين ، فقال : أتعرفون المملوك الذي يأخذ ملك ابني إذا رأيتموه ؟ فقالوا له : نعم ، عندنا علامة نعرفه بها . فأمر السلطان بعرض ممالكه وجلس لذلك ، فعرضوا بين يديه طبقة طبقة ، والمنجمون ينظرون إليهم ويقولون : لم نره بعد . وحين وقت الزوال . فقال السقائون

(١) في هذه الحكاية كثير مما لا يمكن تصديقه .

(٢) يا سيدى .

بعضهم لبعض : إنا قد جمعنا فلنجمع شيئا من الدراهم ، ونبعث أحدا إلى السوق ليشتري لنا ما نأكله ، فجمعوا الدراهم وبعثوا بها بلبن ، إذ لم يكن فيهم أحقر منه . فلم يجسد بالسوق ما أرادوه . فتوجه إلى سوق أخرى وأبطأ . وجاءت نوبة السقائين في العرض ، وهو لم يأت بعد ، فأخذوا زقّه وماعونه وجعلوه على كاهل صبي ، وعرضوه على أنه بلبن . فلما نودى باسمه جاز الصبي بين أيديهم ، وانقضى العرض ، ولم ير المنجمون الصورة التي تطلبوها . وجاء بلبن بعد تمام العرض ، لما أراد الله من إنفاذ قضائه .

ثم إنه ظهرت نجابته فجعل أمير السقائين . ثم صار من جملة الأجناد ، ثم من الأمراء . ثم تزوج السلطان ناصر الدين بنته قبل أن يلي الملك . فلما ولي الملك جعله نائبا عنه مدة عشرين سنة . ثم قتله بلبن واستولى على ملكه عشرين سنة أخرى ، كما تقدم ذكر ذلك . وكان للسلطان بلبن ولدان ، أحدهما الخان الشهيد وليّ عهده ، وكان واليا لأبيه ببلاد السند ، سакنا بمدينة مُلتان ، وقتل في حرب له مع التتر . وترك ولدين هما كي قباد وكي خُسرو . وولد السلطان بلبن الثاني يسمى ناصر الدين . وكان واليا لأبيه ببلاد اللُكُنوتى وبنجالة . فلما استشهد الخان الشهيد جعل السلطان بلبن العهد إلى ولده كي خُسرو ، وعدل به عن ابن نفسه ناصر الدين . وكان لناصر الدين أيضا ولد ساكن بمحضرة دِهلى مع جده ، يسمى معز الدين . وهو الذى تولى الملك بعد جده ، فى خبر عجيب نذكره ، وأبوه إذ ذاك حى كما ذكرناه .

ذكر السلطان معز الدين بن ناصر الدين

ابن السلطان غياث الدين بلدين

ولما توفي السلطان غياث الدين ليلا ، وابنه ناصر الدين غائب بببلاد
اللكنوتى ، وجعل العهد لابن ابنه الشهيد كى خسرو ، على حسب ما قصصناه ،
كان ملك الأمراء نائب السلطان غياث الدين عدوا لى خسرو ، فأدار عليه
حيلة تمت له وهى : أنه كتب بيعة دلس فيها على خطوط الأمراء الكبار ،
بأنهم بايعوا معز الدين حفيد السلطان بلدين ، ودخل على كى خسرو كالمتنصّح
له . فقال له : إن الأمراء قد بايعوا ابن عمك وأخاف عليك منهم . فقال له
كى خسرو : فما الحيلة؟ قال : انج بنفسك هار با إلى بلاد السند . فقال : وكيف
الخروج والأبواب مسدودة؟ فقال له : إن المفاتيح بيدي وأنا أفتح لك . فشكره
على ذلك وقبل يده . فقال اركب الآن . فركب فى خاصته ومماليكه . وفتح له
الباب وأخرجه وسد فى إثره . واستأذن على معز الدين فبايعه . فقال : كيف لى
ذلك وولاية العهد لابن عمى؟ فأعلمه بما أدار عليه من الحيلة وبإخراجيه . فشكره
على ذلك . ومضى به إلى دار الملك ، وبعث إلى الأمراء والخواص فبايعوا ليلا .
فلما أصبح بايعه سائر الناس . واستقام له الملك ، وكان أبوه حيا بببلاد بنجاله
واللكنوتى فاتصل به الخبر . فقال : أنا وارث الملك ، وكيف لى ابنى الملك
ويستقل به وأنا يتميد الحياة؟ فتجهز فى جيوشه قاصدا حضرة دهلى . وتجهز ولده
فى جيوشه أيضا قاصدا لمدا فعتته عنها . فتوافيا معا بمدينة كرا ، وهى على ساحل
نهر الكنك الذى تحج الهنود إليه . فنزل ناصر الدين على شاطئه مما لى كرا ،
ونزل ولده السلطان معز الدين مما لى الجهة الأخرى . والنهر بينهما . وعزما
على القتال . ثم إن الله تعالى أراد حقن دماء المسلمين ، فألقى فى قلب

ناصر الدين الرحمة لابنه. وقال: إذا ملك ولدى فذلك شرف، وأنا أحق أن أرغب في ذلك. وألقى في قلب السلطان معز الدين الضراعة لأبيه. فركب كل واحد منهما في مركب منفردا عن جيوشه، والتقيا في وسط النهر. فقبل السلطان رجل أبيه واعتذرله. فقال له أبوه: قد وهبت لك ملكي ووليتك. وبايعه وأراد الرجوع لبلاده. فقال له ابنه: لا بد لك من الوصول إلى بلادى. فمضى معه إلى دهلي ودخل القصر، وأقعدته أبوه على سرير الملك، ووقف بين يديه. وسُمي ذلك اللقاء الذي كان بينهما بالنهر لقاء السعدين، لما كان فيه من حقن الدماء وتواهب الملك والتجاني عن المنازعة. وأكثرت الشعراء في ذلك. وعاد ناصر الدين إلى بلاده فمات بها بعد سنين، وترك بها ذرية منهم غياث الدين بهادور الذي أسره السلطان تغلق، وأطلقه ابنه مجد بعد وفاته. واستقام الملك لمعز الدين أربعة أعوام بعد ذلك. وكانت كالأعياد. رأيت بعض من أدركها يصف خيراتها ورخص أسعارها، وجود معز الدين وكرمه. وهو الذي بنى الصومعة بالصحن الشمالي من جامع دهلي. ولا نظير لها في البلاد. وحكى لي بعض أهل الهند أن معز الدين أعثرته علة أعجز الأطباء دواؤها. وييس أحد شقيه، فقام عليه نائبه جلال الدين فيروز شاه الخلجي.

ذكر السلطان جلال الدين

ولما اعتري السلطان معز الدين ما ذكرناه من يُبس أحد شقيه، خالف عليه نائبه جلال الدين، ونرج إلى ظاهر المدينة، فوقف على تل هنا لك بجانب قبة تعرف بقبة الحيشاني، فبعث معز الدين الأمراء لقتاله، فكان كل من بيعته منهم يبائع جلال الدين ويدخل في جملته. ثم دخل المدينة وحصره في القصر

ثلاثة أيام . وحدثني من شاهد ذلك أن السلطان معز الدين أصابه الجوع في تلك الأيام ، فلم يجد ما يأكله ، فبعث إليه أحد الشرفاء من جيرانه ما أقام أوده . ودخل عليه القصر فقتل . وولى بعده جلال الدين . وكان حليما فاضلا وحامه أداه إلى القتل كما سنذكره .

واستقام له الملك سنين . وبني القصر المعروف باسمه ، وهو الذي أعطاه السلطان محمد صهره الأمير غدا بن مهنا لما زوجه بأخته . وسيدكر ذلك . وكان للسلطان جلال الدين ولد اسمه ركن الدين ، وابن أخ اسمه علاء الدين ، زوجه بابنته وولاه مدينة كرا وما نكبور ونواحها . وهي من أخصب بلاد الهند ، كثيرة القمح والأرز والسكر . وتصنع بها الثياب الرفيعة ، ومنها تجلب إلى دهلي . وبينهما مسيرة ثمانية عشر يوما . وكانت زوجة دلاء الدين تؤذيه ، فلا يزال يشكوها إلى عمه السلطان جلال الدين حتى وقعت الوحشة بينهما بسببها . وكان علاء الدين شهما شجاعا مظفرا منصورا . وحب الملك ثابت في نفسه ، إلا أنه لم يكن له مال إلا ما يستفيده بسيفه من غنائم الكفار . فاتفق أنه ذهب مرة إلى الغزو ببلاد الدويقيير ، وتسمى بلاد الكتكة أيضا ، وسند كرها . وهي كرسى بلاد المألوة والمرهتة . وكان سلطانها أكبر سلاطين الكفار . فعثرت بعلاء الدين في تلك الغزوة دابة له عند حجر ، فسمع له طينا ، فأمر بالحفر هنالك فوجد تحته كتزا عظيما ، ففرقه في أصحابه . ووصل إلى الدويقيير ، فأذن له سلطانها بالطاعة ، ومكثته من المدينة من غير حرب ، وأهدى له هدايا عظيمة ، فرجع إلى مدينة كرا ، ولم يبعث إلى عمه شيئا من الغنائم . فأغرى الناس عمه به ، فبعث إليه فامتنع من الوصول إليه . فقال السلطان جلال الدين : أنا أذهب إليه وآتي به فإنه محل ولدي . فتجهز

في عساکره ، وطوى المراحل حتى حلّ بساحل مدينة كَرَآ ، حيث نزل
السلطان معز الدين لما خرج إلى لقاء أبيه ناصر الدين . وركب النهر للوصول
إلى ابن أخيه . وركب ابن أخيه أيضا في مركب ثان ، عازما على الفتك به .
وقال لأصحابه : إذا أنا عانقته فاقتلوه . فلما التقيا وسط النهر عانقه ابن أخيه ،
وقتله أصحابه كما أمرهم ، واحتوى على ملكه وعساکره .

ذكر السلطان علاء الدين محمد شاه الخَلْجِي^(١)

ولما قتل عمه استقلَّ بالملك ، وفر إليه أكثر عساکر عمه . وعاد بعضهم إلى
دِهْلِي واجتمعوا على ركن الدين ، وخرج إلى دفاعه ، فهربوا جميعا إلى
السلطان علاء الدين ، وفر ركن الدين إلى السِنْد . ودخل علاء الدين دار الملك ،
واستقام له الأمر عشرين سنة . وكان من خيار السلاطين . وأهل الهند يتنون
عليه كثيرا . وكان يتفقد أمور الرعية بنفسه ، ويسأل عن أسعارهم . ويحضر
المحتسب ، وهم يسمونه الرئيس ، في كل يوم لذلك . ويذكر أنه سأله يوما
عن سبب غلاء اللحم ، فأخبره أن ذلك لكثرة المغرم على البقر ، فأمر برفع ذلك ،
وأمر بإحضار التجار وأعطاهم الأموال ، وقال لهم : اشترؤا بها البقر والغنم
وبيعوها ، ويرتفع ثمنها لبيت المال ، ويكون لكم أجرة على بيعها . ففعلوا ذلك .
وفعل مثل هذا في الأثواب التي يؤتى بها من دولة آباد . وكان إذا غلا ثمن
الزرع فتح المخازن وباع الزرع حتى يرخص السعر . ويذكر أن السعر ارتفع
ذات مرة فأمر ببيع الزرع بثمان عينه . فامتنع الناس من بيعه بذلك الثمن ، فأمر
ألا يبيع أحد زراعا غير زرع المخزن^(٢) . وباع للناس ستة أشهر نخاف المحتكرون
فساد زرعهم بالسوس ، فرغبوا في أن يؤذن لهم في البيع ، فأذن لهم على أن يبيعوه
بأقل من القيمة الأولى التي امتنعوا من بيعه بها .

(١) نسبة إلى خَلْج ، موضع قرب غَزَنَه ا ه يا قوت .

(٢) بيت مال الدولة . وقد استعمل المؤلف هذه الكلمة كثيرا للدلالة على هذا المعنى .

وكان لا يركب لجمعة ولا لعيد ولا سواهما . وسبب ذلك أنه كان له ابن أخ يسمى سليمان شاه . وكان يحبه ويعظمه . فركب يوما إلى الصيد وهو معه ، وأضمر في نفسه أن يفعل به ما فعل هو بعمه جلال الدين من الفتك . فلما نزل للغداء رماه بنشابة فصرعه ، وغطاه بعض عبيده بترس ، وأتى ابن أخيه ليجهز عليه ، فقال له العبيد إنه قد مات فصديقهم . وركب فدخل القصر على الحرّم . وأفاق السلطان علاء الدين من غشّيته . وركب واجتمعت العساكر عليه . وفر ابن أخيه فأدرك وأتى به إليه فقتله . وكان بعد ذلك لا يركب . وكان له من الأولاد خضر خان وشادي خان وأبو بكر خان ومبارك خان ، وهو قطب الدين الذي وليّ الملك ، وشهاب الدين . وكان قطب الدين مهتصما عنده ناقص الحظ قليل الحظوة . وأعطى جميع إخوته المراتب وهي الأعلام والأطبال ، ولم يعطه شيئا . وقال له يوما : لا بد أن أعطيك مثل ما أعطيت إخوتك ، فقال له : الله هو الذي يعطيني . فهال أباه هذا الكلام وفزع منه . ثم إن السلطان أصابه المرض الذي مات منه . وكانت زوجته أم ولده خضر خان ، وتسمى ماه حق (والماء القمر بلسانهم) ، لها أخ يسمى سنجر . فعاهدت أخاها على تمليك ولدها خضر خان . وعلم بذلك (ملك نائب) أكبر أمراء السلطان . وكان يسمى الألفي . لأن السلطان اشتراه بألف تنكة ، وهي ألفان وخمسمائة من دنانير المغرب . فوشى إلى السلطان بما اتفقوا عليه فقال لخواصه : إذا دخل على سنجر فإني معطيه ثوبا ، فإذا لبسه فأمسكوا بأكماله واضربوا به الأرض واذبجوه . فلما دخل عليه فعلوا ذلك وقتلوه . وكان خضر خان غائبا بموضع يقال له سَنَدَبَت ، على مسيرة يوم من دهلي ، وقد توجه لزيارة شهداء مدفونين لندرك أن يمشی تلك المسافة راجلا ، ويدعو لوالده بالراحة . فلما بلغه أن أباه قتل خاله ، حزن عليه حزنا شديدا ومزق جيبه . وتلك عادة لأهل الهند ، يفعلونها إذا مات لهم من

يعز عليهم . فبلغ والده ما فعله ، فكره ذلك . فلما دخل عليه عنفه ولامه ، وأمر به فقيدت يداه ورجلاه ، وسلمه (ملك نائب) وأمره أن يذهب به إلى حصن كاليور ، وهو حصن منقطع بين كفار الهنود منبع ، على مسيرة عشر من دهلي . وقد سكتته أنامدة . فلما أوصله إلى هذا الحصن سلمه للكُتَّال ، وهو أمير الحصن ، وللقردين وهم الزماميون^(١) . وقال لهم : لا تقولوا هذا ابن السلطان فتكرموه . إنما هو أعدى عدوله . فاحفظوه كما يحفظ العدو . ثم إن المرض اشتد بالسلطان . فقال (ملك نائب) : ابعث من يأتي بابني خضر خان لأوليه العهد . فقال له نعم ، وماطله بذلك ، فتمى سألَه عنه ، قال هو ذا يصل ، إلى أن توفي السلطان رحمه الله .

ذكر ابنه شهاب الدين

ولما توفي السلطان علاء الدين أقعد (ملك نائب) ابنه الأصغر شهاب الدين على سرير الملك ، وبايعه الناس . وتغلب (ملك نائب) عليه ، وسَمَّلَ أعين أبي بكر خان وشادى خان ، وبعث بهما إلى كاليور ، وأمر بِسَمَلِ عيني أخيهما خضر خان المسجون هنالك ، وسجنوا . وسجن قطب الدين لكنه لم تُسَمَلِ عيناه . وكان للسلطان علاء الدين مملوكان من خواصه ، يسمى أحدهما بشير والآخر بمبشر ، فبعثت إليهما الخاتون الكبرى زوجة علاء الدين ، وهى بنت السلطان معز الدين ، فذكرتهما بنعمة مولاها ، وقالت : إن هذا الفتى (نائب ملك) قد فعل فى أولادى ما تعلمانه ، وإنه يريد أن يقتل قطب الدين ، فقالا لها : سَتَرَيْنَ ما نفعل . وكانت عادتهما أن يبيتا عند (ملك نائب) ويدخلا عليه بالسلاح . فدخل عليه تلك الليلة وهو فى بيت من

(١) الجند المقيدة اسمائهم فى جرائد الجيش : وهى سمية اصطلاحية فيما يظهر .

الخشب ، ينام فيه أيام المطر فوق سطح القصر . ناتفق أنه أخذ السيف من يد أحدهما فقلبه وردده إليه ، فضربه به المملوك وثبَّ عليه صاحبه ، واحترأ رأسه ، وأتيا به إلى مجلس قطب الدين ، فرمياه بين يديه ، وأخرجاه فدخل على أخيه شهاب الدين ، وأقام بين يديه أياما كأنه نائب له . ثم عزم على خلع نخله .

ذكر السلطان قطب الدين ابن السلطان

علاء الدين

وخلع قطب الدين أخاه شهاب الدين وقطع إصبعه ، وبعث به إلى كاليور فحبس مع إخوته ، واستقام الملك لقطب الدين . ثم إنه بعد ذلك نرح من حضرة دهلي إلى دولة أباد ، وهي على مسيرة أربعين يوما منها . والطريق بينهما تكئفه الأشجار من الصَّفْصَاف وسواه . فكان الماشي به في بستان . وفي كل ميل منه ثلاث (داوات) وهي البريد . وقد ذكرنا ترتيبه . وفي كل (داوة) جمع ما يحتاج المسافر إليه . فكانه يمشي في سوق مسيرة الأربعين يوما . وكذلك يتصل الطريق إلى بلاد التِّلِينك والمعبر مسيرة ستة أشهر . وفي كل منزلة قصر للسلطان وزاوية للوارد والصادر . فلا يفتقر الفقير إلى حمل زاد في ذلك الطريق . ولما خرج السلطان قطب الدين في هذه الحركة ، اتفق بعض الأمراء على الخلاف عليه ، وتولية ولد أخيه خضر خان المسجون ، وسنه نحو عشرة أعوام ، وكان مع السلطان ، فبلغ السلطان ذلك ، فأخذ ابن أخيه هذا وأمسك برجليه وضرب برأسه الحجارة حتى نثر دماغه . وبعث أحد الأمراء ويسمى (ملك شاه) إلى كاليور حيث أبو هذا الولد وأعمامه ، وأمره بقتلهم جميعا . فخذثنى القاضي

زين الدين مبارك قاضي هذا الحصن ، قال : قدم علينا ملك شاه خُخوة يوم ،
وكنت عند خضر خان بمجيسه ، فلما سمع بقدمه خاف وتغير لونه . ودخل
عليه الأمير . فقال له : فيم جئت ؟ قال : في حاجة خَوْنَد عَالَم . فقال له : نفسى
سالمة ؟ فقال نعم . ونحرج عنه واستحضر الكُتُوَال وهو صاحب الحصن ،
والمفردين وهم الزماميون ، وكانوا ثلاثمائة رجل ، وأرسل إلى وإلى العدول ،
واستظهر بأمر السلطان فقرءوه ، وأتوا إلى شهاب الدين المخلوع فضربوا
عنقه ، وهو مثبت غير جَرَع . ثم ضربوا عنق أبي بكر خان وشادى خان . ولما
أتوا ليضربوا عنق خضر خان فزِع وَذَهَل . وكانت أمه معه فسدوا الباب
دونها وقتلوه . وسحبوهم جميعا فى حفرة بدون تكفين ولا غسل . وأُخْرِجُوا بعد
سنتين فدفنوا بمقابر آبائهم . وعاشت أم خضر خان مدة . ورأيتها بمكة سنة
ثمان وعشرين . وحصن كَالِيُور هذا فى رأس شاهق كَأَنه منحوت من الصخر
لا يخاضه جبل . وبداخله جِباب الماء ، ونحو عشرين بئرا عليها الأسوار ،
مضافة إلى الحصن منصوبا عليها المجانيق والرَّعَادَات . ويُصْعَد إلى الحصن
فى طريق متسعة يصعدها الفيل والفرس . وعند باب الحصن صورة فيل
منحوت من الحجر وعليه صورة فَيْال . وإذا رآه الانسان على البعد لم يشك
أنه فيل حقيقة . وفى أسفل الحصن مدينة حسنة مبنية كلها بالحجارة البيض
المنحوتة ، مساجدها ودورها ، ولا خشب فيها ما عدا الأبواب . وكذلك دار
الملك بها ، والقِباب والمجالس . وأكثر سُوقها كِفَار . وفيها ستمائة فارس من
جيش السلطان ، لا يزالون فى جهاد لأنها بين الكفار .

ولما قتل قطب الدين أخوته واستقل بالملك ، فلم يبق من ينازعه ولا من

يخالف عليه ، بعث الله تعالى عليه خاصته الحظي لديه ، أكبر أمرائه
وأعظمهم منزلة عنده ، ناصر الدين خسرو خان ، ففتك به وقتله واستقل
بملكه ، إلا أن مدته لم تطل في الملك . فبعث الله عليه أيضا من قتله بعد
خلعه ، وهو السلطان تغلق ، كما نشرح ذلك كله مستوفى ، إن شاء الله
تعالى ، إثر هذا ونسطره .

ذكر السلطان خسرو خان ناصر الدين

وكان خسرو خان من أكبر أمراء قطب الدين . وهو شجاع حسن الصورة .
وكان فتح بلاد جنديري وبلاد المعبر . وهي من أخصب بلاد الهند ، وبينها
وبين دهلي مسيرة ستة أشهر . وكان قطب الدين يحبه حبا شديدا ويؤثره ،
بغير ذلك حتفه على يديه . وكان لقطب الدين معلم يسمى قاضي خان صدر
الجهان ، وهو أكبر أمرائه ، وركايت دار ، وهو صاحب مفاتيح القصر .
وعادته أن يبيت كل ليلة على باب السلطان ومعه أهل النوبة . وهم ألف رجل ،
يبتون مناوبة بين أربع ليال ، ويكونون صفين فيما بين أبواب القصر . وسلاح
كل واحد منهم بين يديه ، فلا يدخل أحد إلا فيما بين سباطيمهم . وإذا تم الليل
أتى أهل نوبة النهار . ولأهل النوبة أمراء وكتاب يتطوفون عليهم ويكتبون
من غاب منهم أو حضر .

وكان معلم السلطان قاضي خان يكره أفعال خسرو خان ، ويسوءه ما يراه
من إيثاره لكفار الهندوميله إليهم . وأصله منهم . ولا يزال يلقي ذلك إلى
السلطان فلا يسمع منه ، ويقول له : دعه وما يريد ، لما أراد الله من
قتله على يديه . فلما كان في بعض الأيام قال خسرو خان للسلطان :
إن جماعة من الهندود يريدون أن يسلموا . ومن عادتهم بتلك البلاد أن

الهندي إذا أراد الإسلام أدخِل إلى السلطان ، فيكسوه كُسوة حسنة ،
ويعطيه قلادة وأساور من ذهب على قدره . فقال له السلطان : ائبني
بهم ، فقال : إنهم يستحيون أن يدخلوا إليك نهارا لأجل أقرابائهم وأهل
ملتهم . فقال له ائبني بهم ليلا . بجمع خُسرو خان جماعة من شجعان الهنود
وكبرائهم ، فيهم أخوه خان خانان ، وذلك أوان الحر ، والسلطان ينام
فوق سطح القصر ، ولا يكون عنده في ذلك الوقت إلا بعض الفتيان .
فلما دخلوا الأبواب الأربعة وهم شاؤون في السلاح ، ووصلوا إلى الباب
الخامس وعليه قاضي خان ، أنكر شأنهم وأحس الشر ، فمنعهم من
الدخول ، وقال : لا بد أن أسمع من خوند عالم بنفسى الإذن في دخولهم ،
وحيثئذ يدخلون . فلما منعهم من الدخول هجموا عليه فقتلوه ، وعلت
الضجة بالباب . فقال السلطان : ما هذا ؟ فقال خسرو خان : هم الهنود
الذين أتوا ليُسَلِّموا فمنعهم قاضي خان من الدخول . وزاد الضجيج ، فخاف
السلطان ، وقام يريد الدخول إلى القصر ، وكان بابه مسدودا والفتيان
عنده ، فقرع الباب ، واحتضنه خُسرو خان من خلفه ، وكان السلطان
أقوى منه فصرعه . ودخل الهنود فقال لهم خسرو خان : هو ذا فوق
فاقتلوه . فقتلوه وقطعوا رأسه ورموا به من سطح القصر إلى صحته . وأرسل
خسرو خان من حينه إلى الأمراء والملوك وهم لا يعلمون بما اتفق . فكلما
أدخلت طائفة وجدوه على سرير الملك فبايعوه . ولما أصبح أعلن أمره ،
وكتب المراسم وهي الأوامر إلى جميع البلاد ، وبعث لكل أمير خِلة ،
فأطاعوه جميعا وأذعنوا ، إلا تغلق شاه والد السلطان محمد شاه ، وكان
إذ ذاك أميرا بدبال بور من بلاد السند ، فلما وصلت خِلة خسرو خان
طرحها بالأرض وجلس فوقها ، وبعث إليه أخاه خان خانان فهزمه . ثم
آل أمره إلى أن قتله ، كما سنشرحه في أخبار تغلق .

ولما ملك خسرو خان آثر الهنود ، وأظهر أمورا منكرة ، منها النهي عن ذبح البقر على قاعدة كفار الهنود ، فإنهم لا يجيزون ذبحها . وجزء من ذبحها عندهم أن يخاط في جلدها ويحرق . وهم يعظمون البقر ويشربون أبوالها للبركة ولاستشفاء إذا مرضوا . ويلطخون بيوتهم وحيطانهم بأرواشها . وكان ذلك مما بغض خسرو خان إلى المسلمين وأماهم عنه إلى تغلق ، فلم تطل مدة ولايته ، ولا امتدت أيام ملكه ، كما سنذكره .

ذكر السلطان غياث الدين تغلق شاه

حدثني الشيخ الإمام الصالح العالم العامل العابد ، ركن الدين ابن الشيخ الصالح شمس الدين أبي عبد الله ، ابن الولي الإمام العالم العابد بهاء الدين زكريا القرشي الملتاني بزوايته منها ، أن السلطان تغلق كان من الأتراك المعروفين بالقرونة ، وهم قاطنون بالجبال التي بين بلاد السند والترك . وكان ضعيف الحال فقدم بلاد السند في خدمة بعض التجار ، وكان كلوا نياله ، والكُوانِي هو راعي الخيل^(١) . وذلك في أيام السلطان علاء الدين ، وأمير السند إذ ذاك أخوه أولوخان . فقدمه تغلق وتعلق بجانبه ، فربته في (البيادة) وهم الرجالة . ثم ظهرت نجابته فأثبت في الفرسان . ثم كان من الأمراء الصغار . وجعله أولوخان أمير خيله . ثم كان بعد من الأمراء الجبار . وسمى بالملك الغازي . ورأيت مكتوبا على مقصورة الجامع بملتان ، وهو الذي أمر بعملها : إني قاتلت الترتسعا وعشرين مرة فهزمتهم ، فحينئذ سميت بالملك الغازي .

ولما ولي قطب الدين ولّاه مدينة (دِبال بُوْر) وعمالتها ، وجعل ولده الذي هو الآن سلطان الهند أمير خيله . وكان يسمى جَوْنَة . ولما ملك تسمى بمحمد شاه . ثم لما قتل قطب الدين وولي خسرو خان أبقاه على إمارة الخيل .

(١) أي بلسانهم .

فلما أراد تغلق الخلاف ، كان له ثلثمائة من أصحابه الذين يعتمد عليهم في القتال . وكتب إلى كشلوخان وهو يومئذ بمثلان ، وبينها وبين (دبال بور) ثلاثة أيام ، يطلب منه القيام بنصرتة ، ويذكره نعمة قطب الدين ، ويحرضه على طلب ثأره . وكان ولد كشلوخان بدھلي ، فكتب إلى تغلق : إنه لو كان ولدي عندي لأعتك على ما تريد . فكتب تغلق إلى ولده مجد شاه يعلمه بما عزم عليه ، ويأمره أن يفر إليه ويستصحب معه ولد كشلوخان . فأدار ولده الحيلة على خسروخان وتمت له كما أراد . فقال له : إن الخليل قد سميت وبدنت ، وهي تحتاج إلى التضمير ، فأذن له في تضميرها . فكان يركب كل يوم في أصحابه فيسير بها الساعة والساعتين والثلاث . واستمر إلى أربع ساعات ، إلى أن غاب يوما إلى وقت الزوال ، وذلك وقت طعامهم . فأمر السلطان بالركوب في طلبه فلم يجد له خبرا . ولحق بأبيه واستصحب معه ولد كشلوخان . وحينئذ أظهر تغلق الخلاف وجمع العساكر ، وخرج معه كشلوخان في أصحابه . وبعث السلطان أخاه خانان لقتالها ، فهزماه شرهزيمة ، وفر عسكره إليهما . ورجع خانان إلى أخيه ، وقتل أصحابه وأخذت خزائنه وأمواله .

وقصد تغلق حضرة دهلي ، وخرج إليه خسروخان في عساكره ، ونزل بخارج دهلي ، بموضع يعرف بأصيا آباد ، ومعنى ذلك : رحي الريح . وأمر بالخزائن ففتحت وأعطى الأموال بالبدل لابوزن ولا عد . ووقع اللقاء بينه وبين تغلق ، وقاتلت الهنود أشد قتال ، وانهمزت عساكر تغلق ، ونهبت محلاته ، وانفرد في أصحابه الأقدمين الثلثمائة . فقال لهم : إلى أين الفرار ، حيثما أدركنا قتلنا ؟ واشتغلت عساكر خسروخان بالنهب ، وتفرقوا عنه ولم يبق معه إلا قليل . فقصد تغلق وأصحابه موقفه (١) ، فحجم القتال بينهم وبين الهنود ، وانهمز أصحاب السلطان ولم يبق معه أحد . وهرب فترل عن

(١) أي موقف خسروخان .

فرسه ، ورمى بئابه وسلاحه ، وبقى في قميص واحد . وأرسل شعره بين كفيه كما يفعل فقراء الهند . ودخل بستانا هنالك . واجتمع الناس على تعلق وقصد المدينة ، فأناه الكُتُوَال بالمفاتيح ، ودخل القصر ونزل بناحية منه ، وقال لكشُوخان : أنت تكون السلطان . فقال كشُوخان : بل أنت تكون السلطان . وتازعا فقال له كشُوخان : فإن أبيت أن تكون سلطانا يتولَّ ولدك . فكره هذا وقيل حينئذ . وقعد على سرير الملك وبايعه الخاص والعام . ولما كان بعد ثلاث اشدد الجوع بِحُسْرُوخان ، وهو مختف بالبهستان . فخرج وطاف به ، فوجد القيم فسأله طعاما ، فلم يكن عنده ، فأعطاه خاتمه وقال : اذهب فارهنه في طعام . فلما ذهب بالخاتم إلى السوق ، أنكر الناس أمره ، ورفعوه إلى الشحنة وهو الحاكم ، فأدخله على السلطان تعلق فأعلمه بمن دفع إليه الخاتم ، فبعث ولده محمدا ليأتي به ، فقبض عليه وأناه به راكبا على (تتو) ، وهو البردُون . فلما مثل بين يديه ، قال له : إني جائع فأنتي بالطعام ، فأمره بالشربة^(١) ثم بالطعام ثم بالفُقَاع ثم بالتَّابُول . فلما أكل قام قائما ، وقال : ياتعلق افعل معي فعل الملوك ولا تفضحنى . فقال له : لك ذلك . وأمر به فضربت رقبتة . وذلك في الموضع الذي قتل هو به قُطَبَ الدين ، ورمى برأسه وجسده من أعلى السطح ، كما فعل هو برأس قطب الدين . وبعد ذلك أمر بغسله وتكفينه . ودفن في مقبرته . واستقام الملك لتعلق أربعة أعوام ، وكان عادلا فاضلا .

ذكر ما رامه ولده من القيام عليه فلم يتم له ذلك

ولما استقر تعلق بدار الملك بعث ولده ليفتح بلاد التلنك ، وهي على مسيرة ثلاثة أشهر من مدينة دهلي . وبعث معه عسكريا عظيما فيه كبار الأمراء : مثل الملك تَمُور ومثل الملك تيكين ومثل الملك كافور المهردار ومثل الملك بيرم

(١) شراب حلوكا يفهم مما تقدم .

وسواهم . فلما بلغ أرض التِّلْنِكْ أراد المخالفة . وكان له نديم من الفقهاء الشعراء ، يعرف بِعَبِيدٍ ، فأمره أن يلقي إلى الناس أن السلطان تغلق توفي . وظنه أن الناس يبائعونه مسرعين إذا سمعوا ذلك . فلما ألقى ذلك إلى الناس أنكروه الأُمراء ، وضرب كل واحد منهم طَبْلَه وخالف . فلم يبق معه من أحد . وأرادوا قتله ، فثمنهم منه ملك تمور وقام دونه . ففر إلى أبيه في عشرة من الفرسان سماهم (ياران موافق) ، ومعناه الأصحاب الموافقون . فأعطاه أبوه الأموال والعساكر وأمره بالعود إلى تِلْنِكْ فعاد إليها . وعلم أبوه بما كان أراد ، فقتل الفقيه عبيدا ، وأمر بالملك كافور المهردار فضرب له عمود في الأرض محدود الطرف ، وركب في عنقه حتى خرج من جنبه طرفه ، ورأسه إلى أسفل . وترك على تلك الحال . وفر من بقي من الأُمراء إلى السلطان شمس الدين ابن السلطان ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن ، واستقروا عنده .

ذكر مسير تَغْلُقْ إلى بلاد اللَّكْنَوْتِي

وما اتصل بذلك إلى وفاته

وأقام الأُمراء الهاربون عند السلطان شمس الدين . ثم إن شمس الدين توفي ، وعهد لولده شهاب الدين بجلس مجلس أبيه . ثم غلب عليه أخوه الأصغر غياث الدين بهادُور بُورَة ، ومعناه بالهندية الأسود . واستولى على الملك ، وقتل أخاه قُطْلُوخان وسائر إخوته . وفر شهاب الدين وناصر الدين منهم إلى تغلق ، فتجهز معهما بنفسه لقتال أخيهما ، وخلف ولده محمدا نائبا عنه في ملكه ، وأجد السير إلى بلاد اللَّكْنَوْتِي فتغلب عليها . وأسر سلطانها غياث الدين بهادُور ، وقدم به أسيرا إلى حضرته . وكان بمدينة دهلي الولي نظام الدين البَدَاوَنِي . ولا يزال محمد شاه ابن السلطان يتردد إليه ويعظم

خدومه ويسأله الدعاء. وكان يأخذ الشيخَ حال تغلب عليه. فقال ابن السلطان لخدومه : إذا كان الشيخ في حاله التي تغلب عليه فأعلموني بذلك . فلما أخذته الحال أعلموه فدخل عليه ، فلما رآه الشيخ قال : وهبتلك الملك . ثم توفي الشيخ في أيام غيبة السلطان ، فحمل ابنه محمد نعشه على كاهله ، فبلغ ذلك أباه فأنكره وتوعده ، وكان قد رابته منه أمور . ونَقَمَ منه استنكاره من شراء الممالك وإجزاله العطايا واستجلابه قلوب الناس ، فزاد حنقه عليه . وبلغه أن المنجمين زعموا أنه لا يدخل مدينة دَهْلِي بعد سفره ذلك . ولما عاد من سفره وقرب من الحضرة ، أمر ولده أن يبني له قصرا ، وهم يسمونه الكَشْكُ ، على واد هنالك يسمى أفغان بور . فبناه في ثلاثة أيام ، وجعل أكثر بنائه بالخشب ، مرتفعا على الأرض قائما على سوارى خشب . وأحكمه بهندسة تولى النظر فيها الملك زاده المعروف بعد ذلك بنواجه جهان ، واسمه أحمد بن إياس ، كبير وزراء السلطان محمد ، وكانت الحكمة التي اخترعوها فيه أنه متى وطئت القبلة جهة منه وقع ذلك القصر وسقط . ونزل السلطان بالقصر وأطعم الناس وتفرقوا . واستأذنه ولده في أن يعرض القبلة بين يديه وهي مزينة ، فأذن له . وحدثني الشيخ ركن الدين أنه كان يومئذ مع السلطان ومعهما ولد السلطان المؤثر لده محمود . بغاء محمد ابن السلطان فقال للشيخ : يا خوند ، هذا وقت العصر ، انزل فصل . قال لي الشيخ : فنزلت . وأتى بالأفيال من جهة واحدة على ما دبروه . فلما وطئتها سقط الكشك على السلطان وولده محمود . قال الشيخ : فسمعت الضجة فعدت ولم أصل ، فوجدت الكشك قد سقط . فأمر ابنه أن يؤتى بالفئوس والمساحي (١) للحفر عنه . وأشار بالإبطاء ، فلم يؤت بهما إلا وقد غربت الشمس . فحفروا ووجدوا السلطان قد حنى ظهره على ولده ليقيه الموت . فزعم بعضهم أنه

(١) السحاة المجرقة .

أخرج ميتا، وزعم بعضهم أنه أخرج حيا، فأجهز عليه، وحمل ليلا إلى مقبرته التي: أها بخارج البلدة المسماة باسمه، تُغلق أبادا، فدفن بها. وقد ذكرنا السبب في بنائه لهذه المدينة. وبها كانت خزائن تغلق وقصوره. وبها التقصر الأعظم الذي جعل قراميده مذهبية، فإذا طلعت الشمس كان لها نور عظيم وبصيص، يمنع البصر من إدامة النظر إليها. واختزن بها الأموال الكثيرة. (١) ويذكر أنه بنى صهريجا وأفرغ فيه الذهب إفرانا، فكان قطعة واحدة. فصرف جميع ذلك ولده محمد شاه لما ولي. وبسبب ما ذكرناه من هذسة الوزير خواجه جهان في بناء الكشك الذي سقط على تغلق، كانت حطوته عند ولده محمد شاه وإيثاره لديه، فلم يكن أحد يدانيه في المنزلة لديه، ولا يبلغ مرتبته عنده من الوزراء ولا غيرهم.

ذكر السلطان أبي المجاهد محمد شاه ابن السلطان غياث الدين تغلق شاه ملك الهند والسند الذي قدمنا عليه

ولما مات السلطان تغلق استولى ابنه محمد على الملك من غير منازع له، ولا مخالف عليه، وقد قدمنا أنه كان اسمه جونة. فلما ملك تسمى بمحمد. واكتفى بأبي المجاهد. وكل ما ذكرت من شأن سلاطين الهند فهو مما أخبرت به وتلقيته أو معظمه من الشيخ كمال الدين بن البرهان الغزنوي قاضي القضاة. وأما أخبار هذا الملك فمعظمها مما شاهدته أيام كوني ببلاد

(١) برينق

ذكر وصفه

وهذا الملك أحب الناس لإسداء العطايا وإراقة الدماء ، فلا يخلو يابه عن فقير يُعنى ، أوحى يقتل . وقد شهرت في الناس حكاياته في الكرم والشجاعة ، وحكاياته في الفتك والبطش بذوى الجنائيات . وهو أشد الناس مع ذلك تواضعا ، وأكثرهم إظهارا للعدل والحق . وشعائر الدين عنده محفوظة . وله اشتداد في أمر الصلاة والعقوبة على تركها . وهو من الملوك الذين أطردت سعادتهم ، ونحرق المعتاد يُمن نقيبتهم . ولكن الأغلب عليه الكرم . وسنذكر من أخباره عجائب لم يسمع بمثلها عن تقدمه . وأنا أشهد بالله وملائكته ورسله أن جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق يقين ، وكفى بالله شهيدا . واعلم أن بعض مآثره من ذلك لا يسعه عقل كثير من الناس ، ويعتونه من قبيل المستحيل عادة . ولكنه شيء عاينته وعرفت صحته ، وأخذت بحظ وافر منه ، ولا يسعني إلا قول الحق فيه . وأكثر ذلك ثابت بالتواتر في بلاد المشرق .

ذكر أبوابه ومشوره وترتيب ذلك^(١)

ودار السلطان بدهلي تسمى دار سراً ، ولها أبواب كثيرة . فأما الباب الأول فعليه جملة من الرجال موكلون به . ويقعد به أهل الأنقار والأبواق والصرنايات . فإذا جاء أمير أو كبير ضربوها ، ويقولون في ضربهم : جاء فلان ، جاء فلان . وكذلك أيضا في البابين الثاني والثالث . وبخارج الباب الأول دكاكين يقعد عليها الجلادون ، وهم الذين يقتلون الناس : فإن العادة عندهم أنه

(١) سبق أن قلنا في حواشي الجزء الأول : إن هذه الكلمة يراد بها غالبا مجلس السلطان للاستقبال . وهي غير عربية في هذا المعنى .

متى أمر السلطان بقتل أحد قتل على باب (المشور). ويبقى هنالك ثلاثا. وبين
البابين الأول والثاني دهليز كبير فيه دكاكين مبنية من جهتيه ، ويقعد عليها
أهل التوبة من حفاظ الأبواب . وأما الباب الثاني فيقعد عليه البوابون
الموكلون به . وبينه وبين الباب الثالث دكان كبير يقعد عليه نقيب النقباء ،
وبين يديه عمود ذهب يمسكه بيده. وعلى رأسه كلاة^(١) من الذهب مجوهره ،
في أعلاها ريش الطواويس . والنقباء بين يديه وعلى رأس كل واحد منهم
شاشية^(٢) مذهبة. وفي وسطه منطقة ، وبيده سوط نصابه من ذهب أو فضة.
ويقضى هذا الباب الثاني إلى (مشور) كبير متسع يقعد به الناس . وأما الباب
الثالث فعليه دكاكين يقعد فيها كتاب الباب . ومن عاداتهم ألا يدخل
هذا الباب أحد إلا من عينه السلطان لذلك . ويعين لكل إنسان عددا
من أصحابه وناسه يدخلون معه . وكل من يأتي إلى هذا الباب يكتب الكتاب
أنت فلانا جاء في الساعة الأولى أو الثانية أو ما بعدهما من الساعات إلى آخر
النهار . ويطلع السلطان بذلك بعد العشاء الآخرة . ويكتبون أيضا كل
ما يحدث بالباب من الأمور . وقد عين من أبناء الملوك من يوصل كل
ما يكتبونه إلى السلطان . ومن عاداتهم أيضا أنه من غاب عن دار السلطان
ثلاثة أيام فصاعدا لعذر أو لغير عذر لا يدخل هذا الباب بعدها إلا بإذن
من السلطان . فإن كان له عذر من مرض أو غيره قَدَّم بين يديه هدية مما
يليق إهداؤه إلى السلطان . وكذلك أيضا القادمون من الأسفار : فالفقيه
يهدي المصحف والكتاب ، وشبه الفقير يهدي المصلي والسُّبحة والمسواك

(١) ضرب من القلائس عندهم . والكلمة غير عربية .

(٢) غطاء للرأس من نسيج رقيق وهو ما يسمى بالشاش عندنا الآن .

ونحوها ، والأمراء ، ومن أشبههم يهدون الخيل والجمال والسلاح . وهذا الباب الثالث يُقضى إلى (المشور) الهائل الفسيح الساحة المسمى هَزارُ أسطون ، ومعنى ذلك ألف سارية ، وهى سوار من خشب مدهونة ، عليها سُقْف خشب منقوشة أبدع نقش ، يجلس الناس تحتها . وبهذا (المشور) يجلس السلطان الجلوس العام .

ذكر ترتيب جلوسه للناس

وأكثر جلوسه بعد العصر ، ووربما جلس أول النهار . وجلوسه على مصطبة منروشة بالبياض ، فوقها مرتبة . ويجعل خلف ظهره مخدة كبيرة وعن يمينه متكأ ، وعن يساره مثل ذلك . وقعوده بجلوس الإنسان للتشهد فى الصلاة ، وهو جلوس أهل الهند كلهم . فإذا جلس وقف أمامه الوزير ، ووقف الكتاب خلف الوزير ، وخلفهم الحجاب . وكبير الحجاب هو (فيروز ملك) ابن عم السلطان ونائبه . وهو أدنى الحجاب إلى السلطان . ثم يتلوه (خاص حاجب) ، ثم يتلوه نائب (خاص حاجب) ، ووكيل الدار ونائبه ، وشرف الحجاب ، وسيد الحجاب ، وجماعة تحت أيديهم . ثم يتلو الحجاب النقباء وهم نحو مائة . وعند جلوس السلطان ينادى الحجاب والنقباء بأعلى أصواتهم : باسم الله . ثم يقف على رأس السلطان الملك الكبير (قبولة) . ويده المذبة يُسَرِّد بها الذباب . ويقف مائة من السحدارية^(١) عن يمين السلطان ، ومثلهم عن يساره ، بأيديهم الدرق والسيوف والقسي . ويقف فى الميمنة والميسرة بطول (المشور) قاضى القضاة ، ويليهِ خطيب الخطباء ، ثم سائر القضاة ، ثم كبار الفقهاء ، ثم كبار الشرفاء المشايخ ، ثم إخوة السلطان وأصحابه ، ثم الأمراء الكبار ، ثم كبار الأعزة وهم الغرباء ،

(١) جنود شاكرون فى السلاح ، بلسانهم .

ثم القواد . ثم يؤتى بستين فرسا مسرجة ملجمة بجهّازات سلطانية . فمنها ماهو
بشعار الخلافة ، وهى التى لجسّمها ودوائرها من الحرير الأسود المذهب ،
ومنها ما يكون ذلك فيها من الحرير الأبيض المذهب . ولا يركب بذلك غير
السلطان . فيوقف النصف من هذه الخيل عن اليمين ، والنصف عن
الشمال ، بحيث يراها السلطان . ثم يؤتى بخمسين فيلا مزينة بثياب الحرير
والذهب ، مكسوة أنيابها بالحديد ، إعدادا لقتل أهل الجرائم ، وعلى
عنق كل فيل فيآله ، وبيده شبه الطبرزين^(١) من الحديد ، يؤدبه به ،
ويُقومه لما يراد منه . وعلى ظهر كل فيل شبه الصندوق العظيم ، يسع
عشرين من المقاتلة ، وأكثر من ذلك ودونه ، على حسب ضخامة الفيل
وعظم حرمه . ويكون فى أركان ذلك الصندوق أربعة أعلام مركوزة .
وتلك الفيالة معلّمة أن تخدم للسلطان وتُحط رءوسها . فإذا خدمت قال
الحجاب : باسم الله ، بأصوات عالية . ويوقف أيضا نصفها عن اليمين
ونصفها عن الشمال ، خلف الرجال الواقفين . وكل من يأتى من الناس
المعينين للوقوف فى الميمنة أو الميسرة يخدم عند موقف الحجاب . ويقول
الحجاب : باسم الله . ويكون ارتفاع أصواتهم بقدر ارتفاع صوت الذى
يخدم . فإذا خدم انصرف إلى موقفه من الميمنة أو الميسرة لا يتعداه أبدا .
ومن كان من كفار الهنود يخدم ، ويقول له الحجاب والنقباء : هداك الله .
ويقف عبيد السلطان من وراء الناس كلهم ، بأيديهم الترسة والسيوف ،
فلا يمكن أحدا الدخول بينهم إلا بين يدي الحجاب القائم بين يدي السلطان .

(١) آلة كالساور . غير عربية .

ذكر دخول الغرباء وأصحاب الهدايا عليه

وإن كان بالباب أحد من قَدِمَ على السلطان بهدية ، دخل الحجاب على السلطان على ترتيبهم ، يقدّمهم (أمير حاجب) ونائبه خلفه ، ثم (خاص حاجب) ونائبه خلفه ، ثم وكيل الدار ونائبه خلفه ، ثم سيد الحجاب وشرف الحجاب ، ويخُدُّمون في ثلاثة مواضع . ويُعلِّمون السلطان بمن في الباب . فإذا أمرهم أن يأتوا به ، جعلوا الهدية التي ساقها بأيدي الرجال يقومون بها أمام الناس ، بحيث يراها السلطان . ويُستدعى صاحبها ، فيخدم قبل الوصول إلى السلطان ثلاث مرات ، ثم يخدم عند موقف الحجاب . فإن كان رجلا كبيرا أوقف في صف أمير حاجب ، وإلا وقف خلفه . ويخاطبه السلطان بنفسه أطف خطاب ، ويرحب به . وإن كان ممن يستحق التعظيم فإنه يصاحفه أو يعانقه ، ويطلب بعض هديته فتحضرين يديه . فإن كانت من السلاح أو الثياب قلبها بيده ، وأظهر استحسانها ، جبرا ناطر مهديا وإيناسا له ورفقا به ، وخلع عليه وأمر له بمال لغسل رأسه ^(١) ، على عادتهم في ذلك ، بمقدار ما يستحقه المهدي

ذكر دخول هدايا عماله عليه

وإذا أتى العال بالهدايا والأموال المجتمعة من مجابي البلاد ، صنعوا الأواني من الذهب والفضة مثل الطسوت والأباريق وسواها ، وصنعوا من الذهب والفضة قطعا شبه الآجر ، يسمونها الخشت . ويقف الفراشوان وهم عبيد السلطان صفا والهدية بأيديهم . كل واحد منهم ممسك قطعة . ثم يقدم القبيلة إن كان في الهدية شيء منها ، ثم الخيل المسرجة الملجمة ، ثم البغال ،

(١) غسل الرأس هنا غير مراد . والمراد التكريم .

ثم الجمال وعليها الأموال . ولقد رأيت الوزير خواجه جهان قَدَمَ هديته ذات يوم ، حين قَدِمَ السلطان من دولة آباد ، ولقيه بها في ظاهر مدينة بيّانة . فأدخلت الهدية إليه على هذا الترتيب . ورأيت في جملتها صينية مملوءة بأحجار الياقوت ، وصينية مملوءة بأحجار الزمرد ، وصينية مملوءة باللؤلؤ الفاخر . وكان (حاجي كاؤن) ابن عم السلطان أبي سعيد ملك العراق حاضرا عنده حين ذلك ، فأعطاه حظا منها . وسنذكر ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ذكر خروجه للعيدين وما يتصل بذلك

وإذا كانت ليلة العيد بعث السلطان إلى الملوك والحواص ، وأرباب الدولة والأعيّزة ، والكتّاب والمجّاب والنقباء والقواد والعييد وأهل الأخبار ، الخلع التي تعميمهم جميعا . فإذا كانت صبيحة العيد زينت الفيلة كلها بالحرير والجواهر . ويكون منها ستة عشر فيلا لا يركبها أحد ، وإنما هي مختصة بركوب السلطان . ويرفع عليها ستة عشر شطرا^(١) من الحرير مرصعة بالجواهر ، قائمة كل شطر منها ذهب خالص . وعلى كل فيل مرتبة حرير مرصعة بالجواهر . ويركب السلطان فيلا منها . وترفع أمامه الغاشية وهي ستارة سرجه ، وتكون مرصعة بأنفس الجواهر . ويمشي بين يديه عبيده ومماليكه . وكل واحد منهم تكون على رأسه شاشية ذهب . وعلى وسطه منطقة ذهب . وبعضهم يرصعها بالجواهر . ويمشي بين يديه أيضا النقباء وهم نحو ثلثمائة . وعلى رأس كل واحد منهم أقرووف^(٢) ذهب ، وعلى وسطه منطقة ذهب ، وفي يده مقرعة نصابها ذهب . ويركب قاضي القضاة صدر الجهان كمال الدين الغزنوي ،

(١) يراد به المنظلة بلسانهم . وشطر معرب (جَتر) بالفارسية .

(٢) لم نجد هذا اللفظ فيما بين أيدينا من كتب اللغة . والمراد به فلنسوة طويلة . كما سبق

التنبه على ذلك في الحواشي .

وقاضى القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمي ، وسائر القضاة و كبار الأعيان من الخراسانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة ، كل واحد منهم على فيل . وجميع الغرباء عندهم يسمون الخراسانيين . ويركب المؤذنون أيضا على القبلة وهم يكبرون .

ويخرج السلطان من باب القصر على هذا الترتيب ، والعساكر تنتظره ، كل أمير بموجه على حدة ، ومعه طبوله وأعلامه . فيقدم السلطان ، وأمامه من ذكرناه من المشاة ، وأمامهم القضاة والمؤذنون يذكرون الله تعالى . وخلف السلطان مراتبه : وهي الأعلام والطبول والأبواق (والأنقار) (والصرنايات) . وخلفهم جميع أهل دُخْلته^(١) . ثم يتلوهم أخو السلطان مبارك خان بمراتبه وعساكره . ثم يليه ابن أخ السلطان بهرام خان بمراتبه وعساكره . ثم يليه ابن عمه (الملك فيروز) بمراتبه وعساكره . ثم يليه الوزير بمراتبه وعساكره . ثم يليه الملك مجير بن (ذى الرجا) بمراتبه وعساكره . ثم يليه الملك الكبير قبولة بمراتبه وعساكره . وهذا الملك كبير القدر عنده عظيم الجاه كثير المال . أخبرني صاحب ديوانه ثقة الملك علاء الدين على المصرى ، المعروف بابن الشرايشى ، أن نفقته ونفقة عبيده ومراتبهم ستة وثلاثون لكا^(٢) في السنة . ثم يليه الملك نكبية بمراتبه وعساكره . ثم يليه الملك بقرة بمراتبه وعساكره . ثم يليه الملك مُحْلِص بمراتبه وعساكره . ثم يليه الملك قطب المُلك بمراتبه وعساكره . وهؤلاء هم الأمراء السجاريين الذين لا يفارقون السلطان ، وهم الذين يركبون معه يوم العيد بالمراتب . ويركب غيرهم من الأمراء دون مراتبهم . وجميع من يركب في ذلك اليوم يكون مُدْرِعًا هو وفرسه . وأكثرهم مماليك السلطان . فإذا وصل السلطان إلى باب المصلى وقف على بابيه ، وأمر بدخول القضاة

(١) بطانته (٢) تقدم الكلام على مقداره في ص ٦

وكبار الأمراء وكبار الأعيان . ثم نزل السلطان . ويصلى الإمام ويخطب . فإن كان عيد الأضحى أتى السلطان بجمل فنحره برمح يسمونه التيزة ، بعد أن يجعل على ثيابه فوطاة حرير توقيا من الدم . ثم يركب الفيل ويعود إلى قصره .

ذكر جلوس يوم العيد ، وذكر السرير الأعظم والمبخرة العظمى

ويفرش القصر يوم العيد ويزين بأبدع الزينة ، وتضرب الباركة^(١) على (المشور) كله ، وهي شبه خيمة عظيمة تقوم على أعمدة ضخام كثيرة . وتحف بها القباب من كل ناحية . ويصنع شبه أشجار من حرير ملون فيها شبه الأزهار . ويجعل منها ثلاثة صفوف (المشور) . ويجعل بين كل شجرتين كرسي ذهب عليه مرتبة مغطاة . وينصب السرير الأعظم في صدر (المشور) ، وهو من الذهب الخالص ، كله مرصع القوائم بالجواهر . وطوله ثلاثة وعشرون شبرا ، وعرضه نحو النصف من ذلك . وهو منفصل وتجمع قطعه فتتصل . وكل قطعة منها يحملها جملة رجال لثقل الذهب . وتجعل فوقه المرتبة . ويرفع (الشطر) المرصع بالجواهر على رأس السلطان . وعند ما يصعد على السرير ينادى الجباب والنقباء بأصوات عالية : باسم الله . ثم يتقدم الناس للسلام . فأولهم القضاة والخطباء والعلماء والشرفاء والمشايخ ، وإخوة السلطان وأقاربه وأصحابه ، ثم الأعيان ، ثم الوزير ، ثم أمراء العساكر ، ثم شيوخ المالِك ، ثم كبار الأجناد ، يسلم واحد ، إثر واحد ، من غير تراحم ولا تدافع . ومن عاداتهم في يوم العيد أن كل من بيده قرية^{مهد} ممنع بها عليه يأتي

(١) هذه التسمية لا نعرفها في العربية .

بدنانير ذهب مصرورة في خرقة مكتوب عليها اسمه ، فيلقيها في طست ذهب هنالك . فيجتمع منها مال عظيم يعطيه السلطان مَنْ شاء . فإذا فرغ الناس من السلام ، وضع لهم الطعام على حسب مراتبهم . وتنصب في ذلك اليوم المبخرة العظمى ، وهي شبه برج من خالص الذهب منفصلة ، فإذا أرادوا اتصالها وصلوها . وتحمل القطعة الواحدة منها جملة من الرجال ، وفي داخلها ثلاثة بيوت ، يدخل فيها المبخرون يوقدون العود القمّارى^(١) والقاقلي^(٢) والعنبر الأشهب والجاوى ، حتى يعم دخانها (المشور) كله . ويكون بأيدي الفتيان براميل^(٣) الذهب والفضة مملوءة بماء الورد وماء الزهر ، يصبونه على الناس صبا . وهذا السرير وهذه المبخرة لا يخرجان إلا في العيدين خاصة . ويجلس السلطان في بقية أيام العيد على سرير ذهب دون ذلك . وتنصب (باركة) بعيدة لها ثلاثة أبواب يجلس السلطان في داخلها ، ويقف على الباب الأول منها عماد الملك سرتيز ، وعلى الباب الثانى الملك نُكَيْيَّة ، وعلى الباب الثالث يوسف بُغرة ، ويقف على اليمين أمراء المماليك السلحدارية ، وعن اليسار كذلك . ويقف الناس على مراتبهم . وشحنة^(٤) الباركة (الملك طغا) ، ويده عصا ذهب ، ويده نائبه عصا فضة ، يرتبان الناس ويسويان الصفوف . ويقف الوزير والكاتب خلفه ، ويقف الحجاب والنقباة . ثم يأتى أهل الطرب . فأولهم بنات الملوك الكفار من الهنود المسسيّيات في تلك السنة ، فيغنين ويرقصن . ويهبن السلطان للأمرء والأعزّة . ثم يأتى بعدهن سائر بنات الكفار فيغنين ويرقصن . ويهبن لإخوانه وأقاربه وأصهاره وأبناء الملوك . ويكون جلوس السلطان لذلك

(١) نسبة إلى قمار بلد بالهند — ويقول باقوت إن صحة الاسم قامرون لاقمار .

(٢) القاقلة : ثم نبات هندي من العطار ، كما في القاموس . انظر ص ٢٤٦

(٣) قال في شرح القاموس : البرميل بالكسر وعاء من خشب يتخذ للخمر ، جمعه براميل .

(٤) المراد به هنا القائم على حراسة الباركة .

بعد العصر . ثم يجلس في اليوم الذي بعده بعد العصر أيضا على ذلك الترتيب . ويؤتى بالمغنيات فيغنين ويرقصن ، ويهينن لأمرء الممالك . وفي اليوم الثالث يزوج أقاربه وينعم عليهم . وفي اليوم الرابع يعتق العبيد . وفي اليوم الخامس يعتق الجوارى . وفي اليوم السادس يزوج العبيد بالجوارى . وفي اليوم السابع يعطى الصدقات ويكثر منها .

ذكر ترتيبه إذا قدم من سفره

وإذا قدم السلطان من أسفاره زينت الفيلة ، ورفعت على ستة عشر فيلا منها ستة عشر (شطرا) ، منها مزركش^(١) ومنها مرصع ، وحملت أمامه الغاشية وهي الستارة المرصعة بالجواهر النفيس . وتصنع قباب الخشب مقسومة على طبقات ، وتكسى بثياب الحرير ، ويكون في كل طبقة الجوارى المغنيات ، عليهن أجمل لباس وأحسن حاية . ومنهن رواقص . ويجعل في وسط كل قبة حوض كبير مصنوع من الجلود ، مملوء بماء الجلاب محلولا بالماء ، يشرب منه جميع الناس من وارد وصادر وبلدى أو غريب . وكل من يشرب منه يعطى التائبول والقوفل . ويكون ما بين القباب مفروشا بثياب الحرير ، يطؤه مركب السلطان . وتزين حيطان الشارع الذي يمر به من باب المدينة إلى باب القصر بثياب الحرير . ويمشى أمامه المشاة من عبيده وهم آلاف . وتكون الأفواج والعساكر خلفه . ورأيته في بعض قدماته على الحضرة ، وقد نصبت ثلاث أو أربع من الرعادات الصغار على الفيلة ، ترمى بالدنانير والدرهم على الناس ، فيلتقطونها من حين دخوله إلى المدينة حتى يصل إلى قصره .

(١) المزركش الحرير المنسوج بالذهب ، لأنه مركب من (زر) أى ذهب ، ومن (كش) ومعناها ذو . ولم نثر عليها في المعجمات المتداولة .

ذكر ترتيب الطعام الخاص

والطعام بدار السلطان على صنفين : الطعام الخاص والطعام العام . فأما الخاص فهو طعام السلطان الذى يأكل منه . وعادته أن يأكل فى مجلسه مع الحاضرين . ويحضر لذلك الأمراء الخواص و (أمير حاجب) ابن عم السلطان ، وعماد الملك سرتيز ، و (أمير مجلس) . ومن شاء السلطان تشریفه أو تكريمه من الأعيان أو كبار الأمراء دعاه فأكل معه . وربما أراد أيضا تشریف أحد من الحاضرين فأخذ إحدى الصحف بيده وجعل عليها خبزة ، وأعطاه إياها ، فإخذها المعطى ويجعلها على كفه اليسرى ، ويخدم بيده اليمنى إلى الأرض . وربما بعث من ذلك الطعام إلى من هو غائب عن المجلس ، فيخدم كما يصنع الحاضر ، ويأكله مع من حضره . وقد حضرت مرات هذا الطعام الخاص ، فرأيت جملة الذين يحضرون له نحو عشرين رجلا .

ذكر ترتيب الطعام العام

وأما الطعام العام فيؤتى به من المطبخ ، وأمامه النقباء يصيحون : باسم الله ، ونقيب النقباء أمامهم بيده عمود ذهب ، ونائبه معه بيده عمود فضة . فإذا دخلوا من الباب الرابع وسمع من (بالمشور) أصواتهم ، قاموا قياما جميعا . ولا يبقى أحد قاعد إلا السلطان وحده . فإذا وضع الطعام بالأرض اصطفت النقباء صفا ، ووقف أميرهم أمامهم ، وتكلم بكلام يمدح فيه السلطان ويثنى عليه ، ثم يخدم ويخدم النقباء لخدمته ، ويخدم جميع من (بالمشور) من كبير وصغير . وعادتهم أنه من سمع كلام نقيب النقباء حين ذلك وقف إن كان

ماشيا ، ولزم موقفه إن كان واقفا . ولا يتحرك أحد ولا يتحرك عن مقامه حتى يفرغ ذلك الكلام . ثم يتكلم أيضا نائبه كلاما نحو ذلك ، ويخدم ويخدم النقباء وجميع الناس مرة ثانية . وحينئذ يجلسون . ويكتب كتاب الباب معرّفين بحضور الطعام ، وإن كان السلطان قد علم بحضوره . ويحمل المكتوب صبيّ من أبناء الملوك موكل بذلك ، فيأتي به إلى السلطان . فإذا قرأه عين من شاء من كبار الأمراء لترتيب الناس وإطعامهم .

وطعامهم الرقاق والشواء والأقراص ذات الجوانب المملوءة بالحلواء والأرز والدجاج والسمك . وقد ذكرنا ذلك وفسرنا ترتيبهم . وعادتهم أن يكون في صدر سباط الطعام القضاة والخطباء والفقهاء والشرفاء والمشايخ ، ثم أقارب السلطان ، ثم الأمراء الكبار ، ثم سائر الناس . ولا يقعد أحد إلا في موضع معين له ، فلا يكون بينهم تراحم البتة . فإذا جلسوا أتى (الشربدارية) ، وهم السقاة وأيديهم أواني الذهب والفضة والنحاس والزجاج ، مملوءة بالنبات المحلول بالماء ، فيشربون ذلك قبل الطعام . فإذا شربوا قال الحجاب : باسم الله . ثم يشروعون في الأكل ، ويجعل أمام كل إنسان من جميع ما يحتوي عليه السباط ، يأكل منه وحده . ولا يأكل أحد مع أحد في صحفة واحدة . فإذا فرغوا من الأكل أتوا بالفقّاع في أكواز القصيدير . فإذا أخذوه ، قال الحجاب : باسم الله . ثم يؤتى بأطباق التائبول والفوفل فيعطى كل إنسان غرّة من الفوفل المهشوم ، وخمس عشرة ورقة من التائبول ، مجموعة مربوطة بنخيط حرير أحمر . فإذا أخذ الناس التائبول قال الحجاب : باسم الله ، فيقومون جميعا . ويخدم الأمير المعين للإطعام ، ويخدمون لخدمته ، ثم ينصرفون . وطعامهم مرتان في اليوم ، إحداهما قبل الظهر ، والأخرى بعد العصر .

ذكر بعض أخباره في الجود والكرم

وإنما أذكر منها ما حضرته وشاهدته وعايته . ويعلم الله تعالى صدق ما أقول . وكفى به شهيدا ، مع أن الذي أحكيه مستفيض متواتر ، والبلاد التي تقرب من أرض الهند كإيمن وخراسان وفارس ، مملوءة بأخباره ، يعلمونها حقيقة ، ولا سيما جوده على الغرباء ، فإنه يفضلهم على أهل الهند ، ويؤثرهم ويجزل لهم الاحسان ، ويُسبغ عليهم الإنعام ، ويؤايمهم الخِطط الرفيعة ، ويؤايمهم المواهب العظيمة . ومن إحسانه إليهم أن سماهم الأعززة ، ومنع من أن يدعوا الغرباء . وقال : إن الإنسان إذا دعى غريبا انكسر خاطره وتغيرت حاله . وسأذكر بعضا مما لا يحصى من عطاياها الجزيلة ومواهبه ، إن شاء الله تعالى .

ذكر عطائه لشيخ الشيوخ ركن الدين

وكان السلطان قد بعث هدية إلى الخليفة بديار مصر أبي العباس ، وطلب منه أن يبعث له أمر التقدمة ^(١) على بلاد الهند والسند اعتقادا منه في الخلافة . فبعث إليه الخليفة أبو العباس ما طلبه ، مع شيخ الشيوخ بديار مصر ركن الدين . فلما قدم عليه بالغ في إكرامه وأعطاه عطاء جزلا . وكان يقوم له متى دخل عليه ويعظمه ، ثم صرفه وأعطاه أموالا طائلة . وفيما أعطاه جملة من صنماخ الخيل ومساميرها ، كل ذلك من الذهب الخالص . وقال له : إذا نزلت من البحر فأنعل أفراسك بها . فتوجه إلى كنباية ليركب البحر منها إلى بلاد إيمن ، فوَقعت قضية خروج القاضي جلال الدين وأخذ

(١) يظهر أنه يريد أمر الولاية عليها — وليس هذا من معاني كلمة التقدمة .

مال ابن الكَوَلِيِّ. فأخذ أيضا ما كان لشيخ الشيوخ. وفر بنفسه مع ابن الكولمي إلى السلطان. فلما رآه السلطان قال له : اجمع خاطرِكَ (١) فهأنا سائر إلى المخالفين ، وأعطيك أضعاف ما أخذوه . وبلغني بعد الانفصال عن بلاد الهند أنه وَفَى له بما وعده ، وأخلف له جميع ما ضاع منه ، وأنه وصل بذلك إلى ديار مصر .

ذكر عطائه للواعظ الترمذى ناصر الدين

وكان هذا الفقيه الواعظ قدم على السلطان ، وأقام تحت إحسانه مدة عام ، ثم أحب الرجوع إلى وطنه فأذن له في ذلك . ولم يكن سمع كلامه ووعظه . فلما خرج السلطان يقصد بلاد المعبر ، أحب سماعه قبل انصرافه ، فأمر أن يهيا له منبر من الصنْدَل الأبيض ، وجعلت مساميره وصفائحه من الذهب ، وألصق بأعلاه حجر ياقوتٍ عظيم ، وخلع على ناصر الدين خِلاعة عباسية سوداء ، مذهبة من صعة بالجواهر ، وعمامة مثلها . ونصب له المنبر بداخل السراجة (٢) . وقعد السلطان على سيره ، والخواص عن يمينه ويساره . وأخذ القضاة والفقهاء والأمراء مجالسهم . فخطب خطبة بليغة ووعظ وذكر . فلما نزل عن المنبر قام السلطان إليه وعانقه وأركبه على فيل . وأمر جميع من حضر أن يمشوا بين يديه ، وكنت في جملة من ، إلى سراجة ضربت له مقابلة سراجة السلطان ، جميعها

(١) يظهر أنه يريد : هَوَّن الأمر على نفسك .

(٢) شئ يشبه الفسطاط فيما يظهر . ولكن السراجة بهذا المعنى غير عربية فيما نعلم .

من الحرير الملون، وصيوانها^(١) من الحرير، وخبأؤها أيضا كذلك . بفلس
وجلسنا معه . وكان بجانب من السراجة أواني الذهب التي أعطاها السلطان
إياها : وذلك تنور كبير بحيث يسع في جوفه الرجل القاعد، وقدران اثنتان ،
وصحاف لا أذكر عددها، وجملة أكواز، وركوة^(٢) ، ومائدة لها أربع أرجل ،
ومجمل للكتب . كل ذلك من ذهب خالص . ورفع عماد الدين السمناني^(٣)
وتدين من أوتاد السراجة ، أحدهما نحاس والآخر مقصدر ، يوهم بذلك
أنهما من ذهب وفضة . ولم يكونا إلا كما ذكرنا . وقد كان أعطاه حين
قدومه مائة ألف دينار دراهم ، ومئتين من العبيد ، سرح بعضهم وحمل
بعضهم .

ذكر عطائه لعبد العزيز الأردوي^و

وكان عبد العزيز هذا فقيها محدثا ، قرأ بدمشق على تقي الدين بن تيمية ،
وبرهان الدين بن البرج ، وجمال الدين المزي ، وشمس الدين الذهبي وغيرهم .
ثم قدم على السلطان فأحسن إليه وأكرمه . واتفق يوما أنه سرد عليه
أحاديث في فضل العباس وابنه رضى الله عنهما ، وشيئا من مآثر الخلفاء
أولادهما ، فأعجب ذلك السلطان لحبه لبني العباس ، وقبّل قدمي الفقيه ،
وأمر أن يؤتى بصينية ذهب فيها ألفاتنكة^(٤) ، فصحبها عليه بيده وقال :
هي لك مع الصينية . وقد ذكرنا هذه الحكاية فيما تقدم .

(١) لم نجد هذه الكلمة فيما بين أيدينا من كتب اللغة .

(٢) وعاء لاء .

(٣) نسبة إلى سمنان ، بلدة بين الري ودامغان ه ياقوت .

(٤) راجع قيمة التنكة في ص ٤١

ذكر عطائه لشمس الدين الأندكاني^(١)

وكان الفقيه شمس الدين الأندكاني حكيما شاعرا مطبوعا . فمدح السلطان بقصيدة باللسان الفارسي ، عدد أبياتها سبعة وعشرون بيتا ، فأعطاه لكل بيت منها ألف دينار دراهم . وهذا أعظم مما يحكى عن المتقدمين الذين كانوا يعطون على بيت شعر ألف درهم ، وهو عشر عطاء السلطان .

ذكر عطائه لعضد الدين الشونكاري

وكان عضد الدين فقيها إماما فاضلا كبير القدر ، عظيم الصيت شهير الذكر ببلاده . فبلغت السلطان أخباره وسمع بمآثره ، فبعث إليه إلى بلده شونكارة عشرة آلاف دينار دراهم . ولم يره قط ولا وفد عليه .

ذكر عطائه للقاضي مجد الدين

ولما بلغه أيضا خبر القاضي العالم الصالح ذي الكرامة الشهيرة ، مجد الدين قاضي شيراز ، الذي سطرنا أخباره في السفر الأول ، وسير بعض خبره بعد هذا أيضا ، بعث إليه إلى مدينة شيراز ، مع الشيخ زاده الديمشقي ، عشرة آلاف دينار دراهم .

(١) (نسبة إلى أندكان) من قرى فرغانة هـ ياقوت .

ذكر عطائه لبرهان الدين الصاغري^(١)

وكان برهان الدين أحد الوعاظ الأئمة كثير الإيثار ، باذلا لما يملكه ، حتى إنه كثيرا ما يأخذ الديون ، ويؤثر على الناس^(٢) . فبلغ خبره السلطان فبعث إليه أربعين ألف دينار ، وطلب منه أن يصل إلى حضرته فقبل الدنانير ، وقضى دينه منها ، وتوجه إلى بلاد الحطّاء^(٣) وأبى أن يصل إليه . وقال : لا أمضى إلى سلطان يقف العلماء بين يديه .

ذكر عطائه لحاجي كاؤن وحكايته

وكان حاجي كاؤن ابن عم السلطان أبي سعيد ملك العراق . وكان أخوه موسى ملكا ببعض بلاد العراق . فوفد حاجي كاؤن على السلطان ، فأكرم مثواه ، وأعطاه العطاء الجزل . ورأيته يوما وقد أتى الوزير خواجه جهان بهديته ، وكان منها ثلاث صينيات ، إحداها مملوءة يواقيت ، والأخرى مملوءة زمردا ، والأخرى مملوءة جواهر . وكان حاجي كاؤن حاضرا فأعطاه من ذلك حظا جزيلا . ثم إنه أعطاه أيضا مالا عريضا . ومضى يريد العراق ، فوجد أخاه قد توفي ، وولى مكانه سليمان خان . فطلب إرث أخيه وادعى الملك . وبايعه العساكر وقصد بلاد فارس ، ونزل بمدينة شونكاره التي بها الإمام عضد الدين الذي تقدم ذكره آنفا . فلما نزل بخارجها تأخر شيوخها عن الخروج إليه ساعة ثم خرجوا . فقال لهم : ما منعكم عن تعجيل الخروج إلى مبايعتنا؟ فاعتذروا له فلم يقبل منهم . وقال لأهل سلاحه : جردوا السيوف . بخردوها وضربوا أعناقهم وكانوا جماعة كبيرة . فسمع من يجاور

(١) نسبة إلى صاغري بالفتح المعجمة المفتوحة والراء الساكنة والجيم ، قرية كبيرة من قرى الصفد . يا قورت .

(٢) يريد أنه يثقل على الناس ديونهم — وقوله (ويؤثر على الناس) غير مفهوم .

(٣) موضع في شمال الصين .

هذه المدينة من الأمراء بما فعله ، فغضبوا لذلك وكتبوا إلى شمس الدين السمتاني ، وهو من الأمراء الفقهاء الكبار ، فأعلموه بما جرى على أهل شونكة ، وطلبوا منه الإعانة على قتاله ، فتجرد في عساكره ، واجتمع أهل البلاد طالبين ثأر من قتله حاجي كاون من المشايخ . وضربوا على عسكره ليلا فهزموه . وكان هو بقصر المدينة فأحاطوا به . فاختفى في بيت الطهارة . فعثروا عليه وقطعوا رأسه ، وبعثوا به إلى سليمان خان ، وفرقوا أعضائه على البلاد تشفيا منه .

ذكر قدوم ابن الخليفة عليه وأخباره

وكان الأمير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن يوسف بن عبد العزيز ، ابن الخليفة المستنصر بالله العباسي البغدادي ، قد وفد على السلطان علاء الدين طرمشيرين ملك ما وراء النهر ، فأكرمه وأعطاه الزاوية التي على قبر قثم ابن العباس رضي الله عنهما . واستوطنها أعواما . ثم لما سمع بحجة السلطان في بني العباس وقيامه بدعوتهم ، أحب القدوم عليه ، وبعث له برسولين ، أحدهما صاحبه القديم محمد بن أبي الشرفي الحرّباوي ، والثاني محمد الهمداني^(١) الصوفي ، فقدموا على السلطان . وكان ناصر الدين الترمذي الذي تقدم ذكره قد لقي غياث الدين ببغداد ، وشهد لديه البغداديون بصحة نسبة . فشهد هو عند السلطان بذلك . فلما وصل رسوله إلى السلطان أعطاهما خمسة آلاف دينار ، وبعث معهما ثلاثين ألف دينار إلى غياث الدين ، ليتروا بها إليه ، وكتب له كتابا بخط يده يعظمه فيه ، ويسأله القدوم عليه . فلما وصله الكتاب رحل إليه . فلما وصل إلى بلاد السند وكتب المخبرون بقدومه ، بعث السلطان من يستقبله على العادة .

(١) قد يكون بسكون الميم نسبة إلى همدان ، قبيلة بالين ، وقد يكون بفتح الميم نسبة إلى همدان التي هي همدان ، لأن إجماع ذالها تعريب ، كما في شرح الشفاء للخفاجي .

ثم لما وصل الى سَرَسْتِي ، بعث أيضا لاستقباله صدر الجِهَان قاضي
القضاة كمال الدين الغَزَنَوِي ، وجماعة من الفقهاء . ثم بعث الأمراء
لاستقباله . فلما نزل بمسعود أباد خارج الحضرة ، خرج السلطان بنفسه
لاستقباله . فلما التقيا ترجل غياث الدين ، وترجل له السلطان ، وخدم نخدم
له السلطان ، وكان قد استصحب هدية في جملتها ثياب ، فأخذ السلطان
أحد الأثواب وجعله على كتفه ، وخدم كما يفعل الناس معه . ثم قُدِّمَت
الخليل ، فأخذ السلطان أحدها بيده وقدمه له ، وحلف أن يركب وأمسك
بِرِكابه حتى ركب . ثم ركب السلطان وسائره (والشطر) يظلهما معا . وأخذ
التَّانِبُول بيده وأعطاه إياه . وهذا أعظم ما أكرمه به ، فإنه لا يفعله مع أحد .
وقال له : لو لا أني بايعت الخليفة أبا العباس لباعتك . فقال له غياث
الدين : وأنا أيضا على تلك البيعة . وقال له غياث الدين : قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم تسليما : من أحيا أرضا مواتا فهي له . وأنت أحيتنا .
بخاوبه السلطان بالطف جواب وأبره . ولما وصلا إلى (السراجة) المعدة
لتزول السلطان ، أنزله فيها وضرب للسلطان غيرها . وبات تلك الليلة
بخارج الحضرة . فلما كان بالغد دخل إلى دار الملك ، وأنزله بالمدينة
المعروفة بسيرى ، ودار الخلافة أيضا في القصر الذي بناه علاء الدين
الخلَّاجي وابنه قطب الدين . وأمر السلطان جميع الأمراء أن يمضوا معه إليه .
وأعد له فيه جميع ما يحتاج إليه من أواني الذهب والفضة ، حتى كان من
جملتها مَغْسَل يغتسل فيه من ذهب . وبعث له أربعمائة ألف دينار لغسل
رأسه (١) على العادة . وبعث له جملة من الفتيان والخدم والجواري . وعين
له عن نفقته في كل يوم ثلثمائة دينار . وبعث له زيادة عليها عددا من الموائد
بالطعام الخاص . وأعطاه جميع مدينة سيرى إقطاعا ، وجميع ما احتوت

(١) سبق تفسير هذا .

عليه من الدور ، وما يتصل بها من بساتين المخزن ^(١) وأرضه . وأعطاه مائة قرية . وأعطاه حكم البلاد الشرقية المضافة إلى دهلي . وأعطاه ثلاثين بغلة بالسروج المذهبة ، ويكون علفها من المخزن . وأمره ألا ينزل عن دابته إذا أتى دار السلطان إلا في موضع خاص ، لا يدخله أحد راكبا سوى السلطان . وأمر الناس جميعا من كبير وصغير أن يتخدّموا له ، كما يتخدّمون للسلطان . وإذا دخل على السلطان ينزل له عن سريره . وإن كان على الكرسي قام قائما ، وخدم كل واحد منهما لصاحبه . ويجلس مع السلطان على بساط واحد . وإذا قام السلطان لقيامه ، وخدم كل واحد منهما لصاحبه . وإذا انصرف إلى خارج المجلس جعل له بساط يقعد عليه ما شاء ثم ينصرف . يفعل هذا مرتين في اليوم .

حكاية من تعظيمه إياه

وفي أثناء مقامة بدھلي قدم الوزير من بلاد بجانة ، فأمر السلطان كبار الأمراء أن يخرجوا إلى استقباله ، ثم خرج بنفسه إلى استقباله وعظمه تعظيما كثيرا ، وصنعت القباب بالمدينة كما تصنع للسلطان إذا قدم . وخرج ابن الخليفة للقائه أيضا والفقهاء والقضاة والأعيان . فلما عاد السلطان لقصره قال للوزير : امض إلى دار المخدوم زاده . وبذلك يدعوه . ومعنى ذلك : ابن المخدوم . فسار الوزير إليه ، وأهدى له ألفي تنكة من الذهب وأثوابا كثيرة . وحضر الأمير قبولة وغيره من كبار الأمراء . وحضرت أنا كذلك .

حكاية نحوها

وفد على السلطان ملك غزنة المسمى بهرام ، وكان بينه وبين ابن الخليفة عداوة قديمة . فأمر السلطان بإزالته ببعض دور مدينه سيرى التي لابن الخليفة ،

(١) يريد به بيت مال الدولة كما تقدم .

وأمر أن يبني له بها دار . فبلغ ذلك ابن الخليفة فغضب منه ، ومضى إلى دار السلطان بفلس على البساط الذي عادته الجلوس عليه ، وبعث إلى الوزير فقال له : سلم على خَوْنَدَ عَالَمَ ، وقل له : إن جميع ما أعطانيه هو بمنزلي لم أتصرف في شيء منه ، بل زاد عندى ونما ، وأنا لا أقيم معكم . وقام وانصرف . فسأل الوزير بعض أصحابه عن سبب هذا ، فأعلمه أن سببه أمر السلطان ببناء الدار لملك غَزَنَةَ في مدينة سِيرِي . فدخل الوزير على السلطان فأعلمه بذلك . فركب من حينه في عشرة من ناسه ، وأتى منزل ابن الخليفة ، فاستأذن ونزل عن فرسه خارج القصر ، حيث يتزل الناس ، فلتقاه واعتذر له ، فقيل عذره . وقال له السلطان : والله ما أعلم أنك راض عني حتى تضع قدمك على عنقي . فقال له : هذا ما لا أفعله ولو قُتلت . فقال له السلطان : وحق رأسي لا بد لك من ذلك . ثم وضع رأسه في الأرض ، وأخذ الملك الكبير قُبُولَةَ رِجْلِ ابن الخليفة بيده ، ووضعها على عنق السلطان . ثم قام وقال : الآن علمت أنك راض عني ، وطاب قلبي . وهذه حكاية غريبة لم يسمع بمثلها عن ملك .

ولقد حضرته يوم عيد ، وقد جاءه الملك الكبير بثلاث خَلَعٍ من عند السلطان ، وقد جعل مكان عَقْدِ الحرير التي تعلق بها حباتُ جوهر على قدر البندق الكبير . وقام الملك الكبير بيابه حتى نزل من قصره فكساه إياها . وقد أعطاه ما لا يحصره العد ولا يحيط به الحد . وابن الخليفة مع ذلك كله أبخل خلق الله تعالى . وله في البخل أخبار عجيبة . يعجب منها سامعها . وكأنه كان من البخل بمنزلة السلطان من الكرم . ولنذكر بعض أخباره في ذلك .

حكاية عن بخل ابن الخليفة

وكانت ببنى وبينه مودة . وكنت كثير التردد إلى منزله . وعنده تركت ولدا لي سميته أحمد ، لما سافرت . ولا أدري ما فعل الله بهما . فقلت له يوما : لم تأكل وحدك ولا تجتمع أصحابك على الطعام ؟ فقال لي : لا أستطيع أن أنظر إليهم على كثرتهم وهم يأكلون طعامي . فكان يأكل وحده ، ويعطى صاحبه محمد بن أبي الشرفي من الطعام ليعطى منه من أحب ، ويتصرف في باقيه . وكنت أتردد إليه فأرى دهايز قصره الذي يسكن به مظلمة لا سراج به . ورأيت مرارا يجمع الأعواد الصغار من الخشب بداخل بستانه ، وقد ملأ منها مخازن ، فكلمته في ذلك . فقال لي : يحتاج إليها . وكان يُخدم أصحابه ومماليكه وفتيانه في خدمة البستان وبنائه . ويقول : لا أرضى أن يأكلوا طعامي وهم لا يخدمون . وكان على مرة دين فطولت به ، فقال لي في بعض الأيام : والله لقد هممت أن أؤدى عنك دينك ، فلم تسمح نفسي بذلك ولا ساعدتني عليه .

حكاية

حدثني مرة قال : خرجت عن بغداد وأنا رابع أربعة ، أحدهم محمد ابن أبي الشرفي صاحبي ، ونحن على أقدامنا ولا زاد عندنا ، فترلنا على عين ماء ببعض القرى ، فوجدنا أحدا في العين درهما ، فقلنا : وما نصنع بدرهم ؟ فاتفقنا على أن نشترى به خبزا ، فبعثنا أحدا لشراؤه ، فأبى الخباز بتلك القرية أن يبيع الخبز وحده . وإنما يبيع خبزا بقميراط وتبنا بقميراط ، فاشترى منه

الخبز والتبن . فطرحنا التبن إذ لا دابة تأكله . وقسمنا الخبز لقمة لقمة .
وقد انتهى حالى اليوم إلى ما تراه . فقلت له : ينبغى لك أن تحمد الله على
ما أولاك ، وتؤثر الفقراء والمساكين بالتصدق . فقال : لا أستطيع ذلك .
ولم أره قط يجود بشيء ، ولا يفعل معروفا . ونعوذ بالله من الشح .

حكاية

كنت يوما ببغداد بعد عودتى من بلاد الهند ، وأنا قاعد على باب المدرسة
المستنصرية ، التى بناها جدّه أمير المؤمنين المستنصر رضى الله عنه . فرأيت
شابا ضعيف الحال ، يشتد خلف رجل خارج من المدرسة . فقال لى الطلبة :
هذا الشاب الذى تراه هو ابن الأمير محمد حفيد الخليفة المستنصر الذى ببلاد
الهند . فدعوته فقلت له : إنى قدمت من بلاد الهند ، وإنى أعرفك خبر
أبيك فقال : قد جاءنى خبره فى هذه الأيام . ومضى يشتد خلف الرجل .
فسألت عن الرجل ، فقيل لى : هو الناظر فى الحبس ^(١) وهذا الشاب هو
إمام بعض المساجد ، وله على ذلك أجرة درهم واحد فى اليوم . وهو يطلب
أجرته من الرجل . فطال عجبى منه . والله لو بعث إليه جوهرة من الجواهر
التى فى الخلع الراصلة إليه من السلطان ، لأغناه بها . ونعوذ بالله من مثل
هذه الحال .

(١) الحبس بوزن القفل ما وقف . مختار .

ذكر ما أعطاه السلطان الأمير سيف الدين غدا بن هبة الله بن مهنا أمير عرب الشام

ولما قدم هذا الأمير على السلطان أكرم مشواه ، وأنزله بقصر السلطان جلال الدين في داخل مدينة دهلي ، ويعرف بكُشْكُ ، لعل معناه القصر الأحمر . وهو قصر عظيم فيه (مشور) كبير جدا ، ودهليز هائل ، على بابه قبة تشرف على هذا (المشور) ، وعلى (المشور) الثاني الذي يدخل منه إلى القصر . وكان السلطان جلال الدين يقعد بها ، وتلعب الكرة بين يديه في هذا (المشور) . وقد دخلت هذا القصر عند نزوله به ، فرأيتُه مملوءا أثانا وفرشا وبُسُطا وغيرها ، وذلك كله متمزق لا مُنتَفَع فيه . فإن عادتهم بالهند أن يتركوا قصر السلطان إذا مات بجميع ما فيه ، لا يتعرضون له . ويبني المتولَّى بعده قصرا لنفسه . ولما دخلته طفت به وصعدت إلى أعلاه . فكانت لي فيه عبرة نشأت عنها عبرة . وكان معي الفقيه الطبيب الأديب جمال الدين المغربي ، الغرناطي الأصل ، البجائي^(١) المولد ، مستوطن بلاد الهند ، قدمها مع أبيه وله بها أولاد . وبهذا القصر كانت وليمة عُرْسِه^(٢) ، كما نذكره . وكان السلطان شديد المحبة للعرب مؤثرا لهم معترفا بفضائلهم . فلما وصله هذا الأمير أجزل له العطاء ، وأحسن إليه إحسانا عظيما ، وأعطاه مرة وقد قدمت عليه هدية

(١) نسبة إلى بجاية ، مدينة على ساحل البحر بين إفريقيا والمغرب . ياقوت .

(٢) أي عرس الأمير سيف الدين .

(أعظم ملك) الباي زیدی من بلاد مانجُور ، أحد عشر فرسا من عتاق الخيل .
وأعطاه مرة أخرى عشرة من الخيل مسرجة بالسروج المذهبة ، عليها الجُم
المذهبة . ثم زوجه بعد ذلك بأخته فيروز خَوَندة .

ذكر تزوج الأمير سيف الدين بأخت السلطان

ولما أمر السلطان بتزويج أخته للأمير غدا ، عين للقيام بشأن الوليمة
ونفقاتها الملك فتح الله ، المعروف بَسُونَويس . وعيّن ملامزة الأمير غدا
في تلك الأيام . فأتى الملك فتح الله (بالصيوانات) فظلل بها (المشورين)
بالقصر الأحمر المذكور . وضرب في كل واحد منهما قبة ضخمة جدا .
وفرش ذلك بالفُرُش الحسان . وأتى شمس الدين التبريزي أمير المطربين ،
ومعه الرجال المغنون والنساء المغنيات والرواقص . وكلهن مملوكات السلطان .
وأحضر الطباخين والحجازين والشوئين والحُلوانيين^(١) والشُرُبدارية والتائبول
داران^(٢) . وذبحت الأنعام والطيور . وأقاموا يطعمون الناس خمسة عشر يوما .
ويحضر الأمراء الكبار والأعزة ليلا ونهارا . فلما كان قبل ليلة الزفاف بليتين ،
جاءت الخواتين من دار السلطان ليلا إلى هذا القصر ، فزيّنه وفرشته بأحسن
الفرش . واستحضر الأمير سيف الدين ، وكان عربيا غريبا لا قرابة له ،
خَفَفَنَ به ، وأجلسه على مرتبة معينة له . وكان السلطان قد أمر أن تكون
ربيته أم أخيه مبارك خان مقام أم الأمير غدا ، وأن تكون امرأة أخرى من
الخواتين مقام أخته ، وأخرى مقام عمته ، وأخرى مقام خالته ، حتى
يكون كأنه بين أهله .

(١) نسبة إلى الحُلوان ، من مصادر (حَلَا) .

(٢) من يعدون التائبول — بلغة الهند .

ولما أجلسنه على المرتبة جعلن له الخنَاء في يديه ورجليه . وأقام باقمين على رأسه ينننن ويرقصن . وانصرفن إلى قصر الزفاف . وأقام هو مع خواص أصحابه . وعين السلطان جماعة من الأمراء يكونون من جهته ، وجماعة يكونون من جهة الزوجة . وعادتهم أن تقف الجماعة التي من جهة الزوجة على باب الموضع الذي تكون به جلوسها على زوجها . ويأتي الزوج بجماعته ، فلا يدخلون إلا إن غلبوا أصحاب الزوجة ، أو يعطونهم الآلاف من الدنانير إن لم يقدرُوا عليهم . ولما كان بعد المغرب أتى إليه بخَلْعَة حرير زرقاء ، مزركشة مرصعة ، قد غلبت الجواهر عليها : فلا يظهر لونها مما عليها من الجوهر ، وبشاشية^(١) مثل ذلك . ولم أر قط خَلْعَة أجمل من هذه الخَلْعَة . وقد رأيت ما خلعه السلطان على سائر أصحابه ، مثل ملك الملوك عماد الدين السَمْنَانِي ، وابن ملك العلماء ، وابن شيخ الإسلام ، وابن صدر جهان البخاري ، فلم يكن فيها مثل هذه . ثم ركب الأمير سيف الدين في أصحابه وعبيده وفي يد كل واحد منهم عصا قد أعدها ، وصنعوا شبه إكليل من الياسمين والنَّسرين ، وله رَفْرَف يغطى وجه المتكالم به وصدرة ، وأتوا به الأمير ليضعه على رأسه ، فأبى ذلك . وكان من عرب البادية لاعهد له بأموار الملك والحضر . فخاولته وحلفت عايه حتى جعله على رأسه . وأتى باب الصرف^(٢) ، ويسمونه باب الحرم ، وعليه جماعة الزوجة ، فحمل عليهم بأصحابه حملة عربية ، وصرعوا كل من عارضهم فغابوهم . ولم يكن لجماعة الزوجة من ثبات . وبلغ ذلك الساطان فأعجبه فعله . ودخل إلى (المشور) ، وقد جعلت العروس فوق منبر عال مزين بالديباج ، مرصع بالجوهر ، و (المشور) ملائ بالنباء والمطربات ، وقد أحضرن أنواع الآلات المطربة ، وكلمهن واقفات على قدم إجلالا له وتعظيما . فدخل بفرسه حتى قرب من المنبر ، فنزل وحَدَم عند أول درجة منه . وقامت العروس قائمة حتى صعد فأعطته الأَبُول بيدها ، فأخذها وجلس

(٢) عليهم يريدون به باب الانصراف .

(١) سبق شرحها في المواشي .

تحت الدرجة التي وقفت بها. ونثرت دنانير الذهب على رعوس الحاضرين من أصحابه. ولقطتها النساء، والمغنيات يعنين حينئذ، والأطبال والأبواق (والأنقار) تضرب في خارج الباب.

ثم قام الأمير وأخذ بيد زوجته ونزل وهي تتبعه، فركب فرسه يطأ به الفرش والبسط، ونثرت الدنانير عليه وعلى أصحابه. وجعلت العروس في محفة، وحملها العبيد على أعناقهم إلى قصره، والخواتين بين يديها راكبات، وغيرهن من النساء ماشيات. وإذا مروا بدار أمير أو كبير، خرج إليهم وثر عليهم الدنانير والدرهم على قدر همته، حتى أوصلوها إلى قصره. ولما كان بالغد بعثت العروس إلى جميع أصحاب زوجها الثياب والدنانير والدرهم. وأعطى السلطان كل واحد منهم فرسا مسرجا ملجبا، وبدرّة دراهم من ألف دينار إلى مائتي دينار. وأعطى الملك فتح الله الخواتين ثياب الحرير المنوّعة والبدر، وكذلك أهل الطرب. وعادتهم ببلاد الهند ألا يعطى أحد أهل الطرب شيئا، وإنما يعطيهم صاحب العرس. وأطعم الناس جميعا ذلك اليوم. وانضى العرس. وأمر السلطان أن يعطى الأمير غدا بلاد المالوة والجزرات وكنباية ونهر والة. وجعل فتح الله نائبا عنه عليها. وعظمه تعظيما شديدا. وكان عربيا جاقيا فلم يقدر قدر ذلك. وغلب عليه جفاء البادية. فأداه ذلك إلى النكبة، بعد عشرين ليلة من زفافه.

ذكر سجن الأمير غدا

ولما كان بعد عشرين يوما من زفافه، اتفق أنه وصل إلى دار السلطان، فأراد الدخول، فمنعه أمير (البرد دارية)، وهم الخواص من البوابين، فلم يسمع منه، وأراد الاقتحام، فأمسك البواب بصفيرته وردّه، فضربه الأمير بعضا كانت هنالك حتى أدماه. وكان هذا المضروب من كبار الأمراء،

يعرف أبوه بقاضى عَزْنَة ، وهو من ذرية السلطان محمود بن سُبُكْتِكِين .
والسلطان يخاطبه بالأب ، ويخاطب ابنه هذا بالأخ . فدخل على السلطان
والدم على ثيابه فأخبره بما صنع الأمير غَدَا . ففكر السلطان هَنِيْهَة . ثم قال له :
القاضى يفصل بينكما . وتلك جريمة لا يغفرها السلطان لأحد من ناسه ، ولا بد
من الموت عليها ، وإنما أحتملها لغربته . وكان القاضى كمال الدين (بالمشور) .
فأمر السلطان الملك تَرَّان يقف معهما عند القاضى . وكان تر حاجا مجاورا ،
يحسن العربية . فحضر معهما ، وقال للأمير : أنت ضربته ؟ أو قل : لا .
لقصد أن يعلمه (١) الجحمة . وكان سيف الدين جاهلا مغترا ، فقال : نعم أنا
ضربته . وأتى والد المضروب فرام الإصلاح بينهما ، فلم يقبل سيف الدين .
فأمر القاضى بسجنه تلك الليلة . فوالله ما بعثت له زوجته فراشا ينام عليه
ولا سألت عنه ، خوفا من السلطان .

وأردت زيارته بالسجن ، فلقينى بعض الأمراء ، وفهم عنى أنى أريد
زيارته ، فقال لى أو نسيت ؟ وذكرنى بقضية اتفقت لى فى زيارة الشيخ
شهاب الدين ابن شيخ الجام ، وكيف أراد السلطان قتلى على ذلك على ما نذكره ،
فرجعت ولم أزره . وتخلص الأمير غدا عند الظهر من سجنه ،
فأظهر السلطان إهماله ، وأضرب عما كان أمر له بولايته ، وأراد نفيه .
وكان للسلطان صهر يسمى بمغيث ابن ملك الملوك . وكانت أخت السلطان
تشكوه لأخيها إلى أن ماتت ، فذكرت جواريتها أنها ماتت بسبب قهره لها .
وكان فى نسبه مَغْمَز . فكتب السلطان بخطه : يُجَلَى اللقيط ، يَعْنِيهِ .
ثم كتب : وَيُجَلَى (موش خوار) ، ومعناه : آكل الفيران ، يعنى بذلك الأمير
غدا ، لأن عرب البادية يأكلون الأربوع وهو شبه الفأر ، وأمر بإخراجهما .
بغائه التقباء ليخرجوه . فأراد دخول داره ووداع أهله . فترادف التقباء فى

(١) الضمير فى يعلم راجع إلى تر . أى أن تر يقصد أن يعلم الأمير غدا الدفاع عن نفسه .

طلبه ، فخرج بايكا . وتوجهت حين ذلك إلى دارالسلطان ، فبت بها . فسألني عن مبيتى بعض الأمراء . فقلت له ، جئت لأتكلم في الأمير سيف الدين ، حتى يُردّ ولا ينفي ، فقال : لا يكون ذلك . فقلت له : والله لأبيتن بدار السلطان ولو بلغ مبيتى مائة ليلة حتى يُردّ . فبلغ ذلك السلطان فأمر برده ، وأمره أن يكون في خدمة الأمير ملك قبولة اللاهوري . فأقام أربعة أعوام في خدمته ، يركب لركوبه ويسافر لسفره ، حتى تأدب وتهذب . ثم أعاده السلطان إلى ما كان عليه أولا . وأقطعه البلاد ، وقدمه على العساكر ، ورفع قدره .

ذكر تزويج السلطان بنتى وزيره من ابني خدأوندزاده قوام الدين الذي قدم معنا عليه

ولما قدم خدأوند زاده أعطاه السلطان عطاء جزّلا ، وأحسن إليه إحسانا عظيما ، وبالغ في إكرامه . ثم زوج ولديه بنتى الوزير خواجه جهان . وكان الوزير إذ ذاك غائبا . فأتى السلطان إلى داره ليلا ، وحضر عقد الزواج ، كأنه نائب عن الوزير ، ووقف حتى قرأ قاضى القضاة الصداق ، والتمضاة والأمراء والمشايخ قعود . وأخذ السلطان بيده الأثواب والبدر ، فجعلها بين يدي القاضى وولدى خدأوندزاده . وقام الأمراء وأبوا أن يجعل السلطان ذلك بين أيديهم بنفسه . فأمرهم بالجلوس ، وأمر بعض كبار الأمراء أن يقوم مقامه وانصرف .

حكاية في تواضع السلطان وإنصافه

ادعى عليه رجل من كبار الهنود أنه قتل أخاه من غير موجب ، ودعاه إلى القاضى . فضى على قدميه ولا سلاح معه ، إلى مجلس القاضى ، فسلمَّ وخدم . وكان قد أمر القاضى قبل ذلك أنه إذا جاءه إلى مجلسه لا يقوم له ولا يتحرك . فصعد إلى المجلس ووقف بين يدى القاضى . فحكم عليه أن يرضى خصمه عن دم أخيه فأرضاه .

حكاية مثلها

وادعى على السلطان مرة رجل من المسلمين أن له قبله حقا ماليا ، فتخاصما في ذلك عند القاضى ، فتوجه الحكم على السلطان بإعطاء المال فأعطاه .

حكاية مثلها

وادعى عليه صبي من أبناء الملوك أنه ضربه من غير موجب ، ورفع إلى القاضى . فتوجه الحكم عليه أن يرضيه بالمال إن قبل ذلك ، وإلا أمكنه من التصاص . فشاهدته يومئذ وقد عاد لمجلسه ، واستحضر الصبي وأعطاه عصا ، وقال له : وحق رأسى لتضربنى كما ضربتك ، فأخذ الصبي العصا وضربه بها إحدى وعشرين ضربة ، حتى رأيت (الكلا) ^(١) قد طارت عن رأسه .

(١) سبق أنها ضرب من القلائس .

ذكر اشتداده في إقامة الصلاة

وكان السلطان شديدا في إقامة الصلاة ، أمرا بملازمتها في الجماعات ، يعاقب على تركها أشد العقاب . ولقد قتل في يوم واحد تسعة رجال على تركها ، وكان أحدهم مُغَنِّيًا . وكان يبعث الرجال الموكَّلين بذلك إلى الأسواق ، فمن وجد بها عند إقامة الصلاة عوقب ، حتى انتهى إلى عقاب الستائرين (١) الذين يمسكون دواب الخدام على باب (المشور) ، إذا ضيعوا الصلاة . وأمر أن يطالب الناس بعلم فرائض الوضوء والصلاة وشروط الإسلام . فكانوا يُسألون عن ذلك ، فمن لم يحسنه عوقب . وصار الناس يتدارسون ذلك (بالمشور) والأسواق ويكتبونه .

ذكر اشتداده في إقامة أحكام الشرع

وكان شديدا في إقامة الشرع . ومما فعل في ذلك أن أمر أخاه مبارك خان أن يكون قعوده (بالمشور) مع قاضي القضاة كمال الدين في قبة مرتفعة هنالك ، مفروشة بالبسط ، وللقاضي بها مرتبة تُحْفَّ بها المخاد ، كمرتبة السلطان . ويقعد أخو السلطان عن يمينه . فمن كان عليه حق من كبار الأمراء وامتنع من أدائه لصاحبه ، يحضره رجال أنحى السلطان عند القاضي لينصف منه .

(١) لا تعرف هذه التسمية في العربية .

ذكر رفعه للمغارم والمظالم وعوده

لإنصاف المظلومين

ولما كان في سنة إحدى وأربعين أمر السلطان برفع المكوس عن بلاده،
وألا يؤخذ من الناس إلا الزكاة والعشر خاصة . وصار يجلس بنفسه للنظر
في المظالم في كل يوم اثنين وخميس ، برحبة أمام (المشور). ولا يقف بين يديه
في ذلك اليوم إلا (أمير حاجب) و (خاص حاجب) وسيد الحجاب وشرف
الحجاب لا غير . ولا يُمنع أحد ممن أراد الشكوى من الوقوف بين يديه . وعين
أربعة من كبار الأمراء يجلسون في الأبواب الأربعة من (المشور) ، لأخذ
القصاص من المشتكين . والرابع منهم ابن عمه (الملك فيروز). فإن أخذ صاحب
الباب الرفع من الشاكي فحسن ، وإلا أخذه الثاني أو الثالث أو الرابع ،
وإن لم يأخذه منه مضى به إلى صدر الجهان قاضي الماليك . فإن أخذه
منه وإلا شكأ إلى السلطان . فإن صح عنده أنه مضى به إلى أحد منهم فلم
يأخذه منه أدبه . وكل ما يجتمع من القصص في سائر الأيام يُطالع به
السلطان بعد العشاء الآخرة .

ذكر إطعامه في الغلاء

ولما استولى القحط على بلاد الهند والسند، واشتد الغلاء حتى بلغ من (١)
القمح ستة دنانير ، أمر السلطان أن يعطى جميع أهل دهلي نقمة ستة
أشهر من المخزن ، بحساب رطل ونصف من أرطال المغرب لكل إنسان

(١) المن رطلان .

في اليوم ، صغير أو كبير حر أو عبد . ونخرج الفقهاء والقضاة يكتبون الأزيمة^(١) بأهل الحارات ، ويحضرون الناس . ويُعطى كُلُّ واحد عَوَلة^(٢) ستة أشهر يفتات بها .

ذكر فتكات هذا السلطان وما نُقِمَ من أفعاله

وكان على ما قدمنا من تواضعه ، وإنصافه ورفقه بالمساكين وكرمه الخارق للعادة ، كثير التجاسر على إراقة الدماء ، لا يخلو بابه عن مقتول إلا في النادر . وكنت كثيرا ما أرى الناس يقتلون على بابه ويطرحون هنالك . ولقد جئت يوما فنفرني الفرس ، ونظرت إلى قطعة بيضاء في الأرض ، فقلت ما هذه ؟ فقال بعض أصحابي : هي صدر رجل قطع ثلاث قطع . وكان يعاقب على الصغيرة والكبيرة . ولا يحترم أحدا من أهل العلم والصلاح والشرف^(٣) . وفي كل يوم يرد على (المشور) من المسلسلين والمغلولين والمقيدين مئون . فمن كان للقتل قتل ، أو للعذاب عذب ، أو للضرب ضرب . وعادته أن يؤتى كل يوم بجميع من في سجنه من الناس إلى (المشور) ، ما عدا يوم الجمعة ، فإنهم لا يخرجون فيه . وهو يوم راحتهم يتنظفون فيه ويستريحون . أعادنا الله من البلاء .

ذكر قتله لأخيه

وكان له أخ اسمه مسعود خان ، وأمه بنت السلطان علاء الدين . وكان من أجمل من رأيت في الدنيا . فاتهمه بالقيام عليه . وسأله عن ذلك فأقر

(١) جمع زمام — والمراد به إحصاء الناس .

(٢) اسم مرة من قولهم : عال عياله عولا ، كفاهم .

(٣) في هذا القول منافاة لما سبق .

خوفا من العذاب، فإنه من أنكر ما يدعيه عليه السلطان من مثل ذلك يعذب .
فيرى الناس أن القتل أهون عليهم من العذاب . فأمر به فضربت عنقه
في وسط السوق . وبق مطروحا هنالك ثلاثة أيام على عادتهم .

ذكر قتله لثلاثمائة وخمسين رجلا في ساعة واحدة

وكان مرة عين حصّة من العسكر تتوجه مع الملك يوسف بغرة إلى قتال
الكفار، ببعض الجبال المتصلة بحوز دهلِي . فخرج يوسف وخرج معه معظم
العسكر، وتحلف قوم منهم . فكتب يوسف إلى السلطان يعلمه بذلك، فأمر
أن يطاف بالمدينة ويقبض على من وُجد من أولئك المتخلفين . ففعل ذلك ،
وقبض على ثلاثمائة وخمسين منهم . فأمر بقتلهم أجمعين فقتلوا .

ذكر تعذيبه للشيخ شهاب الدين وقتله

وكان الشيخ شهاب الدين ابن شيخ الجلام الخراساني الذي تنسب مدينة
الجلام بخراسان إلى جده ، على ما قصصنا ذلك ، من كبار المشايخ الصلحاء
الفضلاء . وكان يواصل^(١) أربعة عشر يوما . وكان السلطانان قطب الدين
وتغلق يعظمانه ويزورانته ويتبركان به . فلما ولي السلطان محمد أراد أن يُحَدِّمَ
الشيخ في بعض خدمته ، فإن عادته أن يُحَدِّمَ الفقهاء والمشايخ والصلحاء ،
محتجا أن الصدر الأول رضى الله عنهم لم يكونوا يستعملون إلا أهل العلم

(١) بصومها متتابعة ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك في الحواشي .

والصلاح . فامتنع الشيخ شهاب الدين من الخدمة . وشافهه السلطان بذلك في مجلسه العام ، فأظهر الإباء والامتناع ، فغضب السلطان من ذلك . وأمر الشيخ الفقيه المعظم ضياء الدين السمناني أن يَنْتِفَ لحيته . فأبى ضياء الدين ذلك . وقال لا أفعل هذا . فأمر السلطان بِنْتِفَ لحيته كل واحد منهما فنتفت . ونفى ضياء الدين إلى بلاد التلنك . ثم ولاه بعد مدة قضاء ورنكل ، فمات بها . ونفى شهاب الدين إلى دولة آباد ، فأقام بها سبعة أعوام ، ثم أرسل إليه فأكرمه وعظمه ، وأمر الأمراء أن يأتوا للسلام عليه ويمتثلوا أقواله ، ولم يكن أحد في دار السلطان فوقه .

ولما انتقل السلطان إلى السكنى على نهر الكنك ، وبني هنالك القصر المعروف بِسَرْكُ دُوَارٍ (معناه شبه الجنة) وأمر الناس بالبناء هنالك ، طلب منه الشيخ شهاب الدين أن يأذن له في الإقامة بالحضرة ، فأذن له إلى أرض مَوَاتٍ على مسافة ستة أميال من دهلي ، فحفر بها كهفا كبيرا صنع في جوفه البيوت والمخازن والفرن والحمام . وجلب الماء من نهر (جُون) ، وعمر تلك الأرض ، وجمع مالا كثيرا من مُسْتَعْلَاهَا ، لأنها كانت سنين قاحطة . وأقام هنالك عامين ونصف عام مدة مغيب السلطان . وكان عبيده يَحْدُمُونَ تلك الأرض نهارا ويدخلون الغار ليلا ، ويسدونه على أنفسهم وأنعامهم ، خوف سُرَّاقِ الكفار ، لأنهم في جبل منيع هنالك .

ولما عاد السلطان إلى حضرته ، استقبله الشيخ ولقيه على سبعة أميال منها . فعظمه السلطان وعانقه عند لقائه . وعاد إلى غاره . ثم أرسل إليه بعد أيام فامتنع من إتيانه ، فبعث إليه مُخْلِصَ الملك النَّذْرُ بَارِي ، وكان من كبراء الملوك ، فتلطف له بالقول ، وحذره بطش السلطان . فقال له : لا أخدم ظالما أبدا . فعاد مخلص الملك إلى السلطان فأخبره بذلك . فأمر أن يُؤْتَى به ، فأتى به ، فقال له : أنت القائل : إني ظلم ؟ فقال : نعم أنت ظالم .

ومن ظلمك كذا وكذا ، وعدت أمورا ، منها تخريبه لمدينة دِهلي وإخراجه أهلها . فأخذ السلطان سيفه ودفعه لصدر الجهان وقال : يثبت هذا أنى ظالم ، وتقطع عني بهذا السيف . فقال له شهاب الدين : ومن يريد أن يشهد بذلك فيقتل ؟ ولكن أنت تعرف ظلم نفسك . وأمر بتسليمه للملك نُكَيَّة رأس^(١) الدويدارية ، فقيده بأربعة قيود ، وغلَّ يديه . وأقام كذلك أربعة عشر يوما مُواصلا ، لا يأكل ولا يشرب . وفي كل يوم منها يؤتى به إلى (المشور) . ويجمع الفقهاء والمشايخ ، ويقولون له : ارجع عن قولك ، فيقول : لا أرجع عنه ، وأريد أن أكون في زمرة الشهداء . فلما كان اليوم الرابع عشر ، بعث إليه السلطان بطعام مع مخلص الملك ، فأبى أن يأكل . وقال : قد رفع رزقي من الأرض . ارجع بطعامك إليه . وفي اليوم بعده أُتِيَ به إلى دارالقاضي صدر الجهان ، وجمع الفقهاء والمشايخ ووجوه الأعرزة ، فوعظوه ، وطلبوا منه أن يرجع عن قوله ، فأبى ذلك . فضربت عنقه رحمه الله تعالى .

ذكر قتله للفقير المدرس عفيف الدين الكاساني^(٢)

وفقيهين معه

وكان السلطان في سنى القحط قد أمر بحفر آبار في خارج دار الملك ، وأن يزرع هنالك زرع . وأعطى الناس البذر وما يلزم الزراعة من النفقة . وكلفهم زرع ذلك للمخزن . فبلغ ذلك الفقيه عفيف الدين ، فقال : هذا الزرع لا يحصل المراد منه . فَوُشِيَ به إلى السلطان فسجنه . وقال له : لأى شيء تدخل نفسك في أمور الملك ؟ ثم إنه سَرَّحه بعد مدة فذهب إلى داره . ولقيه في طريقه إليها صاحبان له من الفقهاء ، فقالا له : الحمد لله على خلاصك . فقال

(١) التاموس (السكرتير) .

(٢) نسبة إلى كاسان ، بلد بما وراء النهر . قاموس .

الفقير : الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين . وتفرقوا فلم يصلوا إلى دورهم حتى بلغ ذلك السلطان . فأمر بهم فأحضر ثلاثهم بين يديه . فقال : اذهبوا بهذا ، يعني عفيف الدين ، فاضربوا عنقه حمائل^(١) ، وهو أن يقطع الرأس مع الذراع وبعض الصدر . واضربوا عنق الآخرين . فقال له : أما هو فيستحق العقاب بقوله ، وأما نحن فبأى جريمة تقتلنا ؟ فقال لها : إنكما سمعنا كلامه فلم تتكره ، فكأنما وافقتما عليه ، فقتلوا جميعا ، رحمهم الله .

ذكر قتله أيضا لفقيرين من أهل السند كانا في خدمته

وأمر السلطان هذين الفقيرين السنديين أن يمضيا مع أمير عينه ، إلى بعض البلاد ، وقال لها : إنما سامت أحوال البلاد والرعية لكما ، ويكون هذا الأمير معكما يتصرف بما تأمرانه به . فقال له : إنما نكون كالشاهدين عليه ، ونبين له وجه الحق لئيبعه . فقال لها : إنما قصدك أن تأكلا أموالى وتضيعها ، وتنسبنا ذلك إلى هذا التركي الذى لا معرفة له . فقال له : حاش لله يا خوند عالم ، ما قصدنا هذا . فقال لها : لم تقصدا غير هذا . اذهبوا بهما إلى الشيخ زاده النماوندى ، وهو الموكل بالعذاب . فذهب بهما إليه . فقال لها : السلطان يريد قتلكما ، فأقرا بما تقصدان ولا تعذبا أنفسكما . فقالا : والله ما قصدنا إلا ما ذكرنا . فقال لربانيتها : ذوقوهما بعض شيء ، يعنى من العذاب . فبطحا على أفقائهما ، وجعل على صدر كل واحد منهما صفيحة حديد محمأة . ثم قاعت بعد هنيئة ، فذهبت بلحم صدريهما ، فأقرا على أنفسهما أنهما لم يقصدا إلا ما قاله السلطان ، وأنهما مجرمان مستحقان للقتل ، فلا حق لهما ،

(١) تعبير اصطلاحى لم .

ولا دعوى في دماهما دنيا ولا أخرى . وكتبنا خطهما بذلك ، واعترفا به عند القاضي . فسجل على العقد . وكتب فيه أن اعترافهما كان عن غير إكراه ولا إجبار . ولو قالوا أُكْرِهنا لعذابا أشد العذاب . فبأيأ أن تعجيل ضرب العنق خير لهما من الموت بالعذاب الأليم . فقتلا ، رحمهما الله تعالى .

ذكر قتله للشيخ هود

وكان الشيخ زاده المسمى بهود ، حفيد الشيخ الصالح الولي ركن الدين ابن بهاء الدين بن أبي زكرياء المُلْتَانِي ، وجدّه الشيخ ركن الدين ، معظما عند السلطان . وكذلك أخوه عماد الدين الذي كان شبيها بالسلطان ، وقتل يوم وقبعة كَشُؤْخَان ، وسنذكره . ولما قتل عماد الدين أعطى السلطان أخاه ركن الدين مائة قرية ليا كل منها ويطعم الصادر والوارد بزوايته . فتوفي الشيخ ركن الدين وأوصى بمكانه من الزواية لحفيده الشيخ هود . ونازعه في ذلك ابن أخى الشيخ ركن الدين ، وقال : أنا أحق بمراث عمى . فقَدِمَا على السلطان وهو بدولة آباد ، وبينها وبين مُلْتَان ثمانون يوما . فأعطى السلطان هودا الشُّوْخَة على ما أوصى له الشيخ . وكان كهلا . وكان ابن أخى الشيخ قتي . وأكرمهُ السلطان وأمر بتضييفه في كل منزل يحله ، وأن يخرج إلى لقائه أهل كل بلد يمر به إلى ملتان ، وتصنع له فيه دعوة . فلما وصل الأمر للحضرة خرج الفقهاء والقضاة والمشايخ والأعيان للقائه . وكنت فيمن خرج إليه فتلقيناه ، وهو راكب دولة^(١) يحملها الرجال ، وخيله مجنوبة^(٢) . فسلمنا عليه . وأنكرت أنا ما كان من فعله في ركوبه الدولة . وقلت : إنما

(١) يظهر أنها شىء كالخفّة — ولم نجد هذا المعنى لها في كتب اللغة .

(٢) فسرنا معنى هذه الكلمة في موضع آخر من الحواشي .

كان ينبغي له أن يركب الفرس ويساير من خرج للقاءه من القضاة والمشايخ . فبلغه كلامي فركب الفرس . واعتذر بأن فعله أولا كان بسبب ألم منعه من ركوب الفرس . ودخل الحضرة ، وصنعت له بها دعوة أنفق فيها من مال السلطان كثير . وحضر القضاة والمشايخ والفقهاء والأعزة . ومد السماط وأتوا بالطعام على العادة . ثم أعطيت الدراهم ، فأخذ كلُّ على قدر استحقاقه . فأعطى قاضي القضاة خمسمائة دينار ، وأعطيتُ أنا مائتين وخمسين دينارا . وهذه عادة لهم في الدعوة السلطانية .

ثم انصرف الشيخ هود إلى بلده ومعه الشيخ نور الدين الشيرازي ، بعثه السلطان ليجلسه على سجادة جده بزاويته ، ويصنع له الدعوة من مال السلطان هنالك . واستقر بزاويته وأقام بها أعواما . ثم إن عماد الملك أمير بلاد السند ، كتب إلى السلطان يذكر أن الشيخ وأقاربه يشتغلون بجمع الأموال وإنفاقها في الشهوات ، ولا يطعمون أحدا بالزاوية . فنقذ الأمر بمطالبتهم بالأموال ، فطالبهم عماد الملك بها ، وسجن بعضهم وضرب بعضا . وصار يأخذ منهم كل يوم عشرين ألف دينار مدة أيام ، حتى استخلص ما كان عندهم . ووجد لهم كثير من الأموال والذخائر ، فمن جملتها نعلان مرصعتان بالجوهر والياقوت ، بيعتا بسبعة آلاف دينار . قيل إنهما كانتا لبنت الشيخ هود . وقيل لسرية له . فلما اشتد الحال على الشيخ هرب يريد بلاد الأتراك فقبض عليه . وكتب عماد الملك بذلك إلى السلطان ، فأمره أن يبعثه ويبعث الذي قبض عليه . فلما وصلا إليه سرح الذي قبض عليه . وقال للشيخ هود : أين أردت أن تفر ؟ فاعتذر بعذر . فقال له السلطان : إنما أردت أن تذهب إلى الأتراك فتقول : أنا ابن الشيخ بهاء الدين زكريا ، وقد فعل السلطان معي كذا ، وتأتى بهم لقتالنا . اضربوا عنقه ، فضربت عنقه رحمه الله تعالى .

ذكر سجنه لابن تاج العارفين وقتله لأولاده

وكان الشيخ الصالح شمس الدين بن تاج العارفين ساكنا بمدينة كُول ، منقطعا للعبادة ، كبير القدر . ودخل السلطان مدينة كُول ، فأرسل إليه فلم يأتته ، فذهب السلطان إليه ، ثم لما قارب منزله انصرف ولم يره . واتفق بعد ذلك أن أميرا من الأمراء خالف على السلطان ببعض الجهات ، وبايعه الناس . فنقل للسلطان أنه وقع ذكر هذا الأمير يجلس الشيخ شمس الدين فأثنى عليه ، وقال إنه يصلح للملك . فبعث السلطان بعض الأمراء إلى الشيخ ، فقيده وقيد أولاده وقيد قاضي كُول ومحتسبها ، لأنه ذكر أنهما كانا حاضرين للجلس الذي أثنى فيه الشيخ على الأمير المخالف ، وأمر بهم فسُجِنوا جميعا ، بعد أن سَمَّلَ عيني القاضي وعيني المحتسب . ومات الشيخ بالسجن . وكان القاضي والمحتسب يخرجان مع بعض السجنانيين فيسالان الناس ، ثم يُردَّان إلى السجن . وكان قد بلغ السلطان أن أولاد الشيخ كانوا يخالطون كفار الهنود وعصاتهم ويصحبونهم . فلما مات أبوهم أخرجهم من السجن ، وقال لهم : لا تعودوا إلى ما كنتم تفعلون . فقالوا له : وما فعلنا ؟ فاعتاظ من ذلك ، وأمر بقتلهم جميعا فقتلوا . ثم استحضر القاضي ، فقال : أخبرني بمن كان يرى رأى هؤلاء الذين قُتِلوا ، ويفعل مثل أفعالهم ، فأملى أسماء رجال كثيرين من كفار البلد . فلما عرض ما أملاه على السلطان ، قال : هذا يجب أن يَحْرَبَ البلد ، اضربوا عنقه . فضربت عنقه ، رحمه الله تعالى .

ذكر قتله للشيخ الحيدري

وكان الشيخ علي الحيدري ساكنا بمدينة كِنْبَايَةَ ، من ساحل الهند . وهو عظيم القدر شهير الذكر بعيد الصيت ، ينذر له التجار بالبحر النذور الكثيرة . وإذا قدموا بدعوا بالسلام عليه . وكان يكاشف^(١) بأحوالهم . وربما نذر أحدهم النذر ونِدِم عليه ، فإذا أتى الشيخ للسلام عليه ، أعلمه بما نذرله وأمر بالوفاء به . واتفق له ذلك مرات واشتهر به^(٢) . فلما خالف القاضي جلال الأفغانى وقبيلته بتلك الجهات ، بلغ السلطان أن الشيخ الحيدري دعا للقاضي جلال الدين وأعطاه (شاشيته) من رأسه ، وذكر أيضا أنه بايعه . فلما خرج السلطان إليهم بنفسه وانهمز القاضي جلال ، خلف السلطان شرف المُلْك (أمير بخت) ، أحد الوافدين معنا عليه ، يكنباية ، وأمره بالبحث عن أهل الخلاف ، وجعل معه فقهاء يحكم بقولهم . فأحضر الشيخ علي الحيدري بين يديه ، وثبت أنه أعطى القائم شاشيته ودعا له . فحكوا بقتله . فلما ضربه السيف لم يفعل شيئا . وعجب الناس لذلك ، وظنوا أنه يُعْفَى عنه بسبب ذلك . فأمر سيافا آخر بضرب عنقه فضر بها . رحمه الله تعالى .

ذكر قتله لطوغان وأخيه

وكان طوغان الفرغانى وأخوه من كبار أهل مدينة فرغانة . فوفدا على السلطان فأحسن إليهما وأعطاهما عطاء جزيلا . وأقاما عنده مدة . فلما طال مُقَامهما أرادا الرجوع إلى بلادهما وحوالا الفرار . فوشى بهما أحد

(١) يريد أنه يكشف له عن أحوالهم كشف غيب . ولكن الله تعالى لا يطلع من عباده

على بعض المغيبات إلا من اختصه بذلك من رساله وأنبائه الكرام .

(٢) مبالغة من الفصاح .

أصحابهما إلى السلطان ، فأمر بتوسيطهما فوسّطا . وأعطى الذى وشى بهما جميع مالهما . وكذلك عادتهم بتلك البلاد ، فإذا وشى أحد بأحد وثبت ما وشى به فقتل ، أُعطي ماله .

ذكر قتله لابن ملك التجار

وكان ابن ملك التجار شابا صغيرا لانبات بعارضيه . فلما وقع خلاف عين الملك وقيامه وقتاله للسلطان ، كما سنذكره ، هُزم عين الملك وقبض عليه وعلى أصحابه ، وكان من جملتهم ابن ملك التجار وصهره ابن قطب الملك ، فأمر بهما فعلقا من أيديهما فى خشب . وأمر أبناء الملوك فرموهما بالنشاب حتى ماتا . ولما ماتا قال الحاجب خواجه أمير على التبريزى لقاضى القضاة كمال الدين : ذلك الشاب لم يجب عليه القتل . فبلغ ذلك السلطان . فقال : هلا قلت هذا قبل موته . وأمر به فضرب مائتى مِقرعة أو نحوها ، وسجن وأعطى أمير السيفين جميع ماله . فرأيته فى ثانى ذلك اليوم وقد لبس ثيابه ، وجعل قلنسوته على رأسه وركب فرسه ، فظننت أنه هو . وأقام بالسجن شهورا . ثم سرحه وردّه إلى ما كان عليه . ثم غضب عليه ثانية ونفاه إلى نُرّاسان . فاستقر بهرّاة ، وكتب إليه يستعطفه فوَقَّع له على ظهر كتابه ما معناه : إن كنت تُبْت فارجع ، فرجع إليه .

ذكر ضربه لخطيب الخطباء حتى مات

وكان قد ولّى خطيب الخطباء بدهلى النظر فى خزانة الجواهر فى السفر ، فاتفق أن جاء سراق السكفار ليلا فضربوا على تلك الخزانة ، وذهبوا بشيء منها ، فأمر بضرب الخطيب حتى مات . رحمه الله تعالى .

ذكر تخرية دهلي ونفي أهلها

ومن أعظم ما كان يُنقم من السلطان إجلأؤه لأهل دِهلي عنها . وسبب (١) ذلك أنهم كانوا يكتبون بَطَائِق فيها شتمه وسبه . ويختمون عليها ويكتبون عليها : وحق رأس خَوْنَد عَالَم ما يقرؤها غيره . ويرمونها (بالمشور) ليلا ، فإذا فضَّها وجد فيها شتمه وسبه . فعزم على تخریب دِهلي . واشترى من أهلها جميعا دورهم ومنازلهم ، ودفع لهم ثمنها ، وأمرهم بالانتقال عنها إلى دولة آباد . فأبوا ذلك . فنأدى مناديه ألا يبقى بها أحد بعد ثلاث . فانتقل معظمهم ، واختفى بعضهم في الدور . فأمر بالبحث عن بقى بها . ولما فعل ذلك خرج أهلها جميعا وتركوا أنقاعهم وأمتعتهم ، وبقيت المدينة خاوية على عروشها . فخذثنى من أتقى به قال : صعد السلطان ليلة إلى سطح قصره ، فنظر إلى دِهلي وليس بها نار ولا دخان ولا سراج . فقال : الان طاب قلبى وتهدن (٢) خاطرى . ثم كتب إلى أهل البلاد أن ينتقلوا إلى دهلي ليعمروها ، فخربت بلادهم ولم تعمر دهلي لاتساعها وضخامتها . وهى من أعظم مدن الدنيا . وكذلك وجدناها لما دخلنا إليها خالية ليس بها إلا قليل عمارة . وقد ذكرنا كثيرا من مآثر هذا السلطان ومما نُقِم منه أيضا (٣) . فلنذكر جملا من الوقائع والحوادث فى أيامه .

(١) هذا السبب غير كاف . بل لابد أنه كانت هناك أسباب أخرى عظيمة حملته على ما فعل .

(٢) ارتاحت نفسى وهدأت .

(٣) آثرنا إثبات حكايات القتل وما ارتكبه هذا السلطان من ضروب القسوة ، لنعرض

على القارئ صورة صادقة لهذا العهد فى تلك البلاد .

ذكر ما افتتح به أمره أول ولايته من منه على بهادور بورة

ولما ولي السلطان الملك بعد أبيه ، وبايعه الناس ، أحضر السلطان غياث الدين بهادور بورة ، الذي كان أسره السلطان تغلق ، فنّ عليه وفك قيوده ، وأجزل له العطاء من الأموال والخيل والفيلة ، وصرفه إلى مملكته ، وبعث معه ابن أخيه إبراهيم خان ، وعاهده على أن تكون تلك المملكة مشاطرة بينهما ، وتكتب أسماؤهما معا في السكة^(١) ، ويخطب لهما ، وعلى أن يصرف غياث الدين ابنه محمدا المعروف ببرباط ، ليكون رهينة عند السلطان . فانصرف غياث الدين إلى مملكته والتزم ما شرط عليه ، إلا أنه لم يبعث ابنه . وادعى أنه امتنع . وأساء الأدب في كلامه . فبعث السلطان العساكر إلى ابن أخيه إبراهيم خان وأميرهم دجلجلى الترى ، فقاتلوا غياث الدين فقتلوه ، وسلخوا جلده وحشى بالثبن ، وطيف به على البلاد .

ذكر ثورة ابن عمته وما اتصل بذلك

وكان للسلطان تغلق ابن أخت يسمى بهاء الدين (كُشْتَّ اسْب) ، بفعله أميرا ببعض النواحي . فلما مات خاله امتنع من بيعة ابنه . وكان شجاعا بطلا . فبعث السلطان إليه العساكر فيهم الأمراء الكبار . فالتقى الفرسان واشتد القتال ، وصبر كلا العسكرين . ثم كانت الكثرة لعسكر السلطان ، ففر بهاء الدين إلى ملك من ملوك الكفار ، يعرف (بالراى)^(٢) كنبيلة . والراى عندهم كمثل ما هو بلسان

(١) المراد النقود — وأصل السكة قالب الحديد الذى تضرب عليه الدراهم .

(٢) الراى هو الراجا ، وهو الملك . والكبتهان هنديةتان .

الروم عبارة عن السلطان، وكنبيلة اسم الإقليم الذى هو به . وهذا الراى له بلاد فى جبال منيعة . وهو من أكابر سلاطين الكفار . فلما هرب إليه بهاء الدين أتبعته عساكر السلطان ، وحصروا تلك البلاد واشتد الأمر على الكافر ، ونفذ ما عنده من الزرع ، وخاف أن يؤخذ باليد ، فقال لبهاء الدين : إن الحلال قد بلغت ما تراه . وأنا عازم على إهلاكك نفسى وعيانى ومن تبعنى ، فاذهب أنت إلى السلطان فلان ، لسلطان من الكفار سماه له ، فأقم عنده فإنه سمينك . وبعث معه من أوصله إليه . وأمر (راى كنبيلة) بنار عظيمة فأججت وأحرق فيها أمتعه . وقال لنسائه وبناته : إنى أريد قتل نفسى ، فمن أرادت موافقتى فلتفعل . فكانت المرأة منهن تغتسل وتدهن بالصندل ، وتقبل الأرض بين يديه ، وترمى بنفسها فى النار ، حتى هلكن جميعا . وفعل مثل ذلك نساء أمراءه ووزرائه وأرباب دولته ، ومن أراد من سائر النساء .

ثم اغتسل الراى وادهن بالصندل ولبس السلاح ما عدا الدرع . وفعل كفعله من أراد الموت معه من ناسه . وخرجوا إلى عسكر السلطان فقاتلوا حتى قتلوا جميعا . ودخلت المدينة ، فأسر أهلها وأسر من أولاد (راى كنبيلة) أحد عشر ولدا ، فأتى بهم إلى السلطان فأساموا جميعا . وجعلهم السلطان أمراء ، وعظمهم لأصابتهم ولفعل أيهم . فرأيت عنده منهم نصرا وبختيار والمُهردار ، وهو صاحب الخاتم الذى يختم به على الماء الذى يشرب السلطان منه ، وكنيته أبو مسلم . وكانت بنى وبينه صحبة ومودة .

ولما قتل (راى كنبيلة) ، توجهت عساكر السلطان إلى بلد الكفار الذى لجأ إليه بهاء الدين ، وأحاطوا به ، فقال ذلك السلطان : أنا لا أقدر على أن أفعل ما فعله راى (كنبيلة) ، فقبض على بهاء الدين وأسلمه إلى عسكر السلطان ، فقيدوه وغلوه وأتوا به إليه . فلما أتى به إليه ، أمر بقتله .

وأمر بجلده فحشى بالنبن ، وقُرِن بجلده بها دُور بُورة ، وَطِيفَ بهما على البلاد . فلما وصلا إلى بلاد السند وأمير أمراءها يومئذ كَشْلُوخان ، صاحب السلطان تُغَلَقُ ومعينه على أخذ الملك ، وكان السلطان يعظمه ويخاطبه بالعم ، ويخرج لاستقباله إذا وَقَدَ من بلاده ، أمر كَشْلُوخان بدفن الجلدين . فبلغ ذلك السلطان فشَقَّ عليه فعله ، وأراد الفتك به .

ذكر ثورة كَشْلُوخان وقتله

ولما اتصل بالسلطان ما كان من فعله في دفن الجلدين أرسل إليه ، وعلم كَشْلُوخان أنه يريد عقابه ، فامتنع وخالف وأعطى الأموال ، وجمع العساكر ، وبعث إلى الترك والأفغان وأهل خراسان ، فأتاد منهم العدد الجَم ، حتى كافأَ عسكره عسكر السلطان أو أَرَبِي عليه كثرة . ونرح السلطان بنفسه لقتاله . فكان اللقاء على مسيرة يومين من مُلتان بصحراء أبو هر . وأخذ السلطان بالحزم عند لقائه ، فجعل تحت (الشطر) عوضا عنه الشيخ عماد الدين شقيق الشيخ ركن الدين المُلتاني . وهو (١) حدثني هذا ، وكان (٢) شبيها به . فلما حَمِيَ القتال انفرد السلطان في أربعة آلاف من عسكره ، وقصد عسكر كَشْلُوخان (الشطر) ، معتقدين أن السلطان تحته . فقتلوا عماد الدين . وشاع في العسكر أن السلطان قتل ، فاشتغلت عساكر كَشْلُوخان بالنهب ، وتفرقوا عنه ولم يبق معه إلا قليل . فقصدته السلطان بمن معه فقتله وحرَّ رأسه . وعلم بذلك جيشه ففروا . ودخل السلطان مدينة مُلتان وقبض على قاضيا كريم الدين ، وأمر بساخه فسلخ ، وأمر برأس كَشْلُوخان فعلق على بابه . وقد رأيتُه معلقا لما وصلت إلى مُلتان . وأعطى السلطان الشيخ ركن الدين أخا عماد الدين ، وابنه صدر الدين مائة قرية ، إنعاما عليهما ليا كلا منها ، ويطعما بزوايتهما

(١) أي الشيخ ركن الدين (٢) أي الشيخ عماد الدين .

المنسوبة لجدهما بهاء الدين زكريا . وأمر السلطان وزيره خواجه جهان أن يذهب إلى مدينة كمال بور ، وهي مدينة كبيرة على ساحل البحر ، وكان أهلها قد خالفوا . فأخبرني بعض الفقهاء أنه حضر دخول الوزير إياها . قال : وأحضر بين يديه القاضي بها والخطيب ، فأمر بسلخ جلودهما . فقالا له : اقتلنا بغير ذلك ، فقال لهما : بم استوجبتما القتل ؟ فقالا : بمخالفتنا أمر السلطان . فقال لهما : فكيف أخالف أنا أمره ، وقد أمرني أن أقتلكما بهذه القتلة ؟ ولما فعل ذلك تمهدت بلاد السند ، وعاد السلطان إلى حضرته .

ذكر هزيمة جيش السلطان بجبل قراجيل^(١)

وجبل قراجيل هذا جبل كبير يتصل مسيرة ثلاثة أشهر ، وبينه وبين دهلي مسيرة عشر . وسلطانه من أكبر سلاطين الكفار . وكان السلطان بعث الملك نكبة رأس (الدويدارية) إلى حرب هذا الجبل ، ومعه مائة ألف فارس ، ورجالة سواهم كثير . فملك مدينة جدية وهي في أسفل الجبل . وملك ما يليها . وسبي وخرّب وأحرق . وفر الكفار إلى أعلى الجبل ، وتركوا بلادهم وأموالهم وخزائن ملكهم . ولجبل طريق واحد ، وعن أسفل منه واد وفوقه الجبل . فلا يجوزه إلا فارس منفرد خلفه آخر . فصعدت عساكر المسلمين على ذلك الطريق . وتملكوا مدينة ورنكل التي بأعلى الجبل واحتوا على ما فيها . وكتبوا إلى السلطان بالفتح ، فبعث إليهم قاضيا وخطيبا . وأمرهم بالإقامة . فلما كان وقت نزول المطر غلب المرض على العسكر وضعفوا . وماتت الخيل وانحلت القسي . فكتب الأمراء إلى السلطان ، واستأذنوه في الخروج عن

(١) من سلسلة جبال همالايا .

الجبل ، والنزول إلى أسفله ، حتى ينصرم فصل نزول المطر فيعودوا . فأذن لهم في ذلك . فأخذ الأمير نُكَيْيَّةَ الأموال التي استولى عليها من الخزائن والمعادن ، وفرقها على الناس ليرفعوها ويوصلوها إلى أسفل الجبل . فعند ما علم الكفار بخروجهم قعدوا لهم بتلك المهاوي ، وأخذوا عليهم المِضِيق ، وصاروا يقطعون الأشجار العادية^(١) قِطْعًا ويطرحونها من أعلى الجبل ، فلا تمر بأحد إلا أهلكته . فهلك الكثير من الناس وأسر الباقون منهم . وأخذ الكفار الأموال والأمتعة والخيل والسلاح . ولم يُقَلِّت من العسكر إلا ثلاثة من الأمراء : كبيرهم نُكَيْيَّةَ ، وبدر الدين المَلِكِ دولة شاه ، وثالث لهما لا أذكره . وهذه الواقعة أثرت في جيش الهند أثرا كبيرا ، وأضعفته ضعفا بيّنا . وصالح السلطان بعدها أهل الجبل على مال يؤدونه إليه ، لأن لهم البلاد في أسفل الجبل ، ولا قدرة لهم على عمارتها إلا بإذنه .

ذكر ثورة الشريف جلال الدين ببلاد المعبر ، وما اتصل بذلك من قتل ابن أخت الوزير

وكان السلطان قد أمر على بلاد المعبر ، وبينها وبين دهلي مسيرة ستة أشهر ، الشريف جلال الدين أحسن شاه . نغالف وأدعى الملك لنفسه ، وقتل نواب السلطان وعماله ، وضرب الدنانير والدرهم باسمه . وكان يكتب في إحدى صفحاته الدينار : سلالة طه ويس ، أبو الفقراء والمساكين ، جلال الدنيا والدين . وفي الصفحة الأخرى : الواثق بتأييد الرحمن . أحسن شاه السلطان . وخرج السلطان لما سمع بثورته يريد قتاله . فنزل بموضع يقال له (كُشْكُ زِر) ، ومعناه

(١) الكبيرة القديمة ، كما تقدم

قصر الذهب . وأقام به ثمانية أيام لقضاء حاجات الناس . وفي تلك الأيام
أُتي بابن أخت الوزير خواجه جهان ، وأربعة من الأمراء أو ثلاثة ،
وهم مقيدون مغلولون .

وكان السلطان قد بعث وزيره هذا في مقدمته ، فوصل إلى مدينة
ظهار ، وهي على مسيرة أربع وعشرين من دهلي ، وأقام بها أياما . وكان
ابن أخته شجاعا بطالا . فاتفق مع الأمراء الذين أتى بهم على قتل خاله ،
والهرب بما عنده من الخزائن والأموال إلى الشريف القائم ببلاد المعبر .
وعزموا على الفتك بالوزير عند خروجه إلى صلاة الجمعة . فوشى بهم أحد من
أدخلوه في أمرهم إلى الوزير ، وكان يسمى الملك نُصرة الحاجب ، وأخبر
الوزير أن آية ما يرومونه لبسهم الدروع تحت ثيابهم . فبحث الوزير عنهم
فوجدهم كذلك . فبعث بهم إلى السلطان ، وكنت بين يديه حين وصولهم .
فأريت أحدهم وكان طَوَّالاً أَلْحَى ، وهو يُرْعِدُ ويتلو سورة يس . فأمر بهم
فطرحوا للفيلة المعلمة قَتَلَ الناس ، وأمر بابن أخت الوزير فرد إلى خاله
ليقتله فقتله . وسند كذا ذلك .

وتلك الفيلة التي تقتل الناس تكسى أنيابها حدائد مسنونة ، شبه سلك
الحرث ، ولها أطراف كالسكاكين . ويركب الفيال على الفيل . فإذا رُمي
بالرجل بين يديه لَفَّ عليه نحرطومه ورمى به إلى الهواء . ثم يتلقفه بنابيه ،
ويطرحه بعد ذلك بين يديه ، ويجعل يده على صدره ، ويفعل به ما يأمره
الفيال ، على حسب ما أمره السلطان . فإن أمره بتقطيعه قطع الفيل قطعاً
بتلك الحدائد . وإن أمر بتركه تركه مطروحا فسلخ . وكذلك فَعَلَ بهؤلاء .

ولما تجهز السلطان لهذه الحركة أمرني بالإقامة بالحضرة كما سندكره ،
ومضى في سفره إلى أن بلغ دولة آباد . فنار الأمير هلاجون ببلاده وخرج .
وكان الوزير خواجه جهان قد بقى أيضا بالحضرة ، لحشد الحشود وجمع
العساكر .

ذكر ثورة هلاجون

ولما بلغ السلطان دولة آباد وبعد عن بلاده ، نار الأمير هلاجون
بمدينة لاهور وادعى الملك . وساعده الأمير قلجند على ذلك وصيره
وزيرا له . واتصل ذلك بالوزير خواجه جهان وهو بدلهى فحشد الناس ،
وجمع العساكر ، وجمع الخراسانيين ، وكل من كان مقيا من الخدام بدلهى .
وأخذ أصحابه وأخذ في الجملة أصحابى ، لأنى كنت بها مقيا . وأعانه
السلطان بأميرين كبيرين : أحدهما قيران ملك صفدار ، ومعناه مرتب
العساكر ، والثانى الملك تمور الشربدار ، وهو الساقى . وخرج هلاجون
بعساكره . فكان اللقاء على ضفة أحد الأودية الكبار . فانهزم هلاجون
وهرب ، وغرق كثير من عساكره فى النهر . ودخل الوزير المدينة فسلخ
بعض أهلها ، وقتل آخريين بغير ذلك من أنواع القتل . وكان الذى تولى
قتلهم محمد بن النجيب نائب الوزير ، وهو المعروف بأجدر ملك ، وكان ظالما
قاسى القلب . ويسميه السلطان أسد الأسواق . وكان ربما عض أرباب
الجنائيات بأسنانه شرها وعدوانا . وبعث الوزير من نساء المخالفين نحو
ثلاثمائة إلى حصن كاليور ، فسيجن به . ورأيت بعضهن هنالك فى السجن .

ذكر وقوع الوباء في عسكر السلطان

ولما وصل السلطان إلى بلاد التلنك، وهو قاصد إلى قتال الشريف ببلاد المعبر، نزل مدينة بدرگوت، وهي قاعدة بلاد التلنك، وبينها وبين بلاد المعبر مسيرة ثلاثة أشهر، ووقع الوباء إذ ذاك في عسكره فهلك معظمهم. ومات العبيد والمماليك و كبار الأمراء، مثل الملك دولة شاه الذي كان السلطان يخاطبه بالعلم، ومثل الأمير عبد الله الهروي. وقد تقدمت حكايته في السفر الأول. وهو الذي أمره السلطان أن يرفع من الخزانة ما استطاع من المال، فربط ثلاث عشرة خريطة بأعضاده ورفعها. ولما رأى السلطان ما حل بالعسكر عاد إلى دولة آباد. وخالفت البلاد وانتقضت الأطراف، وكاد الملك يخرج عن يده، لولا ما سبق به القدر من استحكام سعادته.

ذكر الإرجاف بموته وفرار الملك هوشنج

ولما عاد السلطان إلى دولة آباد مرض في طريقه فأرجف الناس بموته. وشاع ذلك فنشأت عنه فتن عريضة. وكان الملك هوشنج ابن الملك كمال الدين كرك بدولة آباد. وكان بينه وبين السلطان عهد ألا يبايع غيره أبدا، لا في حياته ولا بعد موته. فلما أُرْجِف بموت السلطان هرب إلى سلطان كافر يسمى بربرة، يسكن بجبال مانعة بين دولة آباد وكوكن تانه. فعلم السلطان بفراره وخاف وقوع الفتنة، فأجد السير إلى دولة آباد، واقتنى أثر هوشنج، وحصره بالخليل، وأرسل إلى الكافر أن يسلمه إليه. فأبى وقال: لا أسلم دخيلي. وخاف هوشنج على نفسه، فراسل السلطان وعاهده

على أن يرحل السلطان إلى دولة آباد ويبقى هنالك قُطْلُوخان معلم السلطان ، ليستوثق منه هُوَشْنُج وينزل إليه على الأمان . فرحل السلطان ونزل هوشنج إلى قُطْلُوخان ، وعاهده ألا يقتله السلطان ولا يحط منزلته . وخرج بماله وعياله وأصحابه وقدم على السلطان ، فسر بقدمه وأرضاه وخلع عليه . وكان قُطْلُوخان صاحب عهد يستنيم الناس إليه . ومنزلته عند السلطان عالية ، وتعظيمه له شديد . ومتى دخل عليه قام له إجلالا ، فكان بسبب ذلك لا يدخل عليه ، حتى يكون هو الذي يدعوه ، لئلا يتعبه بالقيام له . وهو محب للصدقات كثير الإيثار ، مَوْلَعٌ بالإحسان للفقراء والمساكين .

ذكر ما همم به الشريف إبراهيم من الثورة ومآل حاله

وكان الشريف إبراهيم المعروف بالخريطة دار ، وهو صاحب الكاغذ والأقلام بدار السلطان ، واليا على بلاد حَانِسِي وَسَرَسْتِي ، لما تحرك السلطان إلى بلاد المعبر ، وأبوه هو القائم ببلاد المعبر ، الشريف أحسن شاه . فلما أُرْجِفَ بموت السلطان طمع إبراهيم في السلطنة . وكان شجاعا كريما حسن الصورة . وكنت متزوجا بأخته حُورُنَسَب . وكانت صالحة تهجد بالليل ، ولها أورد من ذكر الله عز وجل . وكانت تقرأ لكنها لا تكتب . فلما همم إبراهيم بالثورة ، اجتاز به أمير من أمراء السند ، ومعه الأموال يحملها إلى دهلي . فقال له إبراهيم : إن الطريق مخوف وفيه القَطْع ، فأقم عندي حتى يصلح الطريق وأوصلك إلى المأمن . وكان قصده أن يتحقق موت السلطان ، فيستولى على تلك الأموال . فلما تحقق حياته سرح ذلك الأمير ، وكان يسمى ضياء الملك بن شمس الملك . ولما وصل السلطان إلى الحضرة بعد غيبته سنتين ونصف سنة ، وصل الشريف

إبراهيم إليه ، فوشى به بعض غلمانہ ، وأعلم السلطان بما كان همّ به . فأراد السلطان أن يعجل بقتله ، ثم أتى لمحبتہ له . فاتفق أن أتى يوما إلى السلطان بغزال مذبوح ، فنظر إلى ذبخته فقال : ليس بجيد الذكاة ، اطرحوه . فرآه إبراهيم فقال : إن ذكاته جيدة وأنا آكله . فأخبر السلطان بقوله ، فأنكر ذلك ، وجعله ذريعة إلى أخذه . فأمر به فقيّد وغلّ . ثم قرره على ما رمى به من أنه أراد أخذ الأموال التي مرّ بها ضياء الملك . وعلم إبراهيم أنه إنما يريد قتله بسبب أبيه ، وأنه لا تنفعه معذرة ، وخاف أن يعذب . فرأى الموت خيرا له ، فأقر بذلك . فأمر به فوسّط وترك هنالك . وعادتهم أنه متى قتل السلطان أحدا أقام مطروحا بموضع قتله ثلاثا ، فإذا كان بعد الثلاث اخذه طائفة من الكفار موكلون بذلك ؛ فحملوه إلى خندق خارج المدينة يطرحونه به ، وهم يسكنون حول الخندق ، لئلا يأتي أهل المقتول فيعرفوه . وربما أعطى بعضهم هؤلاء الكفار ما لا فتجافوا له عن قتيله حتى يدفنه . وكذلك فعل بالشريف إبراهيم ، رحمه الله تعالى .

ذكر خلاف نائب السلطان ببلاد التلّينك

ولما عاد السلطان من التلّينك وشاع خبر موته ، وكان ترك تاج الملك نصرة خان نائبا عنه ببلاد التلّينك ، وهو من قدماء خواصه ، بلغه ذلك فعمل عزاء السلطان ، ودعا لنفسه وبايعه الناس بحضرة بدرکوت . فبلغ خبره السلطان ، فبعث معلمه قُطلو خان في عساكر عظيمة فحصره بعد قتال شديد ، هلك فيه أمم من الناس . واشتد الحصار على أهل بدرکوت وهي منيعة . وأخذ قُطلو خان في نقبها . فخرج إليه نصرة خان على الأمان في نفسه فأمنه . وبعث به إلى السلطان . وأمن أهل المدينة والعسكر .

ذِكْرُ انْتِقَالِ السُّلْطَانِ إِلَى نَهْرِ الْكِنْكَ وَقِيَامِ عَيْنِ الْمَلِكِ ^(١)

ولما استولى القحط على البلاد انتقل السلطان بعساكره إلى نهر الكنك ،
الذي تحج إليه الهنود ، على مسيرة عشر من دَهْلِي . وأمر الناس بالبناء ،
وكانوا قبل ذلك صنعوا خياما من حشيش الأرض ، فكانت النار كثيرا ماتقع
فيها وتؤذى الناس ، حتى كانوا يصنعون كهوفا تحت الأرض . فإذا وقعت
النار رموا أمتعتهم بها وسدوا عليها بالتراب . ووصلت أنا في تلك الأيام إلى
مَحَلَّةِ السُّلْطَانِ . وكانت البلاد التي بغربي النهر حيث السلطان شديدة القحط ،
والبلاد التي بشرقيهِ خُصْبَةٌ ، وأميرها عين الملك بن ماهر ، ومنها مدينة
عَوْض ^(٢) ومدينة ظَفَرِ آبَاد ومدينة اللَّكْنُو وغيرها . وكان الأمير عين الملك
كل يوم يُحْضِرُ خمسين ألفَ مَن ^(٣) منها قمح وأرز وحمص لعلف الدواب .
فأمر السلطان أن يحمل القبلة ومعظم الخيل والبغال إلى الجهة الشرقية المَحْضَبَةِ
لترعى هنالك . وأوصى عين الملك بحفظها . وكان لعين الملك أربعة إخوة :
وهم شهر الله ونصر الله وفضل الله ، ولا أذكر اسم الآخر . فانفقوا مع أخيه
عين الملك على أن يأخذوا فيلَّةَ السُّلْطَانِ ودوابه ، ويباعوا عين الملك
ويقوموا على السلطان . وهرب إليهم عين الملك بالليل وكاد الأمر يتم لهم .
ومن عادة ملك الهند أنه يجعل مع كل أمير كبير أو صغير مملوكا له يكون عينا
عليه ويعرفه بجميع حاله . ويجعل أيضا جوارى في الدور يكتن عيوننا له على
أمرائه ، ونسوة يسميهن الككاسات ، يدخلن الدور بلا استئذان ، ويخبرهن
الجوارى بما عندهن ، فتخبر الككاسات بذلك المخبرين ، فيخبرون بذلك

(١) نهر الكنج

(٢) قال ياقوت : اسم بلد بعيد عنا في أواسط بلاد الهند ، تأتيه التجار بعد مشقة .

(٣) المن رطلان . كما سبق في الحواشي .

السلطان . وكان للسلطان مملوك يعرف بابن ملك شاه ، هو عين على عين الملك هذا ، فأخبر السلطان بفراره وجوازه النهر ، فسقط في يده ، وظن أنها القاضية عليه : لأن الخيل والفيلة والزرع ، كل ذلك عند عين الملك ، وعساكر السلطان مفترقة . فأراد أن يقصد حضرته ويجمع العساكر وحينئذ يأتي لقتاله . وشاور أرباب الدولة في ذلك . وكان أمراء خراسان والغرباء أشد الناس خوفاً من هذا القائم ، لأنه هندي وأهل الهند مبغضون للغرباء ، فكروهوا ما ظهر به ، وقالوا : يا خوند عالم ، إن فعلت ذلك بلغه الخبر ، فاشتد أمره ورتب العساكر ، وانثال عليه طلاب الشرودعاة الفتن . والأولى معاجلته قبل استحكام قوته . وكان أول من تكلم بهذا ناصر الدين مظهر الأوهري . ووافقهم جميعهم . فعمل السلطان بإشارتهم . وكتب تلك الليلة إلى من قرب منه من الأمراء والعساكر ، فأتوا من حينهم ، وأدار في ذلك حيلة حسنة : فكان إذا قدم على محلته مثلاً مائة فارس ، بعث الآلاف من عنده للقائهم ليلاً ودخلوا معهم إلى المحلة ، كأن جميعهم مددله . وتحرك السلطان مع ساحل النهر ليجعل مدينة قنوج وراء ظهره ، ويتحصن بها لمنعتها وحصاتها . وبينها وبين الموضع الذي كان به ثلاثة أيام . فرحل أول مرحلة وقد عبأ جيشه للحرب ، وجعلهم صفواً واحداً عند نزولهم ، كل واحد منهم بين يديه سلاحه وفرسه إلى جانبه ، ومعه خياب صغير يأكل به ويتوضأ ويعود إلى مجلسه . والمحلة الكبرى على بعد منهم . ولم يدخل السلطان في تلك الأيام الثلاثة خياباً ولا استظل بظل . وكنت في يوم منها بجبائي ، فصاح بي فتى من فتيان اسمه سنبل واستعجلني . وكان معي الجوارى نخرجت إليه . فقال : إن السلطان أمر الساعة أن يقتل كل من معه امرأته أو جاريته . فشفع عنده الأمراء ، فأمر ألا تبقى الساعة بالحلة امرأة ، وأن يُعْمَل إلى حصن هناك على ثلاثة أميال . فلم تبقى امرأة بالحلة ولا مع

السلطان . وبتنا تلك الليلة على تعبته . فلما كان في اليوم الثاني رتب السلطان
عسكره أفواجا ، وجعل مع كل فوج الفيصلة المدزعة وعليها الأبراج وفوقها
المقاتلة . وتدرع العسكر وتهبثوا للحرب ، وباتوا تلك الليلة على أهبة .
ولما كان اليوم الثالث شاع أن عين الملك النائر أجاز النهر ، نخاف
السلطان ذلك ، وتوقع أنه لم يفعله إلا بعد مر اسلة الأمراء الباقين مع
السلطان . فأمر في الحين يقسم الخيل العتاق على خواصه ، وبعث لى حضا
منها . وكان لى صاحب يسمى (أمير أميران) الكرماني من الشجعان . فأعطيته
فرسا منها أشهب اللون . فلما حركه جمح به ، فلم يستطيع إمساكه ورماه عن
ظهره ، فبات رحمه الله تعالى . وجد السلطان ذلك اليوم في مسيره فوصل
بعد العصر إلى مدينة قنوج . وكان يخاف أن يسبقه القائم إليها . وبات
ليلته تلك يرتب الناس بنفسه . ووقف علينا ونحن في المقدمة مع ابن عمه
(الملك فيروز) ، ومعنا الأمير غدا بن مهنا ، والسيد ناصر الدين مطهر ، وأمراء
خراسان . فأضافنا إلى خواصه وقال : أتم أعزة على ، وما ينبغي أن تفارقوني .
وكان في عاقبة ذلك الخير : فإن القائم ضرب في آخر الليل على المقدمة ، وفيها
الوزير خواجه جهان ، فقامت ضجة في الناس كبيرة . فحينئذ أمر السلطان
ألا يبرح أحد مكانه ، ولا يقاتل الناس إلا بالسيوف . فاستل العسكر سيوفهم
ونفضوا إلى أصحابهم . وحمي القتال . وأمر السلطان أن يكون شعار جيشه :
دهلي وغزنة . فإذا لقي أحدهم فارسا قال له : دهلي . فإن أجابه بغزنة علم أنه من
أصحابه ، وإلا قاتله . وكان القائم إنما قصد أن يضرب على موضع السلطان ،
فأخطأ به الدليل ، فقصد موضع الوزير . فضرب عنق الدليل . وكان في عسكر
الوزير الأتاجم والترک والحراسانيون وهم أعداء الهنود ، فصعدوا القتال .
وكان جيش القائم نحو الخمسين ألفا فانهزموا عند طلوع الفجر . وكان الملك
إبراهيم المعروف بالبنيجي التتري قد أقطعه السلطان بلاد سنديلة ، وهي قريبة

من بلاد عين الملك ، فاتفق معه على الخلاف وجعله نائبه . وكان داود بن قطب الملك وابن ملك التجار على فيلة السلطان وخيله ، فوافقاه أيضا ، وجعل داود حاجبه . وكان داود هذا لما ضربوا على محلة الوزير ، يجهز سب السلطان ، ويشتمه أقبح شتم ، والسلطان يسمع ذلك ويعرف كلامه . فلما وقعت الهزيمة قال عين الملك لنائبه إبراهيم التتري : ماذا ترى يا ملك إبراهيم ؟ قد فر أكثر العسكر وذوو النجدة منهم ، فهل لك أن تنجو بأنفسنا ؟ فقال إبراهيم لأصحابه بلسانهم : إذا أراد عين الملك أن يفر فإنني سأقبض على دبوقته (١) . فإذا فعلت ذلك فاضربوا أتم فرسه ليستقل إلى الأرض فتقبض عليه ونأتي به السلطان ، ليكون ذلك كفارة لذنب في مخالفته ، وسببا لخلاصه .

فلما أراد عين الملك الفرار قال له إبراهيم : إلى أين يا سلطان علاء الدين ؟ وكان يسمى بذلك ، وأمسك بدبوقته وضرب أصحابه فرسه ، فسقط إلى الأرض ، ورمى إبراهيم بنفسه عليه ، وجاء أصحاب الوزير ليأخذوه فمنعهم ، وقال : لا أتركه حتى أوصله إلى الوزير أو أموت دون ذلك . فتركوه فأوصله إلى الوزير . وكنت أنظر عند الصباح إلى القبلة والأعلام يأتى بها إلى السلطان . ثم جاءني بعض العراقيين فقال : قد قبض على عين الملك وأُتِيَ به إلى الوزير . فلم أصدق . فلم يمر إلا يسير حتى جاءني الملك تَمُور الشُّردار ، فأخذ بيدي وقال : أبشر فقد قبض على عين الملك وهو عند الوزير . فتحرك السلطان عند ذلك ونحن معه إلى محلة عين الملك على نهر الكنك ، فنهبت العساكر ما فيها . واقتحم كثير من عسكر عين الملك النهر فغرقوا ، وأخذ داود بن قطب الملك وابن ملك التجار وخلق كثير معهم . ونهبت الأموال والخيل والأمتعة . ونزل السلطان على الحجاز . وجاء الوزير بعين الملك وقد أركب على ثور ، وهو عريان مستورا العورة بخرقه مربوطة بجبل ، وبقية في عنقه . فوقف على باب (السراجة) .

(١) الشعر المضمور ، مولدة . قاموس .

وجاء أبناء الملوك إلى عين الملك بفعلوا يسبونهُ ويصُفون في وجهه ، ويصفون أصحابه . وبعث إليه السلطانُ الملكَ الكبير ، فقال له : ما هذا الذي فعلت ؟ فلم يجد جواباً . فأمر به السلطان أن يكسى ثوباً من ثياب الزمالة^(١) وقيد بأربعة كُيول^(٢) ، وُعُلَّت يده إلى عنقه وسُلم إلى الوزير ليحفظه . وجاز إخوته النهر هار بين ووصلوا مدينة عَوْض ، فأخذوا أهلهم وأولادهم وما قدروا عليه من المال ، وقالوا لزوجة أخيه من الملك : اخُلصي بنفسك وبنيك معنا . فقالت : أفلا أكون كنساء الكفار اللأئى يحرقن أنفسهن مع أزواجهن ؟ فأنا أيضاً أموت لموت زوجي وأعيش لعيشه . فتركوها . وبلغ ذلك السلطان فكان سبب خيرها ، وأدركتها لها رقة . وأدرك الفتى سهيل نصر الله من أولئك الأخوة فقتل وأتى السلطان برأسه . وأتى بأم عين الملك وأخته وامراته ، فسلمن إلى الوزير وجعلن في خباء بقرب خباء عين الملك . فكان يدخل إليهن ويجلس معهن ويعود إلى محبسه .

ولما كان بعد العصر من يوم الهزيمة ، أمر السلطان بسراح لقيف الناس الذين مع عين الملك ، من الزمالة والسوقة والعييد ومن لا يعأ به . وأتى بالملك إبراهيم البنجي الذي ذكرناه ، فقال ملك العسكر : ياخوند عالم ، اقتل هذا فإنه من المخالفين . فقال الوزير : إنه قد فدى نفسه بالقائم . فعفا عنه السلطان وسرّحه إلى بلاده . ولما كان بعد المغرب جلس السلطان ببرج الخشب ، وأوتى باثنين وستين رجلاً من كبار أصحاب القائم ، وأتى بالقبيلة فطرحوا بين أيديها . فجعلت تقطعهم بالحدائد الموضوعة على أنيابها ، وترمي بعضهم إلى الهواء وتتلقفه ، والأبواق (والأنقار) والطبول تضرب عند ذلك ، وعين الملك واقف يعاين مقتلهم ، ويُطرح منهم عليه . ثم أعيد إلى محبسه .

(١) لم نعر على معنى ملائم لهذه الكلمة في كتب اللغة . ويراد بها هنا سائق ودواب الحمل .

(٢) جمع كَل وهو التويد .

وأقام السلطان على جواز النهر أياما لكثرة الناس وقلة القوارب . وأجاز أمتعه ونزائنه على الفيلة . وفرق الفيلة على خواصه ليحيزوا أمتعتهم . وبعث إلى بفيل منها أجزت عليه رحلي . وقصد السلطان ونحن معه إلى مدينة بهرايج ، وهي مدينة حسنة في عدوة نهر السرو ، وهو واد كبير شديد الانحدار . وأجازه السلطان لزيارة قبر الشيخ الصالح البطل سالارعود ، الذي فتح أكثر تلك البلاد . وله أخبار عجيبة وغزوات شهيرة . وتكاثر الناس للجواز وتراحوا ، حتى غرق مركب كبير كان فيه نحو ثلاثمائة نفس ، لم ينج منهم إلا عربي من أصحاب الأمير غدا . وكنا ركبنا نحن في مركب صغير فسامنا الله تعالى . وكان العربي الذي سلم من الغرق يسمى بسالم ، وذلك اتفاق عجيب . وكان أراد أن يصعد معنا في مركبنا فوجدنا قد ركبنا النهر ، فركب في المركب الذي غرق . فلما خرج ظن الناس أنه كان معنا ، فقامت ضجة في أصحابنا وفي سائر الناس ، وتوهموا أنا غرقنا . ثم لما رأونا بعد استبشروا بسلامتنا . وزرنا قبر الصالح المذكور ، وهو في قبة لم نجد سبيلا إلى دخولها لكثرة الزحام . وفي تلك الوجهة دخلنا غيضة قصب ، نخرج علينا منها الكركدن ، فقتل وأتى برأسه . وهو دون الفيل . ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف . وقد ذكرناه .

ذكر عودة السلطان لحضرته ومخالفة علي شاه كركر

ولما ظفر السلطان بعين الملك كما ذكرنا ، عاد إلى حضرته بعد مغيب عامين ونصف ، وعفا عن عين الملك ، وعفا أيضا عن نصره خان القائم ببلاد التيلنك ، وجعلهما معا على عمل واحد ، وهو النظر على بساتين السلطان . وكساهما وأركبهما ، وعين لهما نفقة من الدقيق واللحم في كل يوم . وحدث

بعد ذلك أن أحد أصحاب قُطْلُوخَان ، وهو على شاه كر (ومعنى كر الأطرش) خالف على السلطان . وكان شجاعا حسن الصورة والسيرة . فغلب على بَدْرَكُوت ، وجعلها مدينة ملكه ، وخرجت العساكر إليه . وأمر السلطان معامه أن يخرج إلى قتاله . فخرج في عساكر عظيمة وحصره ببدر كوت ، ونقبت أبراجها ، واشتدت به الحال ، فطلب الأمان . فَأَمَّنَهُ قُطْلُوخَان ، وبعث به إلى السلطان مقيدا . فعفا عنه ونفاه إلى مدينة غَزَنَةَ ، من طرف خُرَّاسَان ، فأقام بها مدة ، ثم اشتاق إلى وطنه فأراد العودة إليه ، لما قضاه الله من حَيِّئِهِ ، فقبض عليه ببلاد السند وأتى به السلطان ، فقال له : إنما جئت لتثير الفساد ثانية ، وأمر به فضربت عنقه .

ذكر فرار أمير بنجت وأخذه

وكان السلطان قد وجد على أمير بنجت الملقب بشرف الملك ، أحد الذين وفدوا معنا على السلطان ، فخطَّ مرتبه من أربعين ألفا إلى ألف واحد . وبعثه في خدمة الوزير إلى دهلي . واتفق أن مات أمير عبد الله المَسْرُوي في الوباء في التَّيْلِيْنِك ، وكان ماله عند أصحابه بدهلي ، فاتفقوا مع أمير بنجت على الهرب . فلما خرج الوزير من دهلي إلى لقاء السلطان ، هربوا مع أمير بنجت وأصحابه ووصلوا إلى أرض السند ، في سبعة أيام ، وهو مسيرة أربعين يوما . وكان معهم الخيل مجنوبة^(١) ، وعزموا على أن يقطعوا نهر السند عوما ، ويركب أمير بنجت وولده وهن لا يحسن العوم في (معدية^(٢)) قَصَب يصنعونها . وكانوا قد أعدوا جبالا من الحرير لذلك . فلما وصلوا إلى النهر

(١) جنَبَ الفرس والأسير قاده إلى جنَبه . لسان .

(٢) يريد المعبر الذي يجاز به النهر . وايسست عربية . وقد وردت كثيرا في هذا الكتاب .

خافوا عبوره بالعموم . فبعثوا رجلين منهم إلى جلال الدين صاحب مدينة
أوجه ، فقالا له : إن ها هنا تجارا أرادوا أن يعبروا النهر . وقد بعثوا إليك
بهذا السرج لتبيح لهم الجواز . فأنكر الأمير أن يعطى التجار مثل ذلك السرج ،
وأمر بالقبض على الرجلين ، ففر أحدهما ولحق بشرف الملك وأصحابه وهم
نيام ، ليأخذ حقهم من الإعياء ومواصلة السهر ، فأخبرهم الخبر فركبوا
مذعورين وفروا . وأمر جلال الدين بضرب الرجل الذى قبض عليه ،
فاعترف بقضية شرف الملك . فأمر جلال الدين نائبه فركب فى العسكر
وقصدوا نحوهم ، فوجدوهم قد ركبوا ، فاقتفوا أثرهم فأدركوهم ، فرموا العسكر
بالنشاب . ورمى طاهر بن شرف الملك نائب الأمير جلال الدين بسهم فأثبته
فى ذراعه . وغلب عليهم ، فأتى بهم إلى جلال الدين فقيدهم وغل أيديهم ،
وكتب إلى الوزير فى شأنهم ، فأمره الوزير أن يعيئهم إلى الحضرة . فبعثهم
إليها وسجنوا بها . فمات طاهر فى السجن . فأمر السلطان أن يضرب شرف
الملك مائة مقرعة فى كل يوم . فبقى على ذلك مدة . ثم عفا عنه . وبعثه مع
الأمير نظام الدين أمير تجلّة إلى بلاد جنديرى . فاتته حاله إلى أن كان
يركب البقر ولم يكن له فرس يركبه . وأقام على ذلك مدة . ثم وفد ذلك الأمير
على السلطان وهو معه ، فجعله السلطان شاشنكيره (جاشنكير) ، وهو الذى
يقطع اللحم بين يدى السلطان ، ويمشى مع الطعام . ثم إنه بعد ذلك توه به
ورفع مقداره . واتته حاله إلى أن مرض فزاد السلطان ، وأمر بوزنه
بالذهب وأعطاه ذلك . وقد قدمنا هذه الحكاية فى السفر الأول . وبعد
ذلك زوجه بأخته وأعطاه بلاد جنديرى التى كان بها يركب البقر فى خدمة
الأمير نظام الدين . فسبحان مقلب القلوب ومحول الأحوال .

ذكر خلاف شاه أفغان بأرض السند

وكان شاه أفغان خالف على السلطان بأرض مُتَان من بلاد السند ، وقتل الأمير بها ، وكان يسمى (به زاد) . وادعى السلطنة لنفسه . وتجهز السلطان لقتاله فعلم أنه لا يقاومه . فهرب ولحق بقومه الأفغان ، وهم ساكنون بيجال منيعة لا يُقدَّر عليها . فاغتاظ السلطان مما فعله ، وكتب إلى عماله أن يقبضوا على من وجدوه من الأفغان ببلاده . فكان ذلك سببا لخلاف القاضي جلال .

ذكر خلاف القاضي جلال

وكان القاضي جلال وجماعة من الأفغانيين قاطنين بمقرية من مدينة كِنْبَاية ومدينة بُلُوذَرَة . فلما كتب السلطان إلى عماله بالقبض على الأفغانيين ، كتب إلى (الملك مُقْبِل) نائب الوزير ببلاد الجُزْرَات ونهر وَاَلَة ، أن يحثال في القبض على القاضي جلال ومن معه . وكانت بلاد بُلُوذَرَة إقطاعا لملك الحكماء . وكان ملك الحكماء متزوجا بربيبة السلطان زوجة أبيه تُغَلُق ، ولها بنت من تغلق ، هي التي تزوجها الأمير غَدَا . وملك الحكماء إذ ذاك في صحبة مقبل ، لأن بلاده تحت نظره . فلما وصلوا إلى بلاد الجُزْرَات أمر مقبل ملك الحكماء أن يأتي بالقاضي جلال وأصحابه . فلما وصل ملك الحكماء إلى بلاده ، حذرهم في خُفْيَة لأنهم كانوا من أهل بلاده . وقال : إن مقبلا طلبكم ليقبض عليكم فلا تدخلوا عليه إلا بالسلاح . فركبوا في نحو ثلاثمائة مدرع وأتوه ، وقالوا : لا ندخل إلا جملة . فظهر له أنه لا يمكن القبض عليهم وهم مجتمعون ، وخافهم فأمرهم بالرجوع ، وأظهر تأمينهم .

نخالفوا عليه ودخلوا مدينة كَنْبَايَة ، ونهبوا خزانة السلطان بها وأموال الناس . ونهبوا مال ابن الكَوَيْمِيّ التاجر ، وهو الذي عمر المدرسة الحسنة بالإسكندرية . وسنذكره إثر هذا . وجاء ملك مقبل لقتالهم فهزموه هزيمة شنيعة . وجاء الملك عزيز الخَمَّار والملك جِهَان لقتالهم في سبعة آلاف من الفرسان ، فهزموهم أيضا . وتسامع بهم أهل الفساد والجرائم فانتالوا عليهم . وادعى القاضي جلال السلطنة وبايعه أصحابه . وبعث السلطان إليه العساكر فهزماها . وكان بدولة آباد جماعة من الأفغان نخالفوا أيضا .

ذكر خلاف ابن الملك مَلّ

وكان ابن الملك مَلّ ساكنا بدولة آباد في جماعة من الأفغان . فكتب السلطان إلى نائبه بها وهو نظام الدين أخو معلمه قَطْلُوخان ، أن يقبض عليهم . وبعث إليه بأعمال كثيرة من القيود والسلاسل . وبعث بِخَلْع الشتاء . وعادة ملك الهند أن يبعث لكل أمير على مدينة ولوجوه عسكره خَاصَتَيْن في السنة ، خِلعة الشتاء وخِلعة الصيف . وإذا جاءت الخلع يخرج الأمير والعسكر للقائها ، فإذا وصلوا إلى الآتي بها نزلوا عن دوابهم ، وأخذ كل واحد خِلعة وحملها على كتفه ، وَخَدَم لجهة السلطان . وكتب السلطان لنظام الدين : إذا خرج الأفغان ونزلوا عن دوابهم لأخذ الخلع فاقبض عليهم عند ذلك . وأتى أحد الفرسان الذين أوصلوا الخلع إلى الأفغان فأخبرهم بما يراد بهم . فكان نظام الدين ممن احتال فانعكست عليه . فركب وركب الأفغان معه حتى إذا لَقُوا الخلع ونزل نظام الدين عن فرسه ، حملوا عليه وعلى أصحابه ، فقبضوا عليه وقتلوا كثيرا من أصحابه ، ودخلوا المدينة فأخذوا الخزائن ، وقدموا على أنفسهم ناصر الدين ابن الملك مَلّ ، وانتال عليهم المفسدون فقويت شوكتهم .

ذكر خروج السلطان بنفسه إلى كِنْبَايَا

ولما بلغ السلطان ما فعله الأفغان بكِنْبَايَا ودولة آباد ، خرج بنفسه وعزم على أن يبدأ بكِنْبَايَا ثم يعود إلى دولة آباد ، وبعث (أعظم ملك) البايزیدی صهره ، في أربعة آلاف مقدّمة ، فاستقبلته عساكر القاضي جلال ، فهزموه وحصروه ببُلُوذَرَة وقاتلوه بها . وكان في عسكر القاضي جلال شيخ يسمى جَلُول ، وهو أحد الشجعان . فلا يزال يفتك بالعساكر ويقتل ويطلب المبارزة فلا يتجاسر أحد على مبارزته . واتفق يوما أنه دفع فرسه فكبأه في حفرة فسقط عنه وقتل . ووجدوا عليه درعين فبعثوا برأسه إلى السلطان ، وصلبوا جسده بسور بُلُوذَرَة ، وبعثوا يديه ورجليه إلى البلاد . ثم وصل السلطان بعساكره ، فلم يكن للقاضي جلال من ثبات ، ففر في أصحابه وتركوا أموالهم وأولادهم فنهب ذلك كله . ودخلت المدينة ، وأقام بها السلطان أياما ثم رحل عنها . وترك بها صهره شرف الملك أمير بخت الذي قدّمنا ذكره وقضية فراره وأخذه بالسند وتجنّبه ، وما جرى عليه من الذل ثم من العز . وأمره بالبحث عن من كان في طاعة جلال الدين . وترك معه الفقهاء ليحكم بأقوالهم ، فأدى ذلك إلى قتل الشيخ علي الحيدري على ما قدمناه . ولما هرب القاضي جلال لحق بناصر الدين ابن الملك ملّ بدولة آباد ودخل في جملة . فأتى السلطان بنفسه إليهم ، واجتمعوا في نحو أربعين ألفا من الأفغان والترك والهنود والعييد ، وتحالفوا على ألا يفروا ، وأن يقاتلوا السلطان . وأتى السلطان لقتالهم ، ولم يرفع (الشطر) ^(١) الذي هو علامة عليه . فلما استحر القتال رفع (الشطر) . فلما عاينوه دهشوا وانهمزوا أقبح هزيمة ، ولحق ابن الملك ملّ والقاضي جلال في نحو أربعين ألفا من خواصهما إلى قلعة الدوبقيير ، وسند كرها .

(١) المظلة كما سبق ، غير عربية ، بل معربة عن (جتر) .

وهي من أمنع قلاع الدنيا . واستقر السلطان بمدينة دولة آباد ، والدويقير هي قلعتهما . وبعث لهم أن يتزلوا على حكمه ، فأبوا أن ينزلوا إلا على الأمان ، فأبى السلطان أن يؤمنهم ، وبعث لهم الأطعمة تهاونا بهم ، وأقام هنالك . وعلى ذلك آخر عهدى بهم .

ذكر قتال مُقبِلِ وابنِ الكَوَلِمِيِّ

وكان ذلك قبل خروج القاضي جلالٍ وخلافه . وكان تاج الدين بن الكَوَلِمِيِّ من كبار التجار ، فوفد على السلطان من أرض الترك بهدايا جلييلة ، منها الممالك والجمال والمتاع والسلاح والثياب . فأعجب السلطان فعله وأعطاه اثني عشر لكا^(١) . ويذكر أنه لم تكن قيمة هديته إلا لكا واحدا . وولاه مدينة كَنبَاية ، وكانت لنظر الملك مقبل نائب الوزير . فوصل إليها وبعث المراكب إلى بلاد المَلْبِيَّار^(٢) وجزيرة سِيلَان وغيرها ، وجاءته التحف والهدايا في المراكب ، وصَحَّحْت حاله . ولما لم يبعث أموال تلك الجهات إلى الحضرة ، بعث الملك مُقبِل إلى ابن الكَوَلِمِيِّ أن يبعث ما عنده من الهدايا والأموال ، مع هدايا تلك الجهات على العادة ، فامتنع ابن الكَوَلِمِيِّ من ذلك وقال : أنا أحملها بنفسى أو أبعثها مع خدامى . ولا حكم لنائب الوزير على ، ولا للوزير . واعتربما أولاه السلطان من الكرامة والعطية . فكتب مقبل إلى الوزير بذلك ، فوقع له الوزير على ظهر كتابه : إن كنت عاجزا عن بلادنا فتركها وارجع إلينا . فلما بلغه الجواب ، تجهز في عسكره ومماليكه ، والتقيا بظاهر كَنبَاية ، فانهمز ابن الكَوَلِمِيِّ ، وقُتِل جماعة من الفريقين ، واستخفى

(١) سبق تعريف اللك في ص ٦

(٢) الملبيار .

ابن الكَوَيْلِيَّ في دار النَأْخِذَةِ (١) إِيَّاس ، أَحَدَ كِبْرَاءِ التِّجَارِ ، وَدَخَلَ مَقْبَلَ
الْمَدِينَةِ ، فَضْرَبَ رِقَابَ أَمْرَاءِ عَسْكَرِ ابْنِ الْكَوْلِيِّ ، وَبَعَثَ لَهُ الْأَمَانَ ، عَلَى
أَنْ يَأْخُذَ مَالَهُ الْمُخْتَصَّ بِهٖ ، وَيَتْرَكَ مَالَ السُّلْطَانِ وَهَدِيَّتَهُ وَبِحَبِيءِ الْبَلَدِ . وَبَعَثَ
مَقْبَلَ بِذَلِكَ كُلَّهُ مَعَ خِدَامِهِ إِلَى السُّلْطَانِ . وَكَتَبَ شَاكِيًا ابْنَ الْكَوْلِيِّ
وَكَتَبَ ابْنُ الْكَوْلِيِّ شَاكِيًا إِيَّاهُ . فَبَعَثَ السُّلْطَانُ مَلِكَ الْحِكْمَاءِ لِيَنْصِفَ بَيْنَهُمَا .
وَبَيَّأُ ذَلِكَ كَانَ خُرُوجَ الْقَاضِي جَلَالِ الدِّينِ ، فَتَهَبَّ مَالَ ابْنِ الْكَوْلِيِّ .
وَفَرَّ ابْنُ الْكَوْلِيِّ فِي بَعْضِ مَمَالِكِهِ وَلَحِقَ بِالسُّلْطَانِ .

ذِكْرُ الْغَلَاءِ الْوَاقِعِ بِأَرْضِ الْهِنْدِ

وَفِي مَدَّةِ مَغِيْبِ السُّلْطَانِ عَنْ حَضْرَتِهِ ، إِذْ نَجَرَ بِقَصْدِ بِلَادِ الْمَعْبَرِ ،
وَقَعَ الْغَلَاءُ وَاشْتَدَّ الْأَمْرُ وَاتَّهَى الْمَنَ إِلَى سِتِّينَ دِرْهَمًا . ثُمَّ زَادَ عَلَى ذَلِكَ .
وَضَاقَتِ الْأَحْوَالُ وَعَظُمَ الْخُطْبُ . وَلَقَدْ نَجَرَتْ مَرَّةً إِلَى لِقَاءِ الْوَزِيرِ ،
فَرَأَيْتُ ثَلَاثَ نِسْوَةٍ يَقْطَعْنَ قِطْعًا مِنْ جِلْدِ فَرَسٍ مَاتَ مِنْذُ أَشْهُرٍ وَيَأْكُلْنَهُ .
وَكَانَتْ الْجُلُودُ تَطْبُخُ وَتَبَاعُ فِي الْأَسْوَاقِ . وَكَانَ النَّاسُ إِذَا دُيِّمَتْ الْبَقَرُ
أَخَذُوا دِمَاءَهَا فَأَكَلُوهَا . وَحَدَّثَنِي بَعْضُ طَلِبَةِ خِرَاسَانَ أَنَّهُمْ دَخَلُوا بِلَدَةً
تَسْمَى إِكْرُوهُةً ، بَيْنَ حَائِنِيٍّ وَسَرَسِيٍّ ، فَوَجَدُوهَا خَالِيَةً ، فَفَقَصَدُوا بَعْضَ الْمَنَازِلِ
لِيَبْتِئُوا بِهٖ ، فَوَجَدُوا فِي بَعْضِ بَيْوتِهِ رَجُلًا قَدْ أَضْرَمَ نَارًا وَبِيَدِهِ رِجْلَ آدَمِيٍّ ،
وَهُوَ يَسْوِيهَا فِي النَّارِ وَيَأْكُلُ مِنْهَا ، وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ . وَلَمَّا اشْتَدَّ الْحَالُ ، أَمَرَ
السُّلْطَانُ أَنْ يُعْطَى جَمِيعُ أَهْلِ دَهْلِيٍّ نَفَقَةَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ ، فَكَانَتْ الْقَضَاةُ وَالْكَتَّابُ
وَالْأَمْرَاءُ يَطُوفُونَ بِالْأَزْقَةِ وَالْحَارَاتِ ، وَيَكْتَبُونَ النَّاسَ وَيُعْطُونَ كُلَّ
أَحَدٍ نَفَقَةَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ ، بِحَسَابِ رَطْلٍ وَنِصْفِ مِنْ أَرْطَالِ الْمَغْرِبِ فِي الْيَوْمِ

(١) صَاحِبُ السُّفْنِ أَوْ وَكِيْلُهُ ، مَعْرَبَةٌ . قَامُوسٌ .

وَقَالَ الشَّارِحُ : الْمَشْهُورُ عِنْدَ أَكْثَرِ الْمَعْرَبِينَ إِهْمَالُ دَالِهَا .

لكل واحد . وكنت في تلك المدة أطعم الناس من الطعام الذي أصنعه
بِمَقْبَرَةِ السلطان قطب الدين ، على ما يذكر . فكان الناس يتعشون بذلك . والله
تعالى ينفع بالقصد فيه . وإذا قد ذكرنا من أخبار السلطان وما كان في أيامه
من الحوادث ما فيه الكفاية ، فأنعد إلى ما يخصنا من ذلك ، ونذكر كيفية
وصولنا أولاً إلى حضرته ، وتنقل الحال إلى خروجنا عن الخدمة ، ثم خروجنا
عن السلطان في الرسالة إلى الصين ، وعودنا منها إلى بلادنا ، إن شاء الله
تعالى .

ذكر وصولنا إلى دار السلطان عند قدومنا وهو غائب

ولما دخلنا حضرة دهلي قصدنا باب السلطان ، ودخلنا الباب الأول
ثم الثاني ثم الثالث ، ووجدنا عليه النقباء . وقد تقدم ذكرهم . فلما وصلنا
إليهم تقدم بنا تقيهم إلى (مشور) عظيم متسع ، فوجدنا به الوزير خواجه جهان
ينظرنا . فتقدم ضياء الدين خُداً ونُدزاده ، ثم تلاه أخوه قوام الدين ، ثم
أخوهما عماد الدين ، ثم تلوتهم ، ثم تلافى أخوهم برهان الدين ، ثم الأمير مبارك
السمرقندي ، ثم أرُنُّ بَغَا التركي ، ثم ملك زاده ابن أخت خُداوندزاده ،
ثم بدر الدين الفصّال . ولما دخلنا من الباب الثالث ظهر لنا (المشور) الكبير
المسمى هَزَارُ أُسْطُون ، ومعنى ذلك ألف سارية ، وبه يجلس السلطان
الجلوس العام . نخدم الوزير عند ذلك حتى قرب رأسه من الأرض .
وخدمنا نحن بالركوع ، وأوصلنا أصابعنا إلى الأرض . وخدمتنا لتاحية سرير
السلطان . وخدم جميع من معنا . فلما فرغنا من الخدمة صاح النقباء
بأصوات عالية : باسم الله ، وخرجنا .

ذكر وصولنا إلى دار أم السلطان وذكر فضائلها

وأم السلطان تدعى المخدمية جهان . وهى من أفضل النساء ، كثيرة الصدقات ، عمرت زوايا كثيرة ، وجعات فيها الطعام للوارد والصادر . وهى مكفوفة البصر . وسبب ذلك أنه لما ملك ابنها جاء إليها جمع الخواتين ، وبنات الملوك والأمراء فى أحسن زى ، وهى على سرير الذهب الموضع بالجوهر . نخدمن بين يديها جميعا فذهب بصرها للعين . وعولجت بأنواع العلاج فلم ينفع . وولدها أشد الناس برا بها . ومن بره أنها سافرت معه مرة فقدم السلطان قبلها بمدة ، فلما قدمت خرج لاستقبالها ، وترجل عن فرسه وقبل رجلها ، وهى فى المحفة بمرأى من الناس أجمين .

ولعد لما قصدناه فنقول : ولما انصرفنا عن دار السلطان خرج الوزير ونحن معه إلى باب الصرف ، وهم يسمونه باب الحرم . وهناك سكنى المخدمية جهان . فلما وصلنا بابها نزلنا عن الدواب ، وكل واحد منا قد أتى بهدية على قدر حاله . ودخل معنا قاضى قضاة المالِك ، كمال الدين بن البرهان ، نخدم الوزير والقاضى عند بابها وخدمنا نخدمتهم . وكتب كاتب بابها هدايانا . ثم خرج من الفتيان جماعة ، وتقدم بكارهم إلى الوزير فكلموه سرا . ثم عادوا إلى القصر ، ثم رجعوا إلى الوزير ، ثم عادوا إلى القصر ، ونحن وقوف . ثم أمرنا بالجلوس فى سقيف هنالك . ثم أتوا بالطعام ، وأتوا بقليل من الذهب مثل القدور . ولها مرافع من الذهب تجلس عليها . وأتوا بأقداح وطسوت وأباريق كلها ذهب . وجعلوا الطعام سماطين ، وعلى كل سباط صقان . ويكون فى رأس الصنف كبير القوم الواردين . ولما تقدمنا للطعام خدم الحجاب والنقباء وخدمنا نخدمتهم . ثم أتوا بالشرية فشربنا . وقال الحجاب : باسم الله . ثم أكلنا ، وأتوا بالفقاع ثم بالتائبول^(١) ، ثم قال الحجاب :

(١) تقدم فى الحواشى تفسير (الشرية) و(الفقاع) و(التائبول) .

باسم الله ، نخدمنا جميعا . ثم دُعِينَا إِلَى مَوْضِعٍ هُنَاكَ ، نَخْلَعُ عَلَيْنَا خِلْعَ الْحَرِيرِ الْمَذْهَبَةِ . ثُمَّ أَتَوْنَا بِنَا إِلَى بَابِ الْقَصْرِ نَخْدُمُنَا عِنْدَهُ ، وَقَالَ الْحِجَابُ : بِاسْمِ اللَّهِ . وَوَقَفَ الْوَزِيرُ وَوَقَفْنَا مَعَهُ . ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْ دَاخِلِ الْقَصْرِ نَحْتِ (١) ثِيَابٍ غَيْرِ مَخِيظَةٍ مِنْ حَرِيرٍ وَكَانَ وَقَطْنٌ . فَأَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا نَصِيْبَهُ مِنْهَا . ثُمَّ أَتَوْنَا بِطَيْفُورٍ (٢) ذَهَبَ فِيهِ الْفَاكِهَةُ الْيَابِسَةُ ، وَبَطَيْفُورٍ مِثْلَهُ فِيهِ الْجُلَّابُ ، وَطَيْفُورٍ ثَالِثٍ فِيهِ التَّائِبُولُ . وَمِنْ عَادَتِهِمْ أَنْ الَّذِي يُخْرَجُ لَهُ ذَلِكَ يَأْخُذُ الطَيْفُورَ بِيَدِهِ وَيَجْعَلُهُ عَلَى كَاهِلِهِ ، ثُمَّ يَخْدُمُ بِيَدِهِ الْأُخْرَى إِلَى الْأَرْضِ . فَأَخَذَ الْوَزِيرُ الطَيْفُورَ بِيَدِهِ لِيُعَلِّمَنِي كَيْفَ أَفْعَلُ ، إِنِّي سَأَسَاسًا مِنْهُ وَتَوَاضَعًا وَمَبَرَّةً . جَزَاهُ اللَّهُ خَيْرًا . فَفَعَلْتُ كَفَعَلِهِ . ثُمَّ انْصَرَفْنَا إِلَى الدَّارِ الْمَعْدَةِ لِتَزْوِلْنَا بِمَدِينَةِ دَهْلِي . وَبُعِثَتْ لَنَا الضِّيَافَةُ .

ذِكْرُ الضِّيَافَةِ

وَمَا وَصَلْتُ إِلَى الدَّارِ الَّتِي أُعِدَّتْ لِتَزْوِلِي ، وَجَدْتُ فِيهَا مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ فُرْشٍ وَبُسُطٍ وَحُصُرٍ وَأَوَانٍ وَسُرِيرٍ الرَّقَادِ . وَأَسْرَتَهُمْ بِالْهِنْدِ خَفِيفَةَ الْحَمْلِ . يَحْمِلُ السَّرِيرُ مِنْهَا الرَّجُلَ الْوَاحِدَ . وَلَا يَدَّ لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَسْتَصْحِبَ السَّرِيرَ فِي السَّفَرِ يَحْمِلُهُ غَلَامُهُ عَلَى رَأْسِهِ . وَهُوَ أَرْبَعُ قَوَائِمٍ مَخْرُوطَةٌ ، يُعْرَضُ عَلَيْهَا أَرْبَعَةُ أَعْوَادٍ . وَتَنْسَجُ عَلَيْهَا ضِفَائِرُ مِنَ الْحَرِيرِ أَوْ الْقَطْنِ . فَإِذَا نَامَ الْإِنْسَانُ عَلَيْهِ لَمْ يَحْتَجِ إِلَى مَا يَرْطُبُهُ بِهِ ، لِأَنَّهُ يُعْطَى الرُّطُوبَةَ مِنْ ذَاتِهِ . وَجَاءُوا مَعَ السَّرِيرِ (بُضْرَتَيْنِ) (٣) وَمِخْدَتَيْنِ وَلِحَافٍ ، كُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْحَرِيرِ . وَعَادَتُهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا لِلضَّرْبَاتِ وَاللُّخْفِ وَجُوهًا تَغْشِيهَا مِنْ دَنَّانٍ أَوْ قَطْنٍ بَيْضًا ، فَتَقِي تَوَسُّخَتِ

(١) التخت وعاء تصان فيه الثياب . قاموس .

(٢) الطيفور: طائر صغير كافي القاموس . ويراد به هنا وعاء على صورة هذا الطائر ، كما يفاهر .

(٣) يقصد بالمضربة الحشبة .

غسلوا الوجوه وبقي ما في داخلها مصونا . وأتوا تلك الليلة برجلين أحدهما الطاحوني ، والآخر الجزار ، ويسمونه القصاب ، فقالوا لنا : خذوا من هذا كذا وكذا من الدقيق ، ومن هذا كذا وكذا من اللحم ، لأوزان لا أذكرها الآن . وعادتهم أن يكون اللحم الذي يعطون بقدر وزن الدقيق . وهذا الذي ذكرناه ضيافة أم السلطان . وبعد ذلك وصلتنا ضيافة السلطان ، وسند كرها .

ولما كان من غد ذلك اليوم ركبنا إلى دار السلطان ، وسلمنا على الوزير ، فأعطاني يَدْرَتَيْن كل بدرة من ألف دينار دراهم . وأعطاني خلعة من المِرْعَزِ (١) . وكتب جميع أصحابي وخدامي وغلماني بفتحوا أربعة أصناف : فالصنف الأول منها أعطى كل واحد منهم مائتي دينار ، والصنف الثاني أعطى كل واحد منهم مائة وخمسين دينارا ، والصنف الثالث أعطى كل واحد مائة دينار ، والصنف الرابع أعطى كل واحد خمسة وسبعين دينارا . وكانوا نحو أربعين . وكان جملة ما أعطوه أربعة آلاف دينار ونيفا . وبعد ذلك عينت ضيافة السلطان ، وهي ألف رطل هندية من الدقيق ، ثلثها من الدرَمَك (٢) ، وثلثاها من الخشكار (٣) ، وألف رطل من اللحم ، ومن السكر والسمن والفوقل أرطال كثيرة لا أذكر عددها . وألف من ورق التَّانْبُول . والرطل الهندي عشرون رطلا من أرطال المغرب ، وخمسة وعشرون من أرطال مصر . وكانت ضيافة خُدَاوَنَد زاده أربعة آلاف رطل من الدقيق ، ومثلها من اللحم ، مع ما يناسبها مما ذكرناه .

(١) المرعز : الزغب الذي تحت شعر العنز . كما في كتب اللغة .

(٢) الدرَمَك : دقوق الحُوَّارَى . وهو الدقيق الأبيض ، وهو لباب الدقيق .

(٣) كعبة فارسية معناها ماخشن من الطحين . ويسمى بالعربية القُصْرَى كبشرى .

ذكر وفاة بنتي وما فعلوا في ذلك

ولما كان بعد شهر ونصف من مَقْدَمِنَا ، توفيت بنت لى سنها دون السنة . فاتصل خبر وفاتها بالوزير ، فأمر أن تدفن في زاوية بناها في خارج (دِرْوَاة بِالْم) ، بقرب مقبرة هنالك لشيخنا إبراهيم القُونَوِي . فدفناها بها . وكتب بحبرها إلى السلطان ، فأتاه الجواب في عَشِيِّ اليوم الثاني . وكان بين مُتَصَيْدِ السلطان وبين الحضرة مسيرة عشرة أيام . وعادتهم أن يخرجوا إلى قبر الميت صبيحة الثالث من دفنه ، وَيَقْرَئُونَ جَوَانِبَ القَبْرِ بِالْبُسْطِ وثياب الحرير ، ويجعلون على القبر الأزاهير ، وهي لا تنقطع هنالك في فصل من الفصول . ويجعلون أغصان النَّارُج والليمون بثمارها . وإن لم يكن فيها ثمار علقوا منها حبات بالخيوط . ويصبون على القبر الفواكه اليابسة وجَوْز النَّارِجِيل . ويجتمع الناس ويؤتى بالمصاحف فيقرءون القرآن . فإذا ختموه أتوا بماء الجَلَّاب^(١) فسقوه الناس . ثم يصب عليهم ماء الورد صبا . ويعطون التَّابُول وينصرفون .

ولما كان صبيحة الثالث من دفن هذه البنت ، خرجت عند الصبح على العادة وأعدت ما تيسر من ذلك كله ، فوجدت الوزير قد أمر بترتيب ذلك ، وأمر بسراجة فضربت على القبر ، وجاء الحاجب شمس الدين الفُوشَنجِي^(٢) ، الذي تلقانا بالسند ، والقاضي نظام الدين الكرواني^(٣) ، وجملة من كبار أهل المدينة . ولم آت إلا والقوم قد أخذوا مجالسهم والحاجب بين أيديهم ، وهم يقرءون القرآن . فقعدت مع أصحابي بمقربة من القبر . فلما فرغوا من القراءة قرأ القراء بأصوات حسان . ثم قام القاضي فقرأ رثاء في البنت المتوفاة وثناء على السلطان . وعند ذكر اسمه

(١) الجَلَّاب ماء الورد معرب . قاموس .

(٢) نسبة إلى فُوشَنج وهي بُوشَنج . انظر ص ١٣

(٣) لعله نسبة إلى كَرَوَان ؛ قرية بِطُوس . ياقوت .

قام الناس جميعا قياما نخدموا ثم جلسوا . ودعا القاضى دعاء حسنا ، ثم أخذ الحاجب وأصحابه براميل ماء الورد فصبوه على الناس ، ثم داروا عليهم بأفداح شربة النبات . ثم فرقوا عليهم التائبول . ثم أتى بإحدى عشرة خاخصة لى ولأصحابى . ثم ركب الحاجب وركبنا معه إلى دار السلطان ، نخدمنا للسريـر على العادة . وانصرفت إلى منزلى . فما وصلت حتى جاء الطعام من دار المخدومة جهان ، ماملأ الدار ودور أصحابى . وأكلوا جميعا وأكل المساكين . وفضلت الأقراص والحلواء والنبات ، فأقامت بقاياها أياما . وكان ذلك كله بأمر السلطان . وبعد أيام جاء الفتيان من دار المخدومة جهان (بالدولة) وهى المَحْفَة التى تُحمَل فيها النساء ويركبهن الرجال أيضا، وهى شبه السريـر ، سطحها من ضفائر الحرير أو القطن ، وعليها عود معوج من القصب الهندى ، يحملها ثمانية رجال فى نوبتين ، يستريح أربعة ويحمل أربعة . وهذه (الدول) بالهند كالخير بديار مصر ، عليها يُحمَل أكثر الناس ، فمن كان له عبيد حملوه ، ومن لم يكن له عبيد اكرتـى رجالا يحملونه . وبالبلد منهم جماعة يسيرة يقفون فى الأسواق ، وعند باب السلطان وعند أبواب الناس للكراء. وتكون (دول) النساء مغطاة بغشاء حرير . وكذلك كانت هذه (الدولة) التى أتى الفتيان بها من دار أم السلطان ، فحملوا فيها جاريتى التى هى أم البنت المتوفاة . وبعثت أنا معها هدية جارية تركية . فأقامت الجارية أم البنت عندهم ليلة ، وجاءت فى اليوم الثانى ، وقد أعطوها ألف دينار دراهم وأساور ذهب مرصعة وتهللا (١) من الذهب مرصعا أيضا ، وقمص كان مزركشا بالذهب ، وخلعة حرير مذهبة وتحتا بأثواب . ولما جاءت بذلك كله أعطيته أصحابى والتجار الذين لهم على الدين ، محافظة على نفسى وصونا لعرضى ، لأن الخبرين يكتبون إلى السلطان بجميع أحوالى .

(١) نوع من القلائد ، غير عربية فى هذا المعنى ، فيما نعلم .

ذكر إحسان السلطان والوزير إلى في أيام غيبة السلطان عن الحضرة

وفي أثناء مُقامى أمر السلطان أن يعين لى من القرى ما يكون فائده خمسة آلاف دينار في السنة. فعينها لى الوزير وأهل الديوان ، وخرجت إليها . وهذه القرى على مسافة ستة عشر (كروها) وهو الميل ، بصدى يعرف بصدى هِنْدَبْت ، والصدى عندهم مجموع مائة قرية . وأحواز المدينة مقسومة أصداء ، كل صدى له (جوطرى) ، وهو شيخ من كفار تلك البلاد ، ومتصرف ، وهو الذى يضم مجايها . وكان قد وصل فى ذلك الوقت سبى من الكفار ، فبعث الوزير إلى عشر جوار منه .

والكفار ببلاد الهند فى برمتصل وبلاد متصلة مع المسامين . والمسلمون غالبون عليهم . وإنما يمتنع الكفار بالجبال والأوعار ، ولهم غيضاة من القصب . وقصبهم غير مجوف ، ويعظم ويلتف بعضه على بعض ، ولا تؤثر فيه النار . وله قوة عظيمة . فيسكنون تلك الغياض وهى لهم مثل السور . وبداخلها تكون مواشيم وزروعهم ، ولهم فيها المياہ مما يجتمع من ماء المطر ، فلا يُقدّر عليهم إلا بالعساكر القوية من الرجال الذين يدخلون تلك الغياض ، ويقطعون ذلك القصب بآلات معدة لذلك .

ذكر العيد الذي شهدته أيام غيبة السلطان

وأظّل عيد الفطر والسلطان لم يعد بعد إلى الحضرة . فلما كان يوم العيد ركب الخطيب على الفيل ، وقد مهّد له على ظهره شبه السرير . وركبت أربعة أعلام في أركانه الأربعة . ولبس الخطيب ثياب السواد . وركب المؤمنون على الفيلة يُكبّرون أمامه ، وركب فقهاء المدينة وقضاتها . وكل واحد منهم يستصحب صدقة يتصدق بها حين الخروج إلى المصلى . ونصب على المصلى (صيوان) قطن ، وفرش بسط . واجتمع الناس ذاكرين لله تعالى . ثم صلى بهم الخطيب وخطب ، وانصرف الناس إلى منازلهم ، وانصرفنا إلى دار السلطان . وجعل الطعام ، فحضره الملوك والأمراء والأعزة وهم الغرباء ، وأكلوا وانصرفوا .

ذكر قدوم الساطان ولقائنا له

ولما كان في رابع شوال نزل السلطان بقصر يسمى تلبّت ، على مسافة سبعة أميال من الحضرة . فأمرنا الوزير بالخروج إليه فخرجنا ، ومع كل إنسان هديته من الخيل والجمال والفواكه الخراسانية والسيوف المصرية ، والمماليك والغنم المحلوّبة من بلاد الأتراك . فوصلنا إلى باب القصر وقد اجتمع جميع القادمين ، فكانوا يدخلون إلى السلطان على قدر مراتبهم ، ويخلع عليهم ثياب الكنان المزركشة بالذهب . ولما وصلت النوبة إلى ، دخلت فوجدت السلطان قاعدا على كرسي ، فظننته أحد الحجاب ، حتى رأيت معه ملك الندماء ناصر الدين الكافي الهروي ، وكنت عرفته أيام غيبة السلطان . فخدم الحاجب نخدمت . واستقبلني (أمير حاجب) ، وهو ابن عم

السلطان المسمى بِقَيْرُوز ، وخدمت ثانية لخدمته . ثم قال لي ملك الندماء :
باسم الله ، مولانا بدر الدين ، وكانوا يدعونني بأرض الهند بدر الدين . وكل
من كان من أهل الطلب إنما يقال له مولانا . فقربت من السلطان ، حتى أخذ
بيدي وصاحفني وأمسك يدي ، وجعل يخاطبني بأحسن خطاب ، ويقول لي
باللسان الفارسي : حلت البركة ، قدومك مبارك ، (اجمع خاطرك^(١)) ،
أعمل معك من المراحم ، وأعطيك من الإنعام ما يسمع به أهل بلادك
فيأتون إليك . ثم سألتني عن بلادى ، فقلت له : بلاد المغرب . فقال لي :
بلاد عبد المؤمن ؟ فقلت له : نعم . وكان كلما قال لي كلاما جيدا قبلت يده ،
حتى قبلتها سبع مرات . وخلع علي وانصرفت . واجتمع الواردون ، فمد لهم
سماط ، ووقف على رؤوسهم قاضى القضاة صدر الجهان ناصر الدين
الخوارزمي ، وكان من كبار الفقهاء ، وقاضى قضاة الماليك صدر الجهان
كمال الدين الغزنوي ، وعماد الملك ، والملك جلال الدين الكيجي ، وجماعة
من الحجاب والأمرء . وحضر لذلك خداوندزاده غياث الدين ، ابن عم
خداوند زاده قوام الدين قاضى ترمذ الذى قدم معنا . وكان السلطان يعظمه
ويخاطبه بالأخ ، وتردد إليه مرارا من بلاده .

والواردون الذين خلع عليهم فى ذلك اليوم هم خداوند زاده قوام الدين ،
وإخوته ضياء الدين وعماد الدين وبرهان الدين ، وابن أخته أمير بخت
ابن السيد تاج الدين ، وكان جده وجيه الدين وزير خراسان ، وكان خاله
علاء الدين أمير هند ووزيرا أيضا ، والأمير هبة الله ابن الفلكي التبريزي ،
وكان أبوه نائب الوزير بالعراق ، وهو الذى بنى المدرسة الفلكية بتبريز ،
وملك كراى من أولاد بهرام جور صاحب كسرى ، وهو من أهل جبل

(١) تعبير غريب . و يظهر أنه يريد : كن مطمئنا إلى الإقامة بيننا .

بَدَخْشَانِ الَّذِي مِنْهُ يَجْلِبُ الْيَاقُوتُ الْبَلَّخَشُ وَاللَّازُورُدُ ، وَالْأَمِيرُ مَبَارِكُ شَاهِ
السَّمَرَقَنْدِيِّ ، وَأَرْنُ بَغَا الْبُخَارِيِّ ، وَمَلِكُ زَادِ التَّرْمِذِيِّ ، وَشَهَابُ الدِّينِ
الكَازَرُونِي (١) التَّاجِرُ الَّذِي قَدِمَ مِنْ تَبْرِيزَ بِالْهَدِيَّةِ إِلَى السُّلْطَانِ ، فَسَلِبَ فِي
طَرِيقِهِ .

ذِكْرُ دُخُولِ السُّلْطَانِ حَضْرَتِهِ وَمَا أَمَرَ لَنَا بِهِ مِنَ الْمَرَائِبِ

وَفِي الْغَدِّ مِنْ يَوْمِ نَخْرُوجُنَا إِلَى السُّلْطَانِ ، أُعْطِيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا فَرَسًا مِنْ
مَرَائِبِ السُّلْطَانِ ، عَلَيْهِ سَرَجٌ وَجِلَامٌ مُخَلَّيَانٌ . وَرَكِبَ السُّلْطَانُ لِدُخُولِ
حَضْرَتِهِ ، وَرَكِبْنَا فِي مَقْدَمَتِهِ مَعَ صَدْرِ الْجِهَانِ ، وَزَيْنَتِ الْقَبِيلَةَ أَمَامَ السُّلْطَانِ ،
وَجَعَلَتْ عَلَيْهَا الْأَعْلَامَ ، وَرَفَعَ عَلَيْهَا سِتَّةَ عَشَرَ (شَطْرًا) ، مِنْهَا مِزْرَكُشَةٌ وَمِنْهَا
مِرْصَعَةٌ ، وَرَفَعَ فَوْقَ رَأْسِ السُّلْطَانِ (شَطْرًا) مِنْهَا . وَحَمَلَتْ أَمَامَهُ الْغَاشِيَةَ وَهِيَ
سِتَارَةٌ مِرْصَعَةٌ ، وَجَعَلَ عَلَى بَعْضِ الْقَبِيلَةِ رِعَادَاتَ (٢) صَغَارًا . فَلَمَّا وَصَلَ السُّلْطَانُ
إِلَى قَرْبِ الْمَدِينَةِ ، رَمَى فِي تِلْكَ الرِعَادَاتِ بِالْدِنَانِيرِ وَالْدِرَاهِمِ مِخْتَلِطَةً ، وَالْمَشَاةَ
بَيْنَ يَدَيْ السُّلْطَانِ وَسِوَاهِمُ مِنْ حَضَرَ يَلْتَقِطُونَ ذَلِكَ . وَلَمْ يَزَالُوا يَنْثَرُونَهَا إِلَى
أَنْ وَصَلُوا إِلَى الْقَصْرِ . وَكَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ آلَافٌ مِنَ الْمَشَاةِ عَلَى الْأَقْدَامِ .
وَصَنَعَتْ قَبَابَ الْخَشَبِ الْمَكْسُوتَةَ بِثِيَابِ الْحَرِيرِ ، وَفِيهَا الْمَغْنِيَاتُ ، عَلَى مَا
ذَكَرْنَا ذَلِكَ .

(١) نِسْبَةٌ إِلَى كَازَرُونَ ، مَدِينَةُ بَفَارِسَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ وَشِيرَازَ . يَاقُوتُ .

(٢) سَبَقَ تَفْسِيرَهَا فِي الْحَوَاشِي .

ذكر دخولنا عليه

وما أنعم به من الإحسان والولاية

ولما كان يوم الجمعة ثاني يوم دخول السلطان، أتينا باب (المشور) بجلسنا في سقائف الباب الثالث . ولم يكن قد أُذُن لنا بالدخول ، وخرج الحاجب شمس الدين القوشنجي ، فأمر الكتاب أن يكتبوا أسماءنا ، وأذن لهم في دخولنا ودخول بعض أصحابنا . وعين للدخول معي ثمانية ، فدخلنا ودخلوا معنا . ثم جاءوا باليدّر والقَبَان وهو الميزان . وقعد قاضي القضاة والكتاب ، ودعوا من بالباب من الأَعزّة وهم الغرباء ، فعينوا لكل إنسان نصيبه من تلك البدر . فكان لي منها خمسة آلاف دينار . وكان مبلغ المال مائة ألف دينار ، تصدقت به أم السلطان لما قدم ابنها . وانصرفنا ذلك اليوم . وكان السلطان بعد ذلك يستدعينا للطعام بين يديه ، ويسأل عن أحوالنا ويخاطبنا بأجمل كلام . ولقد قال لنا في بعض الأيام : أتم شرفتمونا بقدومكم ، فما تقدر على مكافأتكم ، فالكبير منكم في مقام والدي ، والكهل في مقام أنحى ، والصغير في مقام ولدي ، وما في ملكي أعظم من مدينتي هذه أعطيكم إياها . فشكرناه ودعونا له . ثم بعد ذلك أمر لنا بالمرتببات ، فعين لي اثني عشر ألف دينار في السنة ، وزادني قريتين على الثلاث التي أمر لي بها قبل : إحداهما قرية جَوْزَة والثانية قرية مَلِك بُور . وفي بعض الأيام بعث لنا خُداوندزاده غياث الدين وقُطْب المَلِك صاحب السند ، فقالا لنا إن خَوْنَدَ عَالَم يقول لكم : من كان منكم يصلح للوزارة أو الكتابة أو الإمارة أو القضاء أو التدريس أو المشيخة أعطيته ذلك . فسكت الجميع لأنهم كانوا يريدون تحصيل الأموال والانصراف إلى بلادهم . وتكلم أمير بخت ابن السيد تاج الدين

الذى تقدم ذكره فقال : أما الوزارة فميراثى وأما الكتابة فشغلى ، وغير ذلك لا أعرفه . وتكلم هبة الله ابن الفلكى ، فقال مثل ذلك . وقال لى خُداوندزاده بالعربى : ما تقول أنت ياسيدى ؟ وأهل تلك البلاد ما يدعون العربى إلا بالتسويد ، وبذلك يخاطبه السلطان تعظيما للعرب . فقلت له : أما الوزارة والكتابة فليستا شغلى ، وأما القضاء والمشيخة فشغلى وشغل آبائى ، وأما الإمارة فتعلمون أن الأعاجم ما أسلمت إلا بأسياف العرب . فلمسا بلغ ذلك السلطان أعجبه كلامى . وكان (بهزار أسطون) يأكل الطعام ، فبعث إلينا فأكلنا بين يديه وهو يأكل . ثم انصرفنا إلى خارج هزّار أسطون ، فقعد أصحابى ، وانصرفت بسبب دُمل كان يمنعنى الجلوس . فاستدعانا السلطان ثانية ، فحضر أصحابى واعتذروا له عنى . وجئت بعد صلاة العصر فضليت (بالمشور) المغرب والعشاء الآخرة . ثم خرج الحاجب فاستدعانا فدخل خُداوندزاده ضياء الدين ، وهو أكبر الإخوة المذكورين ، فجعله السلطان (أمير داد) ، وهو من الأمراء الكبار . فجلس يجلس القاضى ، فمن كان له حق على أمير أو كبير أحضره بين يديه . وجعل مرتبه على هذه الخُطّة (١) خمسين ألف دينار فى السنة . وعين له مجاشر (٢) فأندها ذلك المقدار ، وأمر له بنجسين ألفا عن يد ، وخلع عليه خلعة حرير مزركشة ، تسمى صورة الشير ، ومعناه صورة السبع ، لأنه يكون فى صدرها وظهرها صورة سبع . وأمر له بفرس من الجنس الأول . وانخيل عندهم أربعة أجناس . وسروجهم كسروج أهل مصر ، ويكسون أعظمها بالفضة المذهبة . ثم دخل أمير بخت ، فأمره أن يجلس مع الوزير فى مُسنده ، ويقف على محاسبات الدواوين ، وعين له مرتبا أربعين ألف دينار فى السنة ، وأعطى مجاشر فأندها بمقدار ذلك ، وأعطى أربعين ألفا عن يد ،

(١) المقصود بالخطة : العمل الذى يتولاه وهو القضاء .

(٢) يراد بها هنا المراعى ، جمع مجشر ، وقوله (فأندها ذلك المقدار) أى مستغلها ذلك .

وأعطى فرسا مجهزا ، وخاع عليه نخلعة الذى قبله ، ولقب شرف المُلْك . ثم دخل هبة الله ابن الفلكى بفعله (رسول دار) ، ومعناه حاجب الإرسال . وعين له مرتبا أربعين ألف دينار فى السنة ، وأُعْطى مجاشع يكون فائدها بمقدار ذلك ، وأعطى أربعة وعشرين ألفا عن يد ، وأعطى فرسا مجهزا وخِلعة ، وجعل لقبه بهاء الملك .

ثم دخلت فوجدت السلطان على سطح القصر مستندا إلى السرير ، والوزير خواجه جهان بين يديه ، والملك الكبير قبولة واقف بين يديه . فلما سامت عليه قال لى الملك الكبير : اخدمُ فقد جعلك خوند عالم قاضى دار الملك ، دهلى ، وجعل مرتبك اثنى عشر ألف دينار فى السنة ، وعين لك مجاشع بمقدارها ، وأمر لك باثنى عشر ألفا نقدا ، تأخذها من الخزانة غدا إن شاء الله ، وأعطاك فرسا بسرجه وبلحامه ، وأمر لك بخلعة محرابية ، وهى التى يكون فى صدرها وظهرها شكل محراب . نخدمت . وأخذ بيدي فتقدم بى إلى السلطان ، فقال لى السلطان : لا تحسب قضاء دهلى من أصغر الأشغال ، هو أكبر الأشغال عندنا . وكنت أفهم قوله ولا أحسن الجواب عنه . وكان السلطان يفهم العربى ولا يحسن الجواب عنه . فقلت له : يا مولانا ، أنا على مذهب مالك وهؤلاء حنفية ، وأنا لا أعرف اللسان . فقال لى : قد عينت بهاء الدين المُلتانى وكال الدين البجنورى ينوبان عنك ويشاورانك ، وتكون أنت تسجل على العقود ، وأنت عندنا بمقام الوالد . فقلت له : بل عبدكم وخادمكم . فقال لى باللسان العربى : بل أنت سيدنا ومخدمنا ، تواضعا منه وفضلا وإيناسا . ثم قال لشرف المُلْك أمير بخت : إن كان الذى رُتب له لا يكفيه ، لأنه كثير الإنفاق ، فأنا أعطيه زاوية ، إن قدر على إقامة حال الفقراء . وقال : قل له هذا بالعربى . وكان يظن أنه يحسن العربى ، ولم يكن كذلك . وفهم السلطان ذلك ، فقال له : امشيا الليلة فارقدا فى موضع واحد ،

وفهمه هذه الحكاية . فإذا كان الغد إن شاء الله تجيء إلى وتعلمني بكلامه .
فانصرفنا وذلك في ثلث الليل ، وقد ضربت التوبة . والعادة عندهم إذا
ضربت أنه لا يخرج أحد . فانتظرنا الوزير حتى نخرج ونخرجنا معه . ووجدنا
أبواب دهلي مسدودة ، فبتنا عند السيد أبي الحسن العبادي العراقي ، يُرَقِّق
يعرف بِسَرَّابُورْخَان . وكان هذا الشيخ يتجر بمال السلطان ويشتري له الأسلحة
والأمتعة بالعراق وخراسان . ولما كان الغد بعث إلينا فقبضنا الأموال والخيل
والخلع . وأخذ كل واحد منا البُدرة بالمال ، فجعلها على كاهله . ودخلنا
كذلك على السلطان فخدمنا ، وأتينا بالأفراس فقبلنا حوافرها ، بعد أن جعلت
عليها الخرق . وقدناها بأنفسنا إلى باب دار السلطان ، فركبناها . وذلك كله
عادة عندهم . ثم انصرفنا وأمر السلطان لأصحابي بألفي دينار وعشر خلع . ولم
يعط أصحاب أحد سوى شيئا . وكان أصحابي لهم رُواء ومنظر ، فأعجبوا
السلطان ، وخدموا بين يديه وشكرهم .

ذكر عطاء ثانٍ أمر لي به ، وتوقفه مدة

وكنت يوما (بالمشور) بعد أيام من توليتي القضاء والإحسان إلى ، وأنا قاعد
تحت شجرة هنالك ، وإلى جانبي مولانا ناصر الدين الترمذي العالم الواعظ ،
فأتى بعض الحجاب فدعا مولانا ناصر الدين ، فدخل إلى السلطان فنزع عليه ،
وأعطاه مصحفًا مكللا بالجوهر . ثم أتاني بعض الحجاب فقال : أعطني شيئا
فأخذك (خَطُّ نُحْرِد) (١) باثني عشر ألفا ، أمر لك بها خوند عالم ، فلم أصدقه ،
وظنته يريد الحيلة علي ، وهو جاد في كلامه . فقال بعض الأصحاب أنا أعطيه ،
فأعطاه دينارين أو ثلاثة وجاء (بِخَطِّ نُحْرِد) ، ومعناه الخط الأصغر ، مكتوبا

(١) يمكن أن يفسر بعبارته (إذن الصرف) في الاصطلاح المسأل الآن .

بتعريف الحاجب ، ومعناه : أمر خَوَّند عَالَمَ أن يعطى فلان من الخزانة الموفورة كذا ، بتبليغ فلان أى بتعريفه. ويكتب المبلغ اسمه ، ثم يكتب على تلك البراءة ثلاثة من الأمراء: وهم الخان الأعظم قَطْلُوخان ، معلم السلطان ، والخريطة دار ، وهو صاحب خريطة الكاغد والأقلام ، والأمير نُكَيَّة (الدوادار) ، صاحب الدواة. فإذا كتب كل واحد منهم خطه ، يذهب بالبراءة إلى ديوان الوزارة ، فينسخها كُتاب الديوان عندهم ، ثم تثبت في ديوان الإشراف ، ثم تثبت في ديوان النظر ، ثم تكتب (البروآنة) ، وهى الحكم من الوزير للخازن بالعطاء ، ثم يثبتها الخازن في ديوانه . ويكتب تلخيصا في كل يوم بمبلغ ما أمر به السلطان من المال ويعرضه عليه . فمن أراد التعجيل بعطائه أمر بتعجيله ، ومن أراد التأجيل أجل له ، ولكن لا بد من عطاء ذلك ولو طالت المدة. فقد أجلت هذه الاثنا عشر ألفا ستة أشهر ، ثم أخذتها مع غيرها على ما يأتى. وعادتهم إذا أمر السلطان بإحسان لأحد أن يُحط منه العُشْر . فمن أمر له مثلا بمائة ألف أُعطي تسعين ألفا ، أو بعشرة آلاف أُعطي تسعة آلاف .

ذكر طلب الغرماء ما لهم قبلى ، ومدحى للسلطان ،
وأمره بخلاص دينى ، وتوقف ذلك مدة

وكنت على ما ذكرته قد استندت من التجار مالا أنفقته فى طريق ، وما صنعت به الهدية للسلطان ، وما أنفقته فى إقامتى . فلما أرادوا السفر إلى بلادهم ألحوا على فى طلب ديونهم. فمدحت السلطان بقصيدة طويلة أولها :

إليك أمير المؤمنين المبعلا * أتينا نجد السير نحوك فى القلا
بغت محلا من علائك زائرا * ومغناك كهف للزيارة أهلا

فلو أنت فوق الشمس لاجد رتبة * لكنت لأعلاها إماماً مؤهلاً
فأنت الإمام الماجد الأوحد الذي * سبحانه حتماً أن يقول ويفعلا
ولى حاجة من فيض جودك أرتجى * قضاها وقصدي عند مجدك سهلاً
أأذكرها أم قد كفاني حياؤكم * فإن حياكم ذكره كان أجملًا
فعجل لمن وافى محلك زائراً * قضا دينه إن الغريم تعجلاً

فقدمتها بين يديه وهو قاعد على كرسي ، فجعلها على ركبته ، وأمسك طرفها بيده ، وطرفها الثاني بيدي . وكننت إذا أكلت بيتاً منها أقول لقاضي القضاة كمال الدين الغزنوي : بين معناه نحو نوند عالم ، فيبينه ، ويعجب السلطان . وهم يحبون الشعر العربي . فلما بلغت قولي : فعجل لمن وافى ، البيت ، قال : مرحمة . ومعناه : ترحمت عليك . فأخذ الحجاب حينئذ بيدي ليذهبوا بي إلى موقفهم ، وأخدم على العادة . فقال السلطان : اتركوه حتى يكملها فأكلتها وخدمت . وهنأني الناس بذلك . وأقمت مدة وكتبت رفعا ، وهم يسمونه (عرض داشت) ، فدفعته إلى قطب الملك صاحب السند فدفعه للسلطان . فقال له : امض إلى خواجة جهان فقل له يعطى دينه ، فمضى إليه وأعلمه فقال : نعم . وأبطأ أياما . وأمره السلطان في خلالها بالسفر إلى دولة آباد . وفي أثناء ذلك خرج السلطان إلى الصيد ، وسافر الوزير ، فلم آخذ شيئا إلا بعد مدة .

والسبب الذي توقف به العطاء أذكره مستوفى : وهو أنه لما عزم الذين كان لهم على دين على السفر ، قلت لهم : إذا أنا أتيت دار السلطان (فدروهي) (١) ، على العادة في تلك البلاد ، لعلمي أن السلطان متى علم بذلك خالصهم . وعادتهم أنه متى كان لأحد دين على رجل من ذوى العناية وأعوزه خلاصه ، وقف له بباب دار السلطان . فإذا أراد الدخول قال له :

(١) اجمعوا على ، وقولوا لي : (دروهي السلطان) ، كما في الصفحة التالية . وقد اشترى

المؤلف هذا الفعل من كلمة (دروهي) ، كما هو ظاهر .

(دروهي) (١) السلطان ، وحق رأس السلطان ، ما تدخل حتى تخصني ، فلا يمكنه أن يبرح مكانه حتى يخلصه أو يرغب إليه في تأخيره . فاتفق يوما أن نخرج السلطان إلى زيارة قبر أبيه ونزل بقصر هنالك . فقلت لهم : هذا وقتكم . فلما أردت الدخول وقفوا لي بباب القصر ، فقالوا لي : (دروهي) السلطان ، ما تدخل حتى نخلصنا . وكتب كتاب الباب بذلك إلى السلطان ، فخرج (حاجب قصة) شمس الدين ، وكان من كبار الفقهاء ، فسألهم لأى شئ (درهموه) ؟ فقالوا : لنا عليه الدين . فرجع إلى السلطان فأعلمه بذلك . فقال له : أسألهم كم مبلغ الدين ؟ فسألهم ، فقالوا له : خمسة وخمسون ألف دينار . فعاد إليه فأعلمه . فأمره أن يعود إليهم ويقول : إن خوندآلم يقول لكم : المال عندي وأنا أنصفكم منه ، فلا تطالبوه به . وأمر عماد الدين السمناني وخداوند زاده غياث الدين أن يقعدا (بهزار أسطون) ، ويأتى أهل الدين بعقودهم ، وينظرا إليها ويتحققاها . ففعلا ذلك . وأتى الغرماء بعقودهم ، فدخلا على السلطان وأعلماه بثبوت العقود ، فضحك وقال مازحا : أنا أعلم أنه قاض جهز شغله فيها . ثم أمر خداوند زاده أن يعطينى ذلك من الخزانة ، فطمع في الرشوة على ذلك ، وامتنع أن يكتب (خط خرد) ، فبعثت إليه مائتي تنكة . فردها ولم يأخذها . وقال لي عنه بعض خدامه : إنه طلب خمسمائة تنكة . فامتنعت من ذلك ، وأعلمت عميد الملك بن عماد الدين السمناني بذلك . فأعلم به أباه وعلمه الوزير . وكانت بينه وبين خداوند زاده عداوة . فأعلم السلطان بذلك ، وذكر له كثيرا من أفعال خداوند زاده ، فغير خاطر السلطان عليه ، فأمر بحبسه في المدينة . وقال : لأى شئ أعطاه فلان ما أعطاه ؟ قفوا ذلك حتى يعلم هل يعطى خداوند زاده شيئا إذا منعه ، أو يمنعه إذا أعطيته . فهذا السبب توقف عطاء ديني (٢) .

(١) يا عدو السلطان !

(٢) في عبارة السلطان شئ . من غموض المعنى .

ذكر خروج السلطان إلى الصيد وخروجه معه وما صنعت في ذلك

ولما خرج السلطان إلى الصيد خرجت معه من غير ترئص . وكنت قد أعددت ما يحتاج إليه ، وعملت ترتيب أهل الهند : فاشترت (سراجة) ، وضربها هنالك مباح . ولا بد منها ليجار الناس . وتمتاز سراجة السلطان بكونها حمراء ، وسواها بيضاء منقوشة بالأزرق . واشترت (الصيوان) وهو الذي يظلل به داخل السراجة ، ويرفع على عمودين كبيرين . ويحمل ذلك الرجال على أعناقهم ويقال لهم (الكيوانية) . والعادة هنالك أن يكتري المسافر (الكيوانية) وقد ذكرناهم ، ويكتري من يسوق له العُشب لعلف الدواب ، لأنهم لا يُطعمونها التبن ، ويكتري (الكهارين) ، وهم الذين يحملون أواني المطبخ ، ويكتري من يحمله في (الدولة) ، وقد ذكرناها ، ويحملها فارغة ، ويكتري الفراشين ، وهم الذين يضرِبون السراجة ويفرُسونها ويرفعون الأحمال على الجمال . ويكتري (الدَّوَادِيَّة) ، وهم الذين يمشون بين يديه ويحملون المشاعل بالليل . فاكترت أنا جميع من احتجت إليه منهم وأظهرت القوة والهمة . وخرجت يوم خروج السلطان ، وغيرى أقام بعده اليومين والثلاثة . فلما كان بعد العصر من يوم خروجه ركب الفيل ، وقصده أن يطلَّع على أحوال الناس ويعرف من سارع إلى الخروج ومن أبطأ . وجلس خارج السراجة على كرسي ، بحثت وسلمت ، ووقفت في موقفى بالميمنة ، فبعث إلى الملك الكبير قبُولة ، فأمرني بالجلوس عناية بي ، ولم يجلس في ذلك اليوم سوائى . ثم أتى بالفيل وألصق به سُلَّم فركب عليه ، ورفع (الشطر) فوق رأسه ، وركب معه الخواص ، وجال ساعة . ثم عاد إلى السراجة . وعادته إذا ركب أن

يركب الأمراء أفواجا، كل أمير يقوده وعلاماته وطبوله (وأنقاره وصرناياته). ويسمون ذلك المراتب. ولا يركب أمام السلطان إلا الانجاب وأهل الطرق والبطالة الذين يتقلدون الأبطال الصغار، والذين يضربون الصرنايات. ويكون عن يمين السلطان نحو خمسة عشر رجلا، وعن يساره مثل ذلك، منهم قضاة القضاة والوزير وبعض الأمراء الكبار وبعض الأعزة. وكنت أنا من أهل ميمته. ويكون بين يديه المشاءون والأدلاء. ويكون خلفه علاماته، وهي من الحرير المذهب، والأبطال على الجمال، وخلف ذلك مماليكه وأهل دُخته^(١)، وخلفهم الأمراء وجميع الناس.

ولا يعلم أحد أين يكون النزول. فإذا أمر السلطان بمكان يعجبه النزول به أمر بالنزول. ولا تضرب سراجة أحد حتى تضرب سراجته. ثم يأتي الموكلون بالنزول فينزولون كل أحد في منزله. وفي خلال ذلك ينزل السلطان على نهر أو بين أشجار. وتقدم بين يديه لحوم الأغنام والدجاج المسمنة والكراكي^(٢) وغيرها من أنواع الصيد. ويحضر أبناء الملوك وفي يد كل واحد منهم سفود^(٣)، ويوقدون النار ويشتون ذلك. ويؤتى (بسراجة) صغيرة تضرب للسلطان، ويجلس من معه من الخواص في خارجها، ويؤتى بالطعام ويستدعى من شاء فياً كل معه. وكان في بعض تلك الأيام وهو بداخل السراجة يسأل عمن بخارجها. فقال له السيد ناصر الدين مطهر الأوهري أحد ندائه: ثم فلان المغربي وهو متغير. فقال لماذا؟ فقال: بسبب الدين الذي عليه وغرمائه يباحون في الطلب، وكان خوند عالم قد أمر الوزير بإعطائه فسافر قبل ذلك. فإن أمر مولانا أن يصبر أهل الدين حتى يقدم الوزير، أو أمر بإنصافهم. وحضر لهذا الملك دولة شاه، وكان السلطان يخاطبه بالعم، فقال: ياخوند عالم، كل يوم هو يكلمني بالعربية

(١) بطانته، ثلاثة الدال. (٢) جمع كركي، طائر.

(٣) السفود الحديدية التي يشوى بها اللحم. (٤) أي خواجه جهان.

ولا أدري ما يقول ؟ يا سيدى ناصر الدين ماذا ؟ فقال : يتكلم لأجل الدين الذى عليه . فقال السلطان : إذا دخلنا دار الملك فامض أنت يا أومار ، ومعناه يا عم ، إلى الخزانة فأعطه ذلك المال . وكان خدًا وند زاده حاضرا فقال : يا خرنَد عَالَم ، إنه كثير الإنفاق وقد رأيتَه ببلادنا عند السلطان طَرْمَشِيرين . وبعد هذا الكلام استحضرنى السلطان للطعام ولا علم عندى بما جرى . فلما خرجت قال لى السيد ناصر الدين : اشكر للملك دولة شاه . وقال لى الملك دولة شاه : اشكر لخدًا وند زاده . وفى بعض تلك الأيام ونحن مع السلطان فى الصيد ، ركب فى المَحَلَّة ، وكان طريقه على منزلى ، وأنا معه فى الميمنة ، وأصحابى فى السَّاقَة . وكان لى خِباء عند (السراجة) . فوقف أصحابى عندها وسأموا على السلطان ، فبعث عماد المُلْك والمملك دولة شاه ليسألا : لمن تلك الأخبية والسراجة ؟ فقيل لهما : لفلان ، فأخبراه بذلك فتبسم . فلما كان الغد نفذ الأمر أن أعود أنا وناصر الدين مُطَهَّر الأوهريّ وابن قاضى مصر والمملك صَبِيح إلى البلد ، نخلع علينا وعدنا إلى الحضرة .

ذكر الجمل الذى أهديته إلى السلطان

وكان السلطان فى تلك الأيام سألتنى عن الملك الناصر هل يركب الجمل ؟ فقلت له : نعم يركب المهارى^(١) فى أيام الحج ، فيسير إلى مكة من مصر فى عشرة أيام . ولكن تلك الجمال ليست بكمال هذه البلاد . وأخبرته أن عندى جملا منها . فلما عدت إلى الحضرة بحثت عن بعض عرب مصر ، فصوّر لى صورة الكُور^(٢) الذى تُركب المهارى به ، من القير^(٣) ، وأريتها بعض التجارين ، فعمل الكور

(١) نوع جيد من الإبل . جمع مؤنثه ، نسبة إلى حى من العرب .

(٢) الكور الرجل بأداته .

(٣) الزفت .

وأتقنه وكسوته (بالمِلف) ، وجعلت على الجمل عباءة حسنة وجعلت له خِطَام (١) حرير . وكان عندى رجل من أهل اليمن يحسن عمل الخلواء ، فصنع منها ما يشبه التمر وغيره . وبعثت الجمل والخلواء إلى السلطان . وأمرت الذى حملها أن يدفعها على يد الملك دولة شاه . وبعثت له بفرس وجملين . فلما وصله ذلك دخل على السلطان وقال : يا خَوْنَدَ عَالَمَ ، رأيت العجب ! قال وما ذلك ؟ قال : فلان بعث جملا عليه سرج . فقال : ائتوا به . فأدخل الجمل فى داخل (السراجة) . وأُعِجِبَ به السلطان . وقال لرجلى : اركبه ، فركبه ومشاه بين يديه . وأمر له بمائتى دينار دراهم وخلعة . وعاد الرجل إلى فأعلمنى ، فسرفنى ذلك . وأهديت إليه جملين بعد عودته إلى الحضرة .

ذكر الجملين اللذين أهديتهما إليه والخلواء ، وأمره بخلاص دينى وما تعلق بذلك

ولما عاد إلى رجلى الذى بعثته بالجمل ، فأخبرنى بما كان من شأنه ، صنعت كُورين اثنتين ، وجعلت مُقَدِّمَ كل واحد ومؤخِّره مكسواً بصفائح الفضة المذهبة ، وكسوتهما (بالمِلف) وصنعت رَسَنًا (٢) مصفَّحاً بصفائح الفضة ، وجعلت لهما جُلَّين (٣) من زردخانة (٤) مبطنين بالكَمِّخَا (٥) ، وجعلت للجملين الخلاخيل من الفضة المذهبة ، وصنعت أحد عشر طيفُورًا (٦) وملائمتها بالحلوى ، وغطيت كل طيفور بمنديل حرير . فلما قدم السلطان من الصيد ، وقعد ثانى يوم قدمومه بموضع جلوسه العام ، غدوت عليه بالجملين ، فأمر بهما فخركا

(١) ما يقتاد به البعير . (٢) الرسن : الحبل .

(٣) الجمل بالضم والفتح : ما تلبسه الدابة لتصان به .

(٤) نسيج من حرير رقيق ، غير عربية . (٥) نسيج ذو نقوش بارزة ، بلسانهم .

(٦) سبق الكلام عليه فى الحواشى ، وكذا سبق الكلام على معنى (المِلف) .

بين يديه وهرولا ، فطار خَلْخَالَ أحدهما . فقال لبهاء الدين ابن الفلكي :
ارفع الخالخال ، فرفعه . ثم نظر إلى الطيافير فقال : ما معك في تلك الصحف ،
حلواء هي ؟ فقلت له نعم . فقال للفقير ناصر الدين الترمذى الواعظ :
ما أكلت قط ولا رأيت مثل الحلواء التي بعثنا إليها ونحن بالمعسكر . ثم أمر
بتلك الطيافير أن تُرْفَع لموضع جلوسه الخاص ، فرفعت . وقام إلى مجلسه
واستدعاني ، وأمر بالطعام فأكلت . ثم سألتني عن نوع من الحلواء بعثت له قَبْلُ ،
فقلت له : يا خَوْنَدَ عَالَمَ ، تلك الحلواء أنواعها كثيرة ، ولا أدري عن أى نوع
تسألون منها ؟ فقال : ائتوا بتلك الأطباق . وهم يسمون الطيفور طبقا ، فأتوا
بها وقدموها بين يديه وكشفوا عنها . فقال : عن هذا سألتك . وأخذ الصحيفة
التي هي فيها . فقلت له : هذه يقال لها المَقْرَصَة . ثم أخذ نوعا آخر فقال :
وما اسم هذه ؟ فقلت له : هي لُقَيَاتُ القاضي . وكان بين يديه تاجر من
شيوخ بغداد يعرف بالسامري ، وينتسب إلى آل العباس ، رضى الله تعالى عنه .
وهو كثير المال ، ويقول له السلطان : والدي . فحسدني وأراد أن ينجلني .
فقال : ليست هذه لقيمات القاضي ، بل هي هذه . وأخذ قطعة من التي تسمى
جلد الفرس . وكان بإزائه ملك الندماء ، ناصر الدين الكافي الهروي ، وكان
كثيرا ما يمازح هذا الشيخ بين يدي السلطان ، فقال له : يا خواجه ، أنت
تكذب ، والقاضي يقول الحق . فقال له السلطان : وكيف ذلك ؟ فقال
يا خَوْنَدَ عَالَمَ : هو القاضي وهي لقيماته ، فإنه أتى بها . فضحك السلطان ، وقال
صدقت . فإما فرغنا من الطعام أكلنا الحلواء ثم شربنا الفُقَّاع بعد ذلك .
وأخذنا التَّانِبُولَ وانصرفنا . فلم يكن غير هنيئة حتى أتاني الخازن ، فقال : ابعث
أصحابك يقبضون المال فبعثتهم . وعدت إلى داري بعد المغرب فوجدت

المال بها . وهو ثلاث يدر ، فيها ستة آلاف ومائتان وثلاث وثلاثون تسكة .
وذلك صرف الخمسة والخمسين ألفا التي هي دين علي ، وصرف الاثني عشر
ألفا التي أمر لي بها فيما تقدم ، بعد حطّ العُشر على عادتهم . وصرف التنكة
ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب .

ذكر خروج السلطان وأمره لي بالإقامة بالحضرة

وفي تاسع جمادى الأولى ، خرج السلطان يقصد بلاد المعبر وقتال القائم بها .
وكنت قد خلّصت أصحاب الدين وعزمت على السفر ، وأعطيت مرتب
تسعة أشهر للكهّارين والفرّاشين والكيوانية والدواوية^(١) ، وقد تقدم
ذكرهم . فخرج الأمر بإقامتي في جملة ناس ، وأخذ الحاجب خطوطنا بذلك
لتكون حجة له . وتلك عادتهم خوفا من أن ينكر المبلغ .

وأمر لي بستة آلاف دينار دراهم . وأمر لابن قاضي مصر بعشرة آلاف .
وكذلك كل من أقام من الأعرزة . وأما البلديون فلم يعطوا شيئا . وأمرني
السلطان أن أتولى النظر في مقبرة السلطان قطب الدين الذي تقدم ذكره .
وكان السلطان يعظم تربته تعظيما شديدا لأنه كان خادما له . ولقد رأيت
إذا أتى قبره يأخذ نعله فيقبلها ويجعلها فوق رأسه . وعادتهم أن يجعلوا نعل
الميت عند قبره فوق متكأ . وكان إذا وصل القبر خدم له كما كان يتخدم أيام
حياته . وكان يعظم زوجته ويدعوها بالأخت ، وجعلها مع حرمه ،
وزوجها بعد ذلك لابن قاضي مصر ، واعتنى به من أجلها . وكان يمضي
لزيارتها في كل جمعة .

ولما خرج السلطان أرسل إلينا للوداع ، فقام ابن قاضي مصر فقال : أنا

(١) سبق شرح معنى هذه الكلمات .

لا أودع ولا أفارق خَوْنَدَ عَالَمٍ . فكان له في ذلك الخير . فقال له السلطان :
امض فتجهز للسفر . وقدمت بعده للوداع . وكنت أحب الإقامة ولم
تكن عاقبتها محمودة . فقال : مالك من حاجة ؟ فأخرجت بطاقة فيها
ست مسائل ، فقال لي : تكلم بلسانك . فقلت له : إنَّ خَوْنَدَ عَالَمٍ أمر
لي بالقضاء وما قعدت لذلك بعد . وليس مرادى من القضاء إلا حرمة .
فأمرني بالعود للقضاء وعود النائبين معي . ثم قال لي : إيه . فقلت :
وروضة السلطان قطب الدين ماذا أفعل فيها ، فإنى ربت فيها أربعمائة
وستين شخصا ؟ ومحصول أوقافها لا يفي بمرتباتهم وطعامنا . فقال
للوزير : بِنَجَاهِ هَزَارٍ ، ومعناه خمسون ألفا . ثم قال : أعطه مائة ألف من
من القمح والأرز ينفقها في هذه السنة ، حتى تأتي غلة الروضة . والمن
عشرون رطلا مغربية ؟ ثم قال لي : وماذا أيضا ؟ فقلت : إن أصحابي سُبِحُوا
بسبب القرى التي أعطيتهموني ، فإنى عوضتها بغيرها ، فطلب أهل الديوان
ما وصلني منها ، أو الاستظهار بأمر خَوْنَدَ عَالَمٍ أن يرفع عنى ذلك . فقال :
كم وصلك منها ؟ فقلت خمسة آلاف دينار . فقال : هى إنعام عليك . فقلت
له : ودارى التي أمرتم لي بها مفتقرة إلى البناء . فقال للوزير : عمروها . ثم قال
لي : هل بقى لك كلام ؟ فقلت لا . فقال لي : أوصيك ألا تأخذ الدين ، لئلا
تُطَلَبَ ، فلا تجد من يبلغني خبرك . أنفق على قدر ما أعطيتك . قال الله
تعالى : (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) (وكلوا
واشربوا ولا تسرفوا) (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك
قَوَامًا) . فأردت أن أقبل قدمه ، فمنعني وأمسك رأسي بيده فقبلتها . وانصرفت
وعدت إلى الحضرة فاشتغلت بعارة دارى ، وأنفقت فيها أربعة آلاف دينار ،
أعطيت منها من الديوان ستمائة دينار ، وزدت عليها الباقي . وبنيت بإزائها
مسجدا ، واشتغلت بترتيب مقبرة السلطان قطب الدين . وكان السلطان

قد أمر أن تبني عليه قبة يكون ارتفاعها في الهواء مائة ذراع ، بزيادة عشرين ذراعا على ارتفاع القبة المبنية على قازان ملك العراق . وأمر أن تشتري ثلاثون قرية تكون وقفا عليها ، وجعلها بيدي ، على أن يكون لى العشر من فائدها على العادة .

ذكر ما فعلته في ترتيب المقبرة

وعادة أهل الهند أن يرتبوا لأمواتهم ترتيبا كترتيبهم بقاء الحياة ، ويؤتى بالفيلة والحيل فتربط عند باب التربة وهي مزينة . فرتبت أنا في هذه التربة بحسب ذلك . ورتبت من قراء القرآن مائة وخمسين ، وهم يسمونهم الختميين . ورتبت من الطلبة ثمانين ، ومن المعيدن ، ويسمونهم المكررين ، ثمانية . ورتبت لها مدرسا ، ورتبت من الصوفية ثمانين . ورتبت الإمام والمؤذنين والقراء بالأصوات الحسان ، والمداحين ^(١) وكتاب الغيبة ^(٢) والمُعرفين ^(٣) . وجميع هؤلاء يعرفون عندهم بالأرباب . ورتبت صنفا آخر يعرفون بالحاشية ، وهم الفراشون والطباخون والسقاءون ، والشربدارية ، الذين يسقون الشربة ^(٤) والتائبول دارية ، الذين يعطون التائبول ، والسليحدارية ^(٥) والتيزدارية ^(٦) والشطردارية ^(٧) والطشت دارية ^(٨) والحجاب والتقباء . فكان جميعهم أربعمائة وستين . وكان السلطان أمر أن

-
- (١) من يلقون خطبا مدحية .
(٢) الذين يحرصون الغائبين .
(٣) الذين يعرفون الناس : فيقولون : هذا فلان ، وهذا فلان .
(٤) يراد بها الشراب الحلو .
(٥) حاملو الأسلحة كالسيوف .
(٦) حاملو الرماح .
(٧) حاملو المظلات .
(٨) حاملو الطسوت .

يكون الطعام بها كل يوم اثني عشر مناً من الدقيق . ومثلها من اللحم .
فأريت أن ذلك قليل ، والزرع الذي أمر به كثير . فكنت أنفق كل يوم
خمسة وثلاثين مناً من الدقيق ومثلها من اللحم ، مع ما يتبع ذلك من السكر
والنبات (١) والسمن والتأنبول . وكنت أطعم المرتبين وغيرهم من صادر
ووارد . وكان الغلاء شديداً ، فارتفق الناس بهذا الطعام وشاع خبره . وسافر
الملك صديح إلى السلطان بدولة آباد ، فسأله عن حال الناس ، فقال له :
لو كان بدھلي اثنان مثل فلان لما شكوا الجھد . فأعجب ذلك السلطان ، وبعث
إلى بخلعة من ثيابه . وكنت أصنع في المواسم وهي : العيدان ، والمولد الكريم ،
ويوم عاشوراء ، وليلة النصف من شعبان ، ويوم وفاة السلطان قطب الدين ،
مائة من من الدقيق ومثلها لحماً . فيأكل منها الفقراء والمساكين . وأما
أهل الوظيفة فيجعل أمام كل إنسان منهم ما يخصه . ولندكر عاداتهم
في ذلك .

ذكر عاداتهم في إطعام الناس في الولايم

وعاداتهم ببلاد الهند وبلاد السرا ، أنه إذ فرغ من أكل الطعام في الوليمة
جعل أمام كل إنسان من الشرفاء والفقهاء والمشايخ والقضاة وعاء شبه المهّد ،
له أربع قوائم ، منسوج سطحه من الخوص ، وجعل عليه الرقاق ورأس شاة
مشوى ، وأربعة أقراص معجونة بالسمن مملوءة بالحلواء الصابونية ، ومغطة
بأربع قطع من الحلواء كأنها الآجر ، وطبق صغير مصنوع من الجسد فيه
الحلواء والسמושك (٢) . ويغطي ذلك الوعاء بثوب قطن جديد . ومن كان
دون من ذكرناه جعل أمامه نصف رأس شاة ، ومقدار النصف مما ذكرناه .

(١) يريد به (سكر النبات) ويعمل من عصير العنب .

(٢) شيء مصنوع من اللحم والأفاويه .

ومن كان دون هؤلاء أيضا جعل أمامه مثل الربع من ذلك . ويرفع رجال كل أحد ما جعل أمامه . وأول ما رأيتهم يصنعون هذا بمدينة السراء ، حضرة السلطان أوزبك ، فامتعت أن يرفع رجالي ذلك ، إذ لم يكن لي به عهد . وكذلك يبعثون أيضا لدار كبراء الناس من طعام الولائم .

ذكر خروجي إلى هزار أمرؤها

وكان الوزير قد أعطاني من الغلة المأمور بها للزاوية عشرة آلاف من ، ونفذ لي الباقي في هزار أمرؤها . وكان والي الخراج بها عزيزا الخمار ، وأميرها شمس الدين البدخشاني . فبعثت رجالي فأخذوا بعض الإحالة ، وشكوا تعسف عزيز الخمار . فخرجت بنفسى لاستخلاص ذلك . وبين دهلي وهذه العمالة ثلاثة أيام . وكان ذلك أوان نزول المطر . فخرجت في نحو ثلاثين من أصحابي ، واستصحبت معي أخوين من المغنين المحسنين ، يغنيان لي في الطريق ، فوصلنا إلى بلدة بجنور ، فوجدت بها أيضا ثلاثة إخوة من المغنين ، فاستصحبتهم فكانوا يغنون لي نوبة ، والآخران نوبة . ثم وصلنا إلى أمرؤها ، وهي بلدة صغيرة حسنة ، فخرج عمالها للقائى . وجاء قاضيها الشريف أمير على ، وشيخ زاويتها ، وأضافانى معا ضيافة حسنة . وكان عزيز الخمار بموضع يقال له أفغان بور على نهر السرو . وبيننا وبينه النهر ولا (معدية) فيه . فأخذنا الأثقال في (معدية) صنعناها من الخشب والنبات . وجرنا في اليوم الثانى . وجاء نجيب أخو عزيز في جماعة من أصحابه وضرب لنا (سراجة) . ثم جاء أخوه الوالى وكان معروفًا بالظلم . وكانت القرى التى في عمالته ألفا وخمسمائة قرية . ومجاها ستون (لكا) في السنة . له فيها نصف العشر . ومن عجائب النهر الذى نزلنا عليه أنه لا يشرب منه أحد في أيام نزول المطر .

ولا تسقى منه دابة . ولقد أقمنا عليه ثلاثا فما غرّف منه أحد غرفة ،
ولا كدنا تقرب منه ، لأنه ينزل من جبال قرّاجيل التي بها معادن الذهب ،
ويمر على الخشاش^(١) المسمومة ، فمن شرب منه مات . وهذا الجبل متصل
مسيرة ثلاثة أشهر . ويُنزَلُ منه إلى بلاد تُبَّتْ حيث غزلان المسك . وقد
ذكرنا ما اتفق بلخيش المسلمين بهذا الجبل . وبهذا الموضع جاء إلى جماعة
من الفقراء الحيدريّة وعملوا السماع^(٢) وأوقدوا النيران ، فدخلوها ولم تضرهم ،
وقد ذكرنا ذلك . وكانت قد نشأت بين أمير هذه البلاد شمس الدين
البدخشاني وبين واليها عزيز الخمار منازعة . وجاء شمس الدين لقتاله ، فامتنع
منه بداره . وبلغت شكايته أحدهما الوزير بدھلي ، فبعث إلى الوزير وإلى
الملك شاه أمير الممالِك بِأمرُوها ، وهم أربعة آلاف مملوك للسلطان ، وإلى
شهاب الدين الرومي ، أن ننظر في قضيتهما ، فمن كان على الباطل بعثناه
إلى الحضرة . فاجتمعوا جميعا بمنزلي ، وادعى عزيز على شمس الدين دَعَاوَى :
منها أن خادمها له يعرف بالرضا الملتاني نزل بدار خازن عزيز ، فشرّب
بها الخمر ، وسرق خمسة آلاف دينار من المال الذي عندنا لخازن . فاستفهمت
الرضا عن ذلك ، فقال لي : ما شرّبت الخمر منذ خروجي من ملتان ، وذلك ثمانية
أعوام . فقلت له : أو شرّبت بها بملتان ؟ قال نعم . فأمرت بجلده ثمانين ، وسجنته
بسبب الدعوى للوث^(٣) ظهر عليه . وانصرفت عن أمروها ، فكانت غيبتى
نحو شهرين . وكنت في كل يوم أذبح لأصحابي بقرة . وتركت أصحابي ليأتوا

(١) الخشاش بفتح الخاء وكسرهما الحشرات .

(٢) لعله المعروف الآن (بالدكر) .

(٣) اللوث هنا الشر .

بالزرع المُسَنَّفَد على عزيز، وحمَّله عليه^(١). فَوَزَعَ على أهل القرى التي تحت نظره، ثلاثين ألفَ مَنْ يَحْمِلُونَهَا على ثلاثة آلاف بقرة . وأهل الهند لا يحملون إلا على البقر . وعليه يرفعون أثقالهم في الأسفار . وركوب الحمير عندهم عيب كبير . وحميرهم صغار الأجرام ، وإذا أرادوا تشهير أحد بعد ضربه أركبوه الحمار .

ذكر مكرمة لبعض الأصحاب

وكان السيد ناصر الدين الأوهري قد ترك عندي لما سافر ألفاً وستين تنكئة ، فتصرفت فيها . فلما عدت إلى دهلي وجدته قد أحال في ذلك المال خدًا وندَّ زاده قوام الدين ، وكان قد قديم نائبًا عن الوزير . فاستقبلت أن أقول له : تصرفت في المال ، فأعطيته نحو ثلثه ، وأقمت بداري أياما ، وشاع أني مرضت . فأتى ناصر الدين الخوارزمي صدر الجهان لزيارتي ، فلما رآني قال : ما أرى بك مرضا . فقلت له : إني مريض القلب . فقال لي : عرفني ذلك . فقلت له : ابعث إلى نائبك شيخ الإسلام أعرفه . فبعثه إلى فأعلمته . فعاد إليه فأعلمه . فبعث إلى بألف دينار دراهم ، وكان له عندي قبل ذلك ألف ثان . ثم طلب مني بقية المال ، فقلت في نفسي : ما يخلصني منه إلا صدر الجهان ، لأنه كثير المال . فبعثت إليه بفرس مسرج قيمته وقيمة سرجه ألف وستمائة دينار ، وبفرس ثان قيمته وقيمة سرجه ثمانمائة دينار ، وببغلتين قيمتهما ألف ومائتا دينار ، وبترکش^(٢) فضة ، وبسيفين غمدهما مغشَّيان بالفضة . وقلت له : انظر قيمة الجميع وابعث إلى ذلك .

(١) أى ويكرن حمل هذا الزرع مفروضا عليه والضمير في (وزع) يرجع إلى عزيز .

(٢) سبق شرحه في الحواشي ، وأن المراد منه جعبة السهام ، غير عربي .

فأخذ ذلك وعمل بجميعة قيمة ثلاثة آلاف دينار، فبعث إلى ألفا واقتطع الألفين . فتغير خاطري ، ومرضت بالحمل . وقلت في نفسي إن شكوتُه إلى الوزير افتضحت . فأخذت خمسة أفراس وجاريتين ومملوكين ، وبعثت بالجميع للملك مغيث الدين محمد ابن ملك المملوك عماد الدين السمناني ، وهو قتي السن ، فرد على ذلك ، وبعث إلى مائتي تنكة وأغزر . وَخَلَّصْتُ من ذلك المال . فشتان بين فعل محمد ومجد .

ذكر خروجي إلى محمَّلة^(١) السلطان

وكان السلطان لما توجه إلى بلاد المعبر وصل إلى التلنك ، ووقع الوباء بعسكره ، فعاد إلى دولة آباد ، ثم وصل إلى نهر الكنك فترل عليه . وأمر الناس بالبناء . وخرجت في تلك الأيام إلى محمَّلة . واتفق ما سردناه من مخالفة عين المُلْك . ولازمت السلطان في تلك الأيام ، وأعطاني من عتاق الخيل ، لما قسمها على خواصه ، وجعلني فيهم . وحضرت معه الواقعة على عين الملك والقبض عليه . وجُزَّت معه نهر الكنك ونهر السُّرو لزيارة قبر الصالح البطل سالار عود (مسعود) . وقد استوفيت ذلك كله . وعدت معه إلى حضرة دهلي لما عاد إليها .

ذكر ما همَّ به السلطان من عقابي

وما تداركني من لطف الله تعالى

وكان سبب ذلك أني ذهبت يوما لزيارة الشيخ شهاب الدين ابن الشيخ الجمام ، بالغار الذي احتفراه خارج دهلي . وكان قصدي رؤية ذلك الغار . فلما

(١) يراد بها المعسكر ، وقد وردت هذه الكلمة كثيرا بهذا المعنى في الكتاب .

أخذه السلطان سأل أولاده عن كان يزوره ، فذكروا أناسا أنا من حملتهم . فأمر السلطان أربعة من عبيده بملازمتي (بالمشور) . وعادته أنه متى فعل ذلك مع أحد فقما يتخلص . فكان أول يوم من ملازمتهم لي يوم الجمعة . فألهمني الله تعالى تلاوة قوله (حسبنا الله ونعم الوكيل) ، فقرأتها ذلك اليوم ثلاثة وثلاثين ألف مرة . وبت (بالمشور) وواصلت^(١) إلى خمسة أيام ، في كل يوم منها أختم القرآن ، وأفطر على الماء خاصة . ثم أفطرت بعد خمس ، وواصلت أربعا . وتخلصت بعد قتل الشيخ . والحمد لله تعالى .

ذكر انقباض عن الخدمة وخروجي عن الدنيا

ولما كان بعد مدة انقبضت عن الخدمة ، ولازمت الشيخ الإمام العالم العابد الزاهد الخاشع الورع ، فريد الدهر ووحيد العصر ، كمال الدين عبد الله الغاري . وكان من الأولياء وله كرامات كثيرة ، قد ذكرت منها ما شاهدته عند ذكر اسمه . وانقطعت إلى خدمة هذا الشيخ . ووهبت ما عندي للفقراء والمساكين . وكان الشيخ يواصل عشرة أيام ، وربما واصل عشرين . فكنت أحب أن أواصل ، فكان ينهاني ، ويأمرني بالرفق بنفسى في العبادة . ويقول لي : إن المنهت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى . وظهر لي من نفسى تكاسل بسبب شيء ببق معى . فخرجت عن جميع ما عندى ، من قليل وكثير . وأعطيت فقيرا ثياب ظهري^(٢) ولبست ثيابه . ولزمت هذا الشيخ خمسة أشهر ، والسلطان إذ ذاك غائب ببلاد السند .

(١) صحتها متتابعة .

(٢) يقصد الثياب التي كان يلبسها بالفعل .

ذكر بعث السلطان إليّ ، وإبائي الرجوع إلى الخدمة ، واجتهادي في العبادة

ولما بلغ السلطان خبر خروجي عن الدنيا استدعاني ، وهو يومئذ بسببستان ، فدخلت عليه في زيّ الفقراء ، فكلمني أحسن كلام وأطفه ، وأراد مني الرجوع إلى الخدمة فأبيت ، وطلبت منه الإذن في السفر إلى الحجاز ، فأذن لي فيه ، وانصرفت عنه . ونزلت بزأوية تعرف بالنسبة إلى الملك بشير . وذلك في أواخر جمادى الثانية سنة اثنتين وأربعين . فاعتكفت بها شهر رجب وعشرة من شعبان . واتميت إلى مواصلة خمسة أيام . وأفطرت بعدها على قليل أرز دون إدام . وكنت أقرأ القرآن كل يوم ، وأتهجد بما شاء الله . وكنت إذا أكلت الطعام آذاني ، فإذا طرحته وجدت الراحة . وأقمت كذلك أربعين يوما ، ثم بعث إليّ ثانية .

ذكر ما أمرني به من التوجه إلى الصين في الرسالة

ولما كمل لي أربعون يوما ، بعث إليّ السلطان خيلا مسرجة وجواري وغلمانا وثيابا ونفقة . فلبست ثيابه وقصدته . وكانت لي جبة قطن زرقاء مبطنة ، لبستها أيام اعتكافي . فلما جردتها ولبست ثياب السلطان أنكرت نفسي ، وكنت متى نظرت إلى تلك الجبة أجد نورا في باطني . ولم تزل عندي

لأنى أن سلبنى الكفار فى البحر . ولما وصلت إلى السلطان زاد فى إكرامى على ما كنت أعهدده ، وقال لى : إنما بعثت إليك لتوجه عنى رسولا إلى ملك الصين ، فإنى أعلم حبك للأسفار والجولان . فجهزنى بما أحتاج إليه ، وعين للسفر معى من يذكرك بعد .

ذكر سبب إرساله بالهدية إلى الصين وذكر من بُعث معى و ذكر الهدية

وكان ملك الصين قد بعث إلى السلطان مائة مملوك وجارية ، وخمسة مائة ثوب من (الكحشا) ، منها مائة من التى تصنع بمدينة الزيتون ، ومائة من التى تصنع بمدينة الخنسا ، وخمسة أمنان من المسك ، وخمسة أبواب مرصعة بالجوهر ، وخمسة من (التراکش) مزركشة ، وخمسة سيوف . وطلب من السلطان أن يأذن له فى بناء بيت الأصنام الذى بناه جبال قراجيل المتقدم ذكره . ويعرف الموضع الذى هو به بسَمَهَل ، وإليه يَحُجُّ أهل الصين . وتغلب عليه جيش الإسلام بالهند فخربوه وسلبوه . فلما وصلت هذه الهدية إلى السلطان ، كتب إليه أن هذا المطلب لا يجوز فى ملة الإسلام إسعافه ، ولا يباح بناء كنيسة بأرض المسلمين إلا لمن يعطى الجزية ، فإن رضيت بإعطائها أبجنا لك بناءها . والسلام على من اتبع الهدى .

وكافأه عن هديته بخير منها : وذلك مائة فرس من الجياد مسرجة ملجمة ، ومائة مملوك ، ومائة جارية من كفار الهند ، مغنيات ورواقص ، ومائة ثوب بَيْرَمِيَّة ، وهى من القطن ، ولا نظير لها فى الحسن . قيمة الثوب منها مائة دينار ، ومائة شِقَّة من ثياب الحرير التى يكون حريرها مصبوغا بخمسة ألوان ، وأربعة ومائة ثوب من الثياب

المعروفة بالصلاحيّة ، وخمسمائة ثوب من المِرْعَزِ ، مائة منها سود
ومائة بيض ومائة حمر ومائة خضر ومائة زرق ، ومائة شِقَّة من الكتان
الرومي ، ومائة فضلة من (الملّف) ، وسرّاجة ، وست من القباب ، وأربع
حسك^(١) من ذهب ، وست حسك من فضة مُنْبِلَة^(٢) ، وأربعة طسوت
من الذهب ذات أباريق كمثلها ، وستة طُسُوت من الفضة ، وعشر خلع
من ثياب السلطان مزركشة ، وعشر شَوَاشِ^(٣) من لباسه ، إحداها
مرصعة بالجواهر ، وعشرة (تراكش) مزركشة ، أحدها مرصع بالجواهر ،
وعشرة من السيوف ، أحدها مرصع الغمّد بالجواهر ، وقُفَّاز مرصع بالجواهر ،
وخمسة عشر من الفتیان^(٤) .

وعين السلطان للسفر معي بهذه الهدية الأمير ظهير الدين الزنجاني^(٥) ،
وهو من فضلاء أهل العلم ، والفتي كافورا (الشربدار) ، وإليه سلّمت
الهدية . وبعث معنا الأمير مجدا الحرّويّ في ألف فارس ، ليوصلنا إلى الموضع
الذي نركب منه البحر . وتوجه في صحبتنا رُسل ملك الصين وهم خمسة عشر
رجلا ، يسمى كبيرهم تُرُسي ، وخدمهم نحو مائة رجل . وانفصلنا في جمع
كبير ومحلّة عظيمة . وأمر لنا السلطان بالضيافة مدة سفرنا ببلاده . وكان
سفرنا في السابع عشر لشهر صفر سنة ثلاث وأربعين ، وهو اليوم الذي
اختاروه للسفر ، لأنهم يختارون للسفر من أيام الشهر ثانيه أو سابعه أو الثاني
عشر أو السابع عشر أو الثاني والعشرين أو السابع والعشرين . فكان نزولنا

(١) يراد بها (الشبعانات) ولم نجد له أصلا عربيا .

(٢) يريد مطوية بالزرقة التي أصلها من النيلج وهو مستخرج من النيل وهو العظلم .

(٣) جمع شاشية ، ثياب رفيعة ، والكلمة غير عربية . ومنه يطلق المصريون كلمة (الشاش)

على الفسيح الرفيع المعروف (٤) كل ما يراه القارئ غريبا من الكلمات — من أول هذا الفصل
إلى دتا — تم سبق شرحه في الحواشي .

(٥) نسبة إلى زنجان ، بلد بأذربيجان . قاموس .

في أول مرحلة بمنزل تَلَبَّت ، على مسافة فرسخين وثلاث من حضرة دِهْلِي .
ورحلنا منه إلى منزل (أُو) . ورحلنا منه إلى منزل هِيلُو . ورحلنا منه إلى
مدينة بَيَّانَة ، مدينة كبيرة حسنة البناء مليحة الأسواق ، ومسجدها الجامع
من أبداع المساجد ، وحيطانه وسقفه حجارة . والأمير بها مُظَفَّر ابن الداية ،
وأمه هي داية للسلطان . وكان بها قبله الملك مجير بن أبي الرجاء أحد كبار
الملوك ، وقد تقدم ذكره . وهو ينتسب في قریش . وفيه تجرُّ وله ظلم
كثير ، قتل من أهل هذه المدينة جملة ، ومثَّل بكثير منهم . ولقد رأيت
من أهلها رجلا حسن الهيئة قاعدا في أُسْطُوَان (١) منزله ، وهو مقطوع
اليدين والرجلين . وقدم السلطان مرة على هذه المدينة فشكا الناس الملك
مجيرا ، فأمر السلطان بالقبض عليه وجعلت في عنقه الجامعة (٢) . وكان
يقعد بالديوان بين يدي الوزير ، وأهل البلد يكتبون عليه المظالم . فأمره
السلطان بإرضائهم فأرضاهم بالأموال ، ثم قتله بعد ذلك .

ومن كبار أهل هذه المدينة الإمام عز الدين الزُّيْرِي ، من ذرية
الزُّبير بن العوام رضی الله عنه ، أحد كبار الفقهاء الصلحاء ، لقيته بكالْيُور
عند الملك عز الدين البَنْتَانِي المعروف بأعظم ملك . ثم رحلنا من بَيَّانَة فوصلنا
إلى مدينة كُول ، مدينة حسنة ذات بساتين ، وأكثر أشجارها (العنب) (٣) ،
ونزلنا بخارجها في بسيط أَفِيح . ولقينا بها الشيخ الصالح العابد شمس الدين
المعروف بابن تاج العارفين . وهو مكفوف البصر مُعَمَّر . وبعد ذلك سجنه
السلطان ومات في سجنه . وقد ذكرنا حديثه .

(١) دهليز - وليست كلمة (أسطوان) عربية بهذا المعنى .

(٢) الغل ، وهو هنا سلسلة من حديد .

(٣) سبق أنها (المنجو) .

ذِكْرُ غَزْوَةِ شَهْدَانَاهَا بِكُؤُل

ولما بلغنا مدينة كؤل بَلَّغْنَا أَنَّ بَعْضَ كُفَّارِ الْهُنُودِ حَاصِرُوا بَلَدَةَ الْجِلَالِي وَأَحَاطُوا بِهَا . وَهِيَ عَلَى مَسَافَةِ سَبْعَةِ مِائَاتٍ مِنْ كُؤُل . فَقَصَدْنَا هَا وَالْكَفَّارَ يَقَاتِلُونَ أَهْلَهَا وَقَدْ أَشْرَفُوا عَلَى التَّلْفِ . وَلَمْ يَعْلَمْ الْكَفَّارُ بِنَا حَتَّى صَدَقْنَا الْجُمْلَةَ عَلَيْهِمْ ، وَهُمْ فِي نَحْوِ أَلْفِ فَارَسٍ وَثَلَاثَةِ أَلْفِ رَاجِلٍ . فَتَقَاتَلْنَا عَنْ آخِرِهِمْ ، وَاحْتَوَيْنَا عَلَى خَيْلِهِمْ وَأَسْلِحَتِهِمْ . وَاسْتَشْهِدَ مِنْ أَصْحَابِنَا ثَلَاثَةٌ وَعِشْرُونَ فَارَسًا ، وَخَمْسَةٌ وَخَمْسُونَ رَاجِلًا . وَاسْتَشْهِدَ الْفَقِي كَافُورُ السَّاقِي الَّذِي كَانَتْ الْهَدِيَّةُ مَسْلُومَةً بِيَدِهِ ، فَكَتَبْنَا إِلَى السُّلْطَانِ بِخَبْرِهِ ، وَأَقْنَمْنَا فِي انْتِظَارِ الْجَوَابِ . وَكَانَ الْكَفَّارُ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ يَنْزِلُونَ مِنْ جَبَلٍ هُنَا لِكَ مَنِيعٍ ، فَيَغِيرُونَ عَلَى نَوَاحِي بَلَدَةِ الْجِلَالِي . وَكَانَ أَصْحَابِنَا يَرْكَبُونَ كُلَّ يَوْمٍ مَعَ أَمِيرَتِكَ النَّاحِيَةَ لِيَعِينُوهُ عَلَى مَدَافِعَتِهِمْ .

ذِكْرُ مَحْنَتِي بِالْأَسْرِ ، وَخِلَاصِي مِنْهُ ،
وَخِلَاصِي مِنْ شِدَّةِ بَعْدِهِ ، عَلَى يَدِ وَلِيِّ
مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى

وَفِي بَعْضِ تِلْكَ الْأَيَّامِ رَكِبْتُ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِي وَدَخَلْنَا بَسْتَانًا تَقِيلُ فِيهِ ، وَذَلِكَ فَصْلُ الْقَيْظِ . فَسَمِعْنَا الصِّيَاحَ فَرَكِبْنَا ، وَلَحَقْنَا كُفَّارًا أَغَارُوا عَلَى قَرْيَةٍ مِنْ قَرْيِ الْجِلَالِي . فَأَتَّبَعْنَاهُمْ فَتَفَرَّقُوا وَتَفَرَّقَ أَصْحَابِنَا فِي طَلَبِهِمْ ، وَانْفَرَدْتُ فِي خَمْسَةِ مِنْ أَصْحَابِنَا . نَخْرُجُ عَلَيْنَا جُمْلَةً مِنَ الْفُرْسَانِ وَالرِّجَالِ مِنْ غَيْصَةِ هُنَاكَ ، فَفَرَرْنَا مِنْهُمْ لِكَثْرَتِهِمْ ، وَأَتَّبَعَنِي نَحْوُ عَشْرَةٍ مِنْهُمْ ، ثُمَّ انْقَطَعُوا عَنِّي إِلَّا ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ ، وَلَا طَرِيقَ بَيْنَ يَدَيَّ . وَتِلْكَ الْأَرْضُ كَثِيرَةُ الْحِجَارَةِ ،

فنشبت يد فرسي بين الحجارة ، فنزلت عنه واقتاعت يده وعدت إلى ركوبه .
والعادة بالهند أن يكون مع الانسان سيفان ، أحدهما معلق بالسرج ويسمى
الركابي ، والآخري (التركش) . فسقط سيفي الركابي من غمده وكانت حليته
ذهبا . فنزلت فأخذته وتقلدته ، وركبت وهم في إثري . ثم وصلت إلى
خندق عظيم فنزلت ودخلت في جوفه ، فكان آخر عهدى بهم .

ثم خرجت إلى واد في وسط شعراء^(١) ملتفة في وسطها طريق . فمشيت عليه
ولا أعرف منتهاه . فبينما أنا في ذلك نخرج على نحو أربعين رجلا من الكفار
بأيديهم القسي ، فأحدقوا بي . وخفت أن يرموني رمية رجل واحد إن فررت
منهم ، وكنت غير متدرع ، فألقيت بنفسي إلى الأرض واستأمرت^(٢) ،
وهم لا يقتلون من فعل ذلك . فأخذوني وسلبوني جميع ما علي غير جبة
وقييص وسراويل ، ودخلوا بي إلى تلك الغابة فأتوهوا بي إلى موضع جلوسهم
منها ، على حوض ماء بين تلك الأشجار ، وأتوني بخبز مآش وهو الحلبان ،
فأكلت منه وشربت من الماء . وكان معهم مسلمان كلباني بالقارسية
وسألني عن شأني ، فأخبرتهما ببعضه ، وكنتمهما أني من جهة السلطان .
فقالا لي : لا بد أن يقتلك هؤلاء أو غيرهم . ولكن هذا مقدمهم ، وأشاروا
إلى رجل منهم . فكلمته بترجمة المسلمين^(٣) ، وتلطفت له ، فوكل بي ثلاثة
منهم ، أحدهم شيخ ومعه ابنه ، والآخر أسود خبيث . وكلمني أولئك
الثلاثة ، ففهمت منهم أنهم أمروا بقتلي . واحتملوني عشي النهار إلى
كهف . وسلط الله على الأسود منهم حمى مُرعدة ، فوضع رجليه علي ،
ونام الشيخ وابنه . فلما أصبحنا تكلموا فيما بينهم ، وأشاروا إلى بالتزول
معهم إلى الحوض . وفهمت أنهم يريدون قتلي ، فكلمت الشيخ وتلطفت

(١) أرض كثيرة الشجر والنبات (٢) طلبت أن يأمروني .

(٣) أي أن المسلمين كانوا يترجمان كلامي له .

له فرق لي ، وقطعت كمي قميصي وأعطيته إياهما لكي لا يأخذه أصحابه في إن فررت . ولما كان عند الظهر سمعنا كلاما عند الحوض فظنوا أنهم أصحابهم ، فأشاروا إليّ بالتزول معهم ، فزلنا ووجدنا قوما آخرين ، فأشاروا عليهم أن يذهبوا في صحبتهم فأبوا . وجلس ثلاثهم أمامي وأنا مواجه لهم ، ووضعوا جبل قنّب كان معهم بالأرض وأنا أنظر إليهم ، وأقول في نفسي : بهذا الجبل يربطوني عند القتل . وأقت كذلك ساعة . ثم جاء ثلاثة من أصحابهم الذين أخذوني فتكلموا معهم ، وفهمت أنهم قالوا لهم : لأى شيء ما قتلتهموه ؟ فأشار الشيخ إلى الأسود كأنه اعتذر بمرضه .

وكان أحد هؤلاء الثلاثة شابا حسن الوجه فقال لي : أتريد أن أسرحك ؟ فقلت نعم . فقال اذهب . فأخذت الجبسة التي كانت عليّ فأعطيتها إياها . وأعطاني منيرة^(١) بالية عنده وأراني الطريق : فذهبت وخفت أن يبدو لهم فيدركوني ، فدخلت غيضة قطب واختفيت فيها إلى أن غابت الشمس . ثم خرجت وساءت الطريق التي أرايتها الشاب . فأفضت بي إلى ماء ، فشربت منه وسرت إلى ثلث الليل ، فوصلت إلى جبل فنمت تحته . فلما أصبحت سلكت الطريق ، فوصلت ضحاً إلى جبل من الصخر عال ، فيه شجر أم غيلان^(٢) واليسدر ، فكنت أجنى النبق فأكله ، حتى أثر الشوك في ذراعي آثارا هي باقية به حتى الآن . ثم نزلت من ذلك الجبل إلى أرض مزدرعة قطناً ، وبها أشجار الخروع . وهناك برمتسعة جدا مطوية بالحجارة ، لها درج يُنزل عليها إلى ورد الماء . وبعضها يكون في وسطه وجوانبه القبات من الحجر والسقائف والمجالس . ويتفاخر ملوك البلاد وأمرؤها بعمارتها في الطرقات التي لا ماء بها . وسنذكر بعض ما رأيناه منها فيما بعد .

(١) مخططة .

(٢) من أشجار الطلح وهي أشجار عظام .

ولما وصلت إلى البئر شربت منها ووجدت عليها شيئا من عساليج (١) الخردل ، قد سقطت ممن غسلها . فأكلت منها وادخرت باقيا ، ونمت تحت شجرة نخروع . فبينما أنا كذلك إذ ورد البئر نحو أربعين فارسا مدرعين ، فدخل بعضهم المزرعة ثم ذهبوا . وطمس الله أبصارهم دوني . ثم جاء بعدهم نحو خمسين في السلاح ونزلوا إلى البئر . وأتى أحدهم إلى شجرة إزاء الشجرة التي كنت تحتها ، فلم يشعر بي . ودخلت إذ ذاك في مزرعة القطن وأقمت بها بقية نهاري . وأقاموا على البئر يغسلون ثيابهم ويلعبون . فلما كان الليل هدأت أصواتهم فعلمت أنهم قد مروا أو ناموا ، فخرجت حينئذ واتبعت أثر الخيل والليل مقمر ، وسرت حتى انتهيت إلى بئر أخرى عليها قبة . فنزلت إليها وشربت من مائها وأكلت من عساليج الخردل التي كانت عندي . ودخلت القبة فوجدتها مملوءة بالعشب مما يجمعه الطير . فنمت بها وكنت أحس حركة حيوان في ذلك العشب ، أظنه حية ، فلا أباليها لما بي من الجهد . فلما أصبحت سلكت طريقا واسعة تفضي إلى قرية خربة ، وسلكت سواها فكانت كمثلها ، وأقمت كذلك أياما . وفي بعضها وصلت إلى أشجار ملتفة بينها حوض ماء وفي داخلها شبه بيت ، وعلى جوانب الحوض نبات الأرض كالنجيل وغيره . فأردت أن أقعد هناك حتى يبعث الله من يوصلني إلى العارة . ثم إنني وجدت يسير قوة فنهضت على طريق وجدت بها أثر البقر ، ووجدت ثورا عليه بردعة ومنجل ، فإذا تلك الطريق تفضي إلى قرية الكفار ، فاتبعت طريقا أخرى ، فأفضت بي إلى قرية خربة ، ورأيت بها أسودين عربانيين نخفهما ، وأقمت تحت أشجار هناك . فلما كان الليل دخلت القرية ، ووجدت دارا في بيت من بيوتها شبه خابية كبيرة يصنعونها لاختران الزرع . وفي أسفلها نقب يسع الرجل ، فدخلتها ووجدت

(١) جمع عسلوج ، وهو ما لان واخضر من الأغصان .

داخلها مفروشا بالتبين ، وفيه حجر جعلت رأسى عليه ونمت . وكان فوقها طائر يرفرف بجناحيه أكثر الليل ، وأظنه كان يخاف ، فاجتمعنا خائفين . وأقمت على تلك الحال سبعة أيام من يوم أسرت وهو يوم السبت .

وفي السابع منها وصلت إلى قرية للكفار عامرة ، وفيها حوض ماء ومنابت خُضر ، فسألتهم الطعام فأبوا أن يعطوني ، فوجدت حول بئرها أوراق بخل فأكلتها . وجئت القرية فوجدت جماعة كفار لهم طابعة^(١) ، فدعاني طليعهم فلم أجه . وقعدت على الأرض ، فأتى أحدهم بسيف مسلول ورفع ليضربني به ، فلم ألقت إليه لعظيم ما بي من الجهد . ففتشني فلم يجد عندي شيئا ، فأخذ التميمص الذي كنت أعطيت الشيخ الموكل بي كُتيه .

ولما كان في اليوم الثامن ، اشتد بي العطش وعدمت الماء ، ووصلت إلى قرية نراب فلم أجد بها حوضا . وعادتهم بتلك القرى أن يصنعوا أحواضا يجتمع بها ماء المطر ، فيشربوا منه جميع السنة ، فاتبعت طريقا ، فأفضت بي إلى بئر غير مطوية ، عليها حبل مصنوع من نبات الأرض ، وليس فيه أنية يستقى بها ، فربطت نرقفة كانت على رأسى في الحبل ، وامتصصت ما تعلق بها من الماء فلم يروني ، فربطت خُفي ، واستقيت به فلم يروني ، فاستقيت به ثانيا ، فانقطع الحبل ووقع الخلف في البئر . فربطت الخلف الآخر وشربت حتى رويت . ثم قطعته فربطت أعلاه على رجلى بجبل البئر ، ويحرق وجدتها هنالك . فبينما أنا أربطها وأفكر في حالى ، إذ لاح لى شخص فنظرت إليه ، فإذا رجل أسود اللون بيده إبريق وعكاز ، وعلى كاهله حِراب ، فقال لى : سلام عليكم . فقلت له : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته . فقال لى بالفارسية : جيكس ، ومعناه : من أنت ؟ فقلت له : أنا تائه . فقال لى : وأنا كذلك . ثم ربط إبريقه بجبل كان معه واستقى .

(١) طابعة الجيش من بيعت ليطاع طلع العدو . للواحد والجمع .

فأردت أن أشرب فقال لي : اصبر . ثم فتح جرابه ، فأخرج منه غَرْفَةَ حَمَصٍ
أسود مقلو مع قليل أرز ، فأكلت منه وشربت ، وتوضأ وصلى ركعتين ،
وتوضأت أنا وصليت . وسألني عن اسمي فقلت : مجد ، وسألته عن اسمه
فقال لي : انقلب الفارح . فتفاءلت بذلك وسررت به . ثم قال لي :
باسم الله ترافقني ؟ فقلت نعم . فمشيت معه قليلا ، ثم وجدت قُتُوراً في أعضائي ،
ولم أستطع النهوض . فقعدت ، فقال : ما شأنك ؟ فقلت له : كنت
قادرا على المشي قبل أن ألك ، فلما لقيتك عجزت . فقال : سبحان الله !
اركب فوق عنقي . فقلت له : إنك ضعيف ولا تستطيع ذلك . فقال :
يقويني الله ، لا بد لك من ذلك . فركبت على عنقه ، وقال لي : أكثر
من قراءة : حسبنا الله ونعم الوكيل . فأكثرت من ذلك وغلبتني عيني . فلم أنق
إلا لِسْقُوطِي على الأرض ، فاستيقظت ولم أر للرجل أثرا ، وإذا أنا في قرية
عامرة ، فدخلتها فوجدتها لرعية الهنود . وحاكها من المسلمين . فأعلموه بي ،
فجاء إلي فقلت له : ما اسم هذه القرية ؟ فقال لي : تاج بورة . وبينها وبين
مدينة كُؤول حيث أصحابنا فرسخان .

وحملني ذلك الحاكم إلى بيته فأطعمني طعاما سَخِناً . واغتسلت . وقال لي :
عندي ثوب وعمامة أودعهما عندى رجل عربي مصري ، من أهل المحلة
التي بكُؤول . فقلت له : هاتهما ألبسهما ، إلى أن أصل إلى المحلة ، فأتي بهما
فوجدتهما من ثيابي ، وكنت قد وهبتهما لذلك العربي لما قَدِمْنَا كُؤول . فطال
تعجبي من ذلك . وأفكرت في الرجل الذي حملني على عنقه . فتذكرت ما أخبرني
به ولي الله تعالى أبو عبد الله المرشدي ، على ما ذكرناه في السفر الأول ، إذ
قال لي : ستدخل أرض الهند وتلق بها أنحى ، ويخلصك من شدة تقع فيها .
وتذكرت قوله لما سأله عن اسمه ، فقال : القلب الفارح . فعلمت أنه هو الذي
أخبرني بلقائه ، وأنه من الأولياء . ولم يحصل لي من صحبته إلا المقدار الذي ذكر . (١)

(١) حكاية هذا الولي من الغرائب التي يحار فيها العقل . والعهد فيها على ابن بطوطة .

وأُتيت تلك الليلة إلى أصحابي بكول معلما لهم بسلامتي ، بغاءوا إلى بفرس
وثياب واستبشروا بي ، ووجدت جواب السلطان قد وصلهم . وقد بعث بفتى
يسمى بسُنبل الجامدار ، عوضا عن كافور المستشهد ، وأمرنا أن نتمادي
في سفرنا . ووجدتهم أيضا قد كتبوا للسلطان بما كان من أمرى ، وتشاءموا
بهذه السفارة ، لما جرى فيها على وعلى كافور ، وهم يريدون أن يرجعوا .

فلما رأيت تأكيد السلطان في السفر ، أكدت عليهم ، وقوي عزمى .
فقالوا : ألا ترى ما اتفق في بداية هذه السفارة ؟ والسلطان يعذرك ، فلنرجع
إليه ، أو لنقيم حتى يصل جوابه . فقلت لهم : لا يمكن المقام ، وحيثما كنا أدركنا
الجواب . فرحلنا من كُول وزلنا بُرج بُورة ، وبه زاوية حسنة ، وفيها شيخ
حسن الصورة والسيرة يسمى بمحمد العريان ، لأنه لا يلبس إلا ثوبا من سرته
إلى أسفل . وباقى جسده مكشوف . وهو تلميذ الصالح الولي محمد العريان ،
القاطن بقرافة مصر ، نفع الله به .

حكاية هذا الشيخ

وكان من أولياء الله تعالى ، قائما على قدم التجرد ، يلبس (تنورة) وهو
ثوب يستر من سرته إلى أسفل . ويذكر أنه كان إذا صلى العشاء الآخرة
أخرج كل ما بقى بالزاوية من طعام وإدام وماء ، وفرق ذلك على المساكين ،
ورمى بفتيلة السراج ، وأصبح على غير معلوم . وكانت عادته أن يطعم أصحابه
عند الصباح خبزا وفولا ، فكان الخبازون والفوالون يسبقون إلى زاويته فيأخذ
منهم مقدار ما يكفي الفقراء . ومن حكاياته أنه لما وصل قازان ملك التتر
إلى الشام بعساكره ، وملك دمشق ما عدا قلعتها ، وخرج الملك الناصر إلى
مدافعتة ، ووقع اللقاء على مسيرة يومين من دمشق بموضع يقال له قَشْحَب ،
والملك الناصر إذ ذاك حديث السن ، لم يعهد الوقائع ، وكان الشيخ العريان

في صحبته،^(١) نزل وأخذ قيذا فقيده به فرس الملك الناصر، لئلا يترشح عند اللقاء لحدائث سنه، فيكون ذلك سبب هزيمة المسلمين. فثبت الملك الناصر، وهُزِمَ التتر هزيمة شنعاء، قتل منهم فيها كثير وغرق كثير، بما أرسل عليهم من المياه. ولم يعد التتر إلى قصد بلاد الإسلام بعدها. وأخبرني الشيخ محمد العريان تلميذ هذا الشيخ، أنه حضر هذه الواقعة وهو حديث السن^(٢).

ورحلنا من برج بؤرة ونزلنا على الماء المعروف (باب سياه). ثم رحلنا إلى مدينة قنوج، مدينة كبيرة حسنة العماره حصينة، رخيصة الأسعار، كثيرة السكر، ومنها يحمل إلى دهلي، وعليها سور عظيم. وقد تقدم ذكرها. وكان بها الشيخ معين الدين البآخرزي، وقد أضافنا بها. وأميرها فيروز البَدْخْشَانِي، من ذرية بهرام جور صاحب كسرى. ويسكن بها جماعة من الصلحاء الفضلاء المعروفين بمكارم الأخلاق، يعرفون بأولاد شرف جهان، وكان جدهم قاضي القضاة بدولة آباد. وهو من المحسنين المتصدقين. واتتهم الرياسة ببلاد الهند إليه.

حكاية له

يذكر أنه عَزِلَ مرة عن القضاء وكان له أعداء، فادعى أحدهم عند القاضي الذي ولى بعده، أن له عشرة آلاف دينار قبله، ولم تكن له بيعة. وكان قصده أن يحلفه، فبعث القاضي له. فقال لرسوله: بم ادعى عليّ؟ فقال بعشرة آلاف دينار، فبعث إلى مجلس القاضي عشرة آلاف، وسُئِمَت للدعى. وبلغ خبره السلطان علاء الدين، وصح عنده بطلان تلك الدعوى، فأعاده إلى القضاء، وأعطاه عشرة آلاف.

(١) جواب لما .

(٢) هذه الحكاية من اختراع القصاص كما يظهر .

وأقمتنا بهذه المدينة ثلاثاً ، ووصلنا فيها جواب السلطان في شأنى ، بأنه إن لم يظهر لفلان أثر ، يتوجه وجيه المُلْك قاضى دولة آباد عوضاً عنه . ثم رحلنا من هذه المدينة فزلنا بمنزل هَنُول ، ثم بمنزل (وزير بور) ، ثم بمنزل البَجَالِصَة . ثم وصلنا إلى مدينة مَوْرَى ، وهى صغيرة ، ولها أسواق حسنة . ولقيت بها الشيخ الصالح المعمر قُطْبَ الدين ، المسمى بمحيدر الفَرغَانى ، وكان بحال مرض ، فدعألى وزقودنى رغيّف شعير . وأخبرنى أن عمره يُئيف على مائة وخمسين . وذكر لى أصحابه أنه يصوم الدهر ويواصل كثيراً ، ويكثر الاعتكاف . وربما أقام فى خلوته أربعين يوماً ، يقتات فيها بأربعين تمره ، فى كل يوم واحدة . وقد رأيت بدهى الشيخ المسمى بـرجب البرُقى ، دخل الخلوته بأربعين تمره فأقام بها أربعين يوماً ، ثم خرج ، وفضّل معه منها ثلاث عشرة تمره . ثم رحلنا ووصلنا إلى مدينة (مَرَه) وهى مدينة كبيرة أكثر سكانها كفار تحت الذمة . وهى حصينة ، وبها القمح الطيب الذى ليس مثله بسواها . ومنها يحمل إلى دِهْلِى ، وحبوبه طوال شديدة الصفرة ضخمة ، ولم أر قمحا مثله إلا بأرض الصين . وتنسب هذه المدينة إلى المألوة ، وهى قبيلة من قبائل الهنود ، ضخام الأجسام عظام الخلق حسان الصور ، لنسائهم الجمال الفائق . ثم سافرنا إلى مدينة علاَبُور ، مدينة صغيرة أكثر سكانها الكفار تحت الذمة . وعلى مسيرة يوم منها سلطان كافر اسمه قَمَم ، وهو سلطان جنّيل الذى حاصر مدينة كَيَالِير ، وقُتِل بعد ذلك .

حكاية

كان هذا السلطان الكافر قد حاصر مدينة رابرى ، وهى على نهر الجون^(١) . كثيرة النرى والمزارع ، وكان أميرها خطّاباً الأفغانى ، وهو أحد الشجعان .

(١) نهر حما ، كما تقدم .

واستعان السلطان الكافر بسلطان كافر مثله يسمى رَجُوء، وبلده يسمى (سُلطان بُور)، وحاصر مدينة راري، فبعث خَطَّاب إلى السلطان يطلب منه الإعانة، فأبطأ عليه المَدَد، وهو على مسيرة أربعين من الحضرة، يخاف أن يتغلب الكفار عليه. بجمع من قبيلة الأفغان نحو ثلاثمائة ومثلهم من المماليك، ونحو أربعائة من سائر الناس. وجعلوا العائم في أعناق خيلهم، وهي عادة أهل الهند، إذا أرادوا الموت وباعوا نفوسهم من الله تعالى. وتقدّم خطَّاب وقبيلته وتبعهم سائر الناس، وفتحوا الباب عند الصبح، وحملوا على الكفار حملة واحدة. وكانوا نحو خمسة عشر ألفا. فهزموهم بإذن الله وقتلوا سلطانهم، قَمَّ ورجُوء. وبعثوا برأسيهما إلى السلطان. ولم ينبج من الكفار إلا الشريد.

ذكر أمير علابور واستشهاده

وكان أمير علابور بَدْر الحبشي من عبيد السلطان. وهو من الأبطال الذين تضرب بهم الأمثال. وكان لا يزال يُغير على الكفار منفردا بنفسه، فيقتل ويَسبي حتى شاع خبره واشتهر أمره، وها به الكفار. وكان طويلا ضخما يأكل الشاة عن آخرها في أكلة. وأُخبرت أنه كان يشرب نحو رطل ونصف من السمن بعد غدائه، على عادة الحبشة ببلادهم. وكان له ابن يدانيه في الشجاعة، فانفق أنه أغار مرة في جماعة من عبيده على قرية للكفار، فوقع به الفرس في مَطْمُورَة^(١). واجتمع عليه أهل القرية فضربه أحدهم بقتارة، والقتارة حديدة شبه سِكَّة الحِث، يدخل الرجل يده فيها فتكسو ذراعه، ويفضّل منها مقدار ذراعين. وضربتها لا تبقى. فقتله بتلك الضربة ومات فيها. وقتلوا رجالها وسبوا نساءها. وقاتل عبيده أشد القتال، فتغلبوا على القرية، وأخرجوا الفرس من المَطْمُورَة سالما فأتوا به ولده. فكان من

(١) الحفرة تحت الأرض.

الاتفاق الغريب أنه ركب الفرس وتوجه إلى دِهْلِي ، نخرج عليه الكفار فقاتلهم حتى قتل ، وعاد الفرس إلى أصحابه فدفعوه إلى أهله ، فركبه صهر له فقتله الكفار عليه أيضا .

ثم سافرنا إلى مدينة كَالِيُور ، وهي مدينة كبيرة لها حصن منيع ، منقطع في رأس شاهق ، على بابه صورة فيل وِفِيَال من الحجارة ، وقد مر ذكره في اسم السلطان قطب الدين . وأمير هذه المدينة أحمد بن سيرخان ، فاضل كان يكرمني أيام إقامتي عنده قبل هذه السفارة . ودخلت عليه يوما وهو يريد توسيط^(١) رجل من الكفار، فقلت له : بالله لا تفعل ذلك ، فإنني ما رأيت أحدا قط يُقْتَل بِمَحْضَرِي . فأمر بسجنه وكان ذلك سبب خلاصه . ثم رحلنا من مدينة كَالِيُور إلى مدينة بَرَوْن ، مدينة صغيرة للساميين بين بلاد الكفار ، أميرها محمد بن بَيْرَم التركي الأصل . والسباع بها كثيرة . وذكر لي بعض أهلها أن السبع كان يدخل إليها ليلا وأبوابها مغلقة فيفترس الناس ، حتى قتل من أهلها كثيرا . وكانوا يعجبون من شأن دخوله . وأخبرني محمد التَّوْفِيْزِي من أهلها ، وكان جارا لي بها ، أنه دخل داره ليلا واقترس صبيا من فوق السرير . وأخبرني غيره أنه كان مع جماعة في دار عُرْس ، نخرج أحدهم لحاجة فاقترسه أسد ، نخرج أصحابه في طلبه ، فوجدوه مطروحا بالسوق وقد شرب دمه ، ولم يأكل لحمه . وذكروا أنه كذلك فعله بالناس . ومن العجب أن بعض الناس أخبرني أن الذي يفعل ذلك ليس بسبع ، وإنما هو آدمي من السحرة المعروفين بالجوْكِية ، يتصوّر في صورة سبع . ولما أخبرت بذلك أنكرته ، وأخبرني به جماعة . ولنذكر بعضا من أخبار هؤلاء السحرة .

(١) قطعه نصفين كما سبق في الحواشي .

ذكر السحرة الجوكية

وهؤلاء الطائفة تظهر منهم عجائب . منها أن أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب . وكثير منهم تحفر لهم حفر تحت الأرض وتبنى عليهم ، فلا يترك للواحد إلا موضع يدخل منه الهواء . وقيم بها المشهور . وسمعت أن بعضهم يقيم كذلك سنة . ورأيت بمدينة منجور رجلا من المسلمين ممن يتعلم منهم ، قد رفعت له طبلة^(١) وأقام بأعلاها ، لا يأكل ولا يشرب مدة خمسة وعشرين يوما . وتركته كذلك فلا أدرى كم أقام بعدى . والناس يذكرون أنهم يركبون جوبا ، يأكلون الحبة منها لأيام معلومة وأشهر ، فلا يحتاجون في تلك المدة إلى طعام ولا شراب ، ويخبرون بأمر مغيبة . والسلطان يعظمهم ويجالسهم . ومنهم من يقتصر في أكله على البقل ، ومنهم من لا يأكل اللحم وهم الأكثرون . والظاهر من حالهم أنهم عودوا أنفسهم الرياضة ، ولا حاجة لهم في الدنيا وزيلتها . ومنهم من ينظر إلى الإنسان فيقع ميتا من نظرتة . وتقول العامة : إنه إذا قُتل إنسان بالنظر ، وشق عن صدر الميت وجد دون قلب . ويقولون : أكل قلبه . وأكثر ما يكون هذا في النساء . والمرأة التي تفعل ذلك تسمى (كفتارا)^(٢) .

حكاية

لما وقعت المجاعة العظمى ببلاد الهند بسبب القحط ، والسلطان بلاد التلنك ، نفذ أمره أن يعطى لأهل دهلي ما يقوتهم ، بحساب رطل ونصف للواحد في اليوم . فجمعهم الوزير ووزع المساكين منهم على الأمراء والقضاة

(١) يقصد شيئا كالمصصة ، وليس لهذه الكلمة هذا المعنى في العربية .

(٢) لا تخلو هذه الأخبار من مبالغة كما هو ظاهر .

ليتلوا إطعامهم ، فكان عندي منهم خمسمائة نفس . فعمرت لهم سقائف في دارى وأسكنتهم بها . وكنت أعطيهم نفقة خمسة أيام خمسة أيام . فلما كان في بعض الأيام أتوني بمرأة منهم وقالوا إنها (كفتار) ، وقد أكلت قلب صبي كان إلى جانبها . وأتوا بالصبي ميتا ، فأمرتهم أن يذهبوا بها إلى نائب السلطان ، فأمر باختبارها : وذلك بأن ملئوا أربع جرّات بالماء ، وربطوها بيديها ورجليها ، وطرحوها في نهر الجون ، فلم تغرق ، فعلم أنها (كفتار) . ولو لم تطف على الماء لم تكن بكفتار . فأمر بإحراقها بالنار . وأتوا بأهل البلد رجالا ونساء فأخذوا رمادها ، وزعموا أنه من تجرّ به أمن في تلك السنة من سحر (كفتار) ^(١) .

حكاية

بعث إلى السلطان يوما وأنا عند: بالحضرة، فدخلت عليه وهو في خلوة، وعنده بعض خواصه، ورجلان من هؤلاء الجوكية، وهم يتحفون بالملاحف، ويغطون رؤوسهم، لأنهم يتنفونها بالرماد، فأمرني بالجلوس بجلسيت. فقال لهما: إن هذا العزيز من بلاد بعيدة، فأرياه ما لم يره. فقالا: نعم. فترجع أحدهما، ثم ارتفع عن الأرض حتى صار في الهواء فوقنا مترعا، فعمجبت منه، وأدركني الخوف فسقطت إلى الأرض. فأمر السلطان أن أُسقى دواء عنده، فأفقت، وقعدت وهو على حاله مترع. فأخذ صاحبه نعلا له من شكارة ^(٢) كانت معه، فضرب بها الأرض كالمغناظ، فصعدت إلى أن علت فوق عنق المترع، وجعلت تضرب في عنقه، وهو ينزل قليلا

(١) يظهر أن هذه الحكاية وأمثالها من الشعوذة .

(٢) زكية صغيرة . والشكارة ليست بعربية . وقال صاحب القاموس إن الزكية كلمة

قليلاً حتى جلس معنا . فقال لي السلطان : إن المترجع هو تلميذ صاحب النعل . ثم قال : لولا أني أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت ، فانصرفت عنه ، وأصابني الخفقان ومرضت ، حتى أمر لي بشربة أذهبت ذلك عني .

ولنعد لما بنا بسبيله فنقول : سافرنا من مدينة برّون إلى منزل أمّواري ، ثم إلى منزل بجرّاً ، وبه حوض عظيم طوله نحو ميل ، وعليه الكائس فيها الأصنام وقد مثل بها المسلمون ، وفي وسطه ثلاث قباب من الحجارة الحجر على ثلاث طباق ، وعلى أركانها الأربعة قباب . ويسكن هنالك جماعة من الجوكية ، وقد لبّدوا شعورهم وطالت حتى صارت في طولهم . وغلبت عليهم صفرة الألوان من الرياضة . وكثير من المسلمين يتبعونهم ليتعلموا منهم . ويذكرون أن من كانت به عاهة من برّص أو جذام ، يأوى إليهم مدة طويلة فيراً بإذن الله تعالى . وأول ما رأيت هذه الطائفة بحملة السلطان طرمشيين ، ملك تركستان . وكانوا نحو الخمسين . فحفر لهم غار تحت الأرض ، وكانوا مقيمين به لا يخرجون إلا لقضاء حاجة . ولهم شبه القرن^(١) يضربونه أول النهار وآخره وبعد العتمة . وشأنهم كله عجب .

ثم سافرنا إلى مدينة جنديري ، مدينة عظيمة لها أسواق حافلة ، يسكنها أمير أمراء تلك البلاد ، عز الدين البتاني ، وهو المدعو (بأعظم ملك) ، وكان خيراً فاضلاً يجالس أهل العلم . ومن كان يجالس الفقيه عز الدين الزبيرى والفقيه العالم وجيه الدين البيان ، نسبة إلى مدينة بيّانة التي تقدم ذكرها ، والفقيه القاضي المعروف بقاضي خاصّة ، وإمامهم شمس الدين . وكان النائب عنه على أمور المخزن ، يسمى قمر الدين ، ونائبه على أمور العسكر سعادة التلنكي من كبار الشجعان ، وبين يديه تعرض العساكر . (وأعظم ملك) لا يظهر إلا في يوم الجمعة ، وفي غيرها نادراً .

(١) يراد به البوق .

ثم سرنا من جنديري إلى مدينة ظهار ، وهي مدينة المسالوة ، أكبر عمالة بتلك البلاد . وزرعها كثير خصوصا القمح . ومن هذه المدينة تحمل أوراق التانبول إلى دهلي . وبينهما أربعة وعشرون يوما . وعلى الطريق بينهما أعمدة منقوش عليها عدد الأميال فيما بين كل عمودين . فإذا أراد المسافر أن يعلم عدد ما سار في يومه ، وما بقي له إلى المنزل أو إلى المدينة التي يقصدها ، قرأ النقش الذي في الأعمدة فعرفه . ومدينة ظهار إقطاع للشيخ إبراهيم الذي من أهل ذيبة المهل^(١) .

حكاية

كان هذا الشيخ إبراهيم قدم على هذه المدينة ونزل بخارجها ، فأحيا أرضا مواتها تلك ، وصار يزرعها بطيخا ، فأتى في غاية من الحلاوة ، وليس بتلك الأرض مثله . ويزرع الناس بطيخا فيما يجاوره فلا يكون مثله . وكان يطعم الفقراء والمساكين . فلما قصد السلطان إلى بلاد المعبر أهدى إليه هذا الشيخ بطيخا فقبله منه واستطابه ، وأقطع مدينة ظهار ، وأمره أن يعمر زاوية بربرة تشرف عليها ، فعمرها أحسن عمارة . وكان يطعم بها الوارد والصادر . وأقام على ذلك أعواما . ثم قدم على السلطان وحمل إليه ثلاثة عشر (لكا)^(٢) ، فقال : هذا فضل مما كنت أطعمه الناس ، وبيت المال أحق به . فقبضه منه . ولم يعجب السلطان فعله ، لكونه جمع المال ولم ينفق جميعه في إطعام الطعام . وبهذه المدينة أراد ابن أخت الوزير الخواجة جهان أن يفتك بخاله ، ويستولى على أمواله ، ويسير إلى القائم ببلاد المعبر ، فنمى خبره إلى خاله ، فقبض عليه وعلى جماعة من الأمراء ، وبعثهم إلى السلطان فقتل الأمراء ، ورد ابن أخته إليه فقتله الوزير .

(١) جزائر مالديف .

(٢) تقدم شرحه في الحواشي .

ولما رد ابن أخت الوزير إليه أمر به أن يقتل ، كما قتل أصحابه . ثم طرح للقبيلة ، وسلخ جلده وملع تبنا .

ثم سافرنا من مدينة ظَهَار إلى مدينة أُجَيْن ، مدينة حسنة كثيرة العمارة . وكان يسكنها الملك ناصر الدين بن عين الملك ، وهو من الفضلاء الكرماء العلماء ، استشهد بجزيرة سَنَدَابُور حين افتتحها . وقد زرت قبره هناك ، وسنذكره . وبهذه المدينة كان سكنى الفقيه الطيب جمال الدين المغربي الغرناطي الأصل .

ثم سافرنا من مدينة أُجَيْن إلى مدينة دولة آباد ، وهي المدينة الضخمة العظيمة الشأن ، الموازية لحضرة دَهْلِي في رفعة قدرها واتساع خطتها . وهي منقسمة ثلاثة أقسام : أحدها دولة آباد ، وهو مختص بسكنى السلطان وعساكره ، والقسم الثاني يسمى الكَتَكَّة ، والقسم الثالث قلعته التي لا مثل لها ولا نظير في الحصانة ، وتسمى الدُّوَيْقِير . وبهذه المدينة سكنى الخان الأعظم قُطْلُوخان معلم السلطان . وهو أميرها والنائب عن السلطان بها ، وبلاد صَاغَر ، وبلاد التِّلْنِك وما أضيف إلى ذلك . وعمالتها مسيرة ثلاثة أشهر ، عامرة كلها ، ونوابه فيها . وقلعة الدُّوَيْقِير التي ذكرناها هي قطعة حجر في بسيط من الأرض ، قد نحتت وبنى بأعلاها قلعة يصعد إليها بسلم مصنوع من جلود ، ويرفع ليلا . ويسكن بها الزِمَامِيُون^(١) بأولادهم . وفيها سبعين أهل الجرائم العظيمة في جبوب^(٢) بها . وبها فيران ضخام أعظم من القطوط^(٣) ، والقطوط تهرب منها ، ولا تطيق مدافعها لأنها تغلبها . ولا تصاد إلا بحيل تُدار عليها . وقد رأيتها هناك فعجبت منها .

(١) الحراس المفيدة أسماءهم في جرائد الجيش ، تسمية اصطلاحية .

(٢) جمع جب . ولكن الجموع في الكتب التي بأيدينا هي : أَجْبَاب وِجَاب وِجِيَّة .

(٣) جمع قط . وهذا الجمع غريب . والذي في القاموس : قِطَاط وقِطَاطة .

حكاية

أخبرني الملك خطابُ الأفغانِي أنه سجن مرة في جب بهذه القلعة، يسمى جب الفيران ، قال : فكانت تجتمع على ليلا لتأكلني ، فأقاتلها ، وألقى من ذلك جهدا . ثم إنى رأيت في النوم قائلا يقول لى : اقرأ سورة الإخلاص مائة ألف مرة ، فيفرج الله عنك . قال : فقرأتها فلما أتممتها أخرجت . وكان سبب خروجى أن الملك (مَلّ) كان مسجوناً في جب يجاورنى ، فرض وأكلت الفيران أصابعه وعينه فمات . فبلغ ذلك السلطان فقال : أخرجوا خطابا لئلا يتفق له مثل ذلك . وإلى هذه القلعة لجأ ناصر الدين ابن الملك (مَلّ) هذا ، والقاضى جلال حين هزمهما السلطان .

وأهل بلاد دولة آبادهم قبيل المرهتة الذين خص الله نساءهم بالحسن ، وخصوصا فى الأنوف والحواجب . وكفار هذه المدينة أصحاب تجارات . وأكثر تجارتهم فى الجواهر ، وأموالهم طائلة . وبدولة آباد العنب والرمان ، ويثران مرتين فى السنة . وهى من أعظم البلاد مجبى وأكبرها خراجا ، لكثرة عمارتها واتساع عمالتها . وأخبرت أن بعض الهنود الترم مغارمها وعمالتها جميعا ، وهى كما ذكرناها مسيرة ثلاثة أشهر ، بسبعة عشر كُورا ، والكُور مائة لك ، واللك مائة ألف دينار . ولكنه لم يف بذلك فبق عليه بقية ، فأخذ ماله وسليخ جلده .

ذكر سوق المغنين

وبمدينة دولة آباد سوق للمغنين والمغنيات ، يسمى سوق طرب آباد ، من أجل الأسواق وأكبرها ، فيه الدكاكين الكثيرة ، كل دكان له باب يفضى إلى دار صاحبه . وللدار باب سوى ذلك . والحانوت مزين بالفرش ، وفى وسطه

شكل مهّد كبير، تجلس فيه المغنية أو ترقد ، وهي مترينة بأنواع الحُلّي ، وجواريا يحركن مهدها . وفي وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة ، يجلس فيها أمير المطربين بعد صلاة العصر من يوم كل خميس ، وبين يديه خدامه ومماليكه . وتأتى المغنيات طائفة بعد أخرى ، فيغنين بين يديه ويرقصن إلى وقت المغرب ، ثم ينصرف .

وفي تلك السوق المساجد للصلاة . ويصلى الأئمة فيها التراويح في شهر رمضان . وكان بعض سلاطين الكفار بالهند إذا مرّ بهذه السوق يتزلّ يقبّتها ، وتغنى المغنيات بين يديه . وقد فعل ذلك بعض سلاطين المساميين أيضا .

ثم سافرنا إلى مدينة نذرّ بار ، مدينة صغيرة يسكنها المرهّنة ، وهم أهل الإتقان في الصناعات ، والأطباء والمنجمون ، وشرفاء المرهّنة هم البراهمة . وأكلهم الأرز والخضر ودهن السمسم . ولا يرون تعذيب الحيوان ولا ذبحه . ويغتسلون للأكل . ولا يتزوجون في أقاليمهم إلا فيمن كان بينهم وبينه سبعة أجداد . ولا يشربون الخمر . وهي عندهم أعظم المعاييب . وكذلك هي ببلاد الهند عند المساميين . ومن شربها من مسلم حدّ ثمانين جلدة ، وسجن في مطبوعة ثلاثة أشهر لا تفتح عليه إلا حين طعامه .

ثم سافرنا من هذه المدينة إلى مدينة صاغر ، وهي مدينة كبيرة على نهر كبير يسمى أيضا صاغر كما سمها ، وعليه النواير والبساتين فيها العنب والموز وقصب السكر . وأهل هذه المدينة أهل صلاح ودين وأمانة . وأحوالهم كلها مرضية . ولهم بساتين فيها الزوايا للوارد والصادر . وكل من بنى زاوية يحبس البستان عليها ، ويجعل النظر فيه لأولاده ، فإن انقضوا أعاد النظر للقضاة . والعمارة بها كثيرة . والناس يقصدونها للتبرك بأهلها ، ولكونها محررة من

المغارم والوظائف^(١) . ثم سافرنا من صَاغَرَ إلى مدينة كِنْبَاية ، وهي على حُور من البحر ، وهو شبه الوادي تدخله المراكب ، وبه المد والجزر ، وعابنت المراكب به مُرساة في الوَحَل حين الجزر . فإذا كان المد عامت في الماء . وهذه المدينة من أحسن المدن في إتقان البناء وعمارة المساجد . وسبب ذلك أن أكثر سكانها التجار الغرباء ، فهم أبداً يبنون بها الديار الحسنة والمساجد العجيبة ، ويتنافسون في ذلك . ومن الديار العظيمة بها دار الشريف السامريّ الذي اتفقت لى معه قضية الخلواء ، وكذبه ملك الندماء . ولم أر قط أخصم من الخشب الذي رأيت بهذه الدار . وبابها كأنه باب مدينة . وإلى جانبها مسجد عظيم يعرف باسمه . ومنها دار ملك التجار الكازروني ، وإلى جانبها مسجده . ومنها دار التاجر شمس الدين كلاه دوز .

حكاية

ولما وقع ما قدمناه من مخالفة القاضي جلال الأفغاني ، أراد شمس الدين والتأخذة إلياس ، وكان من كفار أهل هذه المدينة ، وملك الحكماء الذي تقدم ذكره ، أن يمتنعوا منه بهذه المدينة ، وشرعوا في حفر خندق عليها ، إذ لا سور لها . فتغلب عليهم ودخلها . واختفى الثلاثة في دار واحدة ، وخافوا أن يُطَّلَع عليهم ، فاتفقوا على أن يقتلوا أنفسهم ، فضرب كل واحد منهم صاحبه بِقَتارة . وقد ذكرنا صفتها . فمات اثنان منهم ولم يمت ملك الحكماء . وكان من كبار التجار أيضاً بها نجم الدين الحيلاني . وكان حسن الصورة كثير المال . وبني بها داراً عظيمة ومسجداً . ثم أرسل السلطان إليه وأمره عليها وأعطاه المراتب . فكان

(١) المكوس والجبايات .

ذلك سبب تلف نفسه وماله . وكان أمير كِنْبَايَة حين وصلنا إليها مُقْبِلًا
التَّيْنِي . وهو كبير المتزلة عند السلطان . وكان في صحبته الشيخ زاده الأَصْبَهَانِي
نائبًا عنه في جميع أموره . وهذا الشيخ له أموال عظيمة وعنده معرفة بأمور
السلطنة ، ولا يزال يبعث الأموال إلى بلاده ويتحيل في الفرار . وبلغ
خبره السلطان ، وذكر عنه أنه يروم الحرب ، فكتب إلى مقبل أن يبعثه ،
فبعثه على البريد ، وأحضر بين يدي السلطان ووكل به . والعادة عنده أنه متى
وُكِّل بأحد فقلما ينجو . فاتفق هذا الشيخ مع الموكل به على مال يعطيه إياه ،
وهربا جميعا . وذكر لي أحد الثقات أنه رآه في ركن مسجد بمدينة قَلْهَات ،
وأنه وصل بعد ذلك إلى بلاده ، فحصل على أمواله وأمن ما كان يخافه .

حكاية

وأضافنا الملك مقبل يوما بداره ، فكان من النادر أن جلس قاضي المدينة
وهو أعور العين اليمنى ، وفي مقابلته شريف بغدادى شديد الشبه به في صورته
وعوره ، إلا أنه أعور اليسرى . فجعل الشريف ينظر إلى القاضى
ويضحك ، فزجره القاضى ، فقال له : لا تزجرني فإني أحسن منك ، قال :
كيف ذلك ؟ قال : لأنك أعور اليمنى وأنا أعور اليسرى . فضحك الأمير
والحاضرون ، ونجل القاضى ولم يستطع أن يرد عليه ، لأن الشرفاء ببلاد
الهند معظمون أشد التعظيم .

وكان بهذه المدينة من الصالحين الحاج ناصر من أهل ديار بكر ، وسكاه
بقبة من قباب الجامع . دخلنا عليه وأكلنا من طعامه . واتفق له لما دخل
القاضى جلال مدينة كِنْبَايَة حين خلافه ، أنه أتاه ، وذكر للسلطان أنه
دعا له ، فهرب لثلا يقتل كما قتل الحيدرى . وكان بها أيضا من الصالحين
التاجر خواجه إسحاق . وله زاوية يطعم فيها الوارد والصادر ، وينفق على

الفقراء والمساكين . وماله على هذا ينمي ويزيد كثرة . وسافرنا من هذه المدينة إلى بلدة كاي . وهي على خور فيه المد والجزر من بلاد الراي (١) جالنسي ، وسنذكره . وسافرنا إلى مدينة قندهار . وهي مدينة كبيرة للكفار على خور من البحر .

ذكر سلطانها

وسلطان قندهار كافر اسمه جالنسي . وهو تحت حكم الإسلام ، يعطي ملك الهند هدية كل عام . ولما وصلنا إلى قندهار خرج إلى استقبالنا وعظمتنا أشد التعظيم ، وخرج عن قصره فأنزلنا به . وجاء إلينا من عنده من كبار المسلمين ، كأولاد خواجه بهرة ، ومنهم الناخذة إبراهيم ، وله ستة من المراكب . ومن هذه المدينة ركبنا البحر .

ذكر ركوبنا البحر

وركبنا في مركب لإبراهيم هذا يسمى الجاكر ، وجعلنا فيه من خيل الهدية سبعين فرسا ، وجعلنا باقيها مع خيل أصحابنا ، في مركب لأنخي إبراهيم . وأعطانا جالنسي مركبا جعلنا فيه خيل ظهير الدين وسنبل وأصحابهما . وجهزه لنا بالماء والزاد والعلف . وبعث معنا ولده في مركب شبه الغراب (٢) إلا أنه أوسع منه . وفيه ستون مجذافا . ويُسَقَف حين القتال حتى لا ينال الجذافين شيء من السهام ولا الحجارة . وكان ركوبنا في الجاكر . وكان فيه خمسون راميا ، وخمسون من المقاتلة الحُبشان ، وهم زعماء هذا البحر . وإذا كان بالمركب أحد منهم تمامه لصوص الهنود وكفارهم .

(١) مرادف للفظ (راجا) كما تقدم .

(٢) نوع من السفن عندهم .

ووصلنا بعد يومين الى جزيرة بَيْرَم. وهى خالية، وبينها وبين البرأربعة أميال، فنزلنا بها واستقينا الماء من حوض بها. وسبب نراها أن المسلمين دخلوها على الكفار فلم تعمر بعد. وكان ملك التجار الذى تقدم ذكره أراد عمارتها وبني سورها، وجعل بها المجانيق، وأسكن بها بعض المسلمين. ثم سافرنا منها ووصلنا فى اليوم الثانى إلى مدينة قَوْقَة، وهى مدينة كبيرة عظيمة الأسواق، أرسينا على أربعة أميال منها بسبب الجزر، ونزلت فى عشارى^(١) مع بعض أصحابى حين الجزر لأدخلها، فَوَحَل العشارى فى الطين، وبقى بيننا وبين البلد نحو ميل. فكنت لما نزلنا فى الوَحَل أتوكأ على رجلين من أصحابى. وخوفنى الناس وصول المد قبل وصولى إليها وأنا لا أحسن السباحة. ثم وصلت إليها وطفقت بأسواقها، ورأيت بها مسجدا ينسب للخضر والياس، عليهما السلام، صليت به المغرب، ووجدت به جماعة من الفقراء الحيدرية مع شيخ لهم. ثم عدت إلى المركب.

ذكر سلطانها

وسطانها كافر يسمى دُنْكَوَل. وكان يظهر الطاعة لملك الهند. وهو فى الحقيقة عاص. ولما أقلعنا عن هذه المدينة وصلنا بعد ثلاثة أيام إلى جزيرة سَنْدَابُور، وهى جزيرة فى وسطها ست وثلاثون قرية، ويدور بها خور. وإذا كان الجزر فثاؤها عذب طيب، وإذا كان المد فهو ملح أجاج. وفى وسطها مدينتان إحداهما قديمة من بناء الكفار، والثانية بناها المسلمون، عند استفتاحهم لهذه الجزيرة الفتح الأول. وفيها مسجد جامع عظيم يشبه مساجد بغداد. عمره الناخذاة حسن والد للسلطان جمال الدين محمد الهنورى. وسيأتى

(١) نوع آخر يظهر أنه صغير كالزورق. والتسمية ليست بعبارة فيما نعلم. ولا ندرى كيف تضبط الكلمة.

ذكره ، وذكر حضورى معه لفتح هذه الجزيرة الفتح الثانى ، إن شاء الله .
وتجاوزنا هذه الجزيرة لما مررنا بها ، وأرسلنا على جزيرة صغيرة قريبة من
البر ، فيها كنيسة وبستان وحوض ماء . ووجدنا بها أحد الجوكية .

حكاية هذا الجوكى

ولما نزلنا بهذه الجزيرة الصغرى ، وجدنا بها جوكيا مستندا إلى حائط
بُدخانة ، وهى بيت الأصنام . وهو فيما بين صنمين منها ، وعليه أثر المجاهدة ،
فكلمناه فلم يتكلم . ونظرنا هل معه طعام ؟ فلم نر معه طعاما . وفى حين نظرنا
صاح صيحة عظيمة ، فسقطت عند صياحه جَوْزَة من جوز النارجيل بين
يديه ، ودفعها لنا فعجبنا من ذلك ، ودفعنا له دنانير ودراهم فلم يقبلها . وأتينا
بزاد فردّه . وكانت بين يديه عباءة من صوف الجمال مطروحة فقبلتها بيدي ،
فدفعها إلى . وكانت بيدي سُبْحَة فقبلها فى يدي فأعطيته إياها ، ففركها بيده
وشمها وقبلها وأشار إلى السماء ، ثم إلى القبلة ، فلم يفهم أصحابى إشارته ،
ففهمت أنا عنه أنه أشار أنه مسلم يخفى إسلامه عن أهل تلك الجزيرة ،
ويتعيش من ذلك الجوز .

ولما ودّعناه قبلت يده ، فأنكر أصحابى ذلك ، ففهم إنكارهم ، فأخذ يدي
وقبلها وتبسم ، وأشار لنا بالانصراف فانصرفنا ، وكنت آنح أصحابى
خروجا . فجذب ثوبى فرددت رأسى إليه فأعطانى عشرة دنانير . فلما خرجنا
عنه قال لى أصحابى : لم جذبك ؟ فقلت لهم أمطاني هذه الدنانير . وأعطيت
ظهير الدين ثلاثة منها ، وسُنْبُلًا ثلاثة . وقلت لها : الرجل مسلم . ألا ترون
كيف أشار إلى السماء يشير إلى أنه يعرف الله تعالى ، وأشار إلى القبلة
يشير إلى معرفة الرسول عليه السلام . وأخذ السُبْحَة يصدق ذلك . فرجعا
لما قلت لها ذلك إليه فلم يجدها^(١) . وسافرنا تلك الساعة ، وبالغد وصلنا إلى

(١) فى هذه الحكاية غرابة . وهى على عهد ابن بطوطة .

مدينة هَنُور ، وهي على خُور كبير تدخله المراكب الجبار . والمدينة على نصف ميل من البحر . وفي أيام المطر يشتد هيجان هذا البحر وطغيانه ، فيبقى مدة أربعة أشهر لا يستطيع أحد ركوبه إلا للتصيد فيه . وفي يوم وصولنا إليها جاءني أحد الجُوكية من الهنود في خلوة ، وأعطاني ستة دنانير ، وقال لي : البرهمن بعثها إليك ، يعني الجوكي الذي أعطيته السُّبحة ، وأعطاني الدنانير فأخذتها منه ، وأعطيته دينارا منها فلم يقبله وانصرف . وأخبرت صاحبي بالقضية ، وقلت لها : إن شئتُما نغذا نصيدكما منها ، فأبيا وجعلا يعجبان من شأنه . وقال لي : إن الدنانير الستة التي أعطيتنا إياها جعلنا معها مثلها ، وتركناها بين الصنمين حيث وجدناه . فطال عجبى من أمره . واحتفظت بتلك الدنانير التي أعطانيها .

وأهل مدينة هَنُور شافعية المذهب لهم صلاح ودين وجهاد في الحرب وقوة . وبذلك عُرِفوا حتى أذلهم الزمان بعد فتحهم لسندابُور ، وسند كرك ذلك . ولقيت من المتعبدين بهذه المدينة الشيخ محمدا الناقورى ، وأضافنى بزوايته ، وكان يطبخ الطعام بيده ، استقدارا للجارية والغلام . ولقيت بها الفقيه إسماعيل معلم كتاب الله تعالى . وهو ورع حسن الخلق كريم النفس ، والقاضى بها نور الدين عليا . ونساء هذه المدينة وجميع هذه البلاد الساحلية لا يلبسن المَخِيْط ، وإنما يلبسن ثيابا غير مخيطة ، تحترم إحداهن بأحد طرفى الثوب ، وتجعل باقيه على رأسها وصدورها . ولهن جمال وعفاف . وتجعل إحداهن خِرْص^(١) ذهب في أنفها . ومن خصائصهن أنهن جميعا يحفظن القرآن العظيم . ورأيت بالمدينة ثلاثة عشر مكتبا لتعليم البنات ، وثلاثة وعشرين لتعليم الأولاد . ولم أر ذلك في سواها . ومعاش أهلها من التجارة فى البحر . ولا زرع لهم . وأهل بلاد المُليَّار يعطون السلطان جمال الدين فى كل عام شيئا معلوما ، خوفا منه لقوته فى البحر . وعسكره نحو ستة آلاف بين فرسان ورجال .

(١) الخرص بفتح الخاء وكسرها حلقة من الذهب أو الفضة .

ذکر سلطان هَنُور

وهو السلطان جمال الدين محمد بن حسن ، من خيار السلاطين وکبارهم . وهو تحت حکم سلطان کافر یسمى هَرَّيبَ سَنَدَ کره . والسلطان جمال الدين مواظب على الصلاة في الجماعة . وعادته أن یأتی إلى المسجد قبل الصبح فيتلو في المصحف حتى یطلع الفجر ، فیصلى أول الوقت ثم یركب إلى خارج المدينة ، ویأتی عند الضُّحَا فبدأ بالمسجد فیرکع فيه ، ثم یدخل إلى قصره . وهو یصوم الأيام البيض . وكان أيام إقامتی عنده یدعونی للإفطار معه ، فأحضر لذلك . ویحضر الفقيه علیّ والفقيه إسماعیل ، فتوضع أربعة کراسی صغار على الأرض . فیقعد على أحدها ویقعد كل واحد منا على کرسی .

ذکر ترتیب طعامه

وترتیبه أن یؤتی بمائدة نحاس ، ویجعل علیها صحفة نحاس یسمونها (الطَّالْمَ) ، وتأتی جارية حسناء ملتحفة بثوب حریر ، فتقدم قدور الطعام بین یدیه ، ومعها مغرفة نحاس كبيرة ، فتغرف بها من الأرز مغرفة واحدة ، وتجعلها في (الطَّالْمَ) ، وتصب فوقها السمن ، وتجعل مع ذلك عناقيد الفلفل المملوح ، والزنجبيل الأخضر والليمون المملوح والعنب^(١) . فیا كل الإنسان لقمة ویتبعها بشيء من تلك الموالح . فإذا ماتت الغرفة التي جعلتها في (الطَّالْمَ) ، غرفت غرفة أخرى من الأرز ، وأفرغت دجاجة مطبوخة في سُرَّجَة ، فیؤكل بها الأرز أيضا . فإذا تمت الغرفة الثانية ، غرفت وأفرغت لونا آحر من الدجاج تؤكل به . فإذا تمت ألوان الدجاج أتوا بألوان من السمک فیا کلون بها الأرز أيضا . فإذا فرغت ألوان السمک أتوا بالخضِر مطبوخة بالسمن

(١) المانجو ، كما مر في المواشي .

والألبان ، فيأكلون بها الأرز . فإذا فرغ ذلك كله أتوا باللبن الرائب ، وبه
يختمون طعامهم . فإذا وضع علم أنه لم يبق شيء يؤكل بعده . ثم يشربون
على ذلك الماء السُّخْنُ ، لأن الماء البارد يضرُّ بهم في فصل نزول المطر .
ولقد أقيمت عند هذا السلطان في كَرَّةٍ أُخرى أحد عشر شهرا لم آكل
خبزا ، وإنما طعامهم الأرز . وبقيت أيضا بجزائر المهَلِّ وسيلان وبلاد المعبر
والمليبار ، ثلاث سنين لا آكل فيها إلا الأرز ، حتى كنت لا أستسيغه إلا
بالماء . ولباس هذا السلطان ملاحف الحرير والكتان الرقاق ، يشد في وسطه
فُوطَةٌ ويلتحف بملاحفتين إحداهما فوق الأخرى . ويعقِّص^(١) شعره ويلفُّ
عليه عمامة صغيرة . وإذا ركب لبس قباء والتحف بملحفتين فوقه . وتضرب
بين يديه طول وأبواق يحملها الرجال . وكانت إقامتنا عنده في هذه المرة
ثلاثة أيام . وزودونا وسافرنا عنه .

وبعد ثلاثة أيام وصلنا إلى بلاد المليبار ، وهي بلاد الفلفل . وطولها
مسيرة شهرين على ساحل البحر من سَنَدَابُور إلى كَوَلَم . والطريق
في جميعها بين ظلال الأشجار . وفي كل نصف ميل بيت من الخشب فيه
دكاكين ، يقعد عليها كل وارد وصادر من مسلم أو كافر . وعند كل
بيت منها بئر يشرب منها ، ورجل كافر موكل بها . فمن كان كافرا سقاه
في الأواني ، ومن كان مسلما سقاه في يديه ، ولا يزال يصب له حتى
يشير له أو يكف . وعادة الكفار ببلاد المليبار ألا يدخل المسلم دورهم ولا
يَطْعَم في أوانهم . فإن طَعِم فيها كسروها أو أعطوها المسلمين . وإذا دخل المسلم
موضعا منها لا يكون فيه دار للمسلمين ، طبخوا له الطعام وصبوه له على أوراق
الموز ، وصبوا عليه الإدام . وما فضل عنه تأكله الكلاب والطيور . وفي جميع
المنازل بهذا الطريق ديار المسلمين ينزل عندهم المسامون ، فيبيعون منهم^(٢)

(١) عَقَّصَ الشعرَ ضفره وليه على الرأس .

(٢) باعه الشيء . وباعه منه . أساس .

جميع ما يحتاجون إليه ، ويطبخون لهم الطعام . ولولاهم لما سافر فيه مسلم . وهذا الطريق الذى ذكرنا أنه مسيرة شهرين ، ليس فيه موضع شبر فما فوقه دون عمارة . وكل إنسان بستانه على حدة وداره فى وسطه ، وعلى الجميع حائط خشب . والطريق يمر فى البساتين ، فإذا انتهى إلى حائط بستان ، كان هنالك درج خشب يصعد عليها ، ودرج أخرى يُنزل عليها إلى البستان الآخر ، هكذا مسيرة الشهرين . ولا يسافر أحد فى تلك البلاد بداية ، ولا تكون الخيل إلا عند السلطان . وأكثر ركوب أهلها فى (دولة) على رقاب العبيد أو المستأجرين . ومن لم يركب (دولة) مشى على قدميه كائنا من كان . ومن كان له رحل أو متاع من تجارة وسواها ، أكثرى رجالا يحملونه على ظهورهم ، فترى هنالك التاجر ومعه المائة فما دونها أو فوقها يحملون أمتعته ، ويبد كل واحد منهم عود غليظ له زج حديد^(١) ، وفى أعلاه محطاف حديد . فإذا أعيا ولم يجد دكانة^(٢) يستريح عليها ، ركز عوده بالأرض وعلق حمّله منه . فإذا استراح أخذ حمّله من غير معين ومضى به . ولم أر طريقا آمن من هذا الطريق .

وهم يقتلون السارق على الجوزة الواحدة ، فإذا سقط شىء من الثمار لم يلتقطه أحد حتى يأخذه صاحبه . وأخبرت أن بعض الهنود مروا على الطريق فالتقط أحدهم جوزة ، وبلغ خبره الحاكم ، فأمر بعوده فركز فى الأرض وبرى طرفه الأعلى ، وأدخل فى لوح خشب حتى برز منه ، ومد الرجل على اللوح وركز فى العود وهو على بطنه حتى خرج من ظهره . وترك صبرة للناظرين . ومن هذه العيdan على هذه الصورة بتلك الطرق كثير ، ليراها الناس فيتعظوا . ولقد كنا نلقى الكفار بالليل فى هذه الطريق ، فإذا رأونا تنحوا عن الطريق حتى نجوز . والمسلمون أعز الناس بها ، غير أنهم كما ذكرنا لا يؤكلونهم

(١) الزج الحديدية التى فى أسفل الرح .

(٢) سبق أن أشرنا إلى أن اللفظ (دكان) لا (دكانة) .

ولا يدخلونهم دورهم . وفي بلاد الملبَّار اثنا عشر سلطانا من الكفار ، منهم القويّ الذي يبلغ عسكره خمسين ألفا ، ومنهم الضعيف الذي عسكره ثلاثة آلاف . ولا فتنة بينهم البتة . ولا يطمع القويّ منهم في انتزاع ما بيد الضعيف . وبين بلاد أحدهم وصاحبه باب خشب منقوش فيه اسم الذي هو مبدأ عمالته ، ويسمونه باب أمان فلان . وإذا فر مسلم أو كافر بسبب جنائية من بلاد أحدهم ووصل باب أمان الآخر، أمن على نفسه ، ولم يستطع الذي هرب عنه أخذه ، وإن كان القويّ صاحب العدد والجيش . وسلاطين تلك البلاد يورثون ابن الأخت ملكهم دون أولادهم . وإذا أراد السلطان من أهل بلاد المليار منع الناس من البيع والشراء ، أمر بعض غلمانته فعاق على الحوانيت بعض أغصان الأشجار بأوراقها ، فلا يبيع أحد ولا يشتري ما دامت عليها تلك الأغصان .

ذكر الفلفل

وشجرات الفلفل شبيهة بدوالي العنب . وهم يفرسونها إزاء النارجيل ، فتصعد فيها كصعود الدوالي . وأوراق شجره تشبه أوراق الخيل^(١) . وبعضها يشبه أوراق العُلق^(٢) ويثمر عناقيد صغارا . وإذا كان أوان الخريف قطفوه وفرشوه على الحُصْر في الشمس ، كما يصنع بالعنب . ولا يزالون يقلّبونه حتى يستحکم يُنسه ، ثم يبيعونه من التجار . والعامّة ببلادنا يزعمون أنهم يقلّونه بالنار ، وبسبب ذلك يحدث فيه التكريش . وليس كذلك . وإنما يحدث ذلك فيه بالشمس . ولقد رأيتُه بمدينة القُوط يُصَبّ للكيل كالذرة ببلادنا .

(١) الخيل بالكسر ويفتح السّذاب .

(٢) نوع من النبات يتعلق بالشجر .

وأول مدينة دخلناها من بلاد المليبار مدينة أبي سرور، وهي صغيرة على خور كبير، كثيرة أشجار النَّارجيل. وكبير المسلمين بها الشيخ جمعة، أحد الكرماء، أنفق أمواله على الفقراء والمساكين حتى نفدت. وبعد يومين منها وصلنا إلى مدينة فَاكَنُور، مدينة كبيرة على خور، بها قصب السكر الكثير الطيب، الذي لا مثل له بتلك البلاد. وبها جماعة من المسلمين يسمى كبيرهم بحسين السَّلاط. وبها قاض وخطيب. وعمر بها حسين مسجدا لإقامة الجمعة.

ذكر ساطانها

وسلطان فَاكَنُور كافر اسمه بَاسَدُو. وله نحو ثلاثين مركبا حربيا قائدها مسلم يسمى لُولا. وكان من المفسدين يقطع بالبحر ويسلب التجار. ولما أرسينا على فَاكَنُور بعث سلطانها إلينا ولده، فأقام بالمركب كالرهينة. ونزلنا إليه فأضافنا ثلاثا بأحسن ضيافة، تعظيما لسلطان الهند وقياما بحقه، ورغبة فيما يستفيده في التجارة مع أهل مراكبنا. ومن عاداتهم هنالك أن كل مركب يمر ببلد فلا بد من إرسائه بها، وإعطائه هدية لصاحب البلد يسمونها حق البَنَدَر^(١)، ومن لم يفعل ذلك خرجوا في اتباعه بمراكبهم وأدخلوه المرسى قهرا، وضاعفوا عليه المَغْرَم، ومنعوه عن السفر ما شاءوا. وسافرنا منها فوصلنا بعد ثلاثة أيام إلى مدينة مَنَجْرُور. مدينة كبيرة على خور يسمى خور الدُّنْب، وهو أكبر خور بلاد المليبار، وهذه المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن. والفلفل والزنجبيل بها كثير جدا.

(١) البَنَدَر المَرْمَى. قاموس.

ذكر سلطانها

وهو أكبر سلاطين تلك البلاد واسمه رَامَدَوُ . وبها نحو أربعة آلاف من المسلمين يسكنون رَبَضًا^(١) بناحية المدينة . وربما وقعت الحرب بينهم وبين أهل المدينة فيصلح السلطان بينهم لحاجته إلى التجار . وبها قاض من الفضلاء الكرماء شافعي المذهب ، يسمى بدر الدين المعبري ، وهو يقرئ العلم . صعد إلينا في المركب ، ورغب منا في النزول إلى بلده ، فقلنا : حتى يبعث السلطان ولده يقيم بالمركب . فقال : إنما فعل ذلك سلطان فأكتنور ، لأنه لا قوة للمسلمين في بلده . وأما نحن فالسلطان يخافنا . فأبينا عليه إلا إن بعث السلطان ولده . فبعث ولده كما فعل الآخر . ونزلنا إليهم وأكرمونا إكراما عظيما ، وأقمنا عندهم ثلاثة أيام .

ثم سافرنا إلى مدينة هيلي ، فوصلناها بعد يومين . وهي كبيرة حسنة العماره على خور عظيم تدخله المراكب الجبار . وإلى هذه المدينة تنتهي مراكب الصين ، ولا تدخل إلا مرساها ومرسى كَوَلْمَ وَقَالِقُوط . ومدينة هيلي معظمه عند المسلمين والكنفار بسبب مسجدها الجامع ، فإنه عظيم البركة مشرق النور . وركاب البحر ينذرون له النذور الكثيرة . وله خزانة مال عظيمة تحت نظر الخطيب حسين ، وحسن الوزان كبير المسلمين . وبهذا المسجد جماعة من الطلبة يتعلمون العلم . ولهم مرتبات من مال المسجد . وله مطبخة^(٢) يصنع فيها الطعام للوارد والصادر ، ولإطعام الفقراء من المسلمين بها . ولقيت بهذا المسجد فقيها صالحا من أهل مقدشو^(٣) يسمى سعيدا ، حسن اللقاء والخلق . وذكر لي أنه جاور بمكة أربع عشرة سنة ،

(١) ربض المدينة ما حولها .

(٢) الصحيح مطبخ لا مطبخة .

(٣) مدينة في أول بلاد الرنج في جنوب اليمن اده يا قوت .

ومثلها بالمدينة . وسافر في بلاد الهند والصين . ثم سافرنا من هبلى إلى مدينة جُرْفَتَن . وبينها وبين هبلى ثلاثة فراسخ . ولقيت بها فقيها من أهل بغداد كبير القدر يعرف بالصرصرى ، نسبة إلى بلدة على مسافة عشرة أميال من بغداد في طريق الكوفة . واسمها كاسم صرصر التي عندنا بالمغرب ، وكان له أخ بهذه المدينة كثير المال ، له أولاد صغار أوصى إليهم ، وتركته آخذاً في حملهم إلى بغداد . وعادة أهل الهند كعادة السودان ، لا يتعرضون لمال الميت ولوترك الآلاف ، وإنما يبقى ماله بيد كبير المساميين ، حتى يأخذه مستحقه شرعا .

ذكر سلطانها

وهو يسمى كُويل . وهو من أكبر سلاطين الملبيار . وله مراكب كثيرة تسافر إلى عُمان وفارس واليمن . وسرنا من جُرْفَتَن إلى مدينة دَه فَتَن ، وهى مدينة كبيرة على خُور ، كثيرة البساتين . وبها النارجيل والفلفل والقوئل والتائبول . وبها القلقاس الكثير ، ويطبخون به اللحم . وأما الموز فلم أرفى البلاد أكثر منه بها ولا أرخص ثمنا . وفيها البان^(١) الأعظم طوله خمسمائة خطوة وعرضه ثلاثمائة خطوة . وهو مطوى بالحجارة الحمر المنحوتة . وعلى جوانبه ثمان وعشرون قبة من الحجر ، فى كل قبة أربع مجالس من الحجر ، وكل قبة يصعد إليها على درج حجارة ، وفى وسطه قبة كبيرة من ثلاث طبقات . فى كل طبقة أربعة مجالس . وذكر لى أن والد هذا السلطان كُويل هو الذى عمر هذا البان . وبإزائه مسجد جامع للمسلمين . وله درج ينزل منها إليه ، فيتوضأ منه الناس ويغتسلون . وحدثنى الفقيه حسين أن الذى عمر المسجد والبان أيضا هو أحد أجداد كويل ، وأنه كان مسلما وإسلامه خبر عجيب نذكره .

(١) معناه الحوض ، بإسنادهم .

ذكر الشجرة العجيبة الشأن التي بإزاء الجامع^(١)

ورأيت أنا بإزاء الجامع شجرة خضراء ناعمة تشبه أوراقها أوراق التين إلا أنها لينّة ، وعليها حائظ يُطيف بها ، وعندها محراب صليت فيه ركعتين . واسم هذه الشجرة عندهم (درخت الشهادة) . وأخبرت هنالك أنه إذا كان الخريف من كل سنة تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة ، بعد أن يستحيل لونها إلى الصفرة ثم إلى الحمرة ، ويكون فيها مكتوبا بقلم القدرة : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وأخبرني الفقيه حسين وجماعة من الثقات أنهم عاينوا هذه الورقة وقرعوا المكتوب الذي فيها . وأخبرني أنه إذا كانت أيام سقوطها قعد تحتها الثقات من المسلمين والكفار ، فإذا سقطت أخذ المسلمون نصفها ، وجعل نصفها في خزانة السلطان الكافر . وهم يستشفون بها للمرضى .

وهذه الشجرة كانت سبب إسلام جدكوكيل الذي عمر المسجد والباين . فوأنه كان يقرأ الخط العربي . فلما قرأها وفهم ما فيها أسلم وحسن إسلامه . وحكايته عندهم متواترة . وحدثني الفقيه حسين أن أحد أولاده كفر بعد أبيه وطفى ، وأمر باقتلاع الشجرة من أصلها فاقتلعت ولم يترك لها أثر . ثم إنها نبتت بعد ذلك وعادت كأحسن ما كانت عليه . وهلك الكافر سريعا . ثم سافرنا إلى مدينة بُدْفَتَن . وهي مدينة كبيرة على خور كبير . وبخارجها مسجد قريب من البحر ، يأوى إليه غرباء المسلمين ، لأنه لا مسلم بهذه المدينة . ومرساها من أحسن المراسي ، وماؤها عذب . والفوقل بها كثير ، ومنها يحمل إلى الهند والصين . وأكثر أهلها براهمة ، وهم معظّمون عند الكفار ، مبغضون في المسلمين ، ولذلك ليس بينهم مسلم .

(١) خبر هذه للشجرة مكتوب كما هو ظاهر . وقد صدقه المؤلف ، كما صدق كثيرا من انحرافات التي ذكرها في هذه الرحلة .

حكاية

أخبرت أن سبب تركهم هذا المسجد غير مهذوم أن أحد البراهمة حرب سقفه ايصنع منه سقفا لبيته ، فاشتعلت النار في بيته فاحترق هو وأولاده ومتاعه . فاحترموا هذا المسجد ولم يتعرضوا له بسوء بعدها ، وخدموه وجعلوا بخارجه الماء يشرب منه الصادر والوارد ، وجعلوا على بابه شبكة لئلا يدخله الطير .

ثم سافرنا من مدينة بَدَفْتَن إلى مدينة فَنَدَرِيْنَا ، مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأسواق ، وبها للساميين ثلاث محلات في كل محلة مسجد . والجامع بها على الساحل ، وهو عجيب ، له مناظر ومجالس على البحر . وقاضيا وخطيبها رجل من أهل عُمان ، وله أخ فاضل . وبهذه البلدة تشكو مراكب الصين . ثم سافرنا منها إلى مدينة قَالِقُوط ، وهي إحدى البنادر العظام ببلاد المليار ، يقصدها أهل الصين والجاوة وسيلان والمهل ، وأهل اليمن وفارس ، ويجتمع بها تجار الآفاق ومرساها من أعظم مراسي الدنيا .

ذكر سلطانها

وسطانها كافر يعرف بالسامري ، شيخ مسن يخلق لحيته ، كما يفعل طائفة من الروم ، رأيته بها ، وسنذكره إن شاء الله . وأمير التجار بها إبراهيم شاه بندر ، من أهل البحرين ، فاضل ذو مكارم يجتمع إليه التجار ويأكون في سماطه . وقاضيا نخر الدين عثمان ، فاضل كريم . وصاحب الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازروني ، وهو يأخذ النذور التي ينذرها أهل الهند والصين للشيخ أبي إسحاق الكازروني^(١) ، نفع الله به . وبهذه المدينة (الناخداة) ميثقال الشهير

(١) النذر لغير الله حرام ، كما أوضحنا في الحواشي . ونذر من باي ضرب ونصر .

الاسم ، صاحب الأموال الطائلة والمراكب الكثيرة ، لتجارته بالهند والصين
واليمن وفارس .

ولما وصلنا إلى هذه المدينة خرج إلينا إبراهيم شاه بنسدر والقاضي
والشيخ شهاب الدين ، وكبار التجار ونائب السلطان الكافر المسمى
بِقُلَاج ، ومعهم الأبطال (والأتقار) والأبواق والأعلام في مراكبهم . ودخلنا
المرسى في بروز^(١) عظيم ، مارأيت مثله بتلك البلاد . فكانت فرحة تتبعها
تَرَحَّة . وأقمنا بمسائها ، وبه يومئذ ثلاثة عشر من مراكب الصين ، ونزلنا
بالمدينة وجعل كل واحد منا في دار . وأقمنا ننتظر زمان السفر إلى الصين
ثلاثة أشهر ، ونحن في ضيافة الكافر . وبحر الصين لا يسافر فيه إلا بمراكب
الصين . ولنذكر ترتيبها .

ذكر مراكب الصين

ومراكب الصين ثلاثة أصناف : الكبار منها تسمى (الجنوك) وأحدها
(جنك) ، والمتوسطة تسمى (الزو) . والصغار يسمى أحدها الكمك^(٢) . ويكون
في المركب الكبيرة منها اثنا عشر قاعاً فما دونها إلى ثلاثة . وقلعها من قضبان
الطيزران منسوجة كالخصر ، لا تحط أبداً ، ويديرونها بحسب دوران الرياح ،
وإذا أرسوا تركوها واقفة في مهب الرياح . ويخدم في المركب منها ألف رجل ،
منهم البحرية ستمائة ، ومنهم أربعائة من المقاتلة ، تكون فيهم الرماة ،
وأصحاب الدرق ، والذين يرمون بالنقط . ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة :
النصفى والثلاثى والرابعى . ولا تصنع هذه المراكب إلا بمدينة الزيتون
من الصين ، أو بصين كَلَّان ، وهى صين الصين . وكيفية إنشائها أنهم

(١) يقصد في آية ، لأن الأبهة من شأنها البروز أى الظهور .

(٢) هذه الأسماء غير عربية ولا معربة .

يصنعون حائطين من الخشب يصلون ما بينهما بخشب ضخام جدا ، موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام ، طول المسامير منها ثلاث أذرع . فإذا التأم الحائطان بهذه الخشب ، صنعوا على أعلاهما فرش المركب الأسفل ، ودفعوهما في البحر ، وأتموا العمل . وعلى جوانب تلك الخشب تكون مجاذيفهم . وهي بجار كالصواري . يجتمع على أحدها العشرة والخمسة عشر رجلا ، ويخذفون وقوفا على أقدامهم . ويجعلون للمركب أربعة ظهور . ويكون فيه البيوت ^(١) والمصارى ^(٢) ، والغرف للتجار . والمصرية منها يكون فيها البيوت والسنداس ^(٣) ، وعليها المفتاح ، يسدها صاحبها ، ويحمل معه الجوارى والنساء . وربما كان الرجل في مصرته فلا يعرف به غيره . من يكون بالمركب ، حتى يتلاقيا إذا وصلا إلى بعض البلاد . والبحرية يسكنون فيها أولادهم . ويزدرون الخضر والبقول والزنجبيل في أحواض خشب . وويكل المركب كأنه أمير كبير . وإذا نزل إلى البرمشت الرامة والحبشان بالحراب والسيوف والأطبال والأبواق (والأنقار) أمامه . وإذا وصل إلى المنزل الذي يقيم به ركزوا رماحهم عن جانبي يابه ، ولا يزالون كذلك مدة إقامته . ومن أهل الصين من تكون له المراكب الكثيرة ، يبعث بها وكلاءه إلى البلاد . وليس في الدنيا أكثر أموالا من أهل الصين .

ذكر أخذنا في السفر إلى الصين ومنتهى ذلك

ولما حان وقت السفر إلى الصين جهز لنا السلطان السامري (جنكا) من الجنوك الثلاثة عشر التي بمرسى قالقوت . وكان ويكل الجنك يسمى بسليان الصفدي الشامي ، وبيني وبينه معرفة . فقلت له أريد (مصرية) لا يشاركني

(١) الغرف . (٢) المصرية حجرة النوم وما يتبعها من مرضاض وغيره . والتسمية

عرفية ، وكذلك جمعها على مصار . (٣) المرضاض ، غير عربي .

فيها أحد . فقال لى : إن تجار الصين قد اكتروا المصارى ذاهبين وراجعين . ولصهرى (مصرية) أعطيكها ، لكننا (لا سنداس) فيها . وعسى أن تمكن معاوضتها . فأمرت أصحابى فأوسقوا ما عندى من المتاع ، وصعد العبيد والحوارى إلى (الجنك) ، وذلك فى يوم الخميس . وأقمت لأصلى الجمعة وألحق بهم . وصعد الملك سُنبل وظهر الدين مع الهدية . ثم إن قفى لى يسمى هلالا أثنانى غُدوة الجمعة ، فقال : إن (المصرية) التى أخذناها بالجنك ضيقة لا تصلح . فذكرت ذلك للناخذة ، فقال : ليست فى ذلك حيلة . فإن أحببت أن تكون فى (الكَمِّ) ففيه المصارى على اختيارك . فقلت نعم ، وأمرت أصحابى فنقلوا الحوارى والمتاع إلى (الكَمِّ) . واستقروا به قبل صلاة الجمعة . وعادة هذا البحر أن يشتد هيجانه كل يوم بعد العصر فلا يستطيع أحد ركوبه . وكانت الجنوك قد سافرت ، ولم يبق منها إلا الذى فيه الهدية ، وجنك عزم أصحابه على أن يَشْتُوا بِفَنَدَرِيْنَا ، والكَمِّ هذا . فبتنا ليلة السبت على الساحل لا نستطيع الصعود إلى الكَمِّ ، ولا يستطيع من فيه النزول إلينا . ولم يكن بقى معى إلا بساط أفترشه . وأصبح الجنك والكَمِّ يوم السبت على بعد من المرسى . ورمى البحر بالجنك الذى كان أهله يريدون فَنَدَرِيْنَا ، فتكسر ومات بعض أهله وسلم بعضهم . وكانت فيه جارية لبعض التجار عزيزة عليه ، فرغب فى إعطاء عشرة دنانير ذهباً لمن يخرجها ، وكانت قد لزمت خشبة فى مؤخر الجنك . فانتدب (١) لذلك بعضُ البحرية المُرْمِرِينَ فأخرجها ، وأبى أن يأخذ الدنانير . وقال : إنما فعلت ذلك لله تعالى . ولما كان الليل رمى البحر بالجنك الذى كانت فيه الهدية ، فمات جميع من فيه . ونظرنا عند الصباح إلى مصارعهم ، ورأيت ظهر الدين وقد انشق رأسه وتناثر دماغه ، والملك سُنْبِلا وقد ضرب مسبار فى أحد صدغيه ونفدَ

(١) ندبه للامر دعاه فانتدب هو .

من الآخر. وصلينا عليهما ودفناهما. ورأيت الكافر سلطان قالقُوط
وفي وسطه شقَّة (١) بيضاء كبيرة ، قد لفها من سرته إلى ركبته وفي رأسه
عمامة صغيرة ، وهو حافي القدمين. والشطر (٢) بيد غلام فوق رأسه ، والنار
توقد بين يديه في الساحل ، وزبانيته يضربون الناس لثلا ينتهبوا ما يرمى
البحر .

وعادة بلاد الملبيار أن كل ما انكسر من مركب يرجع ما يخرج منه
للخزن إلا في هذا البلد خاصة ، فإن ذلك يأخذه أربابه ولذلك عمَّرت
وكثر تردد الناس إليها . ولما رأى أهل (الكَمِّ) ما حدث (لِلْجُنْك) ، رفعوا
قلعهم وذهبوا ، ومعهم جميع متاعى وغلماى وجوارى ، وبقيت منفردا
على الساحل ، وليس معى إلا فتى كنت أعتقته ، فلما رأى ما حلّ بى ذهب
عنى . ولم يبق عندى إلا العشرة الدنانير التى أعطانيها الجوكى ، والبساط الذى
كنت أفتشه . وأخبرنى الناس أن ذلك الكم لا بد له أن يدخل مرسى
كولم ، فعزمت على السفر إليها ، وبينهما مسيرة عشر فى البر أو فى النهر
أيضا لمن أراد ذلك . فسافرت فى النهر واكثرىت رجلا من المسلمين
يحمل لى البساط . وعادتهم إذا سافروا فى ذلك النهر أن ينزلوا بالعشى
فيبيتوا بالقرى التى على حافته ، ثم يعودوا إلى المركب بالغدو . فكنا نفعل
ذلك . ولم يكن بالمركب مسلم إلا الذى اكرتته . وكان يشرب الخمر عند
الكفار إذا نزلنا ويعربد على ، فيزيد تغير خاطرى . ووصلنا فى اليوم الخامس
من سفرنا إلى كنجى كرى . وهى بأعلى جبل هنا لك يسكنها اليهود ولهم أمير
منهم . ويؤدون الجزية لسلطان كولم .

(١) بفتح الشين وكسرهما .

(٢) المظلة بلسانهم ، معرب جتر ، كما شرحناه فى الحواشى .

ذكر القرفة والبقم

وجميع الأشجار التي على هذا النهر أشجار القرفة والبقم ، وهي حطبهم هنالك ، ومنها كما نوقد النار لطبخ طعامنا في ذلك الطريق .

وفي اليوم العاشر وصلنا إلى مدينة كَوَلَمَ ، وهي من أحسن بلاد الملبيار وأسواقها حسان . وتجارها يعرفون بالصُّوليين ، لهم أموال عريضة ، يشتري أحدهم المركب بما فيه ، ويُسِّقه من داره بالسِّلَع . وبها من التجار المسلمين جماعة ، كبيرهم علاء الدين الأوجي ، من أهل أوَه (١) من بلاد العراق وهو رافضي . وبعه أصحاب له على مذهبه . وهم يظهرون ذلك . وقاضيا فاضل من أهل قَزَوِين . وكبير المسلمين بها محمد شاه بندر ، وله أخ فاضل كريم اسمه تقي الدين . والمسجد الجامع بها عجيب ، عمره التاجر خواجه مهذب . وهذه المدينة أول ما يُوَالِي الصَّيْن من بلاد الملبيار . وإليها يسافر أكثرهم . والمسلمون بها أعزَّة محترمون .

ذكر سلطانها

وهو كافر يعرف بالتيروري . وهو معظَّم للمسلمين . وله أحكام شديدة على السراق والدُّعَّار .

حكاية

ومما شاهدت بكَوَلَمَ أن بعض الرماة العراقيين قتل آخر منهم ، وفر إلى دار الأوجي ، وكان له مال كثير ، وأراد المسلمون دفن المقتول ، فنعهم نواب

(١) قال ياقوت : أوَه بفتحين قرية بين زَنْجَان وهَمْدَان .

السلطان من ذلك ، وقالوا : لا يدفن حتى تدفعوا لنا قاتله فيقتل به . وتركوه في تابوته على باب الأوجى حتى أتت وتغير . فكنهم الأوجى من القتال ، ورغب منهم أن يعطيهم أمواله ويتركوه حيا ، فأبوا ذلك وقتلوه . وحينئذ دفن المقتول .

حكاية

أخبرت أن سلطان كَوَلَم ركب يوما إلى خارجها . وكان طريقه فيما بين البساتين ، ومعه صهره زوج بنته ، وهو من أبناء الملوك . فأخذ حبة واحدة من العنب سقطت من بعض البساتين ، وكان السلطان ينظر إليه ، فأمر به عند ذلك فوسط أى قسم نصفين ، وصلب نصفه عن يمين الطريق ، ونصفه الآخر عن يساره . وقسمت العنبه نصفين ، فوضع على كل نصف منه نصف منها . وترك هنالك عبرة للناظرين (١) .

حكاية

وما اتفق نحو ذلك بقَالِقُوط ، أن ابن أخى النائب عن سلطانها غضب سيفا لبعض تجار المسلمين ، فشكا بذلك إلى عمه ، فوعده بالنظر في أمره . وقعد على باب داره ، فإذا بابن أخيه متقلد ذلك السيف ، فدعاه فقال : هذا سيف المسلم ؟ قال نعم . قال : اشتريته منه ؟ قال لا ، فقال لأعوانه أمسكوه . ثم أمر به فضربت عنقه بذلك السيف .

وأقت بكَوَلَم مدة بزواية الشيخ نحر الدين ابن الشيخ شهاب الدين الكازرُونى شيخ زاوية قَالِقُوط ، فلم أتعرف للكَم خبرا . وفى أثناء مقامى

(١) فى هذه الحكاية مبالغة غير معقولة .

بها دخلها رسل ملك الصين الذين كانوا معنا ، وكانوا مع أحد تلك الجنوك فانكسر أيضا ، فكساهم تجار الصين وعادوا إلى بلادهم . ولقيتهم بها بعد . وأردت أن أعود من كوثم إلى السلطان لأعلمه بما اتفق للهدية . ثم خفت أن يتعقب فعلى ويقول : لم فارقت الهدية ؟ فعزمت على العودة إلى السلطان جمال الدين الهنوري ، والإقامة عنده حتى أتعرف خبر (الكثم) . فعدت إلى قَالِقُوط ، ووجدت بها بعض مراكب السلطان ، وقد بعث فيها أميرا من العرب يعرف بالسيد أبي الحسن ، وهو من خواص البوابين ، بعثه السلطان بأموال يستجلب بها من قدر عليه من العرب من أرض هُرْمَز (١) والقَطِيف (٢) لمحبه للعرب . فتوجهت إلى هذا الأمير ، ورأيت عازما على أن يشو بقالقوط ، وحينئذ يسافر إلى بلاد العرب . فشاورته في العودة إلى السلطان فلم يوافق على ذلك . فسافرت بالبحر من قالقوط ، وذلك آخر فصل السفر فيه . فكنا نسير نصف النهار الأول ثم نرسو إلى الغد .

ولقينا في طريقنا أربعة أجفان (٣) غزوية نخفناها ، ولكنهم لم يتعرضوا لنا بشر . ووصلنا إلى مدينة هَنُور ، فنزلت إلى السلطان وسلمت عليه ، فأترنني بدار ، ولم يكن لي خادم . وطلب مني أن أصلي معه الصلوات ، فكان أكثر جلوسى في مسجده . وكنت أختم القرآن كل يوم . ثم كنت أختم مرتين في اليوم : أبتدىء القراءة بعد صلاة الصبح ، فأختم عند الزوال ، وأجدد الوضوء وأبتدىء القراءة ، فأختم الختمة الثانية عند الغروب . ولم أزل كذلك مدة ثلاثة أشهر . واعتكفت فيها أربعين يوما .

(١) فرضة كرمان ، على برفارس اه ياقوت .

(٢) مدينة بالبحرين .

(٣) نوع من السفن الحربية ، كأنه يريد جمع جَفْن . ولم نر هذا المعنى بهذا اللفظ في كتب اللغة التي بأيدينا ، كما تقدم في الحواشى .

ذكر توجهنا إلى الغزو وفتح سندابور

وكان السلطان جمال الدين قد جهَّز اثنين وخمسين مراكبا لغزو سندابور . وكان قد وقع بين سلطانها وولده خلاف ، فكتب ولده إلى السلطان جمال الدين أن يتوجه لفتح سندابور ، ويُسلم الولد ، ويزوجه السلطان أخته . فلما تجهزت المراكب ظهر لي أن أتوجه فيها إلى الجهاد ، ففتحت المصحف أنظر فيه . فكان أول الصفحة (يذكُر فيها اسم الله كثيرا وينصُر الله من ينصره) ، فاستبشرت بذلك . وأتى السلطان إلى صلاة العصر فقلت له : إني أريد السفر ، فقال : فأنت إذن تكون أميرهم . فأخبرته بما خرج لي أول الصفحة ، فأعجبه ذلك . وعزم على السفر بنفسه ولم يكن ظهر له ذلك قبل . فركب مراكبا منها وأنا معه . وذلك في يوم السبت . فوصلنا عشية الاثنين إلى سندابور ، ودخلنا خورها فوجدنا أهلها مستعدين للحرب ، وقد نصبوا المجانيق ، فبتنا عليها تلك الليلة .

فلما أصبحنا ضريت الطبول (والأناقر) والأبواق ، وزحفت المراكب ورمت عليها بالمجانيق . فلقد رأيت حجرا أصاب بعض الواقفين بمقربة من السلطان . ورمى أهل المراكب أنفسهم في الماء وبأيديهم الترس والسيوف . وأنزل النصر على المسلمين ، فدخلنا بالسيف . ودخل معظم الكفار في قصر سلطانها ، فرمينا النار فيه ، فخرجوا وقبضنا عليهم . ثم إن السلطان أمنهم ورد لهم نساءهم وأولادهم ، وكانوا نحو عشرة آلاف . وأسكنهم برّض المدينة . وسكن السلطان القصر . وأعطى أهل دولته الديار بالقرب منه . وكساني فرجية مصرية وجدت في خزائن الكافر . وأقامت عنده بسندابور من يوم فتحها ، وهو الثالث عشر لجمادى الأولى ، إلى منتصف شعبان . وطلبت منه الإذن في السفر ، فأخذ عليّ العهد في العودة إليه .

وسافرت في البحر إلى هَنَور ثم إلى فَاكَنَور ، ثم إلى مَنَجَرُور
ثم إلى هَيْسَلِي ، ثم إلى جُرَقَتَن وَدَهَ قَتَن وَبُدَقَتَن وَفَنَدَرِينَا وَقَالِقُوط . وقد
تقدم ذكرها جميعا . ثم إلى مدينة الشَّالِيَّات ، مدينة من حسان المدن ،
تصنع بها الثياب المنسوبة لها . وأقيمت بها فطال مُقَامِي ، فعدت إلى
قَالِقُوط . ووصل إليها غلامان كانا لي (بِالْكَمَم) ، فأخبراني أن جاريتي
توفيت ، وأخذ صاحب الجاوة سائر الجوارى ، واستولت الأيدي على
المتاع ، وتفرق أصحابي إلى الصين والجاوة وَبَنَجَالَة . فعدت لما تعرفت
هذا إلى هَنَور ، ثم إلى سَنَدَابُور فوصلتها في آخر المحرم ، وأقيمت بها
إلى الثاني من شهر ربيع الآخر . وقدم سلطانها الكافر الذي دخلناها
عليه (١) لأخذها ، وهرب إليه الكفار كلهم ، وكانت عساكر
السلطان متفرقة في القرى فانقطعوا عنا . وحصرنا الكفار وضيّقوا علينا .
ولما اشتدّ الحال خرجت عنها وتركتها محصورة ، وعدت إلى قَالِقُوط .

وعزمت على السفر إلى ذِيبَة المِهَل (٢) . وكنت أسمع بأخبارها . فبعد عشرة
أيام من ركوبنا البحر بقالقوط وصلنا جزائر ذيبة المهل . وهذه الجزائر إحدى
عجائب الدنيا ، وهي نحو ألفي جزيرة ، ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات
مستديرة كالحلقة ، لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب إلا منه . وإذا
وصل المركب إلى إحداها فلا بد له من دليل من أهلها يسير به إلى سائر
الجزائر . وهي من التقارب بحيث تظهر رءوس النخل التي بإحداها عند
الخروج من الأخرى . فإن أخطأ المركب سَمَّتَهَا لم يمكنه دخولها ، وحملته
الريح إلى المَعْبَر أو سَيْلَان . وهذه الجزائر أهلها كلهم مسلمون ذوو ديانة
وصلاح . وهي منقسمة أقاليم ، على كل إقليم وال . وهذه الجزائر كلها لا

(١) أي عند الغزوة كما سبق . (٢) جزائر مالديف كما تقدم في الحواشي .

زرع بها ، إلا أن في إقليم السُوَيْد منها زرعاً ، ويحلب منه إلى المهل .
وإنما أكل أهلها سمك يسمونه قُلب الماس ، ولحمه أحمر ولا ذفر له ،
وإنما ريحه كريخ لحم الأنعام . وإذا اصطادوه قطعوا السمكة منه أربع قطع
وطبخوه يسيراً ، ثم جعلوه في مكاتل^(١) من سعف النخل ، وعلقوه للدخان .
فإذا استحكمت يَبسه أكلوه . ويحمل منها إلى الهند والصين واليمن .

ذكر أشجارها

ومعظم أشجار هذه الجزائر النارجيل ، وهو من أقواتهم مع السمك ، وقد
تقدم ذكره . وأشجار النارجيل شأنها عجيب . وتثمر النخلة منها اثني عشر
عِدْقاً^(٢) في السنة ، يخرج في كل شهر عِدْق . فيكون بعضها صغيراً وبعضها
كبيراً ، وبعضها يابساً وبعضها أخضر ، هكذا أبداً . ويصنعون منها الحليب
والزيت والعسل ، على ما ذكرنا لك في السفر الأول . ويصنعون من عسله
الحلواء ، فياً كلونها مع الجوز اليابس منه . وأقمت بها سنة ونصف أخرى .
ومن أشجارها الأترج والليمون والقلقاس .

ذكر أهل هذه الجزائر وبعض عاداتهم

وذكر مساكنهم

وأهل هذه الجزائر أهل صلاح وديانة وإيمان صحيح ونية صادقة .
وإذا رأى الإنسان أحدهم قال له : الله ربى ومجد نبى . وأبدانهم ضعيفة ،
ولا عهد لهم بالقتال والمحاربة . ولقد أمرت مرة بقطع يد سارق بها ،

(١) جمع مكّال وهو الزنبيل .

(٢) العدق : البجاسة . وهو من التمر كالعتقود من العنب .

فَغُشِيَ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ كَانُوا بِالْمَجْلِسِ . وَلَا تَطْرُقُهُمْ لِصُورِ الْهِنْدِ وَلَا تَدْعُرُهُمْ . وَإِذَا أَتَتْ (أَجْفَانُ) الْعَدُوَّ إِلَى نَاحِيَّتِهِمْ أَخَذُوا مِنْ وَجَدُوا مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَلَمْ يَتَعَرَّضُوا لِأَحَدٍ مِنْهُمْ بِسُوءٍ . وَإِنْ أَخَذَ أَحَدُ الْكُفَّارِ وَلَوْ لِيَمُونَةَ ، عَاقَبَهُ أَمِيرُ الْكُفَّارِ ، وَضَرَبَهُ الضَّرْبَ الْمُبْرَحَ .

وَفِي كُلِّ جَزِيرَةٍ مِنْ جَزَائِرِهِمُ الْمَسَاجِدُ الْحَسَنَةُ . وَأَكْثَرُ عِمَارَتِهِمْ بِالْخَشْبِ . وَهُمْ أَهْلُ نِظَافَةٍ وَتَنَزُّهِ عَنِ الْأَقْدَارِ ، وَأَكْثَرُهُمْ يَغْتَسِلُونَ مَرَّتَيْنِ فِي الْيَوْمِ ، تَنْظِيفًا لَشِدَّةِ الْحَرِّ بِهَا وَكَثْرَةِ الْعَرَقِ . وَيَكْثُرُونَ مِنَ الْأَدْهَانِ الْعَطْرِيَّةِ كَالصَنْدَلِيَّةِ وَغَيْرِهَا . وَيَتَلَطَّخُونَ بِالْغَالِيَةِ (١) الْمَجْلُوبَةِ مِنْ مَقْدَشُو . وَمِنْ عَادَتِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا صَلَّوْا الصُّبْحَ أَتَتْ كُلُّ امْرَأَةٍ إِلَى زَوْجِهَا أَوْ ابْنِهَا بِالْمُكْحَلَةِ ، وَبِمَاءِ الْوَرْدِ وَدَهْنِ الْغَالِيَةِ ، فَيُكْحَلُ عَيْنُهُ ، وَيُدَّهَنُ بِمَاءِ الْوَرْدِ وَدَهْنِ الْغَالِيَةِ ، فَتَصْقَلُ بَشْرَتُهُ ، وَتَزِيلُ الشَّحُوبَ عَنِ وَجْهِهِ . وَلبَاسُهُمْ فُوطٌ ، يَشُدُّونَ الْفُوطَةَ مِنْهَا عَلَى أَوْسَاطِهِمْ عَوْضَ السَّرَاوِيلِ ، وَيَجْعَلُونَ عَلَى ظُهُورِهِمْ ثِيَابًا كَالْمَحْرَمِينَ ، وَبَعْضُهُمْ يَجْعَلُ عِمَامَةً ، وَبَعْضُهُمْ مَنَدِيلًا صَغِيرًا عَوْضًا عَنْهَا . وَإِذَا لَقِيَ أَحَدُهُمُ الْقَاضِيَ أَوْ الْخَطِيبَ وَضَعُ ثُوبَهُ عَنِ كَتْفَيْهِ ، وَكَشَفَ ظَهْرَهُ ، وَمَضَى مَعَهُ كَذَلِكَ حَتَّى يَصِلَ إِلَى مَنْزِلِهِ . وَمِنْ عَادَتِهِمْ أَنَّهُ إِذَا تَزَوَّجَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ وَمَضَى إِلَى دَارِ زَوْجَتِهِ ، بُسِطَتْ لَهُ ثِيَابُ الْقَطَنِ مِنْ بَابِ دَارِهَا إِلَى بَابِ الْبَيْتِ ، وَجُعِلَ عَلَيْهَا غَرَافَاتٌ مِنَ الْوَدَعِ عَنِ يَمِينِ طَرِيقِهِ إِلَى الْبَيْتِ وَشِمَالِهِ . وَتَكُونُ الْمَرْأَةُ وَاقِفَةً عِنْدَ بَابِ الْبَيْتِ تَنْتَظِرُهُ . فَإِذَا وَصَلَ إِلَيْهَا رَمَتْ عَلَى رِجْلَيْهِ ثُوبًا يَأْخُذُهُ خَدَمَاهُ . وَإِنْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ هِيَ الَّتِي تَأْتِي إِلَى مَنْزِلِ الرَّجُلِ بُسِطَتْ (٢) دَارُهُ وَجُعِلَ فِيهَا الْوَدَعُ ، وَرَمَتِ الْمَرْأَةُ عِنْدَ الْوَصُولِ إِلَيْهِ الثُّوبَ عَلَى رِجْلَيْهِ . وَكَذَلِكَ عَادَتُهُمْ فِي السَّلَامِ عَلَى السُّلْطَانِ عِنْدَهُمْ ، لَا بَدَّ مِنْ ثُوبٍ

(١) نَوْعٌ مِنَ الطَّيِّبِ .

(٢) أَيْ بَسِطَتْ فِيهَا الثِّيَابَ وَنَحْوَهَا . وَفِي التَّعْبِيرِ تَجُوزُ .

يرعى عند ذلك ، وسند كره . وبنيانهم بالخشب ، ويجعلون سطوح البيوت مرتفعة عن الأرض توقيا من الرطوبات ، لأن أرضهم نديّة .

وكيفية ذلك أنهم ينحتون حجارة يكون طول الحجر منها ذراعين أو ثلاثة ، ويجعلونها صفوفا ويعرضون عليها خشب النَّارِجِيل ، ثم يصنعون الحيطان من الخشب ، ولهم صناعة عجيبية في ذلك . ويننون في (أسطوان) ^(١) الدار بيتا يسمونه (المالم) ، يجلس الرجل به مع أصحابه ، ويكون له بابان أحدهما إلى جهة (الأسطوان) يدخل منه الناس ، والآخر إلى جهة الدار ، يدخل منه صاحبها . ويكون عند هذا البيت خابية مملوءة ماء ، ولها مُسْتَقَى من قشر جوز النَّارِجِيل ، وله نصاب طوله ذراعان .

وجميعهم حفاة الأقدام من رفيع ووضيع . وأزقتهم مكنوسة نقيه تظللها الأشجار ، فلما شئ بها كأنه في بستان . ومع ذلك لا بد لكل داخل إلى الدار ان يغسل رجله بالماء الذي في الخابية ، ويمسحهما بمحصر غليظ من الليف هنالك ، ثم يدخل بيته . وكذلك يفعل كل داخل إلى المسجد . ومن عاداتهم إذا قدم عليهم مركب أن تخرج إليه القوارب الصغار ، وفيها أهل الجزيرة ومعهم التائبول وجوز النَّارِجِيل الأخضر ، فيعطى الإنسان منهم ذلك من شاء من أهل المركب ، ويكون تزيله ، ويحمل أمتعته إلى داره كأنه بعض أقربائه . ومن أراد التزوج من القادمين عليهم تزوج ، فإذا حان سفره طلق المرأة ، لأنهن لا يخرجن عن بلادهن ، ومن لم يتزوج فالمرأة التي يتزل بدارها تطبخ له وتخدمه ، وتزوده إذا سافر ، وترضى منه في مقابلة ذلك بأيسر شيء من الإحسان . وفائدة المخزن ^(٢) (ويسمونه البندر) أن يشتري من كل ساعة بالمركب حظا بسوم معلوم ، سواء أكانت السلعة تساوى ذلك أم كانت

(١) تقدم شرحه ، وأنه غير عربي بهذا المعنى .

(٢) بيت المال . وقد ورد كثيرا بهذا المعنى في الرحلة .

تساوى أكثر منه . ويكون للبندر بيت في كل جزيرة من الخشب ، يجمع به
الوالى جميع سلعه ويبيع ويشترى . وهم يشترون الفخار إذا جلب إليهم
بالدجاج ، فتباع عندهم القدر بنحو خمس دجاجات وست .

وتحمل المراكب من هذه الجزائر السمك الذى ذكرناه ، وجوز النارجيل
والفوط والعمائم ، وهى من القطن . ويحملون منها أوانى النحاس فإنها عندهم
كثيرة . ويحملون الودع ، ويحملون القنبر^(١) وهوليف جوز النارجيل . وهم
يدبغونه ثم تغزله النساء ، وتُصنع منه الحبال لخياطة المراكب ، وتحمل إلى
الصين والهند واليمن . وهو خير من القنب . وبهذه الحبال تخاط مراكب
الهند واليمن ، لأن ذلك البحر كثير الحجارة . فإن كان المركب مسمرا بمسامير
الحديد صدم الحجارة فانكسر . وإذا كان مخيطا بالحبال أعطى الرطوبة
فلم ينكسر .

وصرف أهل هذه الجزائر الودع ، وهو حيوان يلتقطونه من البحر
ويضعونه في حفرة هناك ، فيذهب لحمه ويبقى عظمه أبيض . ويدعون
من أهل بنجالة بالأرز . وهو أيضا صرف أهل بلاد بنجالة . ويدعون
أهل اليمن ، فيجعلونه عوض الرمل في مراكبهم . وهذا الودع أيضا
صرف السودان فى بلادهم . رأيتهم يباع بحساب ألف ومائة ونحسين للدينار
الذهبي .

(١) ضبطه المؤلف بفتح القاف وسكون النون وفتح الباء . ولم نجد هذا اللفظ لهذا المعنى

فيا بين أيدينا من كتب اللغة .

ذكر نسائها

ونسائها لا يغطين رؤوسهن ، ولا سلطاتهم تغطي رأسها . ويمشطن شعورهن ، ويجمعنها إلى جهة واحدة ، ولا يلبس أكثرهن إلا فوطة واحدة تسترهن من السرة إلى أسفل ، وسائر أجسادهن مكشوفة . وكذلك يمشين في الأسواق وغيرها . ولقد جهدتُ لما وليت القضاء بها أن أقطع تلك العادة وأمرهن باللباس فلم أستطع ذلك . فكنت لا تدخل إلى منهن امرأة في خصومة إلا مستترة الجسد . وما عدا ذلك لم تكن لي عليه قدرة . ولباس بعضهم قمص زائدة على الفوطة . وقمصهن قصار الأكم عراضها . وكان لي جوار كسوتهن لباس أهل دهلي ، يغطين رؤوسهن ، فعابهن ذلك أكثر مما زانهن ، إذ لم يتعودنه . وحلّين الأساور ، تجعل المرأة منها جملة في ذراعها بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق . وهي من الفضة . ولا يجعل أساور الذهب إلا نساء السلطان وأقاربه . ولهن الخلاخيل وقلائد ذهب يجعلنها على صدورهن . ومن عجيب أفعالهن أنهن يؤجرن أنفسهن للخدمة بالديار ، على عدد معلوم من خمسة دنائير فما دونها . وعلى مستأجرهن نفقتهن ، ولا يرين ذلك عيبا . ويفعله أكثر بناتهم ، فتجد في دار الإنسان الغني منهن العشر والعشرين . وكل ما تكسره من الأواني يحسب عليها قيمته . وإذا أرادت الخروج من دار إلى دار أعطاهن أهل الدار التي تخرج إليها العدد الذي هي مرتهنة فيه ، فتدفعه لأهل الدار التي خرجت منها ، ويبقى عليها للآخرين . وأكثر شغل هؤلاء المستأجرات غزل (القتير) . والتزوج بهذه الجزائر سهل لزيارة الصداق ، وحسن معاشرة النساء . وأكثر الناس لا يسمى صداقا ، وإنما تقع الشهادة ، ويعطى صداق مثلها . وإذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء ، فإذا أرادوا السفر طلقوهن ، وهن لا يخرجن عن بلادهن أبدا . ولم أر في الدنيا أحسن معاشرة منهن .

ولا تكل المرأة عندهم خدمة زوجها إلى سواها ، بل هي تأتيه بالطعام وترفعه من بين يديه وتغسل يده ، وتأتيه بالماء للوضوء . ومن عاداتهن ألا تأكل المرأة مع زوجها ، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة .

ذكر السبب في إسلام أهل هذه الجزائر وذكر العفارية من الجن التي تضربها في كل شهر

حدثني الثقات من أهلها كالفقيه عيسى النيني والفقيه المعلم علي والقاضي عبد الله وجماعة سواهم ، أن أهل هذه الجزائر كانوا كفارا ، وكان يظهر لهم في كل شهر عفريت^(١) من الجن ، يأتي من ناحية البحر كأنه مركب مملوء بالقناديل . وكانت عادتهم أنهم إذا رأوه أخذوا جارية بكرا فزينوها ، وأدخلوها (بدُخانة) وهي بيت الأصنام ، وكان مبنيًا على ضفة البحر ، وله طاق ينظر إليه منه ، ويتركونها هنالك ليلة ، ثم يأتون عند الصباح فيجدونها ميتة . ولا يزالون في كل شهر يقتربون بينهم ، فمن أصابته القرعة أعطى بنته . ثم إنه قدم عليهم مغربي يسمى بأبي البركات البربري ، وكان حافظا للقرآن العظيم . فترل بدار عجوز منهم بجزيرة المهمل ، فدخل عليها يوما وقد جمعت أهلها وهن يبكين كأنهن في ماتم ، فاستفهمهن عن شأنهن ، فلم يفهمهن . فأتى ترجمان فأخبره أن العجوز كانت القرعة عليها ، وليس لها إلا بنت واحدة يقتلها العفريت . فقال لها أبو البركات : أنا أتوجه عوضا عن بنتك بالليل . وكان لا حية له . فاحتملوه تلك الليلة وأدخلوه (بدخانة) وهو متوضئ ، وأقام يتلو القرآن ، ثم ظهر له العفريت من الطاق فداوم التلاوة . فلما كان منه بحيث يسمع القراءة غاص في البحر ، وأصبح المغربي وهو يتلو على حاله .

(١) حكاية هذا العفريت ظاهرة البطلان .

بغاءت العجوز وأهلها وأهل الجزيرة ، ليستخرجوا (البنت) على عادتهم فيحرقوها ، فوجدوا المغربي يتلو ، فمضوا به إلى ملكهم ، وأعلموه بخبره ، فعجب منه . وعرض المغربي عليه الإسلام ورغبه فيه . فقال له : أقم عندنا إلى الشهر الآخر ، فإن فعلت كفعلك ونجوت من العفريت أسلمت . فأقام عندهم ، وشرح الله صدر الملك للإسلام فأسلم قبل تمام الشهر ، وأسلم أهله وأولاده وأهل دولته . ثم حمل المغربي لمادخل الشهر إلى (بدخانة) ، ولم يأت العفريت ، بفعل يتلو حتى الصباح . وجاء السلطان والناس معه فوجدوه على حاله من التلاوة ، فكسروا الأصنام وهدموا (بدخانة) . وأسلم أهل الجزيرة ، وبعثوا إلى سائر الجزائر فأسلم أهلها . وأقام المغربي عندهم معظما ، وتمذهبوا بمذهبه ، مذهب الإمام مالك رضى الله عنه . وهم إلى هذا العهد يعظمون المغاربة بسببه . وبني مسجدا معروفا باسمه . وقرأت على مقصورة الجامع منقوشا في الخشب : أسلم السلطان أحمد شنورازة على يد أبي البركات البربرى المغربي . وجعل ذلك السلطان ثلث مجابى الجزائر صدقة على أبناء السبيل ، إذ كان إسلامه بسببهم .

ذكر سلطنة هذه الجزائر

ومن عجائبها أن سلطاتها امرأة ، وهى خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر ابن السلطان صلاح الدين صالح البنجالى . وكان الملك لجدها ثم لأبيها . فلما مات أبوها ولى أخوها شهاب الدين ، وهو صغير السن ، فتروج الوزير عبد الله بن محمد الحَضْرَمى أمه وغلِب عليه . وهو الذى تزوج أيضا هذه السلطنة خديجة ، بعد وفاة زوجها الوزير جمال الدين ، كما سنذكره . فلما بلغ شهاب الدين مبلغ الرجال ، أخرج ربيبه الوزير عبد الله ونفاه إلى جزائر

السويد ، واستقل بالملك واستوزر أحد مواليه ، ثم عزله بعد ثلاثة أعوام ونفاه إلى السويد . وكان يذكر عن السلطان شهاب الدين هذا (أمور شائنة) ، نخلعوه لذلك ونفوه ، وبعثوا من قتله . ولم يكن بقي من بيت الملك إلا أخواته : خديجة الكبرى ومریم وفاطمة . فقدموا خديجة سلطانة ، وكانت متروجة بخطيبهم جمال الدين ، فصار وزيرا وغالبا على الأمر . وقدم ولده مجدا للخطابة عوضا عنه ، ولكن الأوامر إنما تنفذ باسم خديجة .

وهم يكتبون الأوامر في سَعَف النخل بحديدة معوجة شبيهة السكين . ولا يكتبون في الكاغد إلا المصاحف وكتب العلم . ويذكرها الخطيب يوم الجمعة وغيره . فيقول : اللهم انصر أمتك التي اخترتها على علم على العالمين ، وجعلتها رحمة لكافة^(١) المسلمين ، ألا وهي السلطانة خديجة بنت السلطان جلال الدين ابن السلطان صلاح الدين . ومن عادتهم إذا قدم الغريب عليهم ، ومضى إلى (المشور) ، وهم يسمونه الدار ، أنه يستصحب ثوبين ، فيخدم بلحمة هذه السلطانة ، ويرمي بأحدهما ، ثم يخدم لوزيرها ، وهو زوجها جمال الدين ، ويرمي بالثاني . وعسكرها نحو ألف إنسان من الغرباء ، وبعضهم بلديون . ويأتون كل يوم إلى الدار فيخدمون وينصرفون . ومرتبهم الأرز يعطاهم من البندر في كل شهر . فإذا تم الشهر أتوا الدار وخدموا ، وقالوا للوزير : بلغ عنا الخدمة ، واعلم بأنا أتينا نطلب مرتبنا ، فيؤمر لهم به عند ذلك . ويأتي أيضا إلى الدار كل يوم القاضي والوزراء ، فيخدمون ، ويبلغ خدمتهم الفتيان وينصرفون .

(١) استعمال كلمة (كافة) على هذا النحو غلط . والصواب أن يقال : وجعلتها رحمة للمسلمين

ذكر وصولي إلى هذه الجزائر وتنقل حالي بها

ولما وصلت إليها نزلت منها بجزيرة كَنْتُوس ، وهي جزيرة حسنة فيها المساجد الكثيرة . ونزلت بداررجل من صلحاءها . وأضافني بها الفقيه علي ، وكان فاضلا له أولاد من طلبة العلم . ولقيت بها رجلا اسمه مجد من أهل ظْفَار^(١) الحُمُوض ، فأضافني وقال لي : إن دخلت جزيرة المهَلِّ أمسكك الوزير بها ، فإنهم لا قاضي عندهم . وكان غرضي أن أسافر منها إلى المعبر وسرّ نديب وبنجالة ، ثم إلى الصين . وكان قدومي عليها في مركب (الناخذاة) عمر الهنوري . وهو من الحجاج الفضلاء . ولما وصلنا كَنْتُوس أقام بها عشرا . ثم اكرتني (كُنْدرة) يسافر فيها إلى المهَلِّ بهدية للسلطانة وزوجها ، فأردت السفر معه . فقال : لا تسعك الكندرة أنت وأصحابك ، فإن شئت السفر منفردا عنهم فدونك . فأبيت ذلك . وسافر فلعبت به الريح ، وعاد إلينا بعد أربعة أيام . وقد لقي شدائد ، فاعتذرت لي . وعزم عليّ في السفر معه بأصحابي ، فكنا نرحل غدوة فنزل في وسط النهار بعض الجزائر ، ونرحل فبيت بأخرى . ووصلنا بعد أربعة أيام إلى إقليم التيم . وكان الكردوي^(٢) بها يسمى هلالا . فسلم عليّ وأضافني ، وجاء إلى ومعه أربعة رجال ، وقد جعل اثنان عودا على أكتافهما ، وعلقا منه أربع دجاجات . وجعل الآحران عودا مثله ، وعلقا منه نحو عشر من جوز النَّارِجِيل . فعجبت من تعظيمهم لهذا الشيء الحقير ، فأخبرت أنهم صنعوه على جهة الكرامة والإجلال .

(١) ظفار بلدان باليمن . ولم نجد لها مضافة إلى (الحموض) في الكتب التي بأيدينا .

(٢) الحاكم أو المحافظ ، بلسانهم .

ورحلنا عنهم ، فزلنا في اليوم السادس بجزيرة عثمان . وهو رجل فاضل من خيار الناس ، فأكرمنا وأضافنا . وفي اليوم الثامن زلنا بجزيرة لوزير يقال له التَّمْدِي . وفي اليوم العاشر وصلنا إلى جزيرة المَهَل ، حيث السلطانة وزوجها . وأرسيينا بمرساها . وعادتهم ألا يتزل أحد عن المرسى إلا بإذنهم . فأذنوا لنا بالتزول . وأردت التوجه إلى بعض المساجد ، فمنعني الخدام الذين بالساحل ، وقالوا : لا بد من الدخول على الوزير . وكنت أوصيت (الناخِدة) أن يقول ، إذا سئل عنى : لا أعرفه ، خوفا من إمساكهم إياى ، ولم أعلم أن بعض أهل الفضول قد كتب إليهم معرفا بجزيرى ، وأنى كنت قاضيا بدھلى .

فلما وصلنا إلى الدار ، زلنا في سقائف على الباب الثالث منها . وجاء القاضى عيسى اليمنى فسلم على ، وسامت على الوزير . وجاء (الناخِدة) إبراهيم بعشرة أثواب ، نخدم لجهة السلطانة ، ورمى بثوب منها ، ثم خدم للوزير ، ورمى بثوب آخر كذلك ، ورمى بجميعها . وسئل عنى فقال : لا أعرفه . ثم أخرجوا التائبول وماء الورد ، وذلك هو الكرامة عندهم . وأزلنا بدار ، وبُعث إلينا الطعام ، وهو قصعة كبيرة فيها الأرز . وتدور بها صحاف فيها اللحم والدجاج والسمن والسّمك . ولما كان بالغد مضيت مع (الناخِدة) والقاضى عيسى اليمنى ، لزيارة زاوية في طرف الجزيرة ، عمرها الشيخ الصالح نجيب ، وعدنا ليلا . وبعث الوزير إلى صبيحة تلك الليلة كسوة وضيافة فيها الأرز والسمن وجوز النارجيل والعسل المصنوع منه . وأتوا بمائة ألف ودعة للنفقة .

وبعد عشرة أيام قدم مركب من سيلان فيه فقراء من العرب والعجم يعرفوننى . فعترفوا خدام الوزير بأمرى ، فزاد اغتباطا بى . وأرسل إلى عند

استهلال رمضان ، فوجدت الأمراء والوزراء . وأحضر الطعام في موائد ،
يجتمع على المسائدة طائفة . فأجلسنى الوزير إلى جانبه ومعه القاضى عيسى
والوزير الفاملدارى ^(١) ، والوزير عمر دهرْد ، ومعناه مقدم العسكر .
وطعامهم الأرز والدجاج والسمن والسمك والموز المطبوخ . ويشربون بعده
عسل النارجيل مخلوطا بالأفاويه . وهو يهضم الطعام .

وفى التاسع من شهر رمضان مات صهر الوزير زوج بنته . فردها
أبوها لداره وأعطانى دارها . وهى من أجمل الدور . واستأذنته فى ضيافة
الفقراء القادمين من زيارة القدم ^(٢) ، فأذن لى فى ذلك ، وبعث إلى نحسا
من الغنم ، وهى عزيزة عندهم ، وبعث الأرز والدجاج والسمن والأبازير ^(٣) .
فبعثت ذلك كله إلى دار الوزير فطبخ لى بها . وبعث الفرش وأوانى
النحاس . وأفطرنا على العادة بدار السلطنة مع الوزير . واستأذنته فى حضور
بعض الوزراء بتلك الضيافة ، فتمال لى : وأنا أحضر أيضا ، فشكرته
وانصرفت إلى دارى ، فإذا به قد جاء ومعه الوزراء وأرباب الدولة ، بجلس
فى قبة خشب مرتفعة . وكان كل من يأتى من الأمراء والوزراء يسلم على
الوزير ، ويرمى بثوب غير مخيط ، حتى اجتمع مائة ثوب أو نحوها ،
فأخذها الفقراء . وقدم الطعام فأكلوا ، ثم قرأ القراء بالأصوات الحسان .
ثم أخذوا فى السماع والرقص . وأعدت النار ، فكان الفقراء يدخلونها ويطئونها
بالأقدام . ومنهم من يأكلها كما تؤكل الحلواء إلى أن نحمدت .

(١) وزير المالية ، بلسانهم .

(٢) قدم آدم عليه السلام ، كما سياتى .

(٣) التوابل .

ذكر بعض إحسان الوزير إلى

ولما تمت الليلة انصرف الوزير ومضيت معه فررنا ببستان للخزن . فقال لي الوزير : هذا البستان لك ، وسأعمر لك فيه دارا لسكناك ، فشكرت فعله ودعوت له . ولما كانت الليلة بعدها ، جاء الوزير إلى بعد العشاء الأخيرة في نفر من أصحابه ، فدخل الدار ومعه غلامان صغيران فسلمت عليه ، وسألني عن حالي فدعوت له وشكرته . فألقى أحد الغلامين بين يديه (بُقْشَة) ^(١) ، أخرج منها ثياب حرير وحقا فيه جوهر ، فأعطاني ذلك . فدعوت له وشكرته . وكان أهلا للشكر ، رحمه الله .

ذكر تغيره وما أردته من الخروج ومقامي بعد ذلك

وكان الوزير سليمان قد بعث إلى أن أتزوج بنته ، فبعثت إلى الوزير جمال الدين مستأذنا في ذلك . فعاد إلى الرسول وقال : لم يعجبه ذلك ، وهو يحب أن يزوجك بنته إذا انقضت عتتها ، فأبيت أنا ذلك وخفت من شؤمها ، لأنه مات تحتها زوجان قبل الدخول . وأصابتنى في أثناء ذلك حمى مرضت بها . ولا بد لكل من يدخل تلك الجزيرة أن يُحم . فقوى عزمي على الرحلة عنها ، فبعث بعض الحلّي بالودع . واكتريت مركبا أسافر فيه إلى بئجالة . فلما ذهبت لوداع الوزير ، خرج إلى القاضي فقال الوزير يقول لك : إن شئت السفر فأعطينا ما أعطيناك وسافر . فقلت له : إن بعض الحلّي اشترت به الودع ، فشأنكم وإياه . فعاد إلى فقال يقول : إنما أعطيناك الذهب ولم نعطك الودع ، فقلت له : أنا أبيعهم وآتيكم بالذهب . فبعثت إلى التجار ليشتروه مني ، فأمرهم الوزير ألا يفعلوا . وقصده بذلك كله ألا أسافر عنه . ثم بعث إلى

(١) يظهر أن هذه الكلمة مأخوذة من البقط وهو حزم المتاع . ويراد بالبقشة قطعة من النسيج تصان فيها الثياب . واللفظة غير عربية .

أحد خواصه ، فقال : الوزير يقول لك : أقم عندنا ، ولك كل ما أحببت . فقلت في نفسي : أنا تحت حكمهم . وإن لم أقم مختاراً أقت مضطراً . فالإقامة باختيارى أولى . فقلت لرسوله : نعم أنا أقيم معه . فعاد إليه ففرح بذلك واستدعاني . فلما دخلت عليه قام إلىّ وعانقني . وقال : نحن نريد قربك وأنت تريد البعد عنا ؟ فاعتذرت له ، فقبل عذري . وقلت له : إن أردتم مَقَامِي فأنا أشترط عليكم شروطاً . فقال : نقبلها فاشترط . فقلت له : أنا لا أستطيع المشي على قدمي . ومن عادتهم ألا يركب أحد هنالك إلا الوزير . ولقد كنت لما أعطوني الفرس فركبته ، يتبعني الناس رجالاً وصبياناً ، يعجبون مني حتى شكوت له . فضربت الدُّنْقُرَةَ ^(١) و ^(٢) بريح في الناس ألا يتبعني أحد . والدنقرة شبه الطَّسْت من النحاس ، تضرب بجديدة فيسمع لها صوت على البعد . فإذا ضربوها حينئذ (بريح) في الناس بما يراد . فقال لي الوزير : إن أردت أن تركب (الدولة) ، وإلا فعندنا حصان ورمكة ^(٣) فاختر أيهما شئت . فاخترت الرمكة ، فأتوني بها في تلك الساعة ، وأتوني بكسوة . فقلت له : وكيف أصنع بالودع الذي اشتريته ؟ فقال : ابعث أحد أصحابك ليبيعه لك يَبْنِجَالَةَ . فقلت له : على أن تبعث أنت من يعينه على ذلك . فقال نعم . فبعث حينئذ رفيق أبي محمد بن فرحان ، وبعثوا معه رجلاً يسمى الحاج علياً ، فاتفق أن هال ^(٤) البحر ، فرموا بكل ما عندهم ، حتى الزاد والماء والصابون والقربة ، وأقاموا ست عشرة ليلة لا قَلِعَ لهم ولا سَكَّان ^(٥) ولا غيرهما . ثم خرجوا إلى جزيرة سيلان بعد جوع وعطش وشدائد . وقَدِمَ عليّ صاحبي أبو محمد بعد سنة .

(١) غير عربية . والضبط لابن بطوطة .

(٢) يقصد نودي في الناس . ولم نجد هذا المعنى في الكتب التي بأيدينا .

(٣) الرمكة : الفرس تتخذ للنسل لكامل خلقها .

(٤) لعله محرف عن هاج . (٥) ذنب السفينة الذي تُوجّه به .

ذكر العيد الذي شاهدته معهم

ولما تم شهر رمضان بعث الوزير إني بكسوة وخرجنا إلى المصلى ، وقد زينت الطريق التي يمر الوزير عليها من داره إلى المصلى ، وفرشت الثياب فيها . وكل من له على طريقه دار من الأمراء والنجار ، قد غرس عندها النخل الصغار من النارجيل وأشجار القوئل والموز . ومد من شجرة إلى أخرى شرائط ، وعلق منها الجوز الأخضر . ويقف صاحب الدار عند بابها ، فإذا مر الوزير رمى على رجليه ثوبا من الحرير أو القطن ، فيأخذه عبيده مع الودع الذي يجعل على طريقه أيضا ، والوزير ماش على قدميه وعليه فرجية مصرية من المرعز وعمامة كبيرة ، وهو متقلد فوطة حرير ، وفوق رأسه أربعة (شطور) ، وفي رجليه النعل ، وجميع الناس سواه حفاة ، والأبواق (والأنقار) والأطبال بين يديه ، والعساكر أمامه وخلفه . وجميعهم يكبرون ، حتى أتوا المصلى ، فخطب ولده بعد الصلاة . ثم أتى بمحفة فركبها الوزير . وخدم له الأمراء والوزراء ، ورموا بالثياب على العادة . ولم يكن ركب المحفة قبل ذلك ، لأن ذلك لا يفعله إلا الملوك . ثم رفعه الرجال . وركبت فرسى ودخلنا القصر ، فجلس بموضع مرتفع وعنده الوزراء والأمراء . ووقف العبيد بالترسة والسيوف والعصى . ثم أتى بالطعام ثم القوئل والتائبول . ثم أتى بصحفة صغيرة فيها الصندل . فإذا أكلت جماعة من الناس تلطخوا بالصندل . ورأيت على بعض طعامهم يومئذ حوتا من (السردين) مملوحا غير مطبوخ ، أهدي لهم من كوكم ، وهو في بلاد المسليبار كثير . فأخذ الوزير (سردينية) وجعل يأكلها ، وقال لي : كل منه فإنه ليس ببلادنا . فقلت : كيف آكله وهو غير مطبوخ ؟ فقال : إنه مطبوخ . فقلت : أنا أعرف به فإنه ببلادى كثير .

ذكر تزوجى وولايتى القضاء

وفى الثانى من شوال اتفقت مع الوزير سليمان على تزوج بنته ، فبعثت إلى الوزير جمال الدين أن يكون العقد بين يديه بالقصر . فأجاب إلى ذلك ، وأحضر التائبول على العادة والصندل . وحضر الناس وأبطأ الوزير سليمان ، فاستدعى فلم يأت ، ثم استدعى ثانية فاعتذر بمرض البنت . فقال لى الوزير سراً : إن بنته امتنعت وهى مالكة أمر نفسها ، والناس قد اجتمعوا . فهل لك أن تتزوج بربيبة السلطانة زوجة أيتها ، وهى التى ولده متزوج بنتها؟ فقلت له نعم . فاستدعى القاضى والشهود ووقعت الشهادة . ودفع الوزير الصداق .

ولما تزوجتها أكرهنى الوزير على القضاء ، وسبب ذلك اعتراضى على القاضى لكونه كان يأخذ العشر من التركات ، إذا قسمها على أربابها . فقلت له : إنما لك أجرة تتفق بها مع الورثة . ولم يكن يحسن شيئاً . فلما وليتُ اجتهدت جهدى فى إقامة رسوم الشرع . وليست هنالك خصومات كما هى ببلادنا . فأول ما غيرت من عادات السوء مكث المطلقات فى ديار المطلقين . وكانت إحداهن لا تزال فى دار المطلق حتى تتزوج غيره . فحسنت علة ذلك . وأتى إلى بنحو خمسة وعشرين رجلاً ممن فعلوا ذلك ، فضربتهم وشهرتهم بالأسواق ، وأخرجت النساء عنهم . ثم اشتددت فى إقامة الصلوات . وأمرت الرجال بالمبادرة إلى الأزقة والأسواق إثر صلاة الجمعة ، فمن وجدوه لم يصل ضربته وشهرتة . وألزمت الأئمة والمؤذنين أصحاب المرتبات المواظبة على ما هم بسبيله . وكتبت إلى جميع الجزائر بنحو ذلك .

ذكر قدوم الوزير عبد الله بن محمد الحضرمي الذي نفاه السلطان شهاب الدين إلى السويد

وما وقع بيني وبينه

وكننت قد تزوجت ربيته بنت زوجته . ولما بعث إليه الوزير ورده
إلى جزيرة المهل ، بعثت له التحف ، وتلقيته ومضيت معه إلى القصر ، فسلم
على الوزير ، وأنزله في دار جيدة ، فكنت أزوره بها . واتفق أن اعتكفت
في رمضان فزارني جميع الناس إلا إياه . وزارني الوزير جمال الدين ، فدخل
هو معه بحكم الموافقة . ف وقعت بيننا الوحشة . فلما خرجت من الاعتكاف
شكا إلى أخوال زوجتي ربيته ، أولاد الوزير جمال الدين السنجري : فإن
أباهم أوصى عليهم الوزير عبد الله ، وإن ما لهم باق بيده ، وقد خرجوا عن
حجره بحكم الشرع . وطلبوا إحضاره لمجلس الحكم . وكانت عادتي إذا بعثت
إلى خصم من الخصوم أن أبعث له قطعة كاغد مكتوبة ، فعند ما يقف عليها
يبادر إلى مجلس الحكم الشرعي ، وإلا عاقبته . فبعثت إليه على العادة فأغضبه
ذلك ، وحققت على وأضمر عداوتي ، ووكل من يتكلم عنه . وكانت عادة
الناس من صغير وكبير أن يتخدموا له كما يتخدمون للوزير جمال الدين .
وخدمتهم أن يوصلوا السبابة إلى الأرض ، ثم يقبلوها ويضعوها على رؤوسهم .
فأمرت المنادي فنادي بدار السلطان على رؤوس الأشهاد ، أنه من خدم
للوزير عبد الله كما يتخدم للوزير الكبير ، لزمه العقاب الشديد ، فزادت
عداوته .

ذكر انفصالي عنهم

ثم سافرت (بعد حوادث جرت ^(١)) ووصلت إلى جزيرة الوزير على ،
وسرنا في تلك الجزائر من إقليم إلى إقليم .

ووصلنا إلى جزيرة من تلك الجزائر صغيرة ليس بها إلا دار واحدة ، فيها
رجل حائك له زوجة وأولاد ومُخيلات نار جيل ، وقارب صغير يصطاد فيه
السمك ، ويسير به إلى حيث أراد من الجزائر . وفي جزيرته أيضا شجيرات
موز . ولم نر فيها من طيور البر غير غرايين ، خرجا إلينا لما وصلنا الجزيرة
وطافا بمركبنا . فغَبَطْتُ والله ذلك الرجل ، ووددت لو كانت تلك الجزيرة
لي ، فانقطعت فيها إلى أن يأتيني اليقين .

ثم وصلت إلى جزيرة ملوك ، حيث المركب الذي لناخذة إبراهيم ،
وهو الذي عزمت على السفر فيه إلى المعبر . بقاء إلى معه أصحابه وأصافوني
ضيافة حسنة . وأقمت بهذه الجزيرة سبعين يوما . وهي من أحسن الجزائر
خَضرة نَضرة . رأيت من عجائبها أن الغصن يُقْتَطَع من شجرها ويركز في
الأرض أو الحائط ، فيورق ويصير شجرة . ورأيت الرمان بها لا ينقطع له ثمر
طول السنة . وخاف أهل الجزيرة (الناخذة) إبراهيم أن ينهبهم عند سفره ،
فأرادوا إمساك ما في مركبه من السلاح حتى يوم سفره . ف وقعت المشاجرة
بسبب ذلك . وعدنا إلى المهل ولم ندخلها . وعدنا إلى ملوك ، وسافرنا منها
في نصف ربيع الثاني عام خمسة وأربعين . وفي شعبان من هذه السنة توفي
الوزير جمال الدين رحمه الله . وسافرنا ولم يكن معنا رئيس عارف . ومسافة
ما بين الجزائر والمعبر ثلاثة أيام ، فسرنا نحو تسعة أيام .

وفي التاسع منها خرجنا إلى جزيرة سيلان ، ورأينا جبل سَرَنْدِيب فيها
ذاهبا في السماء ، كأنه عمود دخان . ولما وصلناها قال البحرية : إن هذا

(١) ما بين القوسين ليس من كلام ابن بطوطة

المرسى ليس في بلاد السلطان الذى يدخل التجار إلى بلاده آمينين ، وإنما هذا مرسى لعنة المفسدين ، ولهم مراكب تقطع في البحر . نخفنا أن نزل بمرساه . ثم اشتدت الرياح نخفنا الغرق . فقلت (لنأخذة) : أنزلى إلى الساحل وأنا أخذ لك الأمان من السلطان . ففعل ذلك ، وأنزلى بالساحل ، فأتانا الكفار فقالوا : ما أتم ؟ فأخبرتهم أنى سلف^(١) سلطان المعبر وصاحبه ، وقد جئت لزيارته ، وأن الذى فى المركب هدية له . فذهبوا إلى سلطانهم فأعلموه بذلك ، فاستدعانى فذهبت له إلى مدينة (بطلالة) وهى حضرته ، مدينة صغيرة حسنة عليها سور خشب وأبراج خشب . وجميع سواحلها مملوءة بأعواد القرفة ، تأتى بها السيول فتجتمع بالساحل كأنها الروابي . ويحملها أهل المعبر ، والمليبار دون ثمن ، إلا أنهم يهدون للسلطان فى مقابلة ذلك الثوب ونحوه . وبين بلاد المعبر وهذه الجزيرة مسيرة يوم وليلة . وبها أيضا من خشب البقم كثير ، ومن العود الهندى المعروف بالكليخى .

ذكر سلطان سيلان

واسمه شكروتى ، وهو سلطان قوى فى البحر . رأيت مرة وأنا بالمعبر مائة مركب من مراكبه بين صغار وكبار ، وصلت إلى هنالك ، وكان بالمرسى ثمانية مراكب للسلطان للسفر إلى اليمن . فأمر السلطان بالاستعداد وحشد الناس لحماية (أجفانه) . فلما يسوا من انتهاز الفرصة فيها قالوا : إنما جئنا فى حماية مراكب لنا تسير أيضا إلى اليمن .

ولما دخلت على هذا السلطان الكافر ، قام إلى وأجلسنى إلى جانبه ، وكلمنى بأحسن كلام . وقال : يتزل أصحابك على الأمان ويكونون فى ضيافتى

(١) السلف من الرجل زوج أخت امرأته

إلى أن يسافروا ، فإن سلطان المعبر بينى وبينه الصحبة . ثم أمر بإنزالى ، فأقمت عنده ثلاثة أيام فى إكرام عظيم متزايد فى كل يوم . وكان يفهم اللسان الفارسى . ويعجبه ما أحدثه به عن الملوك والبلاد . ودخلت عليه يوماً وعنده جواهر كثيرة ، أتى بها من مغاص الجواهر الذى ببلادها ، وأصحابه يميزون منها النفيس من غيره ، فقال لى : هل رأيت مغاص الجواهر فى البلاد التى جئت منها ؟ فقلت له : نعم رأيت به بجزيرة قَيْس . ثم أخذ حبات منه فقال : أيبكون فى تلك الجزيرة مثل هذه ؟ فقلت له : رأيت ما هو دونها . فأعجبه ذلك . وقال : هى لك ، وقال لى : لا تَسْتَحْيِ واطلب منى ما شئت . فقلت له : ليس مرادى منذ وصلت هذه الجزيرة ، إلا زيارة القدم الكريمة ، قدم آدم عليه السلام . وهم يسمونه (بابا) ويسمون حواء (ماما) . فقال : هذا هين ، نبعث معك من يوصلك ، فقلت : ذلك أريد . ثم قلت له : وهذا المركب الذى جئت فيه يسافر آمناً إلى المعبر ، وإذا عدت أنا بعثتنى فى مراكبك ؟ فقال نعم . فلما ذكرت ذلك لصاحب المركب ، قال لى : لا أسافر حتى تعود ، ولو أقمت سنة بسببك . فأخبرت السلطان بذلك ، فقال : يقيم فى ضيافتى حتى تعود . فأعطانى (دولة) يحملها عبيده على أعناقهم ، وبعث معى أربعة من الجوكية الذين عادتهم السفر كل عام لزيارة القدم ، وثلاثة من البراهمة ، وعشرة من سائر أصحابه ، وخمسة عشر رجلاً يحملون الزاد . وأما الماء فهو بتلك الطريق كثير .

ونزلنا ذلك اليوم على واد جزناه فى (معدية)^(١) مصنوعة من قصب الخيزران . ثم رحلنا من هنالك إلى منار مندلى ، مدينة حسنة هى آخر عمالة السلطان . أضافنا أهلها ضيافته حسنة . وضيافتهم عجول الجواميس ، يصطادونها بغابة هنالك ، ويأتون بها أحياء . ويأتون بالأرز والسمن والحوت والدجاج

(١) يريد المعبر . وقد استعمل المؤلف لفظ (المعدية) كثيراً للدلالة على هذا المعنى ، وهو خطأ .

واللبن . ولم أر في المدينة مسلما غير رجل خراساني انقطع بسبب مرضه فسافر معنا .

ورحلنا إلى (بندر سلاوات) ، بلدة صغيرة . وسافرنا منها في أوعار كثيرة المياه . وبها القبلة الكثيرة ، إلا أنها لا تؤذى الزوار والغرباء . ثم وصلنا بعد ذلك إلى مدينة كنگار ، وهي حضرة السلطان الكبير بتلك البلاد . وبنائها في خندق بين جبلين على خور كبير ، يسمى خور الياقوت ، لأن الياقوت يوجد به . وبخارج هذه المدينة مسجد الشيخ عثمان الشيرازي . وسلطان هذه المدينة وأهلها يزورونه ويعظمونه ، وقد كان الدليل إلى القدم . فلما قطعت يده ورجله صار الأدياء أولاده وغلمانه . وسبب قطعه أنه ذبح بقرة ، وحكم كفار الهنود أنه من ذبح بقرة ذبح كمثلها ، أو جعل في جلدها وأحرق . وكان الشيخ عثمان معظما فقطعوا يده ورجله . وأعطوه مجي بعض الأسواق .

ذكر سلطانها

وهو يعرف بالكنار . وعنده الفيل الأبيض ، ولم أر في الدنيا فيلا أبيض سواه ، يركبه في الأعياد ، ويعمل على جبهته أحجار الياقوت العظيمة . واتفق له أن قام عليه أهل دولته وتملأوا عينيه ، وولوا ولده . وهو هنالك أعمى .

ذكر الياقوت

والياقوت العجيب البهرمان^(١) إنما يكون بهذه البلدة . فمنه ما يخرج من الخور ، وهو عزيز عندهم . ومنه ما يحفر عنه . وجزيرة سيلان يوجد الياقوت في جميع مواضعها . وهي مملوكة ، فيشتري الإنسان القطعة منها ويحفر عن

(١) البهرمان العصفور . ولعله سمي بذلك لشبهه به في اللون .

الياقوت ، فيجد أحجارا بيضاء مُشعّبة ، وهي التي يتكوّن الياقوت في أجوافها ،
فيعطىها الحكاكين فيحْكُونها ، حتى تنفلق عن أحجار الياقوت . فمنه الأحمر
ومنه الأصفر ومنه الأزرق . وعادتهم أن ما بلغ ثمنه من أحجار الياقوت
مائة (قَمَم) فهو للسلطان ، يعطى ثمنه ويأخذه . وما نقص عن تلك القيمة
فهو لأصحابه . وصرف مائة فتم ستة دنانير من الذهب . وجميع النساء يجزيرة
سيلان لمن القلائد من الياقوت الملون ، يجعلنه في أيديهن وأرجلهن عوضا
عن الأسورة والخلاخيل . وجواري السلطان يصنعن منه شبكة يجعلنها على
رعوسهن . ولقد رأيت على جبهة الفيل الأبيض سبعة أحجار منه ، كل حجر
أعظم من بيضة الدجاج ، ورأيت عند السلطان شِكْرَوْتِي سُكْرَجَة (١) على
مقدار الكف من الياقوت ، فيها دهن العود . فجعلت أعجب منها ، فقال :
إن عندنا ما هو أضخم من ذلك . ثم سافرنا من كُنْكَار ، فنزلنا بمغارة تعرف
باسم أسطّا محمود اللورى ، وكان من الصالحين ، واحتفر تلك المغارة
في سفح جبل عند خور صغير هنالك . ثم رحلنا عنها ، ونزلنا بالخور
المعروف بخور بوزنة . وبوزنة هي القروود .

ذكر القروود

والقروود بتلك البلاد كثيرة جدا . وهي سود الألوان ، لها أذنان طول .
ولذ كورها لحي كما هي للآدميين . وأخبرني الشيخ عثمان وولده وسواهما أن
هذه القروود لها مُقدّم تتبعه كأنه سلطان ، يُشَدُّ على رأسه عصابة من أوراق
الأشجار ، ويتوكأ على عصا ، ويكون عن يمينه ويساره أربعة من القروود لها

(١) الصفحة تكفى الرجل .

عِصَى بِأَيْدِيهَا ، وَأَنَّهُ إِذَا جَلَسَ الْقَرْدُ الْمَقْدَمُ تَقِفُ الْقُرُودُ الْأَرْبَعَةُ عَلَى رَأْسِهِ ،
وَتَأْتِي أَثْنَاءَ وَأَوْلَادِهِ فَتَقْعُدُ بَيْنَ يَدَيْهِ كُلِّ يَوْمٍ . وَتَأْتِي الْقُرُودُ فَتَقْعُدُ عَلَى بَعْدِ
مِنْهُ . ثُمَّ يَكَلِّمُهَا أَحَدُ الْقُرُودِ الْأَرْبَعَةَ فَتَنْصَرِفُ الْقُرُودُ كُلُّهَا . ثُمَّ يَأْتِي كُلُّ
قَرْدٍ مِنْهَا بِمَوْزَةٍ أَوْ لَيْمُونَةٍ أَوْ شَيْءٍ ذَلِكَ ، فَيَأْكُلُ الْقَرْدُ الْمَقْدَمُ وَأَوْلَادُهُ وَالْقُرُودُ
الْأَرْبَعَةُ . وَأَخْبَرَنِي بَعْضُ الْجَوْكِيَّةِ أَنَّهُ رَأَى الْقُرُودَ الْأَرْبَعَةَ بَيْنَ يَدَيْ مُقَدِّمِهَا ،
وَهِيَ تَضْرِبُ بَعْضَ الْقُرُودِ بِالْعِصَى ، ثُمَّ تَنْتَفِتُ وَبِرِهِ بَعْدَ ضَرْبِهِ .

ثُمَّ كَانَ رَحِيلُنَا إِلَى خُورِ الْخَيْرَانِ . ثُمَّ رَحَلْنَا إِلَى مَوْضِعٍ يَعْرِفُ بَيْتَ
الْعَجُوزِ ، وَهُوَ آخِرُ الْعِمَارَةِ . ثُمَّ رَحَلْنَا إِلَى مَغَارَةِ بَابَا طَاهِرٍ ، وَكَانَ مِنْ
الصَّالِحِينَ . ثُمَّ رَحَلْنَا إِلَى مَغَارَةِ السَّيِّكِ . وَكَانَ السَّيِّكُ مِنْ سُلَاطِينِ
الْكَفَّارِ ، وَانْقَطَعَ لِلْعِبَادَةِ هُنَاكَ .

ذِكْرُ الْعَلَقِ الطَّيَّارِ

وَبِهَذَا الْمَوْضِعِ رَأَيْنَا الْعَلَقَ الطَّيَّارَ . وَيَكُونُ بِالْأَشْجَارِ وَالْحَشَائِشِ الَّتِي
تَقْرُبُ مِنَ الْمَاءِ . فَإِذَا قَرَّبَ الْإِنْسَانُ مِنْهُ وَثَبَ عَلَيْهِ ، فَحَيْثُمَا وَقَعَ مِنْ جَسَدِهِ
نَجَسٌ مِنْهُ الدَّمُ الْكَثِيرُ . وَالنَّاسُ يُعْتَدُونَ لَهُ اللَّيْمُونَ ، يَعْرِصُونَهُ عَلَيْهِ
فَيَسْقُطُ عَنْهُمْ . وَيَجْرِدُونَ الْمَوْضِعَ الَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ بِسَكِينٍ خَشَبٍ مَعْدٍ لِذَلِكَ .
وَيَذَكُرُ أَنَّ بَعْضَ الزُّوَارِ مِنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ فَتَعَلَّقَتْ بِهِ الْعَلَقُ ، فَأَظْهَرَ الْجِلْدَ
وَلَمْ يَعْرِصْ عَلَيْهَا اللَّيْمُونَ ، فَتُزْفِرُ دَمَهُ وَمَاتَ .

ذكر جبل سرنديب

وهو من أعلى جبال الدنيا . رأيناه من البحر وبيننا وبينه مسيرة تسع .
ولما صعدناه كما نرى السحاب أسفل منا ، قد حال بيننا وبين رؤية أسفله .
وفيه كثير من الأشجار التي لا يسقط لها ورق ، والأزاهير الملونة ، والورد
الأحمر على قدر الكيف . وفي الجبل طريقان إلى القدم أحدهما يعرف
بطريق (بابا) والآخر بطريق (ماما) ، يعنون آدم وحواء عليهما
السلام . فأما طريق ماما فطريق سهل عليه يرجع الزوار إذا رجعوا .
ومن مضى عليه فهو عندهم كمن لم يزر . وأما طريق بابا فصعب وعمر المرتقى .
وفي أسفل الجبل مغارة تنسب للإسكندر ، وعين ماء . ونحت الأولون
في الجبل شبه درج يصعد عليها ، وغرزوا فيها أوتاد الحديد ، وعلقوا منها
السلاسل ، ليمسك بها من يصعد . وهي عشر سلاسل ، ثنتان في أسفل
الجبل وسبع متوالية بعدها . والعاشرية هي سلسلة الشهادة ، لأن الإنسان
إذا وصل إليها ونظر إلى أسفل الجبل أدركه الخوف ، فيتشهد خوف السقوط .
ثم إذا جاوزت هذه السلسلة وجدت طريقا مهملا . ومن السلسلة العاشرة
إلى مغارة الخضر^(١) سبعة أميال . وهي في موضع فسيح عندها عين ماء تنسب
إليه أيضا ، ملائى بالحيتان ، ولا يصطادها أحد . وبالتقرب منها حوضان
منحوتان في الحجارة عن جنبتى الطريق . وبمغارة الخضر يترك الزوار
ما عندهم ، ويصعدون منها ميلين إلى أعلى الجبل حيث القدم .

(١) ككبد وكبد ، أبو العباس النبي عليه السلام . قاموس .

ذكر القدم^(١)

وأثر القدم الكريمة قدم أبينا آدم صلى الله عليه وسلم في صخرة سوداء مرتفعة بموضع فسيح ، وقد غاصت القدم الكريمة في الصخرة حتى عاد موضعها منخفضا . وطولها أحد عشر شبرا . وأتى إليها أهل الصين قديما فقطعوا من الصخرة موضع الإبهام وما يليه ، وجعلوه في كنيسة بمدينة الزيتون ، يقصدونه من أقصى البلاد . وفي الصخرة حيث القدم تسع حُفَرٍ منحوتة ، يجعل الزوار من الكفار فيها الذهب واليواقيت والجواهر . فترى الفقراء إذا وصلوا مغارة الخَضِرِ يتسابقون منها لأخذ ما بالحفر . ولم نجد نحن بها إلا يسير حَجَبَاتٍ وذهب أعطيناها الدليل .

والعادة أن يقيم الزوار بمغارة الخَضِرِ ثلاثة أيام ، يأتون فيها إلى القدم غُدُوَّةً وعِشِيَا . وكذلك فعلنا . ولما تمت الأيام الثلاثة ، عدنا على طريق (ماما) فنزلنا بمغارة (شيم) . وهو شيث بن آدم عليهما السلام ، ثم ذهبنا إلى خُور السمك ثم إلى قرية كُرْمَلَة . وتحت هذا الجبل الخور العظيم الذي يخرج منه الياقوت . وماؤه يظهر في رأى العين شديد الزرقة .

ورحلنا من هنالك يومين إلى مدينة دِينُور ، مدينة عظيمة على البحر يسكنها التجار ، وبها الصنم المعروف بدِينُور في كنيسة عظيمة ، فيها نحو الألف من البراهمة والجوكية ، ونحو خمسمائة من النساء بنات الهنود . ويغنين كل ليلة عند الصنم ويرقصن . والمدينة ومجاياها وقف على الصنم . وكل من بالكنيسة ومن يردها يأكلون من ذلك . والصنم من ذهب على

(١) هذه القدم خرافة من الخرافات التي صدقها ابن بطوطة .

قدر الآدمى ، وفي موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان ، أخبرت أنهما تضيئان بالليل كالقنديلين .

ثم رحلنا إلى مدينة قالى . وهى صغيرة على ستة فراسخ من دینور . وبها رجل من المسلمين يعرف بالناخذاة إبراهيم ، أضافنا بموضعه . ورحلنا إلى مدينة كَلَنْبُو^(١) ، وهى من أحسن بلاد سرنديب وأكبرها ، وبها يسكن الوزير حاكم البحر جالسى ، ومعه نحو خمسمائة من الحبشان . ثم رحلنا فوصلنا بعد ثلاثة أيام إلى بطالة ، وقد تقدم ذكرها . ودخلنا على سلطانها الذى تقدم ذكره ، ووجدت الناخذاة إبراهيم فى انتظارى ، فسافرنا بقصد بلاد المعبر . وقويت الريح وكاد الماء يدخل فى المركب . ولم يكن لنا رئيس عارف . ثم وصلنا إلى حجارة كاد المركب ينكسر فيها . ثم دخلنا بحرا قصيرا فيجلس المركب^(٢) ورأينا الموت عيانا ، ورعى الناس بما معهم ، وقطعنا صارى المركب فرمينا به . وصنع البحرية (معدية) من الخشب . وكان بيننا وبين البر فرسخان . فأردت أن أنزل (فى المعدية) . وكان لى جاريتان وصاحبان من أصحابى ، فقالا : أتزل وتتركان؟ فأثرتهما على نفسى . وقلت : انزلا أتما . فنزل رفيقائى ، وأحدهما محمد بن فرحان التوزرى ، والآخر رجل مصرى ، وجارية معهما . والأخرى تسبح . وربط البحرية فى (المعدية) حبالا وسبحوا بها . وجعلت معهم ماعز على من المتاع والجواهر والعنبر . فوصلوا إلى البر سالمين ، لأن الريح كانت تساعدهم . وأقمت بالمركب . ونزل صاحبه إلى البر . وشرع البحرية فى عمل أربع من (المعادى) بجفاء الليل قبل تمامها ، ودخل معنا الماء . فصعدت إلى المؤخر ، وأقمت به حتى الصباح .

(١) هى مدينة كَلَنْبُو .

(٢) فيجلس المركب أى يستقر على الأرض ، وهو تعبير غريب . وقد آثرنا أن نتركه كما هو .

وحينئذ جاء إلينا نفر من الكفار في قارب لهم ، ووزلنا معهم إلى الساحل ببلاد المعبر ، فأعلمناهم أننا من أصحاب سلطانهم . وهم تحت ذمته . فكتبوا إليه بذلك وهو على مسيرة يومين في الغزو . وكتبت أنا إليه أعلمه بما اتفق لي . وأدخلنا أولئك الكفار إلى غيضة عظيمة ، فأتوننا بفاكهة تشبه البطيخ يُمرُّها شجر المقل^(١) ، وفي داخلها شبه قطن فيه عسليّة يستخرجونها ، ويصنعون منها حلواء . تشبه السكر . وأتوا بسمك طيب . وأقمنا ثلاثة أيام . ثم وصل من جهة السلطان أمير يعرف بقمر الدين ، معه جماعة فرسان ورجال ، وجاءوا (بالدولة) وبعشرة أفراس ، فركبت وركب أصحابي وصاحب المركب وإحدى الجاريتين ، وحملت الأخرى في (الدولة) . ووصلنا إلى حصن هرَكَاتو وبتنا به . وتركت فيه الجاريتين وبعض الغلمان والأصحاب ، ووصلنا في اليوم الثاني محلّة السلطان .

ذكر سلطان بلاد المعبر

هو غياث الدين الدامغانى^(٢) . وكان في أول أمره فارسا من فرسان الملك مجير ابن أبي الرجا ، أحد خدام السلطان مجد . ثم خدم الأمير حاجي ابن السيد السلطان جلال الدين . ثم ولى الملك . وكان يدعى سراج الدين قبله ، فلما ولى تسمى غياث الدين . وكانت بلاد المعبر تحت حكم السلطان مجد ملك دهلي . ثم ثار بها صهرى الشريف جلال الدين أحسن شاه ، وملك بها خمسة أعوام . ثم قتل وولى أحد أمرائه وهو علاء الدين أدبيجي ، فملك سنة . ثم خرج إلى غزو الكفار فأخذ منهم أموالا كثيرة وغنائم واسعة . وعاد إلى بلاده وغزاهم في السنة الثانية فهزمهم ، وقتل منهم مقلّة عظيمة . واتفق يوم قتله لهم أن رفع

(١) المقل صنغ شجرة كما في القاموس .

(٢) نسبة إلى دامغان ، بلد كبير بين الرىّ ونيسابور ، وهو قصبة قومس . ياقوت .

المَغْفَر^(١) عن رأسه ليشرب ، فأصابه سهم فمات من حينه . فولوا صهره قطب الدين . ثم لم يحمدا سيرته فقتلوه بعد أربعين يوما . وولى بعده السلطان غياث الدين ، وتزوج بنت السلطان الشريف جلال الدين ، التي كنت متروجا أختها بدھلي .

ذكر وصولي إلى السلطان غياث الدين

ولما وصلنا إلى قرب من منزله بعث بعض الحجاب لتلقينا ، وكان قاعدا في برج خشب . وعادتهم بالهند كلها ألا يدخل أحد على السلطان دون خُف . ولم يكن عندي خف ، فأعطاني بعض الكفار خفا . ودخلت على السلطان فأمرني بالجلوس . ودعا القاضي الحاج صدر الزمان بهاء الدين ، وأزلى في جواره في ثلاثة أخبية ، وهم يسمونها الخيام ، وبعث بالفرش وبطعامهم ، وهو الأرز واللحم . وعادتهم هنالك أن يسقوا اللبن الرائب على الطعام كما يفعل ببلادنا . ثم اجتمعت به بعد ذلك ، وألقيت^(٢) إليه أمر جزائر ذبية المهل ، وأن يبعث الجيش إليها . فأخذ في ذلك بالعزم ، وعين المرابك لذلك ، وعين الهدية لسلطاتها ، والخلع للوزراء والأمراء والعطايا لهم . وأمر بإساق ثلاثة مرابك بالصدقة لفقراء الجزائر . وقال لي : يكون رجوعك بعد خمسة أيام . فقال له قائد البحر خواجه سرك : لا يمكن السفر إلى الجزائر إلا بعد ثلاثة أشهر من الآن . فقال لي السلطان : أما إذ كان الأمر هكذا فامض إلى فتن ، حتى تقضى هذه الحركة^(٣) ونعود إلى حضرتنا مئرة ، ومنها تكون الحركة^(٤) . فأقمت معه بخلال^(٥) ما بعثت إلى الجاريتين والأصحاب .

(١) حلق يتقنع بها المتسلح .

(٢) أي أخبرته بما عليه كثير من أهلها من الفقر والحاجة .

(٣) أي حركة الغزو المسطورة فيما يلي .

(٤) أي سفر الجيش بالهدايا والصدقات إلى جزائر ذبية المهل . وفي العبارة من أول قوله : (وألقيت) شيء من الإبهام والاضطراب .

(٥) يقصد ريثما بعثت ، وهو تعبير غريب .

ذكر ترتيب رحيله وشنيع فعله في قتل

النساء والولدان

وكانت الأرض التي نسلكتها غِيْضَةً واحدة من الأشجار والقصب ، بحيث لا يسلكها أحد . فأمر السلطان أن يكون مع كل واحد من في الجيش من كبير وصغير قَدْوم لقطع ذلك . فإذا نَزَلَتِ المَحَلَّةُ (١) ، ركب إلى الغابة والناس معه فقطعوا تلك الأشجار من غُدوة النهار إلى الزوال . ثم يؤتى بالطعام فيأكل جميع الناس ، طائفة بعد أخرى . ثم يعودون إلى قطع الأشجار إلى العشي . وكل من وجدوه من الكفار في الغيضة أمروه ، وصنعوا خشبة محذدة الطرفين فجعلوها على كتفيه ، يحملها ومعه امرأته وأولاده ، ويؤتى بهم ، إلى المحلة . وعادتهم أن يصنعوا على المحلة سورا من خشب يكون له أربعة أبواب ويسمونه الكَنْكِرَ ، ويصنعون على دار السلطان كَنْكِرًا ثانيا ، ويصنعون خارج الكَنْكِرِ الأكبر مصاطب ارتفاعها نحو نصف قامة ، ويوقدون عليها النار بالليل . ويبيت عندها العبيد والمشاءون ، ومع كل واحد منهم حُرْمَةٌ من رقيق القصب . فإذا أتى الكفار ليضربوا على المحلة ليلا ، أوقد كل واحد منهم الحزمة التي بيده ، فعاد الليل شبه النهار لكثرة الضياء ، وخرجت الفرسان في اتباع الكفار . فإذا كان عند الصباح قُسم الكفار المأسورون بالأمس أربعة أقسام ، وأتى إلى كل باب من أبواب الكَنْكِرِ بقسم منهم ، فركبت الخُشْبُ التي كانوا يحملونها بالأمس ، ثم ركروا فيها حتى تنفذهم . ثم تذبح نساؤهم ويربطن بشعورهن إلى تلك الخشبات ، ويذبح الأولاد

(١) يقصد المعسكر ، كما تقدم مثل ذلك الاستعمال .

الصغار في مجورهن ، ويتركون هنالك . ثم يشتغلون بقطع غِيَصَة أخرى ، ويصنعون بمن أسروه كذلك . وذلك أمر شنيع ما علمته لأحد من الملوك .

ولقد رأيتُه يوما والقاضي عن يمينه وأنا عن شماله ، وهو يأكل معنا ، وقد أتى بكافر معه امرأته وولد سنه سبع ، فأشار إلى السيفين بيده أن يقطعوا رأسه ، ثم قال لهم : وابنه وزوجته . فقطعت رقابهم . وصرفت بصرى عنهم . فلما قتت وجدت رعوسهم مطروحة بالأرض . وحضرت عنده يوما وقد أتى برجل من الكفار ، فتكلم بما لم أفهمه ، فإذا بجماعة من الزبانية^(١) قد استلوا سكاكينهم ، فبادرت إلى القيام ، فقال لي : إلى أين ؟ فقلت : أصلى العصر . ففهم عني وضحك ، وأمر بقطع يديه ورجليه . فلما عدت وجدته مُتَشَحَّطًا^(٢) في دمائه .

ذكر هزيمته للكفار

وهي من أعظم فتوحات الإسلام

وكان فيما يحاور بلاده سلطان كافر يسمى بلال ديو ، وهو من كبار سلاطين الكفار ، يزيد عسكره على مائة ألف ، ومعه نحو عشرين ألفا من المسلمين أهل الدعارة وذوى الجنائيات ، والعبيد الفارين . فطمع في الاستيلاء على بلاد المعبر ، وكان عسكر المسلمين بها ستة آلاف منهم النصف من الجياد ، والنصف الثاني لاخير فيهم ولا غناء عندهم . فلقوه بظاهر مدينة كُجَّان فهزمهم ، وحاصرها عشرة أشهر ، ولم يبق لهم من الطعام إلا قوت أربعة

(١) الزبانية متمردين والجن والانس والشديد والشرطي ، جمعه زبانية . قاموس .

(٢) مضطربا .

عشرة يوماً . فبعث لهم الكافر أن يخرجوا على الأمان ويتركوا له البسلة . فقالوا له : لا بد من مطالعة سلطاننا بذلك ، فوعدهم إلى تمام أربعة عشر يوماً . فكتبوا إلى السلطان غياث الدين بأمرهم فقرأ كتابهم على الناس يوم الجمعة فبكوا ، وقالوا : نبيع أنفسنا من الله ، فإن الكافر إن أخذ تلك المدينة انتقل إلى حصارنا ، فالموت تحت السيوف أولى بنا .

فتعاهدوا على الموت ، وخرجوا من الغد ونزعوا العمام عن رؤوسهم ، وجعلوها في أعناق الخيل ، وهي علامة من يريد الموت ، وجعلوا ذوى النجدة والأبطال منهم في المقدمة . وكانوا ثلاثمائة . وجعلوا على الميمنة سيف الدين بهادور ، وكان فقيها ورعاً شجاعاً ، وعلى الميسرة الملك مجدا السلحدار . وركب السلطان في القلب ومعه ثلاثة آلاف . وجعل الثلاثة الآلاف الباقين ساقّة^(١) لهم ، وعليهم أسد الدين كيخسرو الفارسي . وقصدوا محلة الكافر عند القائلة ، وأهلها على غرة وخيلهم في المرعى ، فأغاروا عليها . وظن الكفار أنهم سراق ، فخرجوا إليهم على غير تعبئة وقتلهم ، فانهمزم الكفار شر هزيمة .

وأراد سلطانهم أن يركب ، وكان ابن ثمانين سنة ، فأدركه ناصر الدين ، ابن أنحى السلطان الذى ولي الملك بعده ، فأراد قتله ولم يعرفه ، فقال له أحد غلمانته : هو السلطان ، فأسره وحمله إلى عمه فأكرمه في الظاهر ، حتى جبي منه الأموال والقبيلة والخيل ، وكان يعده السراح . فلما استصفى ما عنده ذبحه وسلخه وملاً جلده بالتبن . فعلق على سور مؤترة ، ورأيته بها معلقاً .

ولنعد إلى كلامنا فنقول : ورحلت عن المحلة فوصلت إلى مدينة قتن ، وهي كبيرة حسنة على الساحل . ومرساها عجيب ، قد صنعت فيه قبة ، خشب كبيرة ، قائمة على الخشب الضخام ، يصعد إليها على طريق خشب

(١) ساقّة الجيش مؤترة .

مسقوف . فإذا جاء العدو ضموا إليها (الأجفان) التي تكون بالمرسى ، وصعدوا الرجال والرماة فلا يصيب العدو فرصة . وبهذه المدينة مسجد حسن مبني بالحجارة . وبها العنب الكثير والرومان الطيب . ولقيت الشيخ الصالح محمدا التيسابوري . أحد الفقراء المتوطنين ^(١) الذين يسدُّون شعورهم على أكفاهم ، ومعه سبع رباة ، يأكل مع الفقراء ويقعد معهم . وكان معه نحو ثلاثين فقيرا ، لأحدهم غزالة تكون مع الأسد في موضع واحد فلا يعرض لها .

ثم وصل السلطان إلى مدينة قنّ ، فخرجت للقائه . ولما استقر بها أرسل إلى قائد البحر خواجه سرور ، فقال له : لا تشتغل بسوى المراكب المعينة للسفر إلى الجزائر . وأقام بقنّ نصف شهر ، ثم رحل إلى حضرته مُترة . وأقامت بعده نصف شهر .

ثم رحلت إلى مدينة مُترة ، مدينة كبيرة متسعة الشوارع . وأول من اتخذها حضرة صهرى السلطان الشريف جلال الدين أحسن شاه ، وجعلها شبيهة يدهلي وأحسن بناءها . ولما قدمتها وجدت بها وباء يموت منه الناس موتا ذريعا : فمن مرض مات من ثانی يوم مرضه أو ثالثه . وإن أبطأ موته فإلى الرابع . فكنت إذا خرجت لا أرى إلا مريضا أو ميتا . واشترت بها جارية على أنها صحيحة فماتت في يوم آخر . ولقد جاءت إلى في بعض الأيام امرأة ، كان زوجها من وزراء السلطان أحسن شاه ، ومعها ابن لها ، سنه ثمانية أعوام ، نبيل كيس فطن . فشكيت ضعف حالها فأعطيتهما نفقة ، وهما صحیحان سويان . فلما كان من الغد جاءت تطلب لولدها هذا كفنا ، وإذا به قد توفي من حينه . وكنت أرى (بمشور) السلطان حين مات ، المئين من الخادِمات اللاتي أتى بهن لدق الأرز المعمول منه الطعام لغير السلطان ، وهن مريضات قد طرحن أنفسهن في الشمس . ولما دخل السلطان مُترة وجد أمه وامراته وولده مرضى ، فأقام بالمدينة

(١) الذاهبي العقل .

ثلاثة أيام ، ثم خرج إلى نهر على فرسخ منها ، كانت عليه كنيسة للكفار .
وخرجت إليه في يوم خميس ، فأمر بإنزاله إلى جانب القاضي . فلما ضربت
لى الأخبية ، رأيت الناس يسرعون ويموج بعضهم في بعض ، فمن قائل إن
السلطان مات ، ومن قائل إن ولده هو الميت . ثم تحقق ذلك ، فكان الولد
هو الميت ، ولم يكن له سواه ، فكان موته مما زاد في مرضه . وفي الخميس
بعده توفيت أم السلطان .

ذكر وفاة السلطان وولاية ابن أخيه وانصرافى عنه

وفي الخميس الثالث توفي السلطان غياث الدين . وشعرت بذلك ، فبادرت
إلى الدخول إلى المدينة خوف الفتنة . ولقيت ناصر الدين ابن أخيه ، الوالى
بعده ، خارجا إلى المحلّة^(١) ، وقد وُجّه^(٢) عنه ، إذ ليس للسلطان ولد .
فطلب إلى الرجوع معه فأبيت . وأثر ذلك في قلبه . وكان ناصر الدين هذا
خادما بدهلى قبل أن يملك عمه . فلما ملك عمه هرب في زىّ الفقراء إليه ،
فكان من القدر ملكه بعده . ولما بويغ مدحته الشعراء فأجزل لهم العطاء .
وأول من قام منشدا القاضي صدر الزمان ، فأعطاه خمسمائة دينار وخلعة ،
ثم الوزير المسمى بالقاضى ، فأعطاه ألفى دينار دراهم ، وأعطاني أنا ثلاثمائة
دينار واخلعة . وبث الصدقات فى الفقراء والمساكين .

ولما خطب الخطيب أول خطبة خطبها باسمه ، نثرت عليه الدنانير
والدراهم فى صحاف الذهب والفضة . وعمل عزاء السلطان غياث الدين ،
فكانوا يختمون القرآن على قبره كل يوم ، ثم يقرأ العشرون^(٣) ، ثم يؤتى

(١) يقصد المعسكر ، كما تقدم .

(٢) يريد طلب للحضور إلى المعسكر . والتعبير غريب غير معهود .

(٣) يريد بالعشار من يقرأ عشر القرآن . والتعبير غير عربى .

بالطعام فيأكل الناس ، ثم يعطون الدراهم ، كل إنسان على قدره . وأقاموا على ذلك أربعين يوما . ثم يفعلون ذلك في مثل يوم وفاته من كل سنة .

وأول ما بدأ به السلطان ناصر الدين أن عزل وزير عمه وطالبه بالأموال . وولى الوزارة الملك بدر الدين الذي بعثه عمه إلى وأنا بفتن ليتلقاني ، فوفى سريعا . فولى الوزارة خواجه سُرور قائد البحر . وأمر أن يخاطب بخواجة جهان كما يخاطب الوزير بيدهلى . ومن خاطبه بغير ذلك عُرم دنانير معلومة . ثم إن السلطان ناصر الدين قتل ابن عمته المتزوج بنت السلطان غياث الدين ، وتزوجها بعده . وبلغه أن الملك مسعودا زاره في محبسه قبل موته فقتله أيضا ، وقتل الملك بهادُور ، وكان من الشجعان الكرماء الفضلاء . وأمر لى بجميع ما كان عينه عمه من المراكب برسم الجزائر .

ثم أصابتى الحمى القاتلة هنالك فظننت أنها القاضية . وألمحنى الله استعمال التمر الهندي ، وهو هنالك كثير ، فأخذت نحو رطل منه وجعلته في الماء ثم شربته . وعافانى الله من مرضى . فكُرهت تلك المدينة وطلبت الإذن في السفر ، فقال لى السلطان : كيف تسافر ولم يبق لأيام السفر إلى الجزائر غير شهر واحد ؟ أقم حتى نعطيك جميع ما أمر لك به خوند عالم . فأبيت . وكتب لى إلى قنن لأسافر فى أى مركب أردت . وعدت إلى قنن فوجدت ثمانية من المراكب تسافر إلى اليمن ، فسافرت فى أحدها . ولقينا أربعة (أجفان) فقالتنا يسيرا ، ثم انصرفت . ووصلنا إلى كُولم وكان فى بقية مرض ، فأقمت بها ثلاثة أشهر . ثم ركبت فى مركب بقصد السلطان جمال الدين الهنورى . فخرج علينا الكفار بين هنور وفا كنور .

ذكر سلب الكفار لنا

ولما وصلنا إلى الجزيرة الصغرى بين هَنُورَ وفا كَنُورَ، خرج علينا الكفار في اثني عشر مراكبا حربيا، وقاتلونا قتالا شديدا وتغلبوا علينا. فأخذوا جميع ما عندي مما كنت أدخره للشدائد، وأخذوا الجواهر واليواقيت التي أعطانيها ملك سيلان، وأخذوا ثيابي والزَّوَادَاتِ^(١) التي كانت عندي مما أعطانيه الصالحون والأولياء. ولم يتركوا لي سائرا خلا السراويل. وأخذوا ما كان لجميع الناس وأزلونا بالساحل.

فرجعت إلى قَالِقُوطَ، فدخلت بعض المساجد، فبعثت إلى أحد الفقهاء بثوب، وبعثت القاضي بعمامة، وبعثت بعض التجار بثوب آخر. وسافرت فوصلت بعد عشرة أيام إلى جزائر ذِيْبَةِ المَهَلِ. ونزلت منها بِكَنْلُوسَ، فأكرمني واليها عبد العزيز المَقْدَشَاوِي، وأضافني وجهي (كُنْدُرَةَ)، ووصلت بعد ذلك إلى هُلِّي، وهي الجزيرة التي تخرج السلطانة وإخوتها إليها للتفرج والسياحة، ويبعون في المراكب، ويبعث لها الوزراء والأمراء بالهدايا والتحف متى كانت بها. ووجدت بها أخت السلطانة، وزوجها الخطيب محمد ابن الوزير جمال الدين، وأمها التي كانت زوجتي. بغاء الخطيب إلى أتوا بالطعام. ومرَّ بعض أهل الجزيرة على الوزير عبد الله فأعلموه بقدومي، فسأل عن حالي وعن قَدَمِ مَعِي، وأخبر أني جئت لحمل ولدي، وكانت سنه نحو عامين. وأنته أمه تشكو ذلك فقال لها: أنا لا أمنعه من حمل ولده. وصادرنى في دخول الجزيرة، وأتلتني بدار تقابل برج قصره ليطلع على حالي، وبعثت إلي بكسوة كاملة، وبالْتَانَبُولَ وماء الورد على عادتهم.

(١) جمع زوادة وهي ما يحملها المسافر من الزاد أو غيره — ولم نر هذا في كتب اللغة.

وجئت بثوبى حرير للرمى عند السلام ، فأخذوهما ، ولم يخرج الوزير إلى ذلك اليوم . وأتى إلى بولدى فظهر لى أن إقامة معهم خير له ، فرددته إليهم .

وأقمت خمسة أيام ، وظهر لى أن تعجيل السفر أولى . فطلبت الإذن فى ذلك . فاستدعانى الوزير ودخلت عليه ، وأتوني بالثوبين اللذين أخذوهما منى ، فرميتهما عند السلام على العادة . وأجسنى إلى جانبه وسألنى عن حالى ، وأكلت معه الطعام ، وغسلت يدى معه فى الطَّسْت . وذلك شىء لا يفعله مع أحد . وأتوا بالتَّانْبُول وانصرفت . وبعث إلى بأثواب ، وأحسن أفعاله وأجمل .

وسافرت فأقمتنا على ظهر البحر ثلاثا وأربعين ليلة . ثم وصلنا إلى بلاد بَنْجَالَة ، وهى بلاد متسعة كثيرة الأرز . ولم أر فى الدنيا أرخص أسعارا منها . لكنها مظلمة . رأيت الأرز يباع فى أسواقها خمسة وعشرين رطلا دهلية بدينار فضى ، والدينار الفضى هو ثمانية دراهم ، والرطل الدهلى عشرون رطلا مغربيا . وسمعتهم يقولون إن ذلك غلاء عندهم . وحدثنى محمد المصمودى المغربى ، وكان من الصالحين ، وسكن هذا البلد قديما ، ومات عندى بدهى ، أنه كانت له زوجة وخادم ، فكان يشتري قوت ثلاثتهم فى السنة بثمانية دراهم ، وأنه كان يشتري الأرز فى قشره بحساب ثمانين رطلا دهلية بثمانية دراهم . فإذا دقه خرج منه خمسون رطلا صافية ، وهى عشرة فناطير . ورأيت البقرة تباع بها للحلب بثلاثة دنانير فضة . وبقرهم الجواميس . ورأيت الدجاج السمان تباع بحساب ثمان بدرهم واحد ، وفراخ الحمام يباع خمسة عشر منها بدرهم . ورأيت الكَبْش السمين يباع بدرهمين ، ورطل السكر بأربعة دراهم ، وهو رطل دهلى ،

ورطل السمن بأربعة دراهم . ورأيت ثوب القطن الرقيق الجيد الذى ذرعه ثلاثون ذراعا يباع بدينارين . ورأيت الجارية تباع بدينار من الذهب واحد ، وهو ديناران ونصف دينار من الذهب المغربى . واشترت بنحو هذه القيمة جارية . واشترى بعض أصحابى غلاما صغير السن حسنا اسمه لؤلؤ ، بدينارين من الذهب .

وأول مدينة دخلنا من بلاد بنجالة مدينة سُدكاوان . وهى مدينة عظيمة على ساحل البحر الأعظم . ويجتمع بها نهر الكنك الذى يصب إليه الهنود ، ونهر الجون . ويصبان فى البحر . ولهم فى النهر مراكب كثيرة يقاتلون بها أهل بلاد اللكنوتى .

ذكر سلطان بنجالة

وهو السلطان نخر الدين ، سلطان فاضل محب للغرباء وخصوصا الفقراء والمتصوفة . وكانت مملكة هذه البلاد للسلطان ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن ، وهو الذى ولى ولده معزالدين الملك بدهى ، فتوجه لقتاله والتقى بالنهر ، وسمى لقاءهما لقاء السعدين . وقد ذكرنا ذلك ، وأنه ترك الملك لولده وعاد إلى بنجالة ، فأقام بها إلى أن توفى ، وولى ابنه شمس الدين إلى أن توفى ، فولى ابنه شهاب الدين إلى أن غلب عليه أخوه غياث الدين بها دُوربُور ، فاستنصر شهاب الدين بالسلطان غياث الدين فغلق فنصره ، وأخذ بها دُوربُور أسيرا . ثم أطلقه ابنه محمد لما ملك ، على أن يقاسمه ملكه ، فنكث عليه فقاتله حتى قتله ، وولى على هذه البلاد صهراله ، فقتله العسكر ، واستولى على ملكها على شاه وهو إذ ذاك ببلاد اللكنوتى . فلما رأى نخر الدين أن الملك قد خرج عن أولاد السلطان ناصر الدين

وهو مولى لهم ، خالف بسدكاوان وبلاد بئجالة ، واستقل بالملك . واشتدت
الفتنة بينه وبين علي شاه . فإذا كانت أيام الشتاء والوَحْل أغار نخر الدين
على بلاد اللِّكْنَوْتِي في البحر لقوته فيه ، وإذا عادت الأيام التي لا مطر فيها ،
أغار على شاه علي بئجالة في البر لقوته فيه .

حكاية

وانتهى حب الفقراء بالسلطان نخر الدين ، إلى أن جعل أحدهم نائباً عنه
في الملك بسدكاوان ، وكان يسمى شيدا . وخرج إلى قتال عدو له ، فخالف
عليه شيدا ، وأراد الاستبداد بالملك ، وقتل ولد السلطان نخر الدين ، ولم
يكن له ولد غيره . فعلم بذلك فكرَّ عائداً إلى حضرته ، ففر شيدا ومن اتبعه
إلى مدينة سُنْرُكاوان وهي منيعة . فبعث السلطان بالعساكر إلى حصاره ،
نخاف أهلها على أنفسهم ، فقبضوا على شيدا وبعثوه إلى عسكر السلطان ،
فكتبوا إليه بأمره ، فأمرهم أن يبعثوا له رأسه فبعثوه ، وقتل بسببه جماعة
كبيرة من الفقراء .

ولما دخلت سدكاوان لم أر سلطانها ولا لقيته ، لأنه مخالف على ملك
الهند . نخفت عاقبة ذلك ، وسافرت من سدكاوان بقصد جبال كامرو .
ويذنها وبين سدكاوان مسيرة شهر . وهي جبال متسعة متصلة بالصين ،
وتتصل أيضا ببلاد التبت ، حيث غزلان المسك . وأهل هذا الجبل يشبهون
الترك ، ولهم قوة على الخدمة . والغلام منهم يساوى أضعاف ما يساويه الغلام
من غيرهم . وهم مشهورون بمعاونة السحر والاشتغال به . وكان قصدي
بالمسير إلى هذه الجبال لقاء ولي من الأولياء بها ، وهو الشيخ جلال الدين
التبريزي .

ذكر الشيخ جلال الدين

وهذا الشيخ من كبار الأولياء ، له الكرامات الشهيرة والمآثر العظيمة . وهو من المعمرين . أخبرني رحمه الله أنه أدرك الخليفة المستعصم بالله العباسي ببغداد . وكان بها حين قتله . وأخبرني أصحابه بعد هذه المدة أنه مات وهو ابن مائة ونحسين ، وأنه كان له نحو أربعين سنة يسرد الصوم^(١) ولا يفطر إلا بعد مواصلة عشر . وكانت له بقرة يفطر على حليبها ، ويقوم الليل كله . وكان نحيف الجسم طوَّالاً ، خفيف العارضين . وعلى يديه أسلم أهل تلك الجبال ، ولذلك أقام بينهم .

كرامة له

أخبرني بعض أصحابه أنه استدعاهم قبل موته بيوم واحد ، وأوصاهم بتقوى الله وقال لهم : إني أسافر عنكم غدا إن شاء الله ، وخليفتي عليكم الله الذي لا إله إلا هو . فلما صلى الظهر من الغد قبضه الله في آخر سجدة منها . ووجدوا في جانب الغار الذي كان يسكنه قبرا محفورا ، عليه الكفن والحنوط . فغسلوه وكفنوه ، وصلوا عليه ودفنوه به . رحمه الله .

كرامة له أيضا

ولما قصدت زيارة هذا الشيخ لقيني أربعة من أصحابه على مسيرة يومين من موضع سكاه ، فأخبروني أن الشيخ قال للفقراء الذين معه : قد جاءكم

(١) يسرد الصوم : يواصله .

سائح المغرب فاستقبلوه ، وأنهم أتوا لذلك بأمر الشيخ ، ولم يكن عنده علم بشيء من أمرى ، وإنما كوشف به^(١) . وسرت معهم إلى الشيخ ، فوصلت إلى زاويته خارج الغار . ولا عمارة عندها . وأهل تلك البلاد من مسلم وكافر يقصدون زيارته ، ويأتون بالهدايا والتحف فيأكل منها الفقراء والواردون . وأما الشيخ فقد اقتصر على بقرة يفطر على حليبها بعد عشر ، كما قدمناه . ولما دخلت عليه قام إلى وعانقني ، وسألني عن بلادي وأسفاري فأخبرته . فقال لي : أنت مسافر العرب . فقال له من حضر من أصحابه : والعجم ياسيدنا . فقال : والعجم ، فأكرموه . فاحتملوني إلى الزاوية وأضافوني ثلاثة أيام .

حكاية عجيبة في ضمنها كرامات له

ولما كان يوم دخولي على الشيخ رأيت عليه فرجية مرعزة فأعجبني ، وقلت في نفسي : ليت الشيخ يعطينها . فلما دخلت عليه للوداع قام إلى جانب الغار ، وجرّد الفرجية وأبسنيها مع طاقية^(٢) من رأسه ، ولبس مرقعة . فأخبرني الفقراء أن الشيخ لم تكن عادته أن يلبس تلك الفرجية ، وإنما لبسها عند قدومي ، وأنه قال لهم : هذه الفرجية يطلبها المغربيّ ويأخذها منه سلطان كافر ، ويعطيها أخانا برهان الدين الصّاعرّجي ، وهي له وبرئته كانت . فلما أخبرني الفقراء بذلك ، قلت لهم : قد حصلت لي بركة الشيخ بأن كساني لباسه . وانصرفت عن الشيخ . فاتفق لي بعد مدة طويلة أني دخلت بلاد الصين ، وانتهيت إلى مدينة الخندسا ، فافترق مني أصحابي لكثرة الزحام ،

(١) أطلعه الله عليه . وقد سبق في الحواشي بيان نظر الإسلام إل مثل هذا .

(٢) يراد بها نوع من القلائس . ولا تعرف أنها عربية بهذا المعنى .

وكانت الفرجية على . فبينما أنا في بعض الطرق إذ بالوزير في موكب عظيم ، فوقع بصره على فاستدعاني وأخذ بيدي ، وسألني عن مقدمي ولم يفارقني حتى وصلت إلى دار السلطان معه . فأردت الانفصال ، فمدعني وأدخاني على السلطان ، فسألني عن سلاطين الإسلام فأجبتة . ونظر إلى الفرجية فاستحسنها . فقال لي الوزير : جردّها ، فلم يمكنني خلاف ذلك . فأخذها وأمر لي بعشر خلع وفرس مجهز ونفقة . وتغير خاطري لذلك . ثم تذكرت قول الشيخ : إنه يأخذها سلطان كافر ، فطال عجبني من ذلك .

ولما كان في السنة الأخرى ، دخلت دار ملك الصين بحان بالقي (١) فقصدت زواية الشيخ برهان الدين الصّاعر جي ، فوجدته يقرأ والفرجية عليه بعينها . فعجبت من ذلك وقلبتها بيدي . فقال لي : لم تقلها وأنت تعرفها ؟ فقلت له : نعم هي التي أخذها مني سلطان الخنساء ، فقال لي : هذه الفرجية صنعها أنحى جلال الدين برسمي ، وكتب إلى أن الفرجية تصلك على يد فلان . ثم أخرج لي الكتاب فقرأته ، وعجبت من صدق يقين الشيخ ، وأعلمته بأول الحكاية . فقال لي : أنحى جلال الدين أكبر من ذلك كله ، وقد انتقل إلى رحمة الله . ثم قال لي : (بلغني أنه كان يصلي الصبح كل يوم بمكة ، وأنه يحج كل عام ، لأنه كان يغيب عن الناس يومى عرفة والعيد ، فلا يعرف أين ذهب) (٢) . ولما ودّعت الشيخ جلال الدين سافرت إلى مدينة حَبَّق ، وهي من أكبر المدن وأحسنها ، يشقها النهر الذي ينزل من جبال كامرو . ويسمى النهر الأزرق . ويسافر فيه إلى بَنجالة وبلاد اللّكنوّتي . وعليه النواعير

(١) بكين .

(٢) ما بين القوسين من الخرافات التي لا يمكن أن يتصورها العقل ، كما هو واضح .

وكل ما أخبر به ابن بطوطة مما رآه من كرامات الشيخ جلال الدين إنما هو على عهدته .

والبساتين والقرى يَمَنَّة وَيَسْرَةَ ، كما هي على نيل مصر . وأهلها كفارتحت الذمة .
يؤخذ منهم نصف ما يذرعون ، ووظائف^(١) سوى ذلك .

وسافرنا في هذا النهر خمسة عشر يوما بين القرى والبساتين . فكأننا نمشي في
سوق من الأسواق . وفيه من المراكب ما لا يحصى كثرة ، وفي كل مركب
منها طبل . فإذا التقى المركبان ضرب كل واحد طبله ، وسلم بعضهم على
بعض . وأمر السلطان نحر الدين أن يُعْطَى مَنْ لا زاد له زادا . وإذا
وصل الفقير إلى مدينة أُعْطِيَ نصف دينار .

وبعد خمسة عشر يوما من سفرنا في النهر كما ذكرناه ، وصلنا إلى مدينة
سُرُكَاوَان ، فوجدنا بها (جُنُكَا) يريد السفر إلى بلاد الجاوة . وبينهما أربعون
يوما . فركبنا فيه ووصلنا بعد خمسة عشر يوما إلى بلاد البرهنكار الذين
أفواههم كأفواه الكلاب . وهذه الطائفة من الحمج لا يرجعون إلى دين
الهنود ولا إلى غيره . وسكانهم في بيوت قصب مسقوفة بحشيش الأرض
على شاطئ البحر . وعندهم من أشجار الموز والقوئل والتانبول كثير . ورجالهم
على مثل صورتنا إلا أن أفواههم كأفواه الكلاب . وأما نساؤهم فلسن
كذلك ، وهن جمال بارع . ورجالهم لا يستترون ، وتستر نساؤهم
بأوراق الشجر . ومعهم جماعة من المسلمين من أهل تجالة والجاوة ، ساكنون
في حارة على حدة . وإنما يبايعون الناس ويشارونهم على الساحل ، ويسوقون
إليهم المساء على الفيلة لأنه بعيد من الساحل .

والفيلة كثيرة عندهم . ولهم كلام غريب لا يفقهه إلا من ساكنهم وأكث
التردد إليهم . ولما وصلنا إلى ساحلهم أتوا إلينا في قوارب صغار ، كل
قارب من خشبة واحدة منحوتة . وجاءوا بالموز والأرز والتانبول والقوئل
والسمك .

(١) مكوس

ذكر سلطانهم

وأتى إلينا سلطانهم راكبا على فيل عليه شبه بردعة من الجلود . ولباس السلطان ثوب من جلود المعز ، وقد جعل الوبر إلى خارج . وفوق رأسه ثلاث عصائب من الحرير ملونات . وفي يده حربة من القصب . ومعه نحو عشرين من أقاربه على الفيلة . فبعثنا إليه هدية من الفلفل والزنجبيل والقرفة والحيتان التي تكون بجزائر ذبابة المسهل ، وأثوابا بتجالية . وهم لا يلبسونها ، وإنما يكسونها الفيلة في أيام عيدهم .

ولهذا السلطان على كل مركب ينزل ببلاده جارية ومملوك ، وثياب لكسوة الفيل ، وحلى ذهب تجعله زوجته في مخزيمها وأصابع رجلها . ثم سافرنا عن هؤلاء . وبعد خمسة وعشرين يوما وصلنا إلى جزيرة الجاوة ، وهي التي ينسب إليها الثبان الجاوي . رأيناها على مسيرة نصف يوم . وهي خضرة نضرة . وأكثر أشجارها النارجيل والفوفل والقرنفل والعود الهندى والنارنج الحلوى (١) وقصب الكافور والعنبة . وبيع أهلها وشراؤهم بقطع قصدير ، وبالذهب الصينى التبر غير المسبوك .

والكثير من أفاويه الطيب التي ببلاد الكفار إنما هو منها . وأما ببلاد المسلمين فهو أقل من ذلك . ولما وصلنا المرسى خرج إلينا أهلها في مراكب صغار ، ومعهم جوز النارجيل والموز والسّمك . وعادتهم أن يهدوا ذلك للتجار ، فيكافئهم كل إنسان على قدره . وصعد إلينا نائب صاحب البحر ، وشاهد من معنا من التجار ، وأذن لنا في التزول إلى البر ، فزلنا إلى البندر، وهي قرية كبيرة على ساحل البحر . وبينها وبين البلد أربعة أميال . ثم كتب بهروز نائب صاحب البحر إلى السلطان ، فعرفه بقدمى ، فأمر الأمير

(١) البرتقال .

دَوْلَسَة بَلْقَائِي ، والقاضي الشريف أمير سيد الشيرازي وتاج الدين الأصبهاني ،
وسواهم من الفقهاء ، نخرجوا لذلك وجاءوا بفرس من مرآكب السلطان
وأفراس سواه ، فركبت وركب أصحابي ودخلنا حضرة السلطان ، وهي
مدينة سُمَطْرَة ، مدينة حسنة كبيرة عليها سور خشب وأبراج خشب .

ذكر سلطان الجاوة

وهو السلطان الملك الظاهر ، من فضلاء الملوك وكرامتهم ، شافعي
المذهب ، محب للفقهاء ، يحضرون مجلسه للقراءة والمذاكرة . وهو كثير
الجهاد والغزو متواضع ، يأتي إلى صلاة الجمعة ماشيا على قدميه . وأهل
بلادته شافعية محبوبون للجهاد ، يخرجون معه طوعا . وهم غالبون على من
يلهم من الكفار . والكفار يعطونهم الجزية على الصلح .

ذكر دخولنا داره وإحسانه إلينا

ولما قصدنا إلى دار السلطان وجدنا بالقرب منها رماحا مراكوزة عن
جانبي الطريق ، وهي علامة على نزول الناس ، فلا يتجاوزها من كان راكبا .
فتزلنا عندها ودخلنا (المشور) ، فوجدنا نائب السلطان ، وهو يسمى عمدة
الملك . فقام إلينا وسلم علينا . وسلامهم بالمصافحة . وقعدنا معه ، وكتب
بطاقة إلى السلطان يعلمه بذلك ، وختمها ودفعها لبعض الفتيان ، فأناه
الجواب على ظهرها . ثم جاء رجل (ببِقْشَة) فأخذها النائب بيده ، وأخذ
بيدي وأدخلني إلى دُورَة ، وهي موضع راحته بالنهار ، فإن العادة أن يأتي
السلطان إلى (المشور) بعد الصبح ، ولا ينصرف إلا بعد العشاء الآخرة .

وكذلك الوزراء والأمراء الكبار . وأخرج من (البُقْشَة) ثلاث فُوط ، إحداها من خالص الحرير ، والأخرى حرير وقطن ، وأخرى حرير وكان . وأخرج ثلاثة أثواب من جنس الفوط . وأخرج ثلاثة من الثياب مختلفة الأجناس ، وأخرج ثلاثة أثواب من (الأرْمَك^(١)) أحدها أبيض . وأخرج ثلاث عمام . فلبست فوطة منها وثوبا من كل جنس . وأخذ أصحابي ما بقي منها . ثم جاءوا بالطعام وأكثره الأرز . ثم أتوا بنوع من الفُقَّاع ، ثم أتوا بالثَّانِبُول ، وهو علامة الانصراف . فأخذناه وقمنا ، وقام النائب لقيامنا . وخرجنا عن (المشور) ، فركبنا وركب النائب معنا ، وأتوا بنا إلى بستان عايه حائط خشب ، وفي وسطه دار بناؤها بالخشب ، مفروشة بقطائف قطن ، منها مصبوغ وغير مصبوغ . وفي البيت أسرة من الخيزران ، فوقها مَضْرَبَات^(٢) من الحرير ، ولُحْفٌ خِفَاف ، ومَحَادٌ . بجلسنا بالدار ومعنا النائب . ثم جاء الأمير دَوْلَسَة بجاريتين وخدامين . وقال لي : يقول لك السلطان : هذه على قدرنا لاعلى قدر السلطان محمد . ثم خرج النائب ، وبقي الأمير دولسة عندي ، وكانت بيني وبينه معرفة ، لأنه كان ورد رسولا على السلطان بدھلي . فقلت له : متى تكون رؤية السلطان ؟ فقال لي : إن العادة عندنا ألا يسلم القادم على السلطان إلا بعد ثلاثة ، ليذهب عنه تعب السفر ويثوب إليه ذهنه .

فأقمنا ثلاثة أيام يأتي إلينا الطعام ثلاث مرات في اليوم ، وتأتينا الفواكه والطَّرَف مساء وصباحا . فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الجمعة أتاني الأمير دَوْلَسَة فقال لي : يكون سلامك على السلطان بمقصورة الجامع

(١) الكنان بلغتهم .

(٢) يظهر أنه يريد بها الحشايا ، جمع حَشِيَّة للفراش المحشو . أما كلمة (المضربات)

لهذا المعنى فغير عربية فما نعلم . وقد سبق في الحواشي مثل هذا التعليق .

بعد الصلاة . فأتمت المسجد وصلت به الجمعة مع حاجبه . ثم دخلت على السلطان ، فوجدت القاضي أمير سيد ، والطلبة عن يمينه وشماله . فصاحفني وسلمت عليه ، وأجلسني عن يساره ، وسألني عن السلطان مجد وعن أسفاري ، فأجبتة . وعاد إلى المذاكرة في الفقه على مذهب الشافعي . ولم يزل كذلك إلى صلاة العصر . فلما صلاها دخل بيتا هنالك ، فترع الثياب التي كانت عليه وهي ثياب الفقهاء . وبها يأتي المسجد يوم الجمعة ماشيا . ثم لبس ثياب الملك ، وهي الأقبية من الحرير والقطن .

ذكر انصرافه إلى داره وترتيب السلام عليه

ولما خرج من المسجد وجد القبيلة والخليل على بابه . والعادة عندهم أنه إذا ركب السلطان الفيل ركب من معه الخيل . وإذا ركب الفرس ركبوا القبيلة ، ويكون أهل العلم عن يمينه . فركب ذلك اليوم على الفيل ، وركبنا الخيل ، وسرنا معه إلى (المشور) ، فترلنا حيث العادة ، ودخل السلطان راكبا ، وقد اصطف في (المشور) الوزراء والأمراء والكتّاب وأرباب الدولة ووجوه العسكر صفوفا . فأول الصفوف صف الوزراء والكتّاب . ووزراؤه أربعة . فسلموا عليه وانصرفوا إلى موضع وقوفهم ، ثم صف الأمراء ، فسلموا ومضوا إلى مواقعهم . وكذلك تفعل كل طائفة . ثم صف الشرفاء والفقهاء ، ثم صف الندماء والحكماء والشعراء ، ثم صف وجوه العسكر ، ثم صف الفتيان والمماليك . ووقف السلطان على فيله إزاء قبة الجلوس ، ورفع فوق رأسه (شَطْر) مرصع . وجعل عن يمينه نجمون فيلا مزينة ، وعن شماله مثلها ، وعن يمينه أيضا مائة فرس ، وعن شماله مثلها . ووقف بين يديه خواص الحجاب . ثم أتى أهل الطرب من الرجال فغنوا بين يديه . وأتى بخيل مجللة بالحرير ، لما خلاخيل ذهب وأرسان حرير من ركشة ، فرقصت الخيل بين يديه ، فعجبت من شأنها . وكنت رأيت مثل ذلك عند ملك الهند . ولما كان عند الغروب دخل السلطان إلى داره ، وانصرف الناس إلى منازلهم .

وكانت إقامتي عنده بسُطْرَة خمسة عشر يوماً . ثم طلبت منه السفر ، إذ كان أوانه ، ولا يتهبأ السفر إلى الصين في كل وقت . فجهز لنا (جُنْكا) وزودنا وأحسن وأجمل . جزاه الله خيرا . وسافرنا بطول بلاه إحدى وعشرين ليلة ، ثم وصلنا إلى مُلْ جَاوَة ، وهي من بلاد الكفار . وطولها مسيرة شهرين . بها الأفاويه العِطْرَة . ولندكر ما شاهدناه منها ، ووقفنا على أعيانه وحققناه .

ذكر اللبان

وشجرة اللبان صغيرة تكون بقدر قامة الإنسان إلى مادون ذلك ، وأغصانها كأغصان (الخرشف)^(١) ، وأوراقها صفار رقاق . وربما سقطت فبقيت الشجرة منها دون ورقة . واللبان صمغية تكون في أغصانها .

ذكر الكافور

وأما شجر الكافور فهي قصب كقصب بلادنا ، إلا أن الأنايب منها أطول وأغلظ . ويكون الكافور في داخل الأنايب . فإذا كسرت القصبية وجد في داخل الأنايب مثل شكله من الكافور .

ذكر العود الهندي

وأما العود الهندي فشجره يشبه شجر البلوط ، إلا أن قشره رقيق . وأوراقه كأوراق البلوط سواء . ولا ثمر له ، وشجرته لاتعظم كل العظم . وعروقه طويلة ممتدة وفيها الرائحة العِطْرَة . وأما عيدان شجرته وورقها فلا عِطْرِيَّة فيها . وكل ما ببلاد المسلمين من شجره فهو ممتلك . وأما الذي في بلاد الكفار فأكثره غير ممتلك . والمتملك منه ما كان بقاقلة^(٢) ، وهو أطيب العود . وكذلك القَمَارِي^(٣) وهو أطيب أنواع العود . وينعونه لأهل الجاوة بالأناوب .

(١) لعله ما يسمى (بالخرشوف) الآن . ولم تقف على كلمة (الخرشف) فيما لدينا من المراجع .

(٢) قال في القاموس : القاقلة ثمر نبات هندي من العطر والأفاويه اه ولعله سمي باسم البلد .

(٣) نسبة إلى قار بلد بالهند مشهور به .

ذِكْرُ الْقَرْنَفَلِ

وأما أشجار القرنفل فهي ضخمة ، وهي ببلاد الكنفار أكثر منها ببلاد الإسلام . وليست بتملكة لكثرتها . والمجلوب إلى بلادنا منها هو العيدان . والذي يسميه أهل بلادنا نور القرنفل هو الذي يسقط من زهره ، وهو شبيه بزهر النَّارَنْج . وثمر القرنفل هو المعروف في بلادنا بجوز الطيب ، رأيت ذلك كله وشاهدته .

ووصلنا إلى مرسى قاقلة ، فوجدنا به جملة من (الجنوك) معدة للسرقه ، ولمن يستعصى عليهم من (الجنوك) ، فإن لهم على كل (جنك) وظيفة . ثم زلنا من (الجنك) إلى مدينة قاقلة ، وهي مدينة حسنة عليها سور من حجارة منحوتة ، عرضه بحيث تسير فيه ثلاثة من الفيلة . وأول ما رأيت بخارجها الفيلة عليها الأحمال من العود الهندى ، يُوقدونه في بيوتهم . وهو بقيمة الحطب عندنا أو أرخص ثمنًا . هذا إذا ابتاعوه فيما بينهم . وأما للتجار فيبيعون الحمل منه بثوب من ثياب القطن ، وهي أعلى عندهم من ثياب الحرير . والفيلة بها كثيرة جدا ، عليها يركبون ويمجلون . وكل إنسان يربط فيلته على بابه . وكل صاحب حانوت يربط فيله عنده ، ويركبه إلى داره . وكذلك جميع أهل الصين والخطا على مثل هذا الترتيب .

ذِكْرُ سُلْطَانِ مَلِّ جَاوَةِ

وهو كافر رأته خارج قصره جالسا على قبة ، وليس بينه وبين الأرض بساط . ومعه ارباب دولته . والعساكر يعرضون عليه مشاة . ولاخيل هنالك إلا عند السلطان . وإنما يركبون الفيلة وعليها يقاتلون . فعرف شأنى فاستدعانى ، فحُتت وقلت : السلام على من اتبع الهدى . فلم يفقهوا إلا لفظ السلام .

فرحَّب بي ، وأمر أن يفرش لي ثوب أقعد عليه . فقلت للترجمان : كيف
أجلس على الثوب والسلطان قاعد على الأرض؟ فقال : هكذا عادته يقعد على
الأرض تواضعا ، وأنت ضيف وجئت من سلطان كبير ، فيجب إكرامك .
بجِلست ، وسألني عن السلطان فأوجز في سؤاله . وقال لي : تقيم عندنا
في الضيافة ثلاثة أيام ، وحينئذ يكون انصرافك .

ذكر عجيبة رأيها بمجلسه

ورأيت في مجلس هذا السلطان رجلا بيده سكين ، قد وضعه على رقبة
نفسه ، وتكلم بكلام كثير لم أفهمه ، ثم أمسك السكين بيديه معا ، وقطع عنق
نفسه ، فوقع رأسه لحدّة السكين ، وشدة إمساكه بالأرض . فعجبت من
شأنه . وقال لي السلطان : أيفعل أحد هذا عندكم؟ فقلت له : ما رأيت هذا
قط . فضحك وقال : هؤلاء عبيدنا يقتلون أنفسهم في محبتنا . وأمر به فرقع
وأحرق . وخرج لإحراقه النواب وأرباب الدولة والعساكر والرايا ! وأجرى
الرزق الواسع على أولاده وأهله وإخوانه ، وعُظِّموا لأجل فعله . وأخبرني
من كان حاضرا في ذلك المجلس أن الكلام الذي تكلم به كان تقريرا لمحبتة
للسلطان ، وأنه يقتل نفسه في حبه ، كما قتل أبوه نفسه في حب أبيه ،
وجده نفسه في حب جده . ثم انصرفت عن المجلس ، وبعث إلى بضيافة
ثلاثة أيام .

وسافرنا في البحر فوصلنا بعد أربعة وثلاثين يوما إلى البحر الكاهل (١)
وهو الراكد . ولا ريح فيه ولا موج ولا حركة مع اتساعه . ولأجل هذا
البحر تتبع كل (جنك) من (جنوك) الصين ثلاثة مراكب كما ذكرناه ، تجذف

(١) ليس في كتب اللغة التي بين أيدينا أن الكاهل يكون بمعنى الراكد .

به فتجره. ويكون في (الجنك) مع ذلك نحو عشرين مجذافا كجارا كالصواري ،
يجتمع على المجذاف منها ثلاثون رجلا أو نحوهم ، ويقومون قياما صفيين ،
كل صف يقابل الآخر . وفي المجذاف حبلان عظيمان ، فتجذف إحدى
الطائفتين الحبل ثم تتركه ، وتجذف الطائفة الأخرى ، وهم يغنون عند
ذلك بأصواتهم الحسان .

وأقنا على ظهر هذا البحر سبعة وثلاثين يوما ، وعجبت البحرية من
التسهيل فيه ، فإنهم يقيمون فيه خمسين يوما إلى أربعين ، وهي أنهي
ما يكون من التيسير عليهم . ثم وصلنا إلى بلاد طوالسي (١) ، وهي بلاد
عريضة ، وملكها يضاهاى ملك الصين ، وله الجنوك الكثيرة ، يقاتل
بها أهل الصين ، حتى يصالحوه على شيء . وأهل هذه البلاد عبدة
أوثان ، حسان الصور ، أشبه الناس بالترك في صورهم . والغالب على
ألوانهم الحجر ، ولهم شجاعة ونجدة . ونسأؤهم يركب الخيل ، ويحسن الرماية ،
ويقاتلن كالرجال سواء . وأرسينا من مراسيمهم بمدينة كيلوكرى ، وهي من
أحسن مدنهم وأكبرها . وكان يسكن بها ابن ملكهم . فلما أرسينا بالمرسى
جاءت عساكرهم ، ونزل (الناخذة) إليهم ومعه هدية لابن الملك ، فسألهم
عنه فأخبروه أن أباه ولاء بلدا غيرهم ، وولى بنته بتلك المدينة واسمها أردجا .

ذكر هذه الملكة

ولما كان اليوم الثانى من حلولنا بمرسى كيلوكرى ، استدعت هذه الملكة
(الناخذة) صاحب المركب ، والكاتب والتجار والرؤساء ، ومقدم الرجال ومقدم
الرماة ، لضيافة صنعتها لهم على عاداتها . ورغب (الناخذة) منى أن أحضر

(١) طوالسى هو اسم ملك هذه البلاد .

معهم ، فأبيت لأنهم كفار لا يجوز أكل طعامهم . فلما حضروا عندها قالت لهم : هل بقي أحد منكم لم يحضر؟ فقال لها (الناخذة) : لم يبق إلا رجل واحد وهو القاضي ، وهو لا يأكل طعامكم . فقالت ادعوه ، بغاء جنادرتها^(١) وأصحاب (الناخذة) ، فقالوا : أجب الملكة . فأتيها وهي يجلسها الأعمى ، وبين يديها نسوة ، وحوطها النساء القواعد ، وهن وزيراتها . وقد جلسن تحت السرير على كراسي الصندل ، وبين يديها الرجال .

وجلسها مفروش بالحرير ، وعليه ستور حرير ، وخشبه من الصندل ، وعليه صفائح الذهب . وبالمجلس مصاطب خشب منقوش ، عليها أواني ذهب كثيرة ، من كبار وصغار كالخوابي والقلال ، أخبرني (الناخذة) أنها مملوءة بشراب مصنوع من السكر ، مخلوط بالأفاويه ، يشربونه بعد الطعام ، وأنه عطر الرائحة ، حلوا المطعم ، يفرح ويهضم . فلما سامت على الملكة قالت لي بالتركية : كيف حالك ، كيف أنت ؟ وأجلستني على قرب منها ، وكانت تحسن الكتاب العربي . فقالت لبعض خدامها : الدواة والكاغد . فأني بذلك ، فكتبت فيه : بسم الله الرحمن الرحيم . فقالت : ما هذا ؟ فقلت لها : اسم الله . فقالت : جيد . ثم سألتني من أي البلاد قدمت ؟ فقلت لها : من بلاد الهند ، فقالت : بلاد الفلفل ؟ فقلت نعم . فسألتني عن تلك البلاد وأخبارها ، فأجبتها . فقالت : لا بد أن أغزوها وأخذها لنفسى ، فإنى يعجبني كثرة مالها وعساكرها . فقلت لها : افعلى . وأمرت لي بأثواب وحمل فيلين من الأرز ، وبجواموستين وعشرة من الضأن ، وأربعة أرطال جلاب ، وأربعة (مرطبانات) ، وهي أوان ضخمة مملوءة بالزنجبيل والفلفل والليمون والعنبا^(٢) ، كل ذلك مملوح مما يعد للبحر .

(١) يريد أعوانها . والكلمة غير عربية .

(٢) المنجو ، كما سبق . والعنبا غير عربية . وقد رسمها ابن بطوطة تارة بالألف وتارة بالهاء . راجع ص ١٥ .

وأخبرني (الناخُدة) أن هذه الملكة لها في عسكرها نسوة وخوادم وجوار
يقاتلن كالرجال ، وأنها تخرج في العساكر من رجال ونساء ، فتغير على عدوها ،
وتشاهد القتال وتبارز الأبطال . وأخبرني أنها وقع بينها وبين بعض أعدائها
قتال شديد ، وقُتل كثير من عسكرها وكادوا ينهزمون ، فدفعت بنفسها ،
وخرقت الجيوش ، حتى وصلت إلى الملك الذي كانت تقاتله ، فطعته
طعنة كان فيها حَتْفُه ، فمات وانهمزت عساكره ، وجاءت برأسه على رمح ،
فافتكَّه أهله منها بمال كثير . فلما عادت إلى أيها ملكها تلك المدينة التي
كانت بيد أخيها . وأخبرني أن أبناء الملوك يخطبونها فتقول : لا أتزوج إلا من
يبارزني فيغلبني ، فيتحامون مبارزتها خوف المعرة إن غلبتهم .

ثم سافرنا عن بلاد طَوَّالسي فوصلنا بعد سبعة عشر يوما والريح مساعدة
لنا ، ونحن نسير بها أشد السير وأحسنه ، إلى بلاد الصين .

وإقليم الصين متسع كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة ،
لا يضاهيه في ذلك إقليم من أقاليم الأرض . ويخترقه النهر المعروف
(بأب حياة) ومعنى ذلك ماء الحياة . ومنبعه من جبال تسمى (كوه بوزنة) ،
ومعناه جبل القروود . ويمر في وسط الصين مسيرة ستة أشهر ، إلى أن ينتهي
إلى صين الصين . وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنييل مصر ،
إلا أن هذا أكثر عمارة . وعليه النواير الكثيرة . وبلاد الصين السكر
الكثير ، مما يضاهي المصري بل يفُضُّله ، والأعشاب والإجاص . وكنت
أظن أن الإجاص العثماني الذي بدمشق لا نظيره ، حتى رأيت الإجاص
الذي بالصين . وبها البطيخ العجيب يشبه بطيخ خُوَارزَم وأصفهان . وكل
ما ببلادنا من الفواكه فإن بها ما هو مثله وأحسن منه . والقمح بها كثير
جدا . ولم أرقمحا أطيب منه . وكذلك العَدَس والحِمْص .

ذِكْرُ الْفَخَّارِ الصِّينِيِّ

وأما الفخار الصينيّ فلا يصنع منها إلا بمدينة الزيتون، وبصين كلان . وهو من تراب جبال هنالك ، تقد فيه النار كالفتح . وسند كر ذلك . ويضيفون إليه حجارة عندهم ، ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام ، ثم يصبون عليها الماء ، فيعود الجميع ترابا ، ثم يُجَمَّرُونَهُ . فالجيد منه ما نُحْمِرُ شَهْرًا كاملا . ولا يزداد على ذلك . والدون ما نحر عشرة أيام . وهو هنالك بقيمة الفخار ببلادنا أو أرخص ثمنا . ويحمل إلى الهند وسائر الأقاليم ، حتى يصل إلى بلادنا بالمغرب ، وهو أبداع أنواع الفخار .

ذِكْرُ دَجَاجِ الصِّينِ

ودجاج الصين وديوكها ضخمة جدا ، أضخم من الإوز عندنا . وبيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الإوز عندنا . وأما الإوز عندهم فلا ضخامة لها . ولقد اشترينا دجاجة فأردنا طبخها ، فلم يسع لحمها برمة واحدة ، بفعلناها في برمتين . ويكون الديك بها على قدر النعامة . وأول ما رأيت الديك الصيني بمدينة كوكم فظننته نعامة ، وعجبت منه : فقال لي صاحبه : إن بلاد الصين ما هو أعظم منه . فلما وصلت إلى الصين رأيت مصداق ما أخبرني به من ذلك .

ذِكْرُ بَعْضِ مِنْ أَحْوَالِ أَهْلِ الصِّينِ

وأهل الصين كفار يعبدون الأصنام ، ويُحْرِقُونَ مَوْتَاهُمْ كَمَا تَفْعَلُ الْهِنُودُ . وملك الصين تترى من ذرية تنكينخان . وفي كل مدينة من مدن الصين

مدينة للساميين ينفردون فيها بسكاهم . ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعيات وسواها . وهم معظمون محترمون . وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ، ويبيعونها في أسواقهم . وهم أهل رفاهية وسعة عيش ، إلا أنهم لا يحتفلون بمطعم ولا ملابس . وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تحصى أمواله كثرة وعليه جبة قطن خشنة . وجميع أهل الصين إنما يحتفلون بأواني الذهب والفضة . ولكل واحد منهم عمكاز يعتمد عليه في المشى . والحريير عندهم كثير جدا ، لأن الدود تتعلق بالثمار وتأكل منها ، فلا تحتاج إلى كثير مؤنة . ولذلك كثر . وهو لباس الفقراء والمساكين بها . ولولا التجار لما كانت له قيمة . ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير . وعادتهم أن يسيك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعا ، تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه . ويجعل ذلك على باب داره . ومن كان له خمس قطع منها جعل في أصبعه خاتما ، ومن كانت له عشر جعل خاتمين ، ومن كان له خمس عشرة سموه (السي) ، وهو بمعنى الكارمي^(١) بمصر .

ذكر دراهم الكاغد^(٢) التي يبيعون ويشترون

وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم . وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسيكونه قطعا كما ذكرناه . وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد ، كل قطعة منها بقدر الكف ، مطبوعة بطابع السلطان . وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا ، فأخذ عوضها جُدا ودفع تلك .

(١) فئة من أغنياء التجار في ذلك العهد ، والكلمة غير عربية .

(٢) من ذلك يظهر أن الصينيين أول من استعمل ورق النقد في العالم .

ولا يعطى على ذلك أجرة ولا سواها . لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قِبَل السطان . وقد وُكِّل بتلك الدار أميرٌ من كبار الأمراء . وإذا مضى الإنسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شيء ، لم يؤخذ منه ولا يلتفت إليه .

ذكر التراب الذى يوقدونه مكان الفحم

وجميع أهل الصين والخطأ إنما ختمهم تراب عندهم منعة كالطفل عندنا . ولونه لون الطفل ، تأتى القبيلة بالأحمال منه ، فيقطعونه قطعاً على قدر قطع الفحم عندنا ، ويشعلون النار فيه فيقَد كالفحم . وهو أشد حرارة من نار الفحم . وإذا صار رماداً عجنوه بالماء ويَسوه وطبخوا به ثانية . ولا يزالون يفعلون به كذلك إلى أن ينتهى . ومن هذا التراب يصنعون أواني الفخار الصينى ، ويضيفون إليه حجارة سواه كما ذكرناه .

ذكر ما خُصوا به من إحصاءات الصناعات

وأهل الصين أعظم الأمم إحصاءاً للصناعات وأشدهم إتقاناً لها ، وذلك مشهور من حالهم ، قد وصفه الناس فى تصانيفهم فأطنبوا فيه . وأما التصوير فلا يجارىهم أحد فى إحصاءه من الروم ولا من سواهم ، فإن لهم فيه اقتداراً عظيماً . ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك ، أنى ما دخلت قط مدينة من مدنها ثم عدت إليها إلا ورأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى الحيطان والكواغد ، موضوعة فى الأسواق . ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فررت على سوق النقاشين ، ووصلت إلى قصر السلطان مع أصحابى ، ونحن على زىِّ العراقيين ، فلما عدت من القصر عشيّاً مررت بالسوق المذكورة ، فرأيت

صورتى وصور أصحابى منقوشة فى كأغد قد ألقىوه بالخائط ، فجعل كل واحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا تخطئ شيئا من شبهه . وذكروا أن السلطان أمرهم بذلك ، وأنهم أتوا إلى القصر ونحن به ، فجعلوا ينظرون إلينا ويصورون صورنا ، ونحن لم نشعر بذلك . وتلك عادة لهم فى تصوير كل من يمر بهم . وتتهى حالهم فى ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم ، بعثوا صورته إلى البلاد ويبحث عنه ، فحيثا وجد شبه تلك الصورة أخذ^(١) . قال ابن جزي : هذا مثل ما حكاه أهل التاريخ من قصة سابور ذى الأكتاف ملك الفرس ، حين دخل بلاد الروم متنكرا ، وحضر وليمة صنعها ملكهم ، وكانت صورته على بعض الأواني ، فنظر إليها بعض خدام قيصر ، فانطبقت على صورة سابور . فقال ملكه : إن هذه الصورة تخبرنى أن كسرى معنا فى هذا المجلس . فكان الأمر على ما قاله . وجرى فيه ما هو مسطور فى الكتب .

ذكر عاداتهم فى تقييد ما فى المراكب

وعادة أهل الصين إذا أراد (جنك) من (جنوكهم) السفر ، أن يصعد إليه صاحب البحر وكتابه ، ويكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدام والبحرية . وحينئذ يباح لهم السفر . فإذا عاد (الجنك) إلى الصين صعدوا إليه أيضا ، وقابلوا ما كتبوه بأشخاص الناس . فإن فقدوا أحدا ممن قيده طالبوا صاحب (الجنك) به ، فإما أن يأتى ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك مما يحدث له ، وإلا أخذ فيه . فإذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يملى عليهم

(١) هذا مثل ما يعمل فى أرق البلاد تمدينا الآن .

تفصيلاً بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها . ثم ينزل من فيه ، ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم . فإن عثروا على سلعة قد كُتبت عنهم عاد (الجنك) بجميع ما فيه مالا للخزن . وذلك نوع من الظلم ما رأيتُه ببلاذ من بلاد الكفار ولا المسلمين إلا بالصين . اللهم إلا أنه كان بالهند ما يقرب منه : وهو أن من عثر على سلعة له قد غاب ^(١) على مغرمها أغرم أحد عشر مغرمًا . ثم رفع السلطان ذلك لما رفع المغارم .

ذكر عادتهم في منع التجار عن الفساد

وإذا قدم التاجر المسلم على بلد من بلاد الصين ، خير في النزول عند تاجر من المسلمين المتوطنين معين ، أو في الفندق . فإن أحب النزول عند التاجر ، حصر ماله وضمته التاجر المستوطن ، وأنفق عليه منه بالمعروف . فإذا أراد السفر بحث عن ماله ، فإن وجد شيء منه قد ضاع أغرمه التاجر المستوطن الذي ضمنه . وإن أراد النزول بالفندق سلم ماله لصاحب الفندق وضمته . وهو يشتري له ما أحب ويحاسبه . وأما إنفاق ماله في الفساد فشيء لا سبيل له إليه . ويقولون : لا نريد أن نسمع في بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم في بلادنا .

(١) يريد : سبب في ألا يؤخذ عليها مغرم . وهو تعبير غريب .

ذكر حفظهم للمسافرين في الطريق

وبلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالاً للمسافرين ، فان الإنسان يسافر منفرداً مسيرة تسعة أشهر ، وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها . وترتيب ذلك أن لهم في كل منزل ببلادهم فُنْدُقًا ، عليه حاكم يسكن به في جماعة من الفُرسان والرجال . فإذا كان بعد المغرب أو العشاء الآخرة ، جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه ، فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين ، وختم عليها وأقفل باب الفندق عليهم . فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه ، فدعا كل إنسان باسمه ، وكتب بها تفسيراً ، وبعث معهم من يوصلهم إلى المنزل التالي له ، ويأتيه ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا إليه . وإن لم يفعل طالبه بهم . وهكذا العمل في كل منزل ببلادهم ، من الصين الصين إلى خان باليق (١) . وفي هذه الفنادق جميع ما يحتاج إليه المسافر من الأزواد ، وخصوصاً الدجاج والأوز . أما الغنم فهي قليلة عندهم .

ولنعد إلى ذكر سفرنا فنقول : لما قطعنا البحر كانت أول مدينة وصلنا إليها مدينة الزيتون . وهذه المدينة ليس بها زيتون ولا بجميع بلاد الصين والهند . ولكنه اسم وضع عليها . وهي مدينة عظيمة كبيرة ، تصنع بها ثياب الكُمخا (٢) والأطلس ، وتعرف بالنسبة إليها . ومرساها من أعظم مرامى الدنيا أو هو أعظمها ، رأيت به نحو مائة (جُنْك) كبار . وأما الصغار فلا تحصى كثرة . وهو خور كبير من البحر يدخل في البر حتى يختلط بالنهر الأعظم . وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للإنسان بها البستان والأرض ، وداره في وسطها ، كمثل ما في بلدة سيجلماسة (٣) ببلادنا . وبهذا عظمت بلادهم .

(١) بكين كما سبق .

(٢) سبق تفسيرها في الحواشي .

(٣) مدينة في جنوب المغرب في طرف بلاد السودان اه باقوت ، وستربك فيما بعد .

والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة . وفي يوم وصولى إليها رأيت بها الأمير الذى توجه إلى الهند رسولا بالهدية ، ومضى فى صحبتنا وعَرِقَ به (الجُنْك) . فسلم علىّ وعَرَفَ صاحب الديوان بي ، فأتزنى فى منزل حسن ، وجاء إلى قاضى المسلمين تاج الدين الأَرَدَوِيلِيّ ، وهو من الأفاضل الكرماء ، وشيخ الإسلام كمال الدين عبد الله الأصفهانيّ . وهو من الصلحاء . وجاء إلى كبار التجار، وفيهم شرف الدين التبريزيّ ، أحد التجار الذين استندت منهم حين قدومى على الهند ، وأحسنهم معاملة ، حافظ القرآن مكثرا للتلاوة . وهؤلاء التجار لسكّانهم فى بلاد الكفار إذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح ، وقالوا : جاء من أرض الإسلام . وهم يعطونه زكاة أموالهم ، فيعود غنيا كواحد منهم .

وكان بها من المشايخ الفضلاء برهان الدين الكآزرونى ، وله زاوية فى خارج البلد ، وإليه يدفع التجار النذور التى يَنْدُرُونَهَا^(١) للشيخ أبى اسحق الكآزرونى . ولما عرف صاحب الديوان أخبارى ، كتب إلى (القان) وهو ملكهم الأعظم ، يخبره بقدومى من جهة ملك الهند . فطلبت منه أن يبعث معى من يوصلنى إلى بلاد الصين (صين الصين) . وهم يسمونها صين كآان ، لأشاهد تلك البلاد . وهى فى عمالته ، بخلال^(٢) ما يعود جواب القان ، فأجاب إلى ذلك . وبعث معى من أصحابه من يوصلنى . وركبت النهر فى مركب يشبه (أجفان) بلادنا الغزوية ، إلا أن الجذافين يَجِدِفُونَ فيه قياما ، وجميعهم فى وسط المركب ، والركاب فى المقدم والمؤخر . ويظلمون على المركب ثيابا تصنع من نبات ببلادهم يشبه الكآان وليس به . وهو أرق من القنب . وسافرنا فى هذا النهر سبعة وعشرين يوما . وفى كل يوم نرسو عند الزوال بقريّة

(١) النذر لغير الله حرام . وقد ورد هذا فى هذا الكتاب فى غير ما موضع ، ونهينا عليه .

(٢) يقصد ريشا يعود ، كما سبق مثل هذا التعبير ، وهو غريب .

نشتري بها ما نحتاج إليه ونصلي الظهر . ثم نزل بالعشي إلى أخرى هكذا ، إلى أن وصلنا إلى مدينة صين كلان ، وهي مدينة صين الصين . وبها يصنع الفخار ، وبالزيتون أيضا . وهناك يصب نهر (آب حياة) في البحر . ويسمونه مجمع البحرين . وهي من أكبر المدن وأحسنها أسواقا . ومن أعظم أسواقها سوق الفخار ، ومنها يحمل إلى سائر بلاد الصين وإلى الهند واليمن . وفي وسط هذه المدينة كنيسة عظيمة لها تسعة أبواب ، في داخل كل باب (أسطوان) ومصاطب يقعد عليها الساكنون بها . وبين البابين الثاني والثالث منها موضع فيه بيوت يسكنها العميان وأهل الزمانات^(١) . ولكل واحد منهم نفقته وكسوته من أوقاف الكنيسة . وكذلك فيما بين الأبواب كلها . وفي داخلها المارستان^(٢) للمرضى ، والمطبخة^(٣) لطبخ الأغذية . وفيها الأطباء والخدام . وذكري أن الشيوخ الذين لا قدرة لهم على التكسب لهم نفقتهم وكسوتهم بهذه الكنيسة ، وكذلك الأيتام والأرامل ممن لاحتل^(٤) لهم . وعمر هذه الكنيسة بعض ملوكهم ، وجعل هذه المدينة وما وليها من القرى والبساتين وقفًا عليها . وصورة ذلك الملك مصورة بالكنيسة . وهم يعبدونها . وفي بعض جهات هذه المدينة بلدة المسلمين ، ولهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق . ولهم قاض وشيخ . ولا بد في كل بلد من بلاد الصين من شيخ الإسلام ، تكون أمور المسلمين كلها راجعة إليه ، وقاض

(١) جمع زمانة وهي العاعة .

(٢) دار المرضى ، معرب .

(٣) سبق التنبيه على أن الصحيح مطبخ لا مطبخة .

(٤) يعني الفقراء . وهو تعبير غريب .

يقضى بينهم . وكان نزولى عند أوحد الدين السنجارى ^(١) ، وهو أحد الفضلاء الأكابر ، ذوالأموال الطائلة . وأقيمت عنده أربعة عشر يوما ، وتُخفَّ القاضي وسائر المسلمين تتوالى على . وكل يوم يصنعون دعوة جديدة ويأتون إليها بالمغنين . وليس وراء هذه المدينة مدينة لا للكيفار ولا للمسلمين .

حكاية عجيبة ^(٢)

ولما كنت بصين كلآن سمعت أن بها شيخا كبيرا قد أناف على مائتي سنة ، وأنه لا يأكل ولا يشرب ولا يُحَدِّث ، مع قوته التامة ، وأنه ساكن في دار بخارجها يتعبد فيه . فتوجهت إلى الغار فرأيتَه على بابِه . وهو نحيف شديد الحمرة ، عليه أثر العبادة ، ولا حلية له . فسألت عليه ، فأمسك يدي وشمها . وقال للترجمان : هذا من طرف الدنيا كما نحن من طرفها الآخر . ثم قال لى : لقد رأيت عجيبا ، أتذكر يوم قدومك الجزيرة التي فيها الكنيسة والرجل الذي كان جالسا بين الأصنام ، وقد أعطاك عشرة دنانير من الذهب ؟ فقلت نعم . فقال : أنا هو ! فقبلت يده . وفكر ساعة . ثم دخل الغار فلم يخرج إلينا . وكأنه ظهر منه الندم على ما تكلم به ، فهَجَمْنَا ودخلنا الغار عليه فلم نجده ، ووجدنا بعض أصحابه ومعه جملة بوالشت ^(٣) من الكاغد فقال : هذه ضيافتكم فانصرفوا . فقلنا له : نتظر الرجل . فقال : لو أقمتم عشر سنين لم تروه . فإن عادته إذا اطلع أحد على سر من أسراره ألا يراه بعده . ولا تحسب أنه غاب عنك ، بل هو حاضر معك . فعجبت من ذلك وانصرفت ، فأعلمت القاضي وشيخ الإسلام وأوحد الدين السنجارى بقضيته . فقالوا : كذلك عادته مع من يأتي إليه من الغرباء . ولا يعلم أحد ما ينتحله من الأديان .

(١) نسبة إلى سنجار ، بلد مشهور على ثلاثة أيام من الموصل . قاموس .

(٢) في هذه الحكاية أخبار لا يسهل تصديقها .

(٣) رُقْع من الكاغد يتعامل بها كالنقد ، غير عربية .

والذى ظننتموه أحد أصحابه هو هو . وأخبرونى أنه كان غاب عن هذه البلاد نحو خمسين سنة ، ثم قدم عليها منذ سنة . وكان السلاطين والأمراء والكبراء يأتونه زائرين فيعطيهم التحف على أقدارهم . ويأتيه الفقراء كل يوم ، فيعطى كل أحد على قدره . وليس فى الغار الذى هو به ما يقع عليه البصر . وإنه يحدث عن السنين الماضية . ويذكر النبى صلى الله عليه وسلم ويقول : لو كنت معه لنصرته ، ويذكر الخليفتين عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب بأحسن الذكر ، ويثنى عليهما . ويلعن يزيد بن معاوية . ويقع (١) فى معاوية . وحدثونى عنه بأمر كثيرة . وأخبرنى أوحى الدين السنجارى قال : دخلت عليه بالغار فأخذ بيدي ، فحبل لى أنى فى قصر عظيم ، وأنه قاعد فيه على سرير وفوق رأسه تاج ، وعن جانبيه الوصائف الحسان ، والفواكه تتساقط فى أنهار هنالك . وتخيلى أنى أخذت تفاحة لآكلها ، فإذا أنا بالغار بين يديه وهو يضحك منى . وأصابنى مرض شديد لازمنى شهورا فلم أعد إليه . وأهل تلك البلاد يعتقدون أنه مسلم ، لكن لم يره أحد يصلى . وأما الصيام فهو صائم أبدا . وقال لى القاضى : ذكرت له الصلاة فى بعض الأيام فقال لى : أتدرى أنت ما أصنع ؟ إن صلاتى غير صلاتك . وأخبره كلها غريبة .

وفى اليوم الثانى من لقائه سافرت راجعا إلى مدينة الزيتون . وبعد وصولى إليها بأيام جاء أمر القان بوصولى إلى حضرته ، على البر والكرامة ، إن شئت فى النهر وإلا فى البر . فاخترت السفر فى النهر ، فجهزوا لى مرجا حسنا من المراكب المعدة لركوب الأمراء . وبعث الأمير معنا أصحابه . ووجه لنا الأمير والقاضى والتجار المسلمون أزوادا كثيرة . وسرنا فى الضيافة تتغدى بقرية وتتعشى بأخرى . فوصلنا بعد سفر عشرة أيام إلى مدينة قَنْجَنْقُو ، مدينة كبيرة حسنة فى بسط أَفْجَح ، والبساتين محدقة بها . فكأنها غُوطَة (٢) دمشق .

(١) يذمه .

(٢) إحدى جنان الدنيا الأربع . وكانت من أنزه بلاد الله وأحسنها منظرا .

وعند وصولنا خرج إلينا القاضى وشيخ الإسلام والتجار ، ومعهم الأعلام والطبول والأبواق (والأنقار) وأهل الطرب. وأتوا بالخليل فركبنا ، ومشوا بين أيدينا ، ولم يركب معنا غير القاضى والشيخ . وخرج أمير البلد وخدامه . وضيف السلطان عندهم معظم أشد التعظيم . ودخلنا المدينة ، ولها أربعة أسوار . يسكن ما بين السور الأول والثانى عبيد السلطان من حراس المدينة وشمّارها^(١) . ويسكن ما بين السور الثانى والثالث الجنود المُرْكَبون^(٢) والأمير الحاكم على البلد . ويسكن فى داخل السور الثالث المسلمون . وهناك نزلنا عند شيخهم ظهير الدين القُرْلانى . ويسكن فى داخل السور الرابع الصينيون . وهو أعظم المدن الأربع . ومقدار ما بين كل باب منها والذى يليه ثلاثة أميال وأربعة . ولكل إنسان كما ذكرناه بستانه وداره وأرضه .

حكاية

وبينا أنا يوما فى دار ظهير الدين القُرْلانى ، إذ بمركب عظيم لبعض الفقهاء المعظمين عندهم ، فاستؤذن له على ، وقالوا : مولانا قوام الدين السبّتى ، فعجبت من اسمه ، ودخل على . فلما حصلت المؤانسة بعد السلام ، سرح لى أنى أعرفه . فأطلت النظر إليه . فقال : أراك تنظر لى نظر من يعرفنى . فقلت له : من أى البلاد أنت ؟ فقال : من سبّته . فقلت له : وأنا من طنجة . بخدّد السلام على ، وبكى حتى بكيت لبكائه . فقلت له : هل دخلت بلاد الهند ؟ فقال لى : نعم دخلت حضرة دهلى . فلما قال لى ذلك تذكرته ، وقلت : أنت البُشرى ؟ قال نعم . وكان وصل إلى دهلى مع خاله أبى قاسم المُرْسبى . وهو يومئذ شاب لا نبات بعارضيه ، من حذاق الطلبة ، يحفظ الموطأ^(٣) .

(١) حُرّاس الليل ، تسمية اصطلاحية .

(٢) يظهر أنه يريد الركبان .

(٣) كتاب الإمام مالك فى الفقه .

وكننت أعلمت سلطان الهند بأمره فأعطاء ثلاثة آلاف دينار . وطلب منه الإقامة عنده فأبى . وكان قصده بلاد الصين . فعظم شأنه بها واكتسب الأموال الطائلة . أخبرنى أن له نحو خمسين غلاما ومثلهم من الجوارى . ولقيت أخاه بعد ذلك ببلاد السودان . وكانت إقامتى يقنجنفو خمسة عشر يوما . وسافرت منها .

وببلاد الصين على ما فيها من الحسن لم تكن تعجبى ، بل كان خاطرى شديد التغير بسبب غلبة الكفر عليها ، فمضى خرجت عن منزلى رأيت المناكير^(١) الكثيرة . فأقلقنى ذلك ، حتى كنت ألزم المنزل فلا أخرج إلا للضرورة . وكننت إذا رأيت المسلمين بها فكأنى لقيت أهلى وأقاربى . ومن تمام فضيلة هذا الفقيه البشيرى أن سافر معى لما رحلت عن قنجنفو أربعة أيام ، حتى وصلت إلى مدينة بيوم قطلو ، مدينة صغيرة يسكنها الصينيون من جند وسوقة . وليس بها للمسلمين إلا أربع من الدور ، أهلها من جهة هذا الفقيه ، نزلنا بدار أحدهم وأقمنا عنده ثلاثة أيام .

ثم ودعت الفقيه وانصرفت ، فركبت النهر على العادة ، نتغدى بقرية وتتعشى بأخرى ، إلى أن وصلنا بعد سبعة عشر يوما منها إلى الخنسا . واسمها على نحو اسم الخنساء الشاعرة . ولا أدرى أعربى هو أم وافق العربى . وهذه المدينة أكبر مدينة رأيتها على وجه الأرض . طولها مسيرة ثلاثة أيام . يرحل المسافر فيها وينزل ، وهى على ما ذكرناه من ترتيب عمارة الصين : كل أحد له بستانه وداره . وهى منقسمة ست مدن سنذكرها . وعند وصولنا إليها خرج إلينا قاضيا نجر الدين ، وشيخ الإسلام بها ، وأولاد عثمان بن عفان المصرى . وهم كبراء المسلمين بها . ومعهم علم أبيض والأطبال (والأنقار) والأبواق .

(١) المعاصى والمفاسد .

وخرج أميرها في موكبه . ودخلنا المدينة . وهي ست مدن على كل مدينة سور ،
ويُحدِّق بالجميع سور واحد .

فأول مدينة منها يسكنها حراس المدينة وأميرهم . حدثني القاضي وسواه
أنهم اثنا عشر ألفا في زمام العسكرية . وبتنا ليلة دخولنا في دار أميرهم .
وفي اليوم الثاني دخلنا المدينة الثانية على باب يعرف بباب اليهود . ويسكن
بها اليهود والنصارى ، والترك عبدة الشمس ، وهم كثير . وأمير هذه
المدينة من أهل الصين . وبتنا عنده الليلة الثانية . وفي اليوم الثالث دخلنا
المدينة الثالثة ، ويسكنها المسلمون . ومديتهم حسنة وأسواقهم مرتبة
كترتها في بلاد الإسلام . وبها المساجد والمؤذنون ، سمعناهم يؤذنون بالظهر
عند دخولنا . ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عفان المصرى ، وكان أحد
التجار الكبار . وقد استحسن هذه المدينة فاستوطنها وعُرفت بالنسبة إليه .
وأورث عقبه بها الجاه والحُرمة . وهم على ما كان عليه أبوهم من الإيثار
للفقراء والإذانة للحتاجين . ولهم زاوية تعرف بالعثمانية ، حسنة العمارة لها
أوقاف كثيرة ، وبها طائفة من الصوفية . وبني عثمان المسجد
الجامع بهذه المدينة ، ووقف عليه وعلى الزاوية أوقافا عظيمة . وعدد
المسلمين بهذه المدينة كثير . وكانت إقامتنا عندهم خمسة عشر يوما . فكنا
كل يوم وليلة في دعوة جديدة ، ولا يزالون يحتفلون في أطعمتهم ، ويركبون
معنا كل يوم للترهة في أقطار المدينة . وركبوا معي يوما ، فدخلنا المدينة
الرابعة ، وهي دار الإمارة . وبها سكنى الأمير الكبير قُرطى . ولما دخلنا
من بابها ذهب عنى أصحابى ولقبنى الوزير ، وذهب بى إلى دار الأمير الكبير
قُرطى ، فكان من أخذِهِ الفرجية التى أعطانيها ولّى الله جلال الدين الشيرازى
ما قد ذكرته .

وهذه المدينة منفردة لسكنى عبيد السلطان وخدامه . وهي من أحسن المدن الست . ويشقها أنهار ثلاثة : أحدها خليج يخرج من النهر الأعظم . وتأتي فيه القوارب الصغار إلى هذه المدينة بالمرافق من الطعام وأحجار الوقد . وفيه السفن للترهة . (والمشور)^(١) في وسط هذه المدينة ، وهو كبير جدا ، ودار الإمارة في وسطه ، وهو يحف بها من جميع الجهات . وفيه سقائف فيها الصناعات يصنعون الثياب النفيسة وآلات الحرب . أخبرني الأمير قُرطى أن عددهم ألف وستمئة معلم ، كل واحد منهم يتبعه الثلاثة والأربعة من المتعلمين . وهم أجمعون عبيد القان ، وفي أرجلهم القيود . ومساكنهم في خارج القصر . ويباح لهم الخروج إلى أسواق المدينة دون الخروج من بابها . ويعرضون كل يوم على الأمير ، مائة مائة . فإن نقص أحدهم طوّل به أميره . وعادتهم أنه إذا خدم أحدهم عشر سنين فكّ عنه قيده . وكان يخير في النظرين : إما أن يقيم في الخدمة غير مقيد ، وإما أن يسير حيث شاء من بلاد القان ، ولا يخرج عنها . وإذا بلغت سنه خمسين عاما أعتق من الأشغال وأنفق عليه . وكذلك يتفق على من بلغ هذه السن أو نحوها من سواهم . ومن بلغ ستين سنة عدوه كالصبي ، فلم تجر عليه الأحكام . والشيوخ بالصين يعظمون تعظيما كثيرا . ويسمى أحدهم (آطا) ومعناه الوالد .

ذكر الأمير الكبير قُرطى

وهو أمير أمراء الصين . أضافنا بداره وصنع الدعوة ، وحضرها كبار المدينة ، وأتى بالطباخين المسلمين ، فذبخوا وطبخوا الطعام . وكان هذا الأمير على عظمتهم يناولنا الطعام بيده ، ويقطع اللحم بيده . وأقمنا في ضيافته ثلاثة

(١) سبق أن عرفناه . والمراد به غالبا في هذا الكتاب مجلس السلطان للناس . ولا ندري كيف تضبط الكلمة ، إذ لم نجد لها أصلا بهذا المعنى في كتب اللغة كما قدمنا .

أيام . وبعث ولده معنا إلى الخليج ، فركبنا في سفينة تشبه الحرّاقة ، وركب ابن الأمير في أخرى ، ومعه أهل الطرب وأهل الموسيقى . وكانوا يغنون بالصيني والعربي وبالفارسي . وكان ابن الأمير معجبا بالغناء الفارسي . فغنوا شعرا منه ، وأمرهم بتكريره مرارا ، حتى حفظته من أفواههم . وله تلحين عجيب .

واجتمعت بذلك الخليج من السفن طائفة كبيرة لها القلاع الملونة ومظلات الحرير . وسفنهم منقوشة أبدع نقش . وجعلوا يتحاملون ويترامون بالنارنج والليمون . وعدنا بالعشي إلى دار الأمير فبتنا بها ، وحضر أهل الطرب فغنوا بأنواع من الغناء العجيب .

حكاية المشعوذ

وفي تلك الليلة حضر أحد المشعوذة ، وهو من عبيد القان . فقال له الأمير : أرنا من عجائبك . فأخذ كرة خشب لها ثقب فيها سيور طوال ، فرمى بها إلى الهواء ، فارتفعت حتى غابت عن الأبصار ، ونحن في وسط (المشور) أيام الحر الشديد . فلما لم يبق من السير في يده إلا سير ، أمر متعلما له فتعلق به ، وصعد في الهواء إلى أن غاب عن أبصارنا ، فدعاه ثلاثا فلم يجبه ، فأخذ سكيننا بيده كالمغناظ ، وتعلق بالسير إلى أن غاب أيضا ، ثم رمى بيد الصبي إلى الأرض ، ثم رمى برجله ، ثم بيده الأخرى ، ثم برجله الأخرى ، ثم بيسده ، ثم برأسه . ثم هبط وهو يتفخ وشيابه ملطخة بالدم . فقبل الأرض بين يدي الأمير وكلمه بالصيني . وأمر له الأمير بشيء . ثم إنه أخذ أعضاء الصبي فالصق بعضها ببعض ، وركضه برجله فقام سويًا . فعجبت منه وأصابني خفقان القلب ، كمثل ما كان أصابني عند ملك الهند حين رأيت مثل ذلك .

فسقوني دواء أذهب عني ما وجدت . وكان القاضي فخر الدين إلى جانبي ، فقال لي : والله ما كان من صعود ولا نزول ولا قطع عضو ، وإنما ذلك شعودة .

وفي غد تلك الليلة دخلنا من باب المدينة الخامسة وهي من أكبر المدن . يسكنها عامة الناس ، وأسواقها حسان وبها الحدائق في الصناعات . وبها تصنع الثياب الخساوية . ومن عجيب ما يصنعون بها صحاف من القصب ، وقد ألصقت قطعه أبداع إلصاق ، ودُهنت بِصَبْغٍ أحمر مُشْرِق . وتكون هذه الصِّحَافَ عَشْرًا ، واحدة في جوف أخرى ، تظهر لرائيها كأنها صحيفة واحدة ، ويصنعون غطاء يغطي جميعها . ويصنعون من هذا القصب صحافا من عجائبها أن تقع من العلو فلا تنكسر . ويجعل فيها الطعام الساخن فلا يتغير صبغها ولا يحول . وتجلب من هنالك إلى الهند وخراسان وسواها .

ولما دخلنا هذه المدينة بتنا ليلة في ضيافة أميرها . وبالغد دخلنا من باب إلى المدينة السادسة ، ويسكنها البحرية والصيدون والنجارون والرماة والرجالة . وجميعهم عبيد السلطان . ولا يسكن معهم سواهم . وعددهم كثير . وهذه المدينة على ساحل النهر الأعظم ، بتنا بها ليلة في ضيافة أميرها . وجّهز لنا الأمير قُرْطَى صرْجًا بما يحتاج إليه من زاد وسواه .

وسافرنا من هذه المدينة وهي آخر أعمال الصين ، ودخلنا إلى بلاد الخِطَا . وهي أحسن بلاد الدنيا عمارة . ولا يكون في جميعها موضع غير معمور ، فإنه إن بقى موضع غير معمور ، طُوبِ أهله أو من يواليهم بخرابه . والبساتين والقرى والمزارع منتظمة بجانب هذا النهر ، من مدينة الخساسة إلى مدينة حَانَ بَالِقِ ، وذلك مسيرة أربعة وستين يوما . وليس بها أحد من المسلمين إلا من كان حاضرا غير مقيم ، لأنها ليست بدار مقام ، وليس بها

مدينة مجتمعة ، وإنما هي قرى وبساتين فيها الزرع والفواكه والسكر .
ولم أر في الدنيا مثلها ، غير مسيرة أربعة أيام من الأنبار إلى عانة . وكما كل ليلة
تنزل بالقرى لأجل الضيافة ، حتى وصلنا إلى مدينة خَانْ بَالِقْ (١) . وهي حضرة
القان . والقان هو سلطانهم الأعظم الذي مملكته بلاد الصين والخطا .

ولما وصلنا إليها أرسينا على عشرة أميال منها على العادة عندهم . وكتب
إلى أمراء البحر بخبرنا ، فأذنوا لنا في دخول مرساها ، فدخلنا . ثم نزلنا
إلى المدينة وهي من أعظم مدن الدنيا . وليست على ترتيب بلاد الصين
في كون البساتين في داخلها ، وإنما هي كسائر البلاد والبساتين بخارجها . ومدينة
السلطان في وسطها كالقصب ، على ما نذكره . ونزلت عند الشيخ برهان الدين
الصاغري ، وهو الذي بعث إليه ملك الهند بأربعين ألف دينار واستدعاه ،
فأخذ الدنانير وقضى بها دينه ، وأبى أن يسير إليه . وقدم على بلاد الصين ،
فقدمه القان على جميع المسلمين الذين ببلادها ، وخاطبه بصدر الجهان .

ذكر سلطان الصين والخطا الملقب بالقان

والقان عندهم سمة لكل من يلي الملك ، مُلْكُ الأقطار . وليس للكفار
على وجه الأرض مملكة أعظم من مملكته .

ذكر قصره

وقصره في وسط المدينة المختصة بسكناه . وأكثر عمارته بالخشب المنقوش ،
وله ترتيب عجيب . وله سبعة أبواب : فالباب الأول منها يجلس به الكتُّوال ،
وهو أمير البوايين . وله مصاطب مرتفعة عن يمين الباب ويساره ، فيها الممالك
حفاظ باب القصر ، وعددهم خمسمائة رجل . وأخبرت أنهم كانوا فيما تقدم
ألف رجل . والباب الثاني يجلس عليه الرماة . وعددهم خمسمائة . والباب

(١) بكين ، كما سبق في الحواشي .

الثالث يجلس عليه أصحاب الرماح وعددهم خمسمائة. والباب الرابع يجلس عليه أصحاب السيوف والترسة. والباب الخامس فيه ديوان الوزارة، وبه سقائف كثيرة: فالسقيفة العظمى يقعد بها الوزير على مرتبة هائلة مرتفعة، وبين يديه دواة عظيمة من الذهب. وتقابل هذه السقيفة سقيفة كاتب السر. وعن يمينها سقيفة كتاب الرسائل. وعن يمين سقيفة الوزير سقيفة كتاب الأشغال. وتقابل هذه السقائف سقائف أربع: إحداها تسمى ديوان الإشراف، يقعد بها المشرف. والثانية سقيفة ديوان المستخرج. وأميرها من كبار الأمراء. والمستخرج هو ما يبق قبل العمال وقبل الأمراء من إقطاعاتهم. والثالثة ديوان الغوث، ويجلس فيها أحد الأمراء الكبار ومعه الفقهاء والكتاب، فن لحقه مظلمة استغاث بهم. والرابعة ديوان البريد، يجلس فيها أمير الإخباريين. والباب السادس من أبواب القصر يجلس عليه الجندارية^(١) وأميرهم الأعظم. والباب السابع يجلس عليه الفتيان، ولهم ثلاث سقائف: إحداها سقيفة الحُبشان^(٢) منهم، والثانية سقيفة الهنود، والثالثة سقيفة الصينيين. ولكل طائفة منهم أمير من الصينيين.

ذكر خروج القان لقتال ابن عمه وقتله

ولما وصلنا حضرة خان بالق، وجدنا القان غائبا عنها إذ ذلك. وقد خرج للقاء ابن عمه فيروز القائم عليه بناحية قرأقروم وبش بالغ من بلاد الخطا، وبينها وبين الحضرة مسيرة ثلاثة أشهر عامرة. وأخبرني صدر الجهان برهان الدين الصاغري، أن القان لما جمع الجيوش وحشد الحشود، اجتمع عليه من الفرسان مائة فوج، كل فوج منها من عشرة آلاف فارس. وكان خواص

(١) حرس السلطان، غير عربي.

(٢) قال في القاموس: والأحْبَش بضم الباء جنس من السودان، جمعه حُبشان وأحباش.

السلطان وأهل دُخْلته^(١) خمسين ألفا ، زائدا إلى ذلك^(٢) . وكانت الرجالة
خمسمائة ألف . ولما خرج خالف عليه أكثر الأمراء واتفقوا على خلعه ،
لأنه كان قد غير الأحكام التي وضعها تنكيز خان^(٣) ، جددهم الذي حرب
بلاد الاسلام . فمضوا إلى ابن عمه القائم ، وكتبوا إلى القان أن يخلع
نفسه ، وتكون مدينة الخنسا إقطاعا له . فأبى ذلك وقاتلهم فانهمز وقتل .

وبعد أيام من وصولنا إلى حضرته ورد الخبر بذلك ، فزينت المدينة
وضربت الطبول والأبواق (والأنقار) ، وعكفوا على اللعب والطرب مدة شهر . ثم
جىء بالقان المقتول ، وبنحو مائة من المقتولين بنى عمه وأقاربه وخواصه ، فحفر
للقان ناووس عظيم ، وهو بيت تحت الأرض ، وفرش بأحسن الفرش ، وجعل
فيه القان بسلاحه ، وجعل معه ما كان في داره من أواني الذهب والفضة ،
وجعل معه أربع من الجوارى وستة من خواص الممالك ، ومعهم أواني الشراب .
وبنى باب البيت وجعل فوقه التراب حتى صار كالتل العظيم . ثم جاءوا بأربعة
أفراس فأجروها عند قبره حتى وقفت ، ونصبوا خشبا على القبر وعلقوها
عليه . وجعل أقارب القان المذكورون في نواويس ، ومعهم سلاحهم وأواني
دورهم . وصلبوا على قبور كبارهم — وكانوا عشرة — ثلاثة من الخيل على كل قبر ،
وعلى قبور الباقين فرسا فرسا .

وكان هذا اليوم يوما مشهودا ، لم يتخلف عنه أحد من الرجال ولا النساء ،
المسلمين والكفار . وقد لبسوا أجمعون ثياب العزاء ، وهي الطيالة البيضاء
للكفار والثياب البيض للمسلمين . وأقامت خواتين القان وخواصه في الأخيبة

(١) بطانته .

(٢) يعني أن ذلك مضاف إلى الفرسان وهو تعبير غريب .

(٣) جنكيز خان .

على قبره أربعين يوما ، وبعضهم يزيد على ذلك إلى سنة . وصنعت هنالك سوق يباع فيه ما يحتاجون إليه من طعام وسواه . وهذه الأفعال لا أذكر أن أمة تفعلها سواهم في هذا العصر . فأما الكفار من الهنود وأهل الصين فيحرقون موتاهم ، وسواهم من الأمم يدفنون الميت ، ولا يجعلون معه أحدا . لكن أخبرني الثقات ببلاد السودان ، أن الكفار منهم إذا مات ملكهم صنعوا له ناووسا وأدخلوا معه بعض خواصه وخدامه ، وثلاثين من أبناء كبارهم وبناتهم ، بعد أن يكسروا أيديهم وأرجلهم . ويجعلون معهم أواني الشراب . ولما قتل القان كما ذكرناه واستولى ابن عمه فيروز على الملك ، اختار أن تكون حضرته مدينة قراقُوم ، لقربها من بلاد بنى عمه ، ملوك تُركستان وما وراء النهر . ثم خالفت عليه الأمراء ممن لم يحضر لقتل القان ، وقطعوا الطرق وعظمت الفتن .

ذكر رجوعي إلى الصين ثم إلى الهند

ولما وقع الخلاف وتسعرت الفتن ، أشار عليّ الشيخ برهان الدين وسواه أن أعود إلى الصين قبل تمكن الفتن ، ووقفوا^(١) معي إلى نائب السلطان فيروز ، فبعث لي ثلاثة من أصحابه ، وكتب لي بالضيافة . وسرنا منحدرين في النهر إلى الخنسا ثم إلى قنجنفُو ثم إلى الزيتون . فلما وصلتها وجدت (الجنوك) على أهبة السفر إلى الهند . وفي جملتها (جنك) للملك الظاهر صاحب الجاوة أهله مسلمون .

(١) لعله يريد : واتمسوا لي الإذن منه في السفر .

وعرفني وكيله وسرَّ بقدمي . وصادفنا الريح الطيبة عشرة أيام . فلما قاربنا بلاد طَوَالِيسِي تغيرت الريح ، وأظلم الجو وكثر المطر . وأقمنا عشرة أيام لا نرى الشمس . ثم دخلنا بحرا لا نعرفه ، وخاف أهل (الجنك) ، فأرادوا الرجوع إلى الصين ، فلم يمكن ذلك . وأقمنا اثنين وأربعين يوما لا نعرف في أيِّ البحار نحن .

ذكر الرخ

ولما كان اليوم الثالث والأربعون ، ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل في البحر ، بيننا وبينه نحو عشرين ميلا ، والريح تتحملنا إلى صَوْبِهِ . فَعَجِبَ الْبَحْرِيَّةُ وَقَالُوا : لسنا بقرب من البر ، ولا يُعْهَدُ فِي الْبَحْرِ جَبَلٌ . وإن اضطررتنا الريح إليه هلكتا . فلجأ الناس إلى التضرع والإخلاص وجددوا التوبة . وابتهلنا إلى الله بالدعاء . ونذر التجار الصدقات الكثيرة . وكتبنا لهم في زمام^(١) بنحطى . وسكنت الريح بعض سكون . ثم رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع في الهواء ، وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر ، فَعَجِبْنَا مِنْ ذَلِكَ . ورأيت البحرية سيكون ويودع بعضهم بعضا . فقلت : ما شأنكم ؟ فقالوا : إن الذي تحيلناه جبلا هو الرخ . وإن رأنا أهلكنا . وبيننا إذ ذلك وبينه أقل من عشرة أميال . ثم إن الله تعالى من علينا بريح طيبة صرفتنا عن صَوْبِهِ ، فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته . وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلنا إلى الجاوة ، ونزلنا إلى سُمُطْرَةَ ، فوجدنا سلطانها الملك الظاهر قدم من غزاة له ، وجاء بسبي كثير ، فبعث لى جاريتين وغلامين ، وأنزلني على العادة . وحضرت أعراس ولده مع بنت أخيه .

(١) دفتر أوكاشة ، والكلام على التشبيه .

(٢) حكاية الرخ هذه لا يكاد العقل يصدقها . ولا نظن أن مارآه ابن بطوطة ومن معه كان طائرا كالجبل . وإنما خيل إليهم أنه كذلك . وقد يكون مارآه سمعابة . ونعتقد أن الرخ طائر خرافي ، فقد جاء في القاموس أنه طائر كبير يحمل الكركدن .

ذكر أعراس ولد الملك الظاهر

وشاهدت يوم الجَلوة ، فرأيتهم قد نصبوا في وسط (المشور) منبرا كبيرا ، وكسوه بثياب الحرير . وجاءت العروس من داخل القصر على قدميها بادية الوجه ، ومعها نحو أربعين من الخواتين يرفعن أذيالها ، من نساء السلطان وأمرائه ووزرائه ، وكلهن باديات الوجوه ، ينظر إليهن كل من حضر ، من رفيع أو وضع . وليست تلك بعادة لمن إلا في الأعراس خاصة .

وصعدت العروس المنبر ، وبين يديها أهل الطرب رجالا ونساء ، يلعبون ويفنون . ثم جاء الزوج على فيل مزين على ظهره سرير ، وفوقه قبة ، والتاج على رأسه ، وعن يمينه ويساره نحو مائة من أبناء الملوك ، وأمراء قديلبسوا البياض ، وركبوا الخيل المزينة ، وعلى رؤوسهم (الشواشي) ^(١) المرصعة . وهم أترب العروس ، وليس فيهم ذو لحية . ونثرت الدنانير والدرهم على الناس عند دخوله . وقعد السلطان بمنظرة له يشاهد ذلك . ونزل ابنه فقبل رجله . وصعد المنبر إلى العروس ، فقامت إليه وقبلت يده وجلس إلى جانبها . والخواتين يروحن عليها . وجاءوا بالقوفل والتابول ، فأخذ الزوج بيده وجعل منه في فمها . ثم أخذت هي بيديها وجعلت في فمه . ثم وضع عليها الستر ، ورفع المنبر وهما فيه إلى داخل القصر . وأكل الناس وانصرفوا . ثم لما كان من الغد ، جُمع الناس ، وأجرى له أبوه ولاية العهد ، وبايعه الناس ، وأعطاهم العطاء الجزل من الثياب والذهب .

(١) سبق تفسيرها .

وأقمت بهذه الجزيرة شهرين . ثم ركبت في بعض (الجنوك) ، وأعطاني السلطان كثيرا من العود والكافور والقرنفل والصندل . وسافرت عنه . فوصلت بعد أربعين يوما إلى كَوَلَم ، فزلت بها في جوار القزويني قاضي المسلمين . وذلك في رمضان . وحضرت بها صلاة العيد في مسجدنا الجامع . وعادتهم أن يأتوا المسجد ليلا ، فلا يزالون يذكرون الله إلى الصباح ، ثم يذكرون إلى حين صلاة العيد . ثم يصلون ويخطب الخطيب وينصرفون . ثم سافرنا من كَوَلَم إلى قَالِقُوط وأقننا بها أياما . وأردت العودة إلى دهلي ، ثم خفت ذلك . فركبت البحر فوصلت بعد ثمان وعشرين ليلة إلى ظَفَّار . وذلك في المحرم سنة ثمان وأربعين . ونزلت بدار خطيبها عيسى بن طاطا .

ذكر سلطانها

ووجدت سلطانها في هذه الكَرَّة الملك الناصر ابن الملك المغيث ، الذي كان ملكا بها حين وصولي إليها فيما تقدم . ونائبه سيف الدين عمر التركي الأصل . وأنزلي هذا السلطان وأكرمني . ثم ركب البحر فوصلت إلى مَسَقَط وهي بلدة صغيرة ، بها السمك الكثير المعروف بقلب ألماس . ثم سافرنا إلى مرسى القريَّات . ثم سافرنا إلى مرسى شَبَّة . ثم إلى مرسى كَلْبَة . ثم إلى قَلْهات ، وقد تقدم ذكرها . وهذه البلاد كلها من عمالة هُرْمُز . وهي محسوبة من بلاد عمان .

ثم سافرنا إلى هُرْمُز وأقننا بها ثلاثا . وسافرنا في البر إلى كَوْرَسْتَان . ثم إلى اللار . ثم إلى خُنْج بال . وقد تقدم ذكر جميعها . ثم سافرنا إلى كَارْزِي وأقننا بها ثلاثا . ثم سافرنا إلى جَمَّكَان . ثم سافرنا منها إلى مَمِين . ثم سافرنا إلى بَسَّا ، ثم إلى مدينة شيراز . فوجدنا سلطانها أبا اسحاق على ملكه ، إلا أنه كان

ذائب عنها . ولقيت بها شيخنا الصالح العالم مجد الدين قاضي القضاة ، وقد كَفَّ بصره . ثم سافرت إلى مائين^(١) ثم إلى بَزْدُ خاص ، ثم إلى كَلِيل ، ثم إلى كُشْكُ زَر ، ثم إلى أَصْبَهَانَ ، ثم إلى نُسْتَر ، ثم إلى الحَوَيز ، ثم إلى البصرة . وقد تقدم ذكر جميعها .

وزرت بالبصرة القبور الكريمة التي بها : وهي قبر الزبير بن العوام ، وطلحة ابن عبيد الله ، وحليمة السعدية ، وأبي بكر ، وأنس بن مالك ، والحسن البصري ، وثابت البناني ، ومحمد بن سيرين ، ومالك بن دينار ، ومحمد بن واسع ، وحبيب العجمي ، وسهل بن عبد الله التستري . رضي الله تعالى عنهم أجمعين .

ثم سافرنا من البصرة ، فوصلنا إلى مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وزرناه . ثم توجهنا إلى الكوفة ، فزرنا مسجدنا المبارك . ثم إلى الحلة ، حيث مشهد صاحب الزمان . ثم سافرت إلى صَرَصَر ، ثم إلى مدينة بغداد ، ووصلتها في شوال سنة ثمان وأربعين .

ذكر سلطانها

وكان سلطان بغداد والعراق في عهد دخولي إليها في هذا التاريخ ، الشيخ حسن ابن عمه السلطان أبي سعيد رحمه الله . ولما مات أبو سعيد استولى على ملكه بالعراق وتزوج بزوجته . وكان السلطان حسن غائبا عن بغداد في هذه المدة ، متوجها لقتال السلطان أتابك أفراسياب ، صاحب بلاد اللور^(٢) . ثم رحلت من بغداد فوصلت إلى مدينة الأنبار ، ثم إلى هيت^(٣) ،

(١) بلد من أعمال فارس من نواحي شيراز . ياقوت . وضبطها ابن بطوطة هكذا : (مائين) .

(٢) قال ياقوت : اللور كورة واسعة بين حوزستان وأصبهان .

(٣) بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار .

ثم إلى الحديثة ، ثم إلى عانة . وهذه البلاد من أحسن البلاد وأخصبها ، والطريق فيما بينها كثير العارة ، كأن الماشى في سوق من الأسواق . وقد ذكرنا أنا لم نرمأ يشبه البلاد التي على نهر الصين إلا هذه البلاد . ثم وصلت إلى مدينة الرَّحْبَة ، وهي التي تنسب إلى مالك بن طَوْق . ومدينة الرحبة أحسن بلاد العراق وأول بلاد الشام . ثم سافرنا منها إلى السُّخْنَة ، وهي بلدة حسنة أكثر سكانها من النصارى . وإنما سميت السخنة لحرارة مائها . وفيها بيوت للرجال وبيوت للنساء ، يستحمون فيها ، ويستقون الماء ليلا ويجعلونه في السطوح ليبرد . ثم سافرنا إلى تَدْمُر ، مدينة نبي الله سليمان عليه السلام .

ثم سافرنا منها إلى مدينة دِمَشْق الشام . وكانت مدة مغيبى عنها عشرين سنة كاملة . وأقيمت بها بقية السنة ، والغلاء شديد . وكان قاضى قضاة المالكية إذ ذاك جمال الدين المِسْلَاقِي^(١) ، وقاضى قضاة الشافعية تقي الدين ابن السُّبُكِي ، وأمير دمشق ملك الأمراء أَرْغُون شاه .

حكاية

ومات في تلك الأيام بعض كبراء دمشق وأوصى بمال للساكين . فكان المتوَلَّى لإنفاذ الوصية يشتري الخبز ويفرقه عليهم كل يوم بعد العصر . فاجتمعوا في بعض الليالي وتزاحموا ، واختطفوا الخبز الذي يفرق عليهم ، ومدوا أيديهم إلى خبز الخبازين . وبلغ ذلك الأمير أَرْغُون شاه ، فأخرج زبائنه ، فكانوا حينما لقوا أحدا من المساكين ، قالوا له : تعال تأخذ الخبز . فاجتمع منهم عدد كثير فحبسهم تلك الليلة ، وركب من الغد ، وأحضرهم تحت

(١) نسبة إلى مِسْلَاقَة ، مدينة ساحلية بين طرابُلُس الغرب ومُسْت .

القلعة . وأمر بقطع أيديهم وأرجلهم . وكان أكثرهم برآء من ذلك . وأخرج طائفة الحرافيش ^(١) عن دِمَشق ، فانتقلوا إلى حِمص وحمّاة وحلب . وذكر لي أنه لم يعيش بعد ذلك إلا قليلا وقتل .

ثم سافرت من دِمَشق إلى حِمص ثم حمّاة ثم المعرّة ثم سرّمين ثم إلى حلب . وكان أمير حلب في هذا العهد الحاج رُغْطَى . وفي أوائل شهر ربيع الأول عام تسعة وأربعين ، بلغني الخبر في حلب أن الوباء وقع بغزّة ، وأنه انتهى عدد الموتى فيها إلى زائد على الألف في يوم واحد . فسافرت إلى حِمص فوجدت الوباء قد وقع بها . ومات يوم دخولي إليها نحو ثلاثمائة إنسان . ثم سافرت إلى دِمَشق ووصلتها يوم الخميس . وكان أهلها قد صاموا ثلاثة أيام ، وخرجوا يوم الجمعة إلى مسجد الأقدام ^(٢) على ما ذكرناه في السفر الأول ، تخفف الله الوباء عنهم . فقد انتهى عدد الموتى عندهم إلى ألفين وأربعمائة في اليوم . ثم سافرت إلى عَجَلُون ثم إلى بيت المقدس ، ووجدت الوباء قد ارتفع عنه . ولقيت خطيبه عز الدين بن جماعة بن عز الدين قاضي القضاة بمصر . وهو من الفضلاء الكرماء . ومرتبته على الخطابة ألف درهم في الشهر .

حكاية

وصنع الخطيب عز الدين يوما دعوة ، ودعاني فيمن دعاه إليها ، فسألته عن سببها ، فأخبرني أنه نذر أيام الوباء أنه إن ارتفع ذلك ومرّ عليه يوم لا يصلح فيه على ميت ، صنع الدعوة . ثم قال لي : ولما كان بالأمس لم أصل على ميت ، فصنعت الدعوة التي نذرت .

(١) يقصد الرعاع والسفلة . ولم نرهذا اللفظ فيما بأيدينا من كتب اللغة .

(٢) سبق أنها أقدم مصورة في حجر هناك يقال إنها أتر قدم موسى عليه السلام .

ووجدت من كنت أعهدهم من جميع الأشياخ بالقدس قد انتقلوا إلى جوار الله تعالى . رحمهم الله . فلم يبق منهم إلا القليل : مثل المحدث العالم الإمام صلاح الدين خليل بن كيكلدي العلاءي ، ومثل الصالح شرف الدين الخُشيّ ، شيخ زاوية المسجد الأقصى . ولقيت الشيخ سليمان الشيرازي فأضافني .

ثم سافرت عن القدس . ورافقتي الواعظ المحدث شرف الدين سليمان الملياني^(١) ، وشيخ المغاربة بالقدس الصوفي الفاضل طائحة العبد الوادي ، فوصلنا إلى مدينة الخليل عليه السلام ، وزرناه ومن معه من الأنبياء عليهم السلام . ثم سرنا إلى غزّة ، فوجدنا معظمها خاليا من كثرة من مات بها في الوباء . وأخبرنا قاضيها أن العُدول بها كانوا ثمانين فبقى منهم الربع ، وأن عدد الموتي بها انتهى إلى ألف ومائة في اليوم . ثم سافرنا في البر فوصلت إلى دِمياط . ولقيت بها قطب الدين التَّقشواني ، وهو صائم الدهر . ورافقتني منها إلى فارسكور وسمنود ثم إلى أبي صير . وتزلنا في زاوية لبعض المصريين بها .

حكاية

وبينا نحن بتلك الزاوية إذ دخل علينا أحد الفقراء فسلم ، وعرضنا عليه الطعام فأبى . وقال : إنما قصدت زيارتكم . ولم يزل ليثته تلك ساجدا وراكعا . ثم صلينا الصبح واشتغلنا بالذكر ، والفقير بركن الزاوية . فجاء الشيخ بالطعام ودعاه فلم يجبه ، فمضى إليه فوجده ميتا ، فصلينا عليه ودفناه . رحمة الله عليه .

(١) نسبة إلى مِلْيَانَة ، مدينة في آنر إفريقية ، بينها وبين تنس أربعة أيام هـ ياقوت .

ثم سافرت إلى المحلة الكبيرة ، ثم إلى نحرارية ، ثم إلى أبيار ، ثم إلى دمهور ، ثم إلى الإسكندرية . فوجدت الوباء قد خف بها بعد أن بلغ عدد الموتى ألفا وثمانين في اليوم . ثم سافرت إلى القاهرة . وبلغني أن عدد الموتى أيام الوباء انتهى فيها إلى أحد وعشرين ألفا في اليوم . ووجدت جميع من كانوا بها من المشايخ الذين أعرفهم قد ماتوا . رحمهم الله .

ذكر سلطانها

وكان ملك ديار مصر في هذا العهد الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون . وبعد ذلك خلع عن الملك وولي أخوه الملك الصالح . ولما وصلت القاهرة وجدت قاضي القضاة عز الدين ابن قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة ، قد توجه إلى مكة في ركب عظيم يسمونه الرجبي ، لسفرهم في شهر رجب ، وأخبرت أن الوباء لم يزل معهم حتى وصلوا عقبة أيلة^(١) فارتفع عنهم .

ثم سافرت من القاهرة على بلاد الصعيد ، وقد تقدم ذكرها ، إلى عيذاب ، وركبت منها البحر فوصلت إلى جدة . ثم سافرت منها إلى مكة شرفها الله تعالى وكرمها ، فوصلتها في الثاني والعشرين لشعبان سنة تسع وأربعين . ونزلت في جوار إمام المالكية الصالح الولي الفاضل ، أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل . فصمت شهر رمضان بمكة ، وكنت أعتبر كل يوم على مذهب الشافعي . ولقيت ممن أعهدده من أشياخها شهاب الدين الحنفي ، وشهاب الدين الطبري ، وأبا محمد اليافعي ، ونجم الدين الأصفهاني^(٢) . وحججت في تلك السنة . ثم سافرت مع الركب الشامي إلى طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وزرت قبره المكرم الطيب ، زاده الله طيبا

(١) بلد بين ينبع ومصر ، قاموس .

(٢) أصفون ، بضم الفاء وسكون الواو ونون . قرية بالصعيد الأعلى على شاطئ غربي النيل . ياقوت .

وتشريفًا . وصلت في المسجد الكريم ، طهره الله وزاده تعظيماً . وزرت
من البقيع من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم . ولقيت من
الأشياخ أبا محمد بن فرحون .

ثم سافرنا من المدينة الشريفة إلى العلاء وتبوك ، ثم إلى بيت المقدس ،
ثم إلى مدينة الخليل صلى الله عليه وسلم ، ثم إلى غزّة ثم إلى منازل الرمل . وقد
تقدم ذكر ذلك كله . ثم إلى القاهرة . وهناك تعرفنا أن مولانا أمير المؤمنين
واناصر الدين ، المتوكل على رب العالمين ، أبا عنان ، أيدّه الله تعالى ، قد ضمّ
الله به نشر الدولة الميريّة ، وشفى بركته ، بعد إشفائها ، البلاد المغربيّة ،
وأفاض الإحسان على الخاص والعام ، وغمر جميع الناس بسابغ الإنعام .
فتشوّفت النفوس إلى المُتَوَلَّى ببابه ، وأمّلت لثم ركابه . فعند ذلك قصدت
القدوم على حضرته العلية ، مع ما شفّني من تذكّار الأوطان ، والحنين إلى
الأهل والأحباب ، والمحبة لبلادى التي لها الفضل عندى على البلدان .

بلادها نيّطت على تسمى * وأول أرض مسّ جلدى تراها

فركبت البحر في قرقور^(١) لبعض التونسيين صغير . وذلك في صفر
سنة خمسين . وسرت حتى نزلت بجرّبة . وسافر المركب إلى تونس ،
فاستولى العدو عليه . ثم سافرت في مركب صغيرة إلى قايس ، فنزلت في
ضيافة الأخوين الفاضلين أبي مروان وأبي العباس ابني مكي ، أميرى جرّبة
وقايس . وحضرت عندهما مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم ركبت في
مركب إلى صفاقس . ثم توجهت في البحر إلى بليانة ، ومنها سرت في البر
مع العرب ، فوصلت بعد مشقات إلى مدينة تونس ، والعرب محاصرون لها .

(١) السفينة ، أو الطويلة ، أو العظيمة . قاموس .

ذكر ساطانها

وكانت تونس في إيالة مولانا أمير المسلمين، وناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين، علم الأعلام، وأوحد الملوك الكرام، أسد الآساد، وجواد الأجواد، القانت الأواب، الخاشع العادل، أبي الحسن ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ناصر دين الإسلام، الذي سارت الأمثال بجوده، وشاع في الأقطار أثر كرمه وفضله، ذى المناقب والمفاخر، والفضائل والمآثر، الملك العادل الفاضل، أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين، وناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ناصر الإيمان، الشديد السطوة في ذات الرحمن، العابد الزاهد، الراكع الساجد، الخاشع الصالح، أبي يوسف بن عبد الحق، رضى الله عنهم أجمعين، وأبقى الملك في عقبهم إلى يوم الدين.

ولما وصلت تونس قصدت الحاج أبا الحسن الناميسى، لما بينى وبينه من مودّات القرابة والبلدية. فأتزنى بداره، وتوجه معى إلى (المشور). فدخلت (المشور) الكريم، وقبلت يد مولانا أبي الحسن رضى الله عنه. وأمرنى بالقعود فقعدت. وسألنى عن الحجاز الشريف وسبطان مصر، فأجبتة. وسألنى عن ابن بيفرّاجين فأخبرته بما فعلت المغاربة معه، وإرادتهم قتله بالاسكندرية، وما لقي من أذيتهم، انتصارا منهم لمولانا أبي الحسن رضى الله عنه. وكان في مجلسه من الفقهاء الإمام أبو عبد الله السّطّى^(١)، والإمام أبو عبد الله محمد بن الصباغ، ومن أهل تونس قاضيها أبو على عمر بن عبد الرّفيق، وأبو عبد الله بن هرون. وانصرفت عن المجلس الكريم. فلما كان بعد العصر استدعانى مولانا أبو الحسن وهو يبرج يشرف على موضع

(١) نسبة إلى (سطة)، مدينة ساحلية بالمغرب الأقصى. ٥١ من المغرب في تاريخ إفريقيا والمغرب.

القتال ، ومعه الشيوخ الحِلَّة . فسألني عن ملك الهند فأجبتة عما سأل . ولم أزل أتردد إلى مجلسه الكريم أيام إقامتي بتونس ، وكانت ستة وثلاثين يوما . ولقيت بتونس إذ ذاك الشيخ الإمام خاتمة العلماء وكبيرهم ، أبا عبد الله الأُبُلِّيَّ ، وكان في فراش المرض . وباحثني في كثير من أمور رحلتي .

ثم سافرت من تونس في البحر ، فوصلنا إلى جزيرة سَرْدَانِيَّة من جزر الروم ، ولها مرسى عجيب عليه خُشب كبار دائرة به . وله مدخل كأنه باب لا يفتح إلا بإذن منهم . وفيها حصون دخلنا أحدها ، وبه أسواق كثيرة . ونذرت لله تعالى ، إن خلصنا الله منها ، صوم شهرين متتابعين ، لأننا عرفنا أن أهلها عازمون على اتباعنا إذا خرجنا عنها لياسرونا . ثم خرجنا عنها فوصلنا بعد عشر إلى مدينة تَنَس ثم إلى مازُونَة ثم إلى مُسْتَعَامِمْ ثم إلى تَلْمِيسَان . ثم سافرنا منها . فبينما نحن بقرب أَرْغَنْغَان ، إذ خرج علينا خمسون راجلا وفارسان ، وكان معي الحاج ابن قَرِيَعَات الطَّنَجِي ، وأخوه محمد المستَشْهَد بعد ذلك في البحر . فعزمتنا على قتالهم ورفعنا علمنا . ثم سالمونا وسالمناهم والحمد لله . ووصلت إلى مدينة تَازَا ، وبها تعرفت خبر موت والدتي بالوباء رحمها الله تعالى .

ثم سافرت عن تازا ، فوصلت يوم الجمعة في أواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعائة إلى حضرة فاس ، فَمَثَلْتُ بين يدي مولانا الأعظم ، الإمام الأكرم ، أمير المؤمنين ، المتوكل على رب العالمين ، أبي عِنَان ، وصل الله علوه ، وَكَبَّتْ عدوه . فأنتسني هيئته هيبة سلطان العراق ، وحسنه حسن ملك الهند ، وحسن أخلاقه حسن خالق ملك اليمن ، وشجاعته شجاعة ملك الترك ، وَحِلْمِهِ حِلْم ملك الروم ، ودينه دين ملك تُرْكُستَان ، وعلمه علم ملك الجلاوة .

وكان بين يديه وزيره الفاضل ذو المكارم الشهيرة ، والمآثر الكثيرة ، أبو زيّان بن ودرار . فسألني عن الديار المصرية ، إذ كان قد وصل إليها ، فأجبتّه عما سأل . وغمرني من إحسان مولانا أيده الله تعالى ما أعجزني شكره ، والله وليّ مكافأته . وألقيت عصا التسيار ببلاد الشريفة ، بعد أن تحققت بفضل الإنصاف أنها أحسن البلدان : لأن الفواكه بها متيسرة ، والمياه والأقوات غير متعذرة . وقُلّ إقليم يجمع ذلك . ولقد أحسن من قال :

الغرب أحسن أرض ولي دليل عليه

البدر يُرَقَّب منه والشمس تسعى إليه

ودراهم الغرب صغيرة ، وفوائدها كثيرة . وإذا تأملت أسعاره مع أسعار ديار مصر والشام ، ظهر لك الحق في ذلك ، ولاح فضل بلاد المغرب . فأقول : إن لحوم الأغنام بديار مصر تباع بحساب ثماني عشرة أوقية بدرهم نُقْرَة^(١) . والدرهم النقرة ستة دراهم من دراهم المغرب . وبالمغرب يباع اللحم إذا غلا سعره ، ثماني عشرة أوقية بدرهمين . وهما ثلث النقرة . وأما السمن فلا يوجد بمصر في أكثر الأوقات . والذي يستعمله أهل مصر من أنواع الإدام لا يلتفت إليه بالمغرب ، ولأن أكثر ذلك العَدَس والحِمْص ، يطبخونه في قُدور راسيات^(٢) ، ويعملون عليه الشَّيرج^(٣) والبِسَلَا^(٤) ، وهو صنف من الجُلْبَان ، يطبخونه ويعملون عليه الزيت . والقرع يطبخونه ويحاطونه باللبن . والبقلة الحماة^(٥) يطبخونها كذلك . وأعلى أغصان اللوز يطبخونها

(١) النقرة القطعة المذابة من الذهب أو الفضة . فالمراد درهم من الفضة ذو قيمة خاصة .

(٢) في القاموس : قدر راسية لا تبرح مكانها لعظمتها .

(٣) قال في شرح القاموس : الشَّيرج كصَيْقِل بمعنى السليط وهو دهن السمسم ، عرب .

(٤) البِسَلَا كالترمس أو أقل منه ، لغة مصرية . شرح القاموس .

(٥) هي الرجلة . ويقال لها أيضا : بقلة الحماة .

ويجعلون عليها اللبن . والقُلُقاس يطبخونه . وهذا كله متيسر بالمغرب . لكن أغنى الله عنه بكثرة اللحم والسمن والزبد والعسل وسوى ذلك .

وأما الخَضْر فهى أقل الأشياء ببلاد مصر . وأما الفواكه فأكثرها مجلوبة من الشام . وأما العنب فإذا كان رخيصا بيع عندهم ثلاثة أرطال من أرطالهم بدرهم نَقرة . ورطلهم ثنتا عشرة أُوقية . وأما بلاد الشام فالفواكه بها كثيرة ، إلا أنها ببلاد الغرب أرخص منها ثمنا : فإن العنب يباع بها بحساب رطل من أرطالهم بدرهم نقرة . ورطلهم ثلاثة أرطال مغربية . وإذا رُخِّص ثمنه يباع بحساب رطلين بدرهم نقرة . وأما الرمان والسَّمَرَجَل فبباع الحبة منه بثمانية فُلوس ، وهى درهم من دراهم المغرب . وأما الخَضْر فيباع بالدرهم النقرة منها أقل مما يباع فى بلادنا بالدرهم الصغير . وأما اللحم فيباع فيها الرطل منه من أرطالهم بدرهمين ونصف درهم نقرة .

فإذا تأملت ذلك كله تبين لك أن بلاد المغرب أرخص البلاد أسعارا ، وأكثرها خيرات ، وأعظمها مرافق وفوائد . ولقد زاد الله بلاد المغرب شرفا إلى شرفها ، وفضلا إلى فضلها ، بإمامة مولانا أمير المؤمنين ، الذى مدَّ ظلال الأمن فى أقطارها ، وأطلع شمس العدل فى أرجائها ، وأفاض سحاب الإحسان فى باديتها وحاضرتها ، وطهرها من المفسدين ، وأنام بها رسوم الدنيا والدين . وأنا أذكر ما عاينته وتحققته من عدله وحلمه وشجاعته ، واشتغاله بالعلم وتفقهه ، وصدقته الجارية ، ورفع المظالم .

ذكر بعض فضائل مولانا أيده الله

أما عدله فأشهر من أن يُسْطَر في كتاب . فن ذلك جلوسه للمشتكين من رعيته ، وتخصيصه يوم الجمعة بالمساكين منهم ، وتقسيمه ذلك اليوم بين الرجال والنساء ، وتقديمه النساء لضعفهن ، فتقرأ قصصهن بعد صلاة الجمعة إلى العصر ، ومن وصلت نوبتها نودى باسمها ، ووقفت بين يديه الكريمتين ، يكلمها دون وساطة . فإن كانت متظلمة عجّل إنصافها ، أو طالبة إحسان وقع إسعافها . ثم إذا صُليّت العصر قرئت قصص الرجال ، وفعل مثل ذلك فيها . ويحضر المجلس الفقهاء والقضاة ، فيرد إليهم ما تعلق بالأحكام الشرعية . وهذا شيء لم أر في الملوك من يفعله على هذا التمام ، ويظهر فيه مثل هذا العدل : فإن ملك الهند عين بعض أمرائه لأخذ القصص من الناس ، وتلخيصها ورفعها إليه ، دون حضور أربابها بين يديه .

وأما حلمه فقد شاهدت منه العجائب : فإنه أيده الله عفا عن الكثير ممن تعرض لقتال عساكره والمخالفة عليه ، وعن أهل الجرائم الكبار الذين لا يعفو عن جرائمهم إلا من وثق بربه ، وعلم علم اليقين معنى قوله تعالى (والعافين عن الناس) . قال ابن جرير : من أعجب ما شاهدته من حلم مولانا أيده الله ، أني منذ قدومي على بابهِ الكريم في آخر عام ثلاثة وخمسين إلى هذا العهد ، وهو أوائل عام سبعة وخمسين ، لم أشاهد أحداً أمر بقتله إلا من قتله الشرع في حد من حدود الله تعالى ، قصاص أو حرب ، هذا على اتساع المملكة وانفساح البلاد واختلاف الطوائف . ولم يسمع بمثل ذلك فيما تقدم من الأعصار ، ولا فيما تباعد من الأقطار .

وأما شجاعته فقد علم ما كان منه في المواطن الكريمة من الثبات والإقدام ،
مثل يوم قتال بنى عبد الوادى وغيرهم . ولقد سمعت خبر ذلك اليوم ببلاد
السودان . وذكُر ذلك عند سلطانهم ، فقال : هكذا وإلا فلا . قال ابن
جرى : لم يزل الملوك الأقدمون يتفاحرون بقتل الاساد وهزائم الأعدى .
ومولانا أیده الله كان قتل الأسد عليه أهون من قتل الشاة على الأسد ،
فإنه لما نرح الأسد على الجيش بوادى التجارين من المعمورة بحوز سلا^(١) ،
وتحامته الأبطال ، وفرت أمامه الفرسان والرجال ، برز إليه مولانا أیده الله ،
غير مُحْتَفِل به ، ولا متَهَيَّب له ، فطعنه بالرمح بين عينيه طعنة خريها
صريعا للدين وللغم .

وأما هزائم الأعدى فإنها انفقت للسلوك بثبوت جيوشهم ، وإقدام
فرسانهم ، فيكون حظ الملوك الثبوت والتحريض على القتال . وأما مولانا
أیده الله فإنه أقدم على عدوه منفردا بنفسه الكريمة ، بعد علمه بفرار الناس ،
وتحققه أنه لم يبق معه من يقاتل . فعند ذلك وقع الرعب في قلوب الأعداء ،
وانهزموا أمامه . فكان من العجائب فرار الأمم أمام واحد . وذلك فضل الله
يؤتيه من يشاء ، والعاقبة للمتقين .

وأما اشتغاله بالعلم فها هو أیده الله تعالى يعقد مجالس العلم في كل يوم بعد
صلاة الصبح . ويحضر لذلك أعلام الفقهاء ونجباء الطلبة بمسجد قصره
الكریم . فيقرأ بين يديه تفسير القرآن العظيم ، وحديث المصطفى صلى الله عليه
وسلم ، وفروع مذهب مالك رضى الله عنه ، وكتب المتصوِّفة . وفي كل علم
منها له القُدح المُعلَى ، يجلو مشكلاته بنور فهمه ، ويلقى نُكته الرائقة من
حفظه . وهذا شأن الأئمة المهتدين والخلفاء الراشدين .

(١) سلا : مدينة بأقصى المغرب ، وحوزها ما يجاورها .

ولم أر من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم هذه النهاية : فقد رأيت ملك الهند يُتَذَاكر بين يديه بعد صلاة الصبح في العلوم المعقولات خاصة ، ورأيت ملك الجاوة يتَذَاكر بين يديه بعد صلاة الجمعة في الفروع على مذهب الشافعي خاصة . وكنت أعجب من ملازمة ملك تَرْكستان لصلاتي العشاء الآخرة والصبح في الجماعة ، حتى رأيت ملازمة مولانا أيده الله للصلوات كلها في الجماعة ، ولقيام رمضان . والله يختص برحمته من يشاء .

قال ابن جُرَيّ : لو أن عالما ليس له شغل إلا بالعلم ليلا ونهارا ، لم يكن يصل إلى أدنى مراتب مولانا أيده الله في العلوم ، مع اشتغاله بأمور الأمة ، وتديره لسياسة الأقاليم النائية ، ومباشرته من حال ملكه ما لم يباشره أحد من الملوك ، ونظره بنفسه في شكايات المظلومين . ومع ذلك كله فلا تقع بمجلسه الكريم مسألة علم في أي علم كان ، إلا جَلَّ مُشْكَلُهَا ، وباحث في دقائقها ، واستخرج غوامضها ، واستدرك على علماء مجلسه ما فاتهم من مغلقاتها .

ثم سما أيده الله إلى العلم الشريف التَّصَوُّفِي ، ففهم إشارات القوم^(١) وتخلق بأخلاقهم ، وظهرت آثار ذلك في تواضعه مع رفعته ، وشفقته على رعيته ، ورفقه في أمره كله . وأعطى الآداب حظا جزيلًا من نفسه ، فاستعمل أحسنها منزعا ، وأعظمها موقعا . وصارت^(٢) عنه الرسالة الكريمة والقصيدة ، اللتان بعثهما إلى الروضة الشريفة المقدسة الطاهرة ، روضة سيد المرسلين وشفيع المذنبين ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتبهما بخط يده الذي ينجل الروض حسنا . وذلك شيء لم يتعاط أحد من ملوك الزمان إنشائه ، ولا رام إدراكه .

(١) هم الصوفيون .

(٢) يظهر أنه محرف عن (صدرت) .

ومن تأمل التوقعات الصادرة عنه أيده الله تعالى ، وأحاط علما
بمحصولها ، لاح له فضل ما وهب الله لمولانا من البلاغة التي فطره عليها ،
وجمع له بين الطبيعي والمكتسب منها . وأما صدقاته البخارية وما أمر به من
عمارة الزوايا بجميع بلاده ، لإطعام الطعام للوارد والصادر ، فذلك ما لم يفعله
أحد من الملوك ، غير السلطان أتايك أحمد . وقد زاد عليه مولانا أيده الله
بالتصدق على المساكين بالطعام كل يوم ، والتصدق بالزرع على المتسّرين
من أهل البيوت .

قال ابن جزى : اخترع مولانا أيده الله في الكرم والصدقات أموراً لم تخطر
في الأوهام ، ولا اهتدت إليها السلاطين . فمنها إجراء الصدقات على المساكين
بكل بلد من بلاده على الدوام . ومنها تعيين الصدقة الوافرة للسجونين في جميع
البلاد أيضاً . ومنها كون تلك الصدقات خبزاً مخبوزاً متيسراً للانتفاع به .
ومنها كسوة المساكين والضعفاء والعجائز والمشايخ والملازمين للمساجد بجميع
بلاده . ومنها تعيين الضحايا لهؤلاء في عيد الأضحى . ومنها التصدق بما يجتمع
في مجسدي أبواب بلاده يوم سبعة وعشرين من رمضان ، إكراماً لذلك اليوم
الكريم وقياماً بحقه . ومنها إطعام الناس في جميع البلاد ليلة المولد الكريم ،
 واجتماعهم لإقامة رسمه . ومنها صدقته على الزّنى^(١) والضعفاء يقيمون بها أودهم .
ومنها صدقته على المساكين بحضرتة بالطّائف^(٢) الويّرة والقطائف^(٣)
الجياذ . وتلك مكرمة لا يعلم لها نظير . ومنها بناء المارستانات في كل بلد من
بلاده ، وتعيين الأوقاف الكثيرة لمسوّن المرضى ، وتعيين الأطباء لمعالجتهم
والتصرف في طبّهم . إلى غير ذلك مما أبدع فيه من أنواع المكارم وضروب
المآثر . كافأ الله أياديه وشكر نعمه .

(١) جمع زمين وهو ذوالعامة .

(٢) جمع طيّفه وهي البساط .

(٣) جمع قطيفه : دنار مخمل .

وأما رفعه للظالم عن الرعية، فمنها الرُّتَبُ (١) التي كانت تؤخذ بالطرقات :
أمر أيده الله بمحورسماها وكان لها مجيٌّ عظيم ، فلم يلتفت إليه . وما عند الله
خير وأبقى . وأما كفه أيدي الظَّلام فأمر مشهور . وقد سمعته أيده الله يقول
لعماله : لا تظالموا الرعية . ويؤكد عليهم في تلك الوصية . قال ابن جرّي : ولو لم
يكن من رفق مولانا أيده الله برعيته إلا رفعه التضييف (٢) ، الذي كان
عمال الزكاة وولاء البلاد يأخذونه من الرعايا ، لكنني ذلك أثرا في العدل
ظاهرا ، ونورا في الرفق باهرا . فكيف وقد رفع من المظالم ، وبسط من
المرافق ما لا يحيط به الحصر .

وقد صدر في أيام تصنيف هذا من أمره الكريم من الرفق بالمسجونين ،
ورفع الوظائف الثقيلة التي كانت تؤخذ منهم ، ما هو اللائق بإحسانه ،
والمعهود من رأفته . وشمل الأمر بذلك جميع الأقطار . وكذلك صدر من
التنكيل بمن ثبت جورّه من القضاة والحكام ما فيه زجر الظلمة وردع
المعتدين . وما فعله في معاونة أهل الأندلس على الجهاد ، ومحافظته على
إمداد الثغور بالأموال والأقوات والسلاح ، وفته في عضد العدو ، بإعداد
العُدَد وإظهار القوة ، فذلك أمر شهير لم يغيب علمه عن أهل المغرب
والمشرق ، ولا سبق إليه أحد من الملوك .

قال ابن جرّي : حسب المشوّف إلى علم ما عند مولانا أيده الله من سِدَاد (٣)
القطر للمسلمين ، ودفاع القوم الكافرين ، ما فعله في فداء مدينة طَرَابُلُس
إفريقية : فإنها لما استولى العدو عليها ، ومدّ يد العدوان إليها ، ورأى أيده

(١) يريد المكوس . والتسمية غير عربية .

(٢) مصدر ضيفه أي أنزله عليه ضيفا . والمراد بالتضييف هنا ما يأخذه العامل لنفسه
زيادة على ما يأخذه للحكومة ، تسمية اصطلاحية .

(٣) إعداد العُدَّة لحماية البلاد من الأعداء ، بكسر السين .

الله أن بعث الجيوش لِنُصْرَتِهَا لا يَتَأْتِي لِبَعْدِ الْأَقْطَارِ ، كَتَبَ إِلَى خِدَامِهِ
بِبِلَادِ إِفْرِيْقِيَّةٍ أَنْ يَفْدُوْهَا بِالْمَالِ ، فَفَدِيَتْ بِمِخْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ مِنَ الذَّهَبِ الْعَيْنِ .
فَلَمَّا بَلَغَهُ خَبْرُ ذَلِكَ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي اسْتَرْجَعَهَا مِنْ أَيْدِي الْكُفَّارِ بِهَذَا النَّزْرِ
الْيَسِيرِ . وَأَمَرَ لِلْحَيْنِ بِبَعْثِ ذَلِكَ الْعَدَدِ إِلَى إِفْرِيْقِيَّةٍ ، وَعَادَتْ الْمَدِينَةُ إِلَى
الإِسْلَامِ عَلَى يَدِهِ . وَلَمْ يَخْطُرْ فِي الْأَوْهَامِ أَنْ أَحَدًا تَكُونُ عِنْدَهُ نَحْمَسَةُ قَنَاطِيرٍ
مِنَ الذَّهَبِ نَزْرًا يَسِيرًا ، حَتَّى جَاءَ بِهَا مَوْلَانَا أَيْدَهُ اللَّهُ مَكْرَمَةً بَعِيدَةً ، وَمَأْتَرَةً
فَائِقَةً ، قَلَّ فِي الْمُلُوكِ أَمْثَالُهَا ، وَعَزَّ عَلَيْهِمْ مِثَالُهَا . وَمِمَّا شَاعَ مِنْ أَعْمَالِ مَوْلَانَا
أَيْدَهُ اللَّهُ فِي الْجِهَادِ إِتْشَاؤُهُ الْأَجْفَانَ (١) بِجَمِيعِ السَّوَاخِلِ ، وَاسْتِكْثَارِهِ مِنْ عُدَدِ
الْبَحْرِ . وَهَذَا فِي زَمَانِ الصَّلْحِ وَالْمَهَادَنَةِ ، إِعْدَادًا لِأَيَّامِ الْغَزَاةِ ، وَأَخْذًا بِالْحَزْمِ
فِي قَطْعِ أَطْمَاعِ الْكُفَّارِ . وَأَكَّدَ ذَلِكَ بِتَوَجُّهِهِ أَيْدَهُ اللَّهُ بِنَفْسِهِ إِلَى جِبَالِ جَانَانَةِ
فِي الْعَامِ الْفَارِطِ ، لِيَبَاشَرَ قَطْعَ الْخَشْبِ لِلْإِنْشَاءِ ، وَيُظْهِرَ قَدْرَ مَا لَهُ بِذَلِكَ مِنَ
الْإِعْتِنَاءِ ، وَيَتَوَلَّى بِذَاتِهِ أَعْمَالَ الْجِهَادِ ، مُتَرْجِيًا ثَوَابَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَمَوْقِنًا
بِحَسَنِ الْجَزَاءِ .

(رَجِعْ) وَمِنْ أَعْظَمِ حَسَنَاتِهِ أَيْدَهُ اللَّهُ عِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْجَدِيدِ بِالْمَدِينَةِ الْبَيْضَاءِ ،
دَارِ مَلِكِهِ الْعَلِيِّ . وَهُوَ الَّذِي أَمْتَازَ بِالْحَسَنِ وَإِتْقَانِ الْبِنَاءِ ، وَإِشْرَاقِ النُّورِ وَبِدْعِ
الترْتِيبِ ، وَعِمَارَةِ الْمَدْرَسَةِ الْكُبْرَى بِالْمَوْضِعِ الْمَعْرُوفِ بِالْقَصْرِ ، مِمَّا يَجَاوِرُ قَصْبَةَ
فَاسٍ . وَلَا نَظِيرَ لَهَا فِي الْمَعْمُورَةِ اتِّسَاعًا وَحَسَنًا وَإِبْدَاعًا وَكَثْرَةَ مَاءٍ وَحَسَنَ
وَضَعٍ . وَلَمْ أَرِ فِي مَدَارِسِ الشَّامِ وَمِصْرَ وَالْعِرَاقِ وَحُرَّاسَانَ مَا يُشَبِّهُهَا ، وَعِمَارَةَ
الزَّوَايَةِ الْعِظْمَى عَلَى غَدِيرِ الْحَمَّصِ خَارِجَ الْمَدِينَةِ الْبَيْضَاءِ ، فَلَا مِثْلَ لَهَا أَيْضًا
فِي عَجِيبِ وَضْعِهَا ، وَبِدْعِ صَنْعِهَا . وَأَبْدَعَ زَاوِيَةَ رَأْيَتِهَا بِالشَّرْقِ زَاوِيَةَ

(١) المراكب الجار للحرب كما تقدم . وكان يذني أن يقول : الجففات أو الجفان ، لأن
المفرد جفته على التشبيه فيما يظهر . وقد سبق في الحواشي كلام كهذا . ويظهر من كلام المؤلف
أنه يعتبر أن المفرد (جفن) ولا وجه له فيما ترى .

(سَرِيَاقُوس) التي بناها الملك الناصر. وهذه أبدع منها وأشدَّ إحكاماً وإتقاناً .
والله سبحانه ينفع مولانا أيده الله بمقاصده الشريفة ، ويكافئ فضائله
المُنيّفة ، ويدمِّم للإسلام والمسلمين أيامه ، وينصر ألوِيته المُظفِّرة وأعلامه .

ولنعد إلى ذكر الرحلة فنقول : ولما حصلت لي مشاهدة هذا المقام
الكريم ، وعمنى فضل إحسانه العميم ، قصدت زيارة قبر الوالدة ،
فوصلت إلى بلدة طَنْجة وزرتها ، وتوجهت إلى مدينة سَبْتة ، فأقمت بها
أشهرًا . وأصابني بها المرض ثلاثة أشهر ثم عافاني الله . فأردت أن يكون لي
حظ من الجهاد والرباط . فركبت البحر من سَبْتة ، فوصلت إلى بلاد الأندلس ،
حرسها الله تعالى ، حيث الأجر موفور للساكن ، والثواب مذكور للقيم
والظاعن . وكان ذلك إثر موت طاغية الروم الفُؤُوس ، وحصاره الجبل
عشرة أشهر ، وظنه أنه يستولى على ما بقي من بلاد الأندلس للمسلمين . فأخذه
الله من حيث لم يحتسب . ومات بالوباء الذي كان أشدَّ الناس خوفًا منه .

وأول بلد شاهده من البلاد الأندلسية جبل الفتح . فلقيت به خطيبه الفاضل
أبا زكريا يحيى بن السراج الرُنْدِيّ ، وقاضيه عيسى البربري . وعنده نزلت .
وتطوّفت معه على الجبل ، فرأيت عجائب ما بنى به مولانا أبو الحسن رضى الله عنه ،
وأعدّ فيه من العُدَد ، وما زاد على ذلك مولانا أيده الله . ووددت لو كنت
من رابط به إلى نهاية العمر .

قال ابن جرّيّ : جبل الفتح هو معقل الإسلام ، المعترض شجّابًا في حُلُوق
عبدة الأصنام ، حسنة مولانا أبي الحسن رضى الله عنه المنسوبة إليه ،
وقرْبته التي قدمها نورا بين يديه . محل عُدَد الجهاد ، ومقر آساد الأجناد ،
والثغر الذي أفتّر عن نصر الإيمان ، وأذاق أهل الأندلس بعد مرارة الخوف
حلاوة الأمان . ومنه كان مبدأ الفتح الأكبر . وبه نزل طارق بن زياد مولى

موسى بن نُصَيْرٍ عند جَوَازِهِ . فنسب إليه ، فيقال له : جبل طارق ، وجبل الفتح ، لأن مبدأه كان منه . وبقايا السور الذى بناه ومن معه باقية إلى الآن ، تسمى بسور العرب . شاهدها أيام إقامتى به عند حصار الجزيرة ، أعادها الله .

ثم فتحه مولانا أبو الحسن ، رضوان الله عليه ، واسترجعه من أيدي الروم ، بعد تملكهم له عشرين سنة ونيفاً . وبعث إلى حصاره ولده الأمير الجليل أبا مالك ، وأيده بالأموال الطائلة والعساكر الجرارّة . وكان فتحه بعد حصار ستة أشهر . وذلك فى عام ثلاثة وثلاثين وسبعائة . ولم يكن حينئذ على ما هو الآن عليه . فبنى به مولانا أبو الحسن رحمه الله تعالى عليه المأثرة العظمى بأعلى الحصن ، وكانت قبل ذلك برجاً صغيراً ، تهدم بأحجار المجانيق ، فبناها مكانه . وبنى به دار الصناعة ، ولم يكن به دار صنعة . وبنى السور الأعظم المحيط بالتربة الحمراء ، الآخذ من دار الصنعة إلى القرمدة^(١) . ثم جدد مولانا أمير المؤمنين أبو عنان أيدته الله عهد تحصينه وتحسينه ، وزاد بها بناء السور بطرف الفتح . وهو أعظم أسواره غناء وأعمها نفعاً . وبعث إليه العُدُد الوافرة ، والأقوات والمرافق العامة . وعامل الله تعالى فيه بحسن النية وصدق الإخلاص . ولما كان فى الأشهر الأخيرة من عام ستة وخمسين ، وقع بجبل الفتح ما ظهر فيه أثريقين مولانا أيدته الله ، وثمرة توكله فى أموره على الله ، وبان مصداق ما اطردله من السعادة الكافية . وذلك أن عامل الجبل الخائن ، الذى حُتم له بالشقاء ، عيسى بن الحسن بن أبى منديل ، نزع يده المغلولة عن الطاعة ، وفارق عصمة الجماعة ، وأظهر النفاق ، وجمع فى الغدر والشقاق ، وتعاطى ما ليس من رجاله ، وعمى عن مبدأ حاله السيئ ومآله . وتوهم الناس أن ذلك مبدأ فتنة تنفق على

(١) المراد بالقرمدة مصنع القرميد .

إطفائها كرائم الأموال ، ويستعد لاتقائها بالفُرسان والرجال . فحكمت سعادة مولانا أيده الله ببطلان هذا التوهم ، وقضى صدق يقينه بانحراق العادة في هذه الفتنة . فلم تكن إلا أيام يسيرة حتى راجع أهل الجبل بصائرهم ، وثاروا على الناصر ، وخالفوا الشقّ المخالف ، وقاموا بالواجب من الطاعة ، وقبضوا عليه وعلى ولده المساعد له في النفاق ، وأتى بهما مصفّدين إلى الحضرة العلية ، فنفذ فيهما حكم الله في المحاربين ، وأراح الله من شرهما .

ولما تَحَدَّت نَار الفتنة أظهر مولانا أيده الله من العناية ببلاد الأندلس ما لم يكن في حساب أهلها ، وبعث إلى جبل الفتح ولده الأسعد ، المبارك الأرشد ، أبا بكر المدعو من السمات السلطانية بالسعيد ، أسعده الله تعالى . وبعث معه أنجاد الفُرسان ، ووجوه القبائل وكفأة الرجال ، وأدرّ عليهم الأرزاق ، ووسّع لهم الإقطاع ، وحرّر بلادهم من المغارم ، وبذل لهم جزيل الإحسان .

وبلغ من اهتمامه بأمور الجبل أن أمر أيده الله ببناء شكل يشبه شكله ، فثُل في أشكال أسواره وأبراجه وحِصنه وأبوابه ، ودار صنعته ومساجده ، ومخازن عُدده وأهراء^(١) زرعه ، وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء . فصنع ذلك . فكان شكلا عجيبا ، أتقنه الصناع إتقاناً ، يعرف قدره من شاهد الجبل وشاهد هذا المِثَال . وما ذلك إلا لتشوقه أيده إلى استطلاع أحواله ، وتهممه بتحصينه وإعداده . والله تعالى يجعل نصر الإسلام بالجزيرة الغربية على يديه ، ويحقق ما يؤمله في الفتح .

وتذكرت حين هذا التقييد قول الأديب البليغ المُفَلِّق ، أبي عبد الله محمد ابن غالب الرُّصافي البَلَنْسِي رحمه الله ، في وصف هذا الجبل المبارك ، من قصيدته الشهيرة في مدح عبد المؤمن بن علي التي أولها :

(١) جمع مُرَى — وهو البيت العظيم تجمع فيه غلات السلطان .

لو جئت نار الهدى من جانب الطور قَبَسْتَ ما شئت من علم ومن نور
وفيها يقول في وصف الجبل وهو من البديع الذى لم يُسبَق إليه ، بعد
وصفه السفن وجوّازها :

حتى رمت جبل الفتحين من جيلٍ معظّم القدر في الأَجبال مذكورٍ
من شاخ الأنف في سَعْنائه (١) طَلَسَ (٢)
تُمسَى النجوم على تكليل (٣) مَفْرِقِهِ
فربما مسحته من ذوائبها
وأدرِد من ثناياه بما أخذت
مُحَنِّكَ حَلَب الأيام أَشْطَرها (٦)
مَقِيد الخَطو جَوّال الخواطر في
قد واصل الصمت والإطراق مُفْتِكرا
مَعظّم القدر في الأَجبال مذكورٍ
له من الغَمِّ جِبِّ غير مَزْرورٍ
في الجوّ حائِمةً مثل الدنانير
بكل فَضْلٍ على فَوْدِيه (٤) مَجْرورٍ
منه معاجم أعواد الدهارير (٥)
وساقها سَوِّق حادى العير للعير (٧)
عجيب أمرِيه من ماضٍ ومنظور (٨)
بادى السكينة مُعَقَّر الأَسارير (٩)

(١) السخاء هنا اللون .

(٢) الغبرة إلى السواد .

(٣) إلباسه الإكليل وهو التاج .

(٤) الفود معظم شعر الرأس مما يلى الأذن .

(٥) الأدرد ذاهب الأسنان . والثنية الطريق في الجبل . وهى أيضا إحدى الثنايا الأربع
في مقدم الفم . والمعاجم جمع معجم ، من يحجم العود إذا عضه بأسنانه ليرى مقدار
صلابته . والدهارير الأزمان الماضية ، لا واحده .

(٦) مر به خيرها وشرها .

(٧) حادى العير سائقها . والعير الإبل التى تحمل الميرة .

(٨) المنظور المتظفر .

(٩) أسارير جمع أمرار وأسرار جمع سرر ، وأسارير الجبهة خطوطها .

كَأَنَّهُ مُكَمَّدٌ مِمَّا تَعَبَّدَهُ خَوْفُ الْوَعِيدِينَ مِنْ دَكِّ وَتَسْيِيرِ (١)
أَخْلَقَ بِهِ وَجِبَالُ الْأَرْضِ زَاجِفَةٌ أَنْ يَطْمُنَّ غَدَا مِنْ كُلِّ مَحْذُورٍ
ثُمَّ اسْتَمَرَ فِي قَصِيدَتِهِ عَلَى مَدْحِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِيٍّ .

قال ابن جرير: ولنعهد إلى كلام الشيخ أبي عبد الله ، قال : ثم خرجت
من جبل الفتح إلى مدينة رندة ، وهي من أمتع معاقل المسلمين وأجملها
وضعا . وكان قائدها إذ ذاك الشيخ أبو الربيع سليمان بن داود العسكري ،
وقاضيا ابن عمي الفقيه أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة . ولقيت بها الفقيه
القاضي الأديب أبا المحجاج يوسف بن موسى المنتشاقري . وأضافني بمنزله .
ولقيت بها أيضا خطيبها الصالح الحاج الفاضل أبا إسحاق إبراهيم المعروف
بالشندرخ ، المتوفى بعد ذلك بمدينة سلا من بلاد المغرب . ولقيت بها جماعة
من الصالحين منهم عبد الله الصفّار وسواه . وأقيمت بها خمسة أيام .

ثم سافرت منها إلى مدينة مربة ، والطريق فيما بينهما صعب شديد
الوعورة . ومربة بليدة حسنة خصبة . ووجدت بها جماعة من الفرسان
متوجهين إلى مالقة ، فأردت التوجه في صحبتهم . ثم إن الله تعالى عصمني
بفضله ، فتوجهوا قبلي فأسروا في الطريق ، كما سنذكره . وخرجت في
إثرهم ، فلما جاوزت حوز مربة ودخات في حوز سهيل ، مررت بفرس
ميت في بعض الخنادق . ثم مررت بقفّة سمك مطروحة بالأرض ، فرابنى
ذلك وكان أمامي برج الناطور (٢) ،

(١) الكعدة تغير اللون . يعني كأن هذا الجبل تغير لونه من خوفه أن يدك أو يسير ،
وذلك يوم القيامة .

(٢) الناطور هو حافظ الكرم والنخل ، وكذا الناطور . ولكن المراد هنا من يشرف من
مكان عال لينظر عن بعد . وهو بهذا المعنى غير عربي .

فقتل في نفسى : لو ظهرها هنا عدو لأنذر به صاحب البرج . ثم تقدمت إلى دار هنالك فوجدت عليها فرسا مقتولا . فبينما أنا هنالك إذ سمعت الصياح من خلفى ، وكنت قد تقدمت أصحابى ، فعدت إليهم فوجدت معهم قائد حصن سُهَيْل ، فأعلمنى أن أربعة (أجفان) للعدو ظهرت هنالك ، ونزل بعض عمارتها إلى البر . ولم يكن (الناظور) بالبرج ، فمربهم الفرسان الخارجون من مَرَبَلَّة ، وكانوا اثني عشر . فقتل النصارى أحدهم ، وفر واحد وأسير العشرة ، وقتل معهم رجل حَوَات ، وهو الذى وجدت قفته مطروحة بالأرض .

وأشار على ذلك القائد بالمبيت معه في موضعه ، ليوصلنى منه إلى مَالِقَة . فبت عنده بحصن الرابطة ، والأجفان المذكورة مُرساة عليه . وركب معى بالغد فوصلنا إلى مدينة مالقة ، إحدى قواعد الأندلس وبلاد الحسان ، جامعة بين مرافق البر والبحر ، كثيرة الخيرات والفواكه . رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير . ورماتها الياقوتى لا نظيره في الدنيا . وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب . قال ابن جُرَى : وإلى ذلك أشار الخطيب أبو محمد عبد الوهاب بن على المالقى في قوله ، وهو من مליح التجنيس :

مالقة حيث ياتينها فالفلك من أجلك ياتينها

نهى طبيى عنك في علة ما لطيبى عن حياتى نهى

(رجع) وبمالقة يصنع القُخار المذهب العجيب ، ويجلب منها إلى أقصى البلاد . ومسجدها كبير الساحة شهير البركة ، وصحنه لا نظير له في الحسن ، فيه أشجار النَّارُجُج البعيدة^(١) . ولما دخلت مالقة وجدت قاضيها الخطيب الفاضل أبا عبد الله ابن خطيبها الفاضل أبى جعفر ابن خطيبها ولى

(١) النالفة .

الله تعالى ابن عبد الله الطنجالي ، قاعدا بالجامع الأعظم ، ومعه الفقهاء ووجوه الناس ، يجمعون مالا يرسم فداء الأسارى الذين تقدم ذكرهم . فقلت له : الحمد لله الذى عافانى ولم يجعلنى منهم . وأخبرته بما اتفق لى بعدهم ، فعجب من ذلك ، وبعث لى بالضيافة ، رحمه الله .

ثم سافرت منها إلى مدينة بلش ، وبينهما أربعة وعشرون ميلا . وهى مدينة حسنة بها مسجد عجيب ، وفيها الأعتاب والفواكه والتين ، كمثل ما بمالقة . ثم سافرنا منها إلى الحمة^(١) وهى بلدة صغيرة لها مسجد بديع الوضع عجيب البناء ، وبها العين الحارة على ضفة واد بها . وبينها وبين البلد ميل أو نحوه . وهناك بيت لاستحمام الرجال ، وبيت لاستحمام النساء .

ثم سافرت منها إلى مدينة غرناطة ، قاعدة بلاد الأندلس وعروس مدنها . وخارجها لا نظير له فى بلاد الدنيا ، وهو مسيرة أربعين ميلا ، يخترقه نهر شذيل المشهور ، وسواه من الأنهار الكثيرة . والبساتين والجنان والرياض والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة . ومن عجيب مواضعها عين الدمع ، وهو جبل فيه الرياض والبساتين ، لا مثل لها بسواها . قال ابن جزى : لولا خشيتى أن أنسب إلى العصبية لأطلت القول فى وصف غرناطة ، ولكن ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لإطالة القول فيه . والله در شيخنا أبى بكر محمد ابن أحمد بن شيرين البستى نزيل غرناطة ، حيث يقول :

رعى الله من غرناطة متبواً يسر حزيناً أو يُجِير طريداً
تبرم منها صاحبي عند ما رأى مسارحها بالثلج عذناً جليداً
هى الثغرى صان الله من أهلت به^(٢) وما خير ثغر لا يكون بروداً

(١) الحمة : العين الحارة يستسقى بها الأعداء والمرضى اه يا قوت . سميت به البلدة للعين

الحارة التى بها .

(٢) أهلت به : قالت له : أهلاً .

ذكر سلطانها

وكان ملك غرناطة في عهد دخولى إليها السلطان أبو الحجاج يوسف ابن السلطان أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر . ولم ألقه بسبب مرض كان به . وبعثت إلى والدته الحرة الصالحة الفاضلة بدنانير ذهب ارتفعت بها . ولقيت بغرناطة جملة من فضلائها ، منهم قاضى الجماعة بها الشريف البليغ أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد الحسينى السبتي ، ومنهم فقيها المدرس الخطيب العالم أبو عبد الله محمد بن إبراهيم البياني ، ومنهم عالمها ومقرئها الخطيب أبو سعيد فرج بن قاسم الشهير بابن لب . ومنهم قاضى الجماعة ، نادرة العصر وطرفة الدهر ، أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم السامى البلعبي ، قدم عليها من الميرية في تلك الأيام ، فلقيته في بستان الفقيه أبي القاسم محمد ابن الفقيه الكاتب الجليل أبي عبد الله بن عاصم . وأقنا هنالك يومين وليلة .

قال ابن جزي : كنت معهم في ذلك البستان ، وتمتعا الشيخ أبو عبد الله بأخبار رحلته ، وقيدت عنه أسماء الأعلام الذين لقيهم فيها ، واستفدنا منه الفوائد العجيبة . وكان معنا جملة من وجوه أهل غرناطة . منهم الشاعر المجيد الغريب الشأن ، أبو جعفر أحمد بن رضوان بن عبد العظيم الجذامي . وهذا الفتى أمره عجيب ، فإنه نشأ بالبادية ، ولم يطلب العلم . ثم إنه نبغ في الشعر الجيد ، الذى يندر وقوعه من كبار البلغاء وصدور الطلبة ، مثل قوله :

يا من اختار فؤادى متراً بابه العين التى ترمقه
فتح الباب سهادى بعدكم فابعثوا طيقكمو يغلقه

(رجع) ولقيت بفرناطة شيخ الشيوخ والمتصوفين بها ، الفقيه أبا علي عمر ابن الشيخ الصالح الولي ، أبا عبد الله محمد بن المحروق . وأقيمت أياما بزوايته التي بخارج غرناطة ، وأكرمني أشد الإكرام . وتوجهت معه إلى زيارة الزاوية الشهيرة البركة ، المعروفة برابطة العقاب . والعقاب جبل مُطلّ على خارج غرناطة ، وبينهما نحو ثمانية أميال . و بفرناطة جملة من فقراء العجم استوطنوها لشبهها ببلادهم .

ثم رحلت من غرناطة إلى الحمّة ، ثم إلى بلّش ، ثم إلى مالقة ، ثم إلى حصن ذكوان ، وهو حصن حسن كثير المياه والأشجار والقواكه . ثم سافرت منه إلى رُنْدَة ، ثم إلى قرية بني رياح ، فأزلفتني شيخنا أبو الحسن علي بن سليمان الرّياحي ، وهو أحد كرماء الرجال وفضلاء الأعيان ، يطعم الصادر والوارد . وأضافني ضيافة حسنة . ثم سافرت إلى جبل الفتح . وركبت البحر في الجفن (١) الذي جُرّت فيه أولا . فوصلت إلى سَبْتَة . ثم سافرت منها إلى أصيلا ، وأقيمت بها شهورا . ثم سافرت منها إلى مدينة سَلا . ثم سافرت من سَلا فوصلت إلى مدينة مَرَّاكُش ، وهي من أجمل المدن ، فسيحة الأرجاء ، متسعة الأقطار ، كثيرة الخيرات ، بها المساجد الضخمة ، كمسجدها الأعظم المعروف بمسجد الكُتَيْبِيْنَ . وبه الصّومعة الهائلة العجيبة ، صعدها وظهر لي جميع البلد منها ، وقد استولى عليه الخراب ، فما شبهته إلا ببغداد ، إلا أن أسواق بغداد أحسن . وبمَرَّاكُش المدرسة العجيبة ، التي تميزت بحسن الوضع وإتقان الصنعة . وهي من بناء الإمام مولانا أمير المسلمين أبي الحسن ، رضوان الله عليه . قال ابن جُزَي : في مَرَّاكُش يقول قاضيها التاريخي ، أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسى :

لله مراكش الغراء من بلد	وحبذا أهلها السادات من سكن
إن حلها نازح الأوطان مغترب	أسلوه بالأنس عن أهل وعن وطن
بين الحديث بها أو العيان لها	يتنشا التحاسد بين العين والأذن

(١) تقدم الكلام على هذا اللفظ في الحواشي .

(رجع) ثم سافرنا من مراكش في صحبة الركاب العلى ، ركاب مولانا أيده الله ، فوصلنا إلى مدينة سلا ، ثم إلى مدينة مكناسة العجيبة الخصرة النضرة ، ذات البساتين والجنات ، المحيطة بها من جميع نواحيها . ثم وصلنا إلى حضرة فاس حرسها الله تعالى ، فودعت بها مولانا أيده الله . وتوجهت للسفر إلى بلاد السودان ، فوصلت إلى مدينة سجلماسة ، وهي من أحسن المدن ، وبها التمر الكثير الطيب . وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر ، لكن تمر سجلماسة أطيب . ونزلت منها عند الفقيه أبي محمد البشري ، وهو الذي لقيت أخاه بمدينة قنجنفو من بلاد الصين ، فأكرمني غاية الإكرام ، واشترت بها الجمال وعلقتها أربعة أشهر . ثم سافرت في غرة شهر الله المحرم سنة ثلاث وخمسين ، في رقة مقدمها أبي محمد يندكان المسوفي رحمه الله . وفيها جماعة من تجار سجلماسة وغيرهم . فوصلنا بعد خمسة وعشرين يوما إلى تغازا ، وهي قرية لا خير فيها . ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح ، وسقفها من جلود الجمال . ولا شجر بها ، وإنما هي رمل فيه معدن الملح ، يخفر عليه في الأرض ، فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة ، كأنها قد نُحِتت ووضعت تحت الأرض ، يحمل الجمل منها لوحين . ولا يسكنها إلا عبيد مسوفة الذين يحفرون على الملح . ويتعيشون بما يُجلب إليهم من تمر دَرعة وسجلماسة ، ومن لحوم الجمال . ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح . وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة ، يقطعونه قطعا ويتبايعون به . وقرية تغازا على حِقارِتها يتعامل فيها بالقناطير المقلنطرة من التبر . وأقنابها عشرة أيام في جهد ، لأن ماءها زعاق^(١) ، وهي أكثر المواضع ذبابا . ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التي بعدها ، وهي مسيرة عشرة لا ماء فيها إلا في النادر . ووجدنا نحن بها ماء كثيرا في غدران أبقاها المطر . ولقد وجدنا في بعض الأيام غديرا بين تلتين من

(١) ماح .

حجارة مائه عذب ، فرَوينا منه وغسلنا ثيابنا . وكنا في تلك الأيام نتقدم أمام القافلة ، فإذا وجدنا مكانا يصلح للرعى لرعينا الدواب به . ولقد لقينا قافلة في طريقنا ، فأخبرونا أن بعض رجال انقطعوا عنهم ، فوجدنا أحدهم ميتا تحت شجيرة من أشجار الرمل ، وعليه ثيابه وفي يده سوط . وكان الماء على نحو ميل منه . ثم وصلنا إلى تاسرَهْلا ، وهي أَحْساء^(١) ماء تنزل القوافل عليها ، ويقيمون ثلاثة أيام فيستريحون ، ويصلحون أسقيتهم ويملئونها بالماء ، ويخيطون عليها التلايس^(٢) خوف الريح ، ومن هنالك يُبعث التكشيف .

ذكر (التكشيف)

والتكشيف اسم لكل رجل من مسوفة يكثره أهل القافلة ، فيتقدم إلى (إيوالاين) بكتب الناس إلى أصحابهم بها ، ليكتبوا لهم الدور ، ويخرجوا للقائم بالماء مسيرة أربع . ومن لم يكن له صاحب إيوالاين ، كتب إلى من شهِرَ بالفضل من التجار بها ، فيشاركه في ذلك . وربما هلك التكشيف في هذه الصحراء ، فلا يعلم أهل إيوالاين بالقافلة ، فيهلك أهلها أو الكثير منهم . وتلك الصحراء كثيرة الشياطين ، فإن كان التكشيف منفردا لعبت به واستهوتته ، حتى يضل عن قصده فيهلك^(٣) ، إذ لا طريق يظهر بها ولا أثر، وإنما هي رمال تَسْفِيها الريح ، فترى جبالا من الرمل في مكان ، ثم تراها قد انتقلت إلى سواه . والدليل هنالك من كثر تردده وكان له قلب ذكي . ورأيت من العجائب أن الدليل الذي كان لنا أعور العين الواحدة ، مريض الثانية . وهو أعرف الناس بالطريق .

(١) جمع حَسَى وهو مهل من الأرض يستنقع فيه الماء .

(٢) جمع تَلَيْسَة ، وعاء يسوى من الخوص .

(٣) هكذا اعتقادهم . ويظهر أنه نشأ عندهم من كثرة ما في هذه الصحراء من المخاوف .

واكثرينا التكشيف في هذه السفرة بمائة مثقال من الذهب . وهو من مسوفة . وفي ليلة اليوم السابع رأينا نيران الذين خرجوا للقائنا ، فاستبشرنا بذلك . وهذه الصحراء منيرة مشرقة ، ينشرح الصدر فيها وتطيب النفس . وهي آمنة من السراق . والبقر الوحشية بها كثيرة ، يأتي القطيع منها حتى يقرب من الناس ، فيصطادونه بالكلاب والنشاب . لكن لحمها يولد أكله العطش ، فيتحمها كثير من الناس لذلك . ومن العجائب أن هذه البقر إذا قتلت وجد في كروشها الماء . ولقد رأيت أهل مسوفة يعصرون الكرش منها ، ويشربون الماء الذي فيه . والحيات أيضا بهذه الصحراء كثيرة .

حكاية

وكان في القافلة تاجر تلمساني يعرف بالحاج زيّان ، ومن عادته أن يقبض على الحيات ويعبث بها ، وكنت أنهاه عن ذلك فلا ينتهي . فلما كان ذات يوم ، أدخل يده في جحر ضب ليخرجه فوجد مكانه حية ، فأخذها بيده ، وأراد الركوب ، فأسعته في سبأته اليمنى ، وأصابه وجع شديد . فكويت يده ، وزاد ألمه عشى النهار . فنجح جملا وأدخل يده في كرشه ، وتركها كذلك ليلته ، ثم تناثر لحم إصبعه ، فقطعها من الأصل . وأخبرنا أهل مسوفة أن تلك الحية كانت قد شربت الماء قبل لسعه . ولو لم تكن شربت لقتلته .

ولما وصل إلينا الذين استقبلونا بالماء شربت خيلنا . ودخلنا صحراء شديدة الحر ليست كالتى عهدنا . وكنا نرحل بعد صلاة العصر ، ونسرى الليل كله ،

ونزل عند الصباح. وتأتى الرجال من مسوفة وبردامة وغيرهما بأحمال الماء للبيع. ثم وصلنا إلى مدينة (إيوالاتن) في غرة شهر ربيع الأول ، بعد سفر شهرين كاملين من سِجلماسة . وهى أول عمالة السودان ، ونائب السلطان بها قَرَبًا حسين . وقَرَبًا معناه النائب . ولما وصلناها جعل التجار أمتعتهم فى رَحَبَة ، وتكفّل السودان بحفظها . وتوجهوا إلى القَرَبًا ، وهو جالس على بساط فى سَقِيف ، وأعاناه بين يديه بأيديهم الرماح والقسي ، وكبراء مسوفة من ورائه . ووقف التجار بين يديه ، وهو يكلمهم بترجمان على قربهم منه احتقاراً لهم . فعند ذلك ندمتُ على قدومى بلادهم ، لسوء أديهم واحتقارهم للأبيض . وقصدت دار ابن بداء ، وهو رجل فاضل من أهل سَلَا ، كنت كتبت له أن يكترى لى دارا ففعل ذلك .

ثم إن مُشْرِفَ إيواتن ، ويسمى مَنشَاجو ، استدعى من جاء فى القافلة إلى ضيافته ، فأبيت حضور ذلك . فعزم الأصحاب على أشد العزم ، فتوجهت فىمن توجه . ثم أُتِ بالضيافة ، وهى جَرِيش مخلوط بيسير عسل ولبن ، قد وضعوه فى نصف قرعة صيروه شبه الحفنة . فشرب الحاضرون وانصرفوا . فقلت لهم : ألهذا دعانا الأسود ؟ قالوا : نعم ، وهو الضيافة الكبيرة عندهم . فأيقنت حينئذ أن لاخير يُرتجى منهم . وأردت أن أسافر مع جُحَّاج إيواتن . ثم ظهر لى أن أتوجه لمشاهدة حضرة ملكهم . وكانت إقامتى بإيواتن نحو خمسين يوماً . وأكرمنى أهلها وأضافونى . وبلدة إيواتن شديدة الحر . وفيها يسير نُحَيلات يزدرعون فى ظلالها البطح . وماؤهم من أحساء بها . ولحم الضأن كثير بها . وثياب أهلها حسان مصرية . وأكثر السكان بها من مسوفة . ولنسائها الجمال الفائق . وهن أعظم شأنًا من الرجال .

ذِكْرُ مَسُوفَةِ السَّاكِنِينَ بِأَيُّوَالَاتِنِ

وَشَأْنُ هَؤُلَاءِ عَجِيبٌ ، وَأَمْرُهُمْ غَرِيبٌ . فَأَمَّا رَجَالُهُمْ فَلَا غَيْرَةَ لَدَيْهِمْ . وَلَا يُنْسَبُ أَحَدُهُمْ إِلَى أَبِيهِ ، بَلْ يَنْتَسِبُ لِحَالِهِ . وَلَا يَرِثُ الرَّجُلُ إِلَّا أَبْنَاءَ أُخْتِهِ دُونَ بَنِيهِ . وَذَلِكَ شَيْءٌ مَا رَأَيْتُهُ فِي الدُّنْيَا ، إِلَّا عِنْدَ كُفَّارِ بِلَادِ الْمُؤَلِّيَّاتِ مِنَ الْهِنْدِ . وَأَمَّا هَؤُلَاءُ فَهُمُ الْمُسْلِمُونَ مُحَافِظُونَ عَلَى الصَّلَاةِ ، وَتَعَلَّمُوا الْفِقْهَ وَحَفِظُوا الْقُرْآنَ . وَأَمَّا نِسَاؤُهُمْ فَلَا يَحْتَسِبْنَ مِنَ الرِّجَالِ وَلَا يَحْتَجِبْنَ ، مَعَ مَوَاطِبَتِهِنَّ عَلَى الصَّلَاةِ . وَمَنْ أَرَادَ التَّرُوجَ مِنْهُنَّ تَزَوَّجَ ، لَكِنَّهُنَّ لَا يَسَافِرْنَ مَعَ الزَّوْجِ . وَلَوْ أَرَادَتْ إِحْدَاهُنَّ ذَلِكَ لَمَنَعَهَا أَهْلُهَا .

وَلَمَّا عَزِمْتُ عَلَى السَّفَرِ إِلَى (مَالِي) وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ أَيُّوَالَاتِنِ مَسِيرَةٌ أَرْبَعَةٌ وَعِشْرِينَ يَوْمًا لِلْبُجْدِ ، أَكْثَرِيتُ دَلِيلًا مِنْ مَسُوفَةٍ ، وَخَرَجْتُ فِي ثَلَاثَةٍ مِنَ أَصْحَابِي . وَتِلْكَ الطَّرِيقُ كَثِيرَةُ الْأَشْجَارِ . وَأَشْجَارُهَا عَادِيَةٌ ضَخْمَةٌ ، تَسْتِظِلُّ الْقَافِلَةَ بِظِلِّ الشَّجَرَةِ مِنْهَا . وَبَعْضُهَا لَا أَغْصَانُ لَهَا وَلَا وَرَقٌ ، وَلَكِنْ ظِلُّ جَسَدِهَا يَحِثُّ يَسْتِظِلُّ بِهِ الْإِنْسَانُ . وَبَعْضُ تِلْكَ الْأَشْجَارِ قَدْ اسْتَأْسَنَ دَاخِلُهَا ، وَاسْتَنْقَعَ فِيهِ مَاءَ الْمَطَرِ ، فَكَأَنَّمَا بَثْرٌ . وَيَشْرَبُ النَّاسُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي فِيهَا . وَيَكُونُ فِي بَعْضِهَا النِّحْلُ وَالْعَسَلُ فَيَسْتَأْرَهُ النَّاسُ مِنْهَا . وَلَقَدْ مَرَرْتُ بِشَجَرَةٍ مِنْهَا فَوَجَدْتُ فِي دَاخِلِهَا رَجُلًا حَائِكًا وَهُوَ يَنْسُجُ ، فَعَجِبْتُ مِنْهُ . وَفِي أَشْجَارِ هَذِهِ الْغَابَةِ الَّتِي بَيْنَ أَيُّوَالَاتِنِ وَمَالِي مَا يَشْبَهُ ثَمْرَةَ الْإِجَاصِ وَالتَّفَاحِ وَالْحَوْخِ وَالْمِشْمِشِ ، وَلا يَسْتَبِيحُهَا . وَفِيهَا أَشْجَارٌ تَتَمَثَّلُ شَبَهَ الْقُقُوصِ (١) ، فَإِذَا طَابَ انْفِلَاقُ عَنْ شَيْءٍ شَبَهَ الدَّقِيقَ ، فَيَطْبَخُونَهُ وَيَأْكُلُونَهُ ، وَيَبَاعُ بِالْأَسْوَاقِ . وَيَسْتَخْرِجُونَ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ حَبَاتٍ كَالْفُولِ ، فَيَقْلُونَهَا وَيَأْكُلُونَهَا . وَطَعْمُهَا كَطَعْمِ الْحَمِّصِ (٢)

(١) انظر صفحة ٣١٨

(٢) يقال فيه : حَمَّصَ وَحَمَّصَ .

المقلوب. وربما طحنوها وصنعوا منها شبه الإسفنج وقلوه (بالغري)، وهو ثمر كالإجاص شديد الحلاوة. ويدق عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع: فمنها أنهم يطبخون به ويسرجون السرج، ويقولون به هذا الإسفنج، ويدهنون به، ويخلطونه بتراب عندهم ويسطحون به الدور كما تُسطح بالجير. وهو عندهم كثير متيسر، ويحمل من بلد إلى بلد في قرع كبار، تسع القرعة منها قدر ما تسعه القلعة ببلادنا. والقرع ببلاد السودان يعظم. ومنه يصنعون الحفان، يقطعون القرعة نصفين، فيصنعون منها جفتين، ويلقشونها نقشا حسنا. وإذا سافر أحدهم يتبعه عبيده وجواريه، يحملون فرشته وأوانيها التي يأكل ويشرب فيها. وهي من القرع.

والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زادا ولا إداما ولا دينارا ولا درهما، وإنما يحمل قطع الملح وحلّي الزجاج، وبعض السلع العطرية. وأكثر ما يهجمهم منها القرنفل والمصطكا. فإذا وصل قرية جاء نساء السودان باللبن والدجاج ودقيق النبق، والأرز (الفوني)، وهو حبوب الخردل يصنع منه العصيدة، ودقيق اللؤلؤ. فيشتري منهن ما أحب من ذلك. وبعد مسيرة عشرة أيام من إيوالاين، وصلنا إلى قرية زاغري، وهي قرية كبيرة يسكنها تجار السودان، ويسكن معهم جماعة من البيض.

ثم سرنا من زاغري، فوصلنا إلى النهر الأعظم وهو النيل، وعليه بلدة كارتخو. والنيل ينحدر منها إلى كبرة، ثم إلى زاغة. ولكبرة وزاغة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالى. وأهل زاغة قدماء في الإسلام، ولهم ديانة وطلب للعلم. ثم ينحدر النيل من زاغة إلى تذبكتو، ثم إلى كوكو، وسند كرها، ثم إلى بلدة مولي من بلاد الليميين، وهي آخر عمالة مالى، ثم إلى يوفي، وهي من أكبر بلاد السودان، وسلطانها من أعظم سلاطينهم، ولا يدخلها

الأبيض من الناس ، لأنهم يقتلونهم قبل الوصول إليها . ثم ينحدر إلى بلاد
التوبة ، وهم على دين النصرانية . ثم إلى دُنُقَلَة وهي أكبر بلادهم ، ورسطانها
يدعى يابن كترالدين ، أسلم على أيام الملك الناصر . ثم ينحدر إلى جنادل ،
وهي آخر عمالة السودان ، وأول عمالة أسوان من صعيد مصر . ورأيت
التمساح بهذا الموضع من النيل بالقرب من الساحل كأنه قارب صغير . ولقد
نزلت يوماً إلى النيل لقضاء حاجة ، فإذا بأحد السودان قد جاء ووقف فيما
بينى وبين النهر ، فعجبت من سوء أدبه وقلة حياته ، وذكرت ذلك لبعض
الناس . فقال : إنما فعل ذلك خوفاً عليك من التمساح ، فخال بينك وبينه .

ثم سرنا من كَارْتَمَنُو ، فوصلنا إلى نهر صَنْصَرَة ، وهو على نحو عشرة أميال
من مَالِي . وعادتهم أن يمنع الناس من دخولها إلا بالإذن . وكنت كتبت
قبل ذلك لجماعة البيض ، ليكثروا لى دارا . فلما وصلت إلى هذا النهر
جُرْتُ فى (المعدية) ولم يمنعنى أحد ، فوصلت إلى مدينة مَالِي حضرة ملك
السودان ، فنزلت عند مقبرتها . ووصلت إلى مَحَلَّة البيض ، وقصدت مجد
ابن الفقيه الجزولى ، فوجده قد اكترى لى دارا إزاء داره ، فتوجهت
إليها . وجاء صهره الفقيه المقرئ عبد الواحد بشمعة وطعام ، ثم جاء ابن الفقيه
إلى من الغد . ولقيت القاضى بمَالِي عبد الرحمن ، وهو من
السودان ، حاج فاضل له مكارم أخلاق . بعث إلى بقرة فى ضيافته . ولقيت
الترجمان دُوغَا ، وهو من أفاضل السودان وكجارهم . وبعث إلى بثور .
وبعث إلى الفقيه عبد الواحد غَرَارَتين من (الفُونِي) وقرعة من (القُرْتِي) . وبعث
إلى ابن الفقيه الأرز والفونى . وقاموا بحق أتم قيام . شكر الله حسن أفعالهم .
وكان ابن الفقيه متروجا ببنت عم السلطان . فكانت تتفقدا بالطعام وغيره .
وأكلنا بعد عشرة أيام من وصولنا عَصيدة تصنع من شىء شبه القلقاس ،

يسمى القافى . وهى عندهم مفضلة على سائر الطعام . فأصبحنا جميعا مرضى ،
وكنا ستة ، فمات أحدنا . وذهبت أنا لصلاة الصبح فغشي علىّ فيها . وطلبت
من بعض المصريين دواء مسهلا ، فأتى بشيء يسمى (بيدرا) ، وهو عروق نبات ،
وخلطه بالأيسون والسكر ، ولته بالماء ، فشربته وتقيأت ما أكلته ، مع
صفراء كثيرة . وعافانى الله من الهلاك ، ولكنى مرضت شهرين .

ذكر سلطان مالى

وهو السلطان منسا سليمان ، ومنسا معناه السلطان ، وسليان اسمه . وهو
ملك بخيل لا يرجى منه كبير عطاء . واتفق أنى أقت هذه المدّة ولم أره
بسبب مرضى . ثم صنع طعاما برسم عزاء مولانا أبى الحسن رضى الله عنه ،
واستدعى الأمراء والفقهاء والقاضى والخطيب . وحضرت معهم ، فأتوا
بالربعات^(١) ، وختم القرآن . ودعوا لمولانا أبى الحسن رحمه الله ، ودعوا
لانسأ سليمان . ولما فرغ من ذلك ، تقدمت فسلمت على منسا سليمان ،
وأعلمه القاضى والخطيب وابن الفقيه بحالى ، فأجابهم بلسانهم . فقالوا لى :
يقول لك السلطان : اشكر الله . فقلت : الحمد لله والشكر على كل حال .

ذكر ضيافتهم التافهة وتعظيمهم لها

ولما انصرفت بعث إلى الضيافة ، فوجّهت إلى دار القاضى ، وبعث
القاضى بها مع رجاله إلى دار ابن الفقيه ، فخرج ابن الفقيه من داره مسرعا
[حافى القدمين ، فدخل علىّ وقال : قم ، قد جاءك (قمّاش) السلطان وهديته .

(١) الربة أجزاء المصحف الشريف مجموعة فى وءاء أو صندوق ، وهى تسمية عرفية .

وأصل الربة جربة العطار ، وهى سلة صغيرة مغطاة بالجلد يوضع فيها العطر .

فتمت ، وظننت أنها الخلع والأموال ، فإذا هي ثلاثة أقراص من الخبز ،
وقطعة لحم بقرى مقلوة بالغرقي ، وقرعة فيها لبن رائب . فعند ما رأيتها
ضحكت ، وطال تعجبي من ضعف عقولهم ، وتعظيمهم للشئ الحقير .

ذكر كلامي للسلطان بعد ذلك وإحسانه إليّ

وأقمت بعد بعث هذه الضيافة شهرين لم يصل إليّ فيهما شئ من قبل
السلطان. ودخل شهر رمضان. وكنت في خلال ذلك أتردد إلى (المشور) ، وأسلم
عليه ، وأقعد مع القاضي والخطيب . فتكلمت مع دؤوا الترجمان ، فقال :
تكلم عنده ، وأنا أعبرك بما يجب . فجلس في أوائل رمضان ، وقمت بين يديه ،
وقلت له : إني سافرت في بلاد الدنيا ولقيت ملوكها ، ولى ببلادك أربعة أشهر ،
ولم تُضفني ولا أعطيتني شيئاً . فإذا أقول عنك عند السلاطين ؟ فقال : إني
لم أرك ولا علمت بك . فقام القاضي وابن الفقيه فردّا عليه ، وقالوا : إنه قد
سلم عليك ، وبعثت إليه الطعام . فأمر لي عند ذلك بدار أنزل بها ، ونفقة
تجري عليّ . ثم أعطى القاضي والخطيب والفقهاء مالا ، ليلة سبع وعشرين
من رمضان ، يسمونه الزكاة . وأعطاني معهم ثلاثة وثلاثين مثقالاً وثلاثاً ،
وأحسن إليّ عند سفري بمائة مثقالٍ ذهباً .

ذكر جلوسه بقبته

وله قبة مرتفعة بابها بداخل داره ، يقعد فيها أكثر الأوقات . ولها من
جهة (المشور) طيقان^(١) ثلاثة من الخشب ، مغطاة بصفايح الفضة ، وتحته
ثلاثة مغطاة بصفايح الذهب ، أو هي فضة مذهبة ، وعليها ستور (ملف)^(٢) .

(١) جمع طاق ، وهو ما عطف من الأبنية . قاموس .

(٢) سبق في الحواشي أنه نسيج يشبه ما يسمى (الجوخ) عندنا واللفظ بهذا المعنى غير عربي .

فإذا كان يوم جلوسه بالقبة ، رُفِعَت الستور فعَلِمَ أنه يجلس . فإذا جلس أُخْرِجَ من شباك أحد الطيقان (شرابة) حرير ، قد ربط فيها منديل مصري مرقوم . فإذا رأى الناس المنديل ضُربت الأبطال والأبواق . ثم يخرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد ، في أيدي بعضهم القسي ، وفي أيدي بعضهم الرماح الصغار والدرق . فيقف أصحاب الرماح منهم ميمنة وميسرة . ويجلس أصحاب القسي كذلك ، ثم يؤتى بفرسين مُسرجين مُلجَمين ومعهما كَبْشَان ، يذكرون أنهما ينفعان من العين . وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسردين ، فيدعون نائبه قنجا موسى . وتأتى (الفرارية) ، وهم الأمراء . ويأتى الخطيب والفقهاء ، فيقعدون أمام (السلحدارية) يمتنعون ويُسْرَقُ في (المشور) . ويقف دُوغا الترجمان على باب (المشور) ، وعليه الثياب الفاخرة ، وعلى رأسه عمامة ذات حَوَاش ، لهم في تعميمها صنعة بديعة ، وهو متقلد سيفاً غمده من الذهب ، وفي رجله الخُفّ والمهاميز . ولا يلبس أحد ذلك اليوم خُفّاً غيره ، ويكون في يده رحمان صغيران ، أحدهما من ذهب والآخر من فضة ، وسنّاناهما من الحديد .

ويجلس الأجناد والولاة والفَتِيان وغيرهم في خارج (المشور) ، في شارع هنالك متسع فيه أشجار . وكل (فرارى) بين يديه أصحابه بالرماح والقسي والأبطال والأبواق ، وأبواقهم من أنياب الفيلة ، وآلات^(١) الطرب المصنوعة من القصب والقرع ، ولها صوت عجيب . وكل فرارى له كِبَانَةٌ قد علقها بين كتفيه ، وقوسه بيده ، وهو راكب فرسه ، وأصحابه بين مشاة وركبان . ويكون بداخل (المشور) تحت الطيقان رجل واقف : فمن أراد أن يكلم السلطان كَلَّمَ دُوغَا ، ويكلم دُوغَا ذلك الواقف ، ويكلم الواقف السلطان .

(١) معطوف على قوله : بالرماح

ذكر جلوسه بالمشور

ويجلس أيضا في بعض الأيام (بالمشور). وهناك مصطبة تحت شجرة، لها ثلاث درجات يسمونها (البني)، تفرش بالحريز وتجعل المخاذ عليها، ويرفع (الشطر) وهو شبه قبة من الحريز، وعليه طائر من ذهب على قدر البازي. ويخرج السلطان من باب في ركن القصر، وقوسه بيده، وكأنته بين كتفيه. وعلى رأسه (شاشية) ذهب، مشدودة بعصابة ذهب، لها أطراف مثل السكاكين رفاق، طولها أزيد من شبر. وأكثر لباسه جبّة حمراء موبّرة^(١) من الثياب الرومية التي تسمى المطنّفس. ويخرج بين يديه المغنون بأيديهم قنابر^(٢) الذهب والفضة. وخلفه نحو ثلاثمائة من العبيد أصحاب السلاح. ويمشي مشيا رويدا، ويكثر التاني. وربما وقف ينظر إلى الناس. ثم يصعد برفق كما يصعد الخطيب المنبر. وعند جلوسه تضرب الطبول والأبواق والأنقار^(٣). ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين، فيدعون النائب (والفرارية)، فيدخلون ويجلسون. ويؤتى بالفرسين والكباشين معهما. ويقف دُوغا على الباب، وسائر الناس في الشارع تحت الأشجار.

ذكر تذلل السودان لملكهم وتترّيبهم له

وغير ذلك من أحوالهم

والسودان أعظم الناس تواضعا لملكهم، وأشدّهم تذلالا له. ويخلفون باسمه. فإذا دعا بأحدهم عند جلوسه بالقبة التي ذكرناها، نزع المدعو ثيابه

(١) ذات وّر

(٢) المراد من قنابر الذهب هنا غير ظاهر — ويحتمل أن يكون المراد صورا من الذهب

على شكل هذا الطائر المعروف وهو القبرة. ويسمى أيضا القنبراء. واجمع قنابر.

(٣) سبق الكلام على هذا اللفظ في الحواشي.

ولبس ثيابا أخلاقا ، ونزع عمامته وجعل (شاشية) وسخة ، ودخل رافعا ثيابه
وسراويله إلى نصف ساقه ، وتقدم بذلة ومسكنة ، وضرب الأرض بمِرْفَيقيه
ضربا شديدا ، ووقف كالراعي يسمع كلامه .

وإذا كلم أحدهم السلطان فرد عليه جوابه ، كشف ثيابه عن ظهره ،
ورمى بالتراب على رأسه وظهره ، كما يفعل المغتسل بالماء . وكنت أعجب
منهم كيف لا تعمى أعينهم . وإذا تكلم السلطان في مجلسه بكلام وضع
الحاضرون عمامتهم عن رؤوسهم وأنصتوا للكلام . وربما قام أحدهم بين يديه
فيذكر أفعاله في خدمته ، ويقول : فعلت كذا يوم كذا ، وقتلت كذا يوم
كذا ، فيصدقه من علم ذلك . وتصديقهم أن يتزع^(١) أحدهم في قوسه ،
ثم يرسلها كما يفعل إذا رمى . فإذا قال له السلطان : صدقت ، أو شكره ،
نزع ثيابه وترّب . وذلك عندهم من الأدب . قال ابن جرّي : وأخبرني
الصاحب العلامة الفقيه أبو القاسم بن رضوان ، أعزّه الله ، أنه لما قدم
الحاج موسى الونجراتي رسولا عن منسأ سليمان ، إلى مولانا أبي الحسن
رضي الله عنه ، كان إذا دخل المجلس الكريم ، حمل بعض ناسه معه قُفَّة
تراب ، فيتربّ إذا قال له مولانا كلاما حسنا ، كما يفعل ببلاده .

ذكر فعله في صلاة العيد وأيامه

وحضرت بمائتي عيدي الأضحى والفطر ، نخرج الناس إلى المصلّى ، وهو
قريب من قصر السلطان ، وعليهم الثياب البيض الحسان . وركب السلطان
وعلى رأسه الطيّلسان . والسودان لا يلبسون الطيلسان إلا في العيد ، ما عدا
القاضي والخطيب والفقهاء ، فانهم يلبسونه في سائر الأيام . وكانوا يوم العيد

(١) نزع في قوسه مَدَّدا استعدادا للرمي .

ين يدي السلطان ، وهم يهللون ويكبرون ، وبين يديه العلامات الحجر من
الحرير . ونُصِب عند المصلى خباء ، فدخله السلطان وأصلح من شأنه .
ثم خرج إلى المصلى ، فقُضيت الصلاة والخطبة . ثم نزل الخطيب ، وقعد
بين يدي السلطان ، وتكلم بكلام كثير . وهناك رجل بيده رمح ، يبين للناس
بلسانهم كلام الخطيب : وذلك وعظ وتذكير ، وثناء على السلطان ،
وتحريض على لزوم طاعته وأداء حقه .

ويجلس السلطان في أيام العيدين بعد العصر على (البني) ، وتأتي
(السلحدارية) بالسلاح العجيب ، من تراكش ^(١) الذهب والفضة ،
والسيوف المحلاة بالذهب ، وأغمادها منه ، ورماح الذهب والفضة ،
ودبابيس البُور . ويقف على رأسه أربعة من الأمراء يشرّدون الذباب ،
وفي أيديهم حيلة من الفضة تشبه ركاب السرج . ويجلس (الفرارية)
والقاضي والخطيب على العادة . ويأتي دُوغا التُّرجمان بنسائه الأربع وجواريه
وهن نحو مائة ، وعليهن الملابس الحسان ، وعلى رؤوسهن عصائب
الذهب والفضة ، وفيها تفافيح ذهب وفضة . وينصب لدُوغا كرسي
يجلس عليه ، ويضرب آلة من قَصَب وتحتها قُرَبعات . ويعني
بشعر يمدح السلطان فيه ، ويذكر غزواته وأفعاله . وتعني النساء والجواري
معه ، ويلعبن بالقسي ، ويكون معهن نحو ثلاثين من غلمانهن ، عليهم
جباب ^(٢) (المِلَف) الحمر ، وفي رؤوسهم (الشواشي) البيض . وكل واحد
منهم متقلد طبله يضربه . ثم يأتي أصحابه من الصبيان فيلعبون ويتقلبون
في الهواء . ولهم في ذلك رشاقة وخفة بديعة . ويلعبون بالسيوف أجمل
لعب . ويلعب دُوغا بالسيف لعباً بديعاً . وعند ذلك يأمر السلطان له

(١) سبق تفسير هذه الكلمة ، وأنها جمع تركش ، جعبة السهام ، غير عربية .

(٢) جمع جبة .

بالإحسان ، فيؤتى بَصْرَةً فيها مائتا مثقال من التبر . ويذكر له ما فيها على
رعوس الناس ، ويقوم (الفرارية) فيتزعون في قسيهم شكرا للسلطان . وبالغد
يعطى كل واحد منهم دُوغا عطاء على قدره . وفي كل يوم جمعة بعد العصر ،
يفعل دُوغا مثل هذا الذي ذكرناه .

ذكر الأضحوكة في إنشاد الشعراء للسلطان

وإذا كان يوم العيد وقد أتم دُوغا لعبه ، جاء الشعراء وقد دخل كل واحد
منهم في جوف صورة مصنوعة من الريش ، تشبه الشَّقشاق^(١) ، وجعل لها
رأس من الخشب له منقار أحمر ، كأنه رأس الشَّقشاق . ويقفون بين يدي
السلطان بتلك الهيئة المضحكة ، فينشدون أشعارهم . وذكر لي أن شعرهم
نوع من الوعظ يقولون فيه للسلطان : إن هذا (البنبي) الذي تجلس عليه ،
جلس فوقه من الملوك فلان ، وكان من أحسن أفعاله كذا ، وفلان ،
وكان من أفعاله كذا . فافعل أنت من الخير ما يذكر بعدك . ثم يصعد كبير
الشعراء على دَرَج (البنبي) ، ويضع رأسه في حِجْر السلطان ، ثم يصعد إلى أعلى
(البنبي) ، فيضع رأسه على كتف السلطان الأيمن ، ثم على كتفه الأيسر ، وهو
يتكلم بلسانهم . ثم ينزل . وأخبرت أن هذا الفعل لم يزل قديما عندهم قبل
الإسلام ، فاستمروا عليه .

(١) لم نجد الشَّقشاق فيما بأيدينا من الكتب . ولعله يريد الشَّقْرَاق ، طائر مرفط بحجرة
وخضرة وبياض .

حكاية

وحضرت مجلس السلطان في بعض الأيام، فأتى أحد فقهاءهم، وكان قدّم من بلاد بعيدة، وقام بين يدي السلطان وتكلم كلاما كثيرا، فقام القاضي فصّدقه، ثم صدّقهما السلطان. فوضع كل واحد منهما عمامته عن رأسه، وترّب بين يديه. وكان إلى جانبي رجل من البيض فقال لي: أتعرف ما قالوه؟ فقلت: لا أعرف. فقال: إن النقيه أخبر أن الجراد وقع ببلادهم، فنخرج أحد صلحاءهم إلى موضع الجراد، فهاله أمره. فقال: هذا جراد كثير. فأجابته جرادة منها وقالت: إن البلاد التي يكثر فيها الظلم يبعثنا الله لفساد زرعها. فصّدقه القاضي والسلطان، وقال عند ذلك للامراء: إني برىء من الظلم، ومن ظلم منكم عاقبته، ومن علم بظالم ولم يعامني به، فذنوب ذلك الظالم في عنقه، والله حسيبه وسائله. ولما قال هذا الكلام، وضع (الفرارية) عمامتهم عن رؤوسهم، وتبرعوا من الظلم.

حكاية

وحضرت الجمعة يوما، فقام أحد التجار من طلبة مسوفة، ويسمى بأبي حفص، فقال: يا أهل المسجد، أشهدكم أن منسّا سليمان في دعوتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١). فلما قال ذلك، نخرج إليه جماعة رجال من مقصورة السلطان، فقالوا له: من ظلمك؟ من أخذ لك شيئا؟

(١) يريد أنه يحتك مع إلى النبي عليه السلام

فقال: مَنشَاجو إيوالاتن ، يعني مُشْرِفها ، أخذ منى ما قيمته ستمائة مثقال ، وأراد أن يعطيني في مقابلته مائة مثقال . فبعث السلطان إليه للحين ، فحضر بعد أيام ، وصرفهما للقاضي ، فنبت للتاجر حقه فأخذه . وبعد ذلك عُزل المشرف عن عمله .

حكاية

واتفق في أيام إقامتي بمالئ أن السلطان غضب على زوجته الكبرى بنت عمه المدعوة قاسا . ومعنى قاسا عندهم الملكة ، وهى شريكته فى الملك ، على عادة السودان ، ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر . وبنجها عند بعض (الفرارية) ، وولئ فى مكانها زوجته الأخرى بَنجُو ، ولم تكن من بنات الملوك . فأكثر الناس الكلام فى ذلك ، وأنكروا فعله . ودخلت بنات عمه على بَنجُو يهنئنها بالملكة ، فجعلن الرماد على أذرعهن ، ولم يترن رءوسهن .

ثم إن السلطان سَرَّح قاسا . فدخلت عليها بنات عمه يهنئنها بالسراح ، وترن على العادة . فشكت بَنجُو إلى السلطان . فغضب على بنات عمه ، فخفن منه واستجرن بالجامع . فعفا عنهن واستدعاهن ، ورضى عنهن ، وصرن يأتين باب السلطان غُدُوًا وَعَشِيًّا مدة سبعة أيام . وكذلك يفعل كل من عفا عنه السلطان . وصارت قاسا تتركب كل يوم فى جواربها وعبيدها وعلى رءوسهم التراب ، وتقف عند (المشور) متنقبة لا يرى وجهها . وأكثر الأمراء الكلام فى شأنها . فجمعهم السلطان فى (المشور) ، وقال لهم دُوعًا على لسانه : إنكم قد أكثرتم الكلام فى أمر قاسا ، وأنها أذنبت ذنبا كبيرا . ثم أتى بجارية من جواربها مقيدة مغلولة ، فقيل لها : تكلمى بما عندك . فأخبرت أن قاسا بعثها

إلى جَاطِلِ ابن عم السلطان ، الهارب عنه إلى كَنْبُرِي ، واستدعته ليخضع
السلطان عن ملكه ، وقالت له : أنا وجميع العساكر طوع أمرك . فلما
سمع الأمراء ذلك قالوا : إن هذا ذنب كبير وهي تستحق القتل عايه .
نخافت قاسا ذلك ، واستجارت بدار الخطيب . وعادتهم أن يستجروا
هنالك بالمسجد ، وإن لم يمكن فبدار الخطيب .

وكان السودان يكرهون مَنْسَا سَلِيْمَانَ لبخله . وكان قبله مَنْسَا مَعَا ، وقبل
مَنْسَا مَعَا مَنْسَا مُوسَى ، وكان كريما فاضلا يحب البيض ويحسن إليهم .
وهو الذي أعطى أبا إسحاق الساحلي في يوم واحد أربعة آلاف مثقال .
وأخبرني بعض الثقات أنه أعطى مُدْرِكَ بن فُقُوص ثلاثة آلاف مثقال
في يوم واحد .

حكاية

وأخبرني الفقيه مُدْرِكُ هذا أن رجلا من أهل تَلَمِيسَانَ يعرف بابن شيخ
اللَّبَنِ ، كان قد أحسن إلى السلطان مَنْسَا مُوسَى في صغره بسبعة مثاقيل
وثلاث ، وهو يومئذ صبي . ثم اتفق أن جاء إليه في خصومة وهو سلطان ،
فعرفه وأدناه منه ، حتى جلس معه على (البَنْبِي) ، ثم قرره على فعله معه .
وقال للأمرء : ما جزاء من فعل ما فعله من الخير ؟ فقالوا له : الحسننة بعشرة
أمثالها ، فأعطه سبعين مثقالا . فأعطاه عند ذلك سبعائة مثقال وكُسُوة وعبيدا
وخدما ، وأمره ألا ينقطع عنه . وأخبرني بهذه الحكاية أيضا ولد ابن شيخ
اللبن . وهو من الطلبة ، يعلم القرآن بمالئ .

ذكر ما استحسنته من أفعال السودان

وما استقبحته منها

فمن أفعالهم الحسنة قلّة الظلم ، فهم أبعد الناس عنه . وسلطانهم لا يسأخ أحدا في شيء منه . ومنها شمول الأمن في بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم سارقا ولا غاصبا . ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيض ، ولو كان القناطير المقتطرة ، وإنما يتركونه بيد ثِقّة من البيض حتى يأخذه مستحقه . ومنها مواظبتهم على الصلوات وملازمتهم لها في الجماعات ، وضربهم أولادهم عليها . وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد ، لم يجد أين يصلى لكثرة الزحام . ومن عادتهم أن يبعث كل إنسان غلامه يسجدته ، فيسقطها له بموضع يستحقه به ، حتى يذهب إلى المسجد . وسجاداتهم من سَعَف شجر يشبه النخل ، ولا ثمر له . ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة . ولولم يكن لأحدهم إلا قميص خَلَق غسله ونظفه وشهد به الجمعة .

ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم ، وهم يجعلون لأولادهم القيود ، إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه ، فلا تُفك عنهم حتى يحفظوه . ولقد دخلت على القاضى يوم العيد ، وأولاده مقيّدون ، فقلت له : ألا تُسرحهم ؟ فقال : لا أفعل حتى يحفظوا القرآن . ومررت يوما بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة ، وفي رجله قيد ثقيل ، فقلت لمن كان معي : ما فعل هذا ، أقتل ؟ ففهم عنى الشاب وضحك . وقيل لى : إنما قيد حتى يحفظ القرآن .

ومن مساوى أفعالهم أن الخدم والجوارى والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا ، ولقد كنت أرى في رمضان كثيرا منهن على تلك الصورة فإن عادة (الفرارية) أن يفطروا بدار السلطان ، ويأتى كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فن فوقهن من جواريه ، وهن عرايا . ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤوسهم تأدبا . ومنها ما ذكرته من الأضحوكة في إنشاد الشعراء . ومنها أن كثيرا منهم يأكلون الخيف والكلاب والحمير .

ذكر سفرى عن مالى

وكان دخولى إياها في الرابع عشر بجمادى الأولى سنة ثلاث وخمسين ، وخروجى عنها في الثانى والعشرين للحرم سنة أربع وخمسين . ورافقنى تاجر يعرف بأبى بكر بن يعقوب . وقصدنا طريق ميمة . وكان لى جمل أركبه ، لأن الخيل غالية الأثمان ، يساوى أحدها مائة مثقال . فوصلنا إلى خليج كبير يخرج من النيل ، لا يُبحأز إلا فى المراكب . وذلك الموضع كثير البعوض ، فلا يمر أحد به إلا بالليل . ووصلنا الخليج ثلث الليل ، والليل مُقْمِر .

ذكر الخيل التى تكون بالنيل

ولما وصلنا الخليج رأيت على ضفته ست عشرة دابة ضخمة الخلقة ، فعجبت منها وظننتها فيلة ، لكثرتها هنالك . ثم إنى رأيتها دخلت فى النهر ، فقلت لأبى بكر بن يعقوب : ما هذه الدواب ؟ فقال : هى خيل البحر ، نخرجت ترعى فى البر . وهى أغلظ من الخيل ، ولها أعراف وأذنان ،

ورعوسها كرعوس الخليل ، وأرجلها كأرجل الفيلة . ورأيت هذه الخليل
مرة أخرى لما ركبنا النيل من تَبْكُتُو إلى كَوَّو ، وهي تعوم في الماء وترفع
رأسها وتتفخ . وخافها أهل المركب ، ففَرَّبُوا من البر لئلا تُغرقهم .
ولهم حيلة في صيدها حسنة : وذلك أن لهم رماحا مثقوبة ، قد جعل
في ثقبها شرائط وثيقة ، فيضربون الفرس منها ، فإن صادفت الضربة رجلاه
أو عنقه أفقدته ، وجذبوه بالحبيل حتى يصل إلى الساحل . فيقتلونه
ويأكلون لحمه . ومن عظامها بالساحل كثير . وكان نزولنا عند هذا الخليج
بقرية كبيرة ، عليها حاكم من السودان ، حاج فاضل يسمى فَرَّامَغَا . وهو
من حج مع السلطان مَنَسَا موسى لما حج .

حكاية

أخبرني فَرَّامَغَا أن مَنَسَا موسى لما وصل إلى هذا الخليج ، كان معه
قاض من البيض يُكْنَى بأبي العباس ، فأحسن إليه بأربعة آلاف مثقال لنفقته .
فلما وصلوا إلى مِيمية شكوا إلى السلطان أن أربعة آلاف المثقال سرفت من
داره . فاستحضر السلطان أمير مِيمية ، وتوعده بالقتل إن لم يُحضر من سرقها .
وطلب الأمير السارق فلم يجد أحدا . ولا سارق بتلك البلاد . فدخل
دار القاضى واشتد على خدامه وهددهم . فقالت له إحدى جواريه : ما ضاع
له شيء ، وإنما دفنها بيده في ذلك الموضع . وأشارت له إلى الموضع ، فأخرجها
الأمير وأتى بها السلطان ، وعرفه الخبر . فغضب على القاضى ، ونفاه إلى بلاد
الكفار الذين يأكلون بني آدم . فأقام عندهم أربع سنين . ثم رده إلى بلده .
وإنما لم يأكله الكفار لبياضه ، لأنهم يقولون : إن أكل الأبيض مضر ،
لأنه لم يَنْضَج ، والأسود هو النضيج بزعمهم .

حكاية

قدمت على السلطان منسا سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون
بني آدم ، ومعهم أميرهم . وعادتهم أن يجعلوا في آذانهم أقراطا كبارا ، وتكون
فتحة^(١) القُرط منها نصف شبر . ويلتحفون بملاحف الحرير . وفي بلادهم
معدن الذهب . فأكرمهم السلطان وأعطاهم في الضيافة خادما ، فذبجوها
وأكلوها ، ولطَّخوا وجوههم وأيديهم بدمها ، وأتوا السلطان شاكرين .
وأخبرت أن عادتهم متى ما وفدوا عليه أن يفعلوا ذلك .

ثم رحلنا من هذه القرية التي عند الخليج ، فوصلنا إلى بلدة قُرى منسار .
ومات لي بها الجمل الذي كنت أركبه ، فأخبرني راعيه بذلك ، فخرجت لأنظر
إليه ، فوجدت السودان قد أكلوه كعادتهم في أكل الجيف . فبعثت
غلامين كنت استأجرتهمما لخدمتي ، ليشتريا لي جملا براغري ، وهي على
مسيرة يومين . وأقام معي بعض أصحاب أبي بكر بن يعقوب ، وتوجه هو
لينتظرونا بميمة ، فأقمت سبعة أيام ، أضافني فيها بعض الحجاج بهذه البلدة ، حتى
وصل الغلامان بالجمل .

حكاية

وفي أيام إقامتي بهذه البلدة ، رأيت ليلة فيما يرى النائم كأن إنسانا يقول لي :
محمد بن بطوطة لماذا لا يقرأ سورة يس في كل يوم ؟ فن يومئذ ما تركت
قراءتها كل يوم في سفر ولا حضر . ثم رحلت إلى بلدة ميمة ، فنزلنا على آبار

(١) الظاهر أنه يقصد بفتحة القُرط قطره .

بخارجها . ثم سافرنا منها إلى مدينة تُبْكُتُو . وبينها وبين النيل أربعة أميال . وأكثر سكانها مَسُوفَةٌ أهل اللثام . وحاكها يسمى فَرَبًا موسى . حضرت عنده يوما وقد قَدِمَ أحد أهل مَسُوفَةَ أميرا على جماعة ، فجعل عليه ثوبا وعمامة وسراويل كلها مصبوغة ، وأجلسه على دَرَقَةٍ (١) ، ورفع كبراء قبيلته على رؤوسهم . وبهذه البلدة قبر الشاعر المُفَلِّقِ أَبِي إِسْحَاقِ السَّاحِلِ الغرناطي . وبها قبر سراج الدين بن الكوكب ، أحد كبار التجار من أهل الإسكندرية .

حكاية

كان السلطان منسًا موسى لما حج ، نزل بِرَوْضِ لسراج الدين هذا ببركة الحبش خارج مصر ، وبها ينزل السلطان . واحتاج إلى مال فتسلّفه من سراج الدين . وتسلف منه أمراؤه أيضا . وبعث معهم سراج الدين وكيله يقتضي المال ، فأقام بمالّي . فتوجه سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله ومعه ابن له . فلما وصل تُبْكُتُو أضافه أبو إسحاق الساحلي ، فكان من القدر موته تلك الليلة ، فتكلم الناس في ذلك ، واتهموا أنه سمّ . فقال لهم ولده : إني أكلت معه ذلك الطعام بعينه ، فلو كان فيه سم لقتلنا جميعا ، لكنه انقضى أجله . ووصل الولد إلى مالّي واقتضى ماله ، وانصرف إلى ديار مصر . ومن تُبْكُتُو ركبت النيل في مركب صغير منحوت من خشبة واحدة . وكذا تنزل كل ليلة بالقرى ، فشتري ما تحتاج إليه من الطعام والسمن ، بالملح وبالعطريات وبجلى الزجاج . ثم وصلت إلى بلد أُنْسِيَتْ اسمه ، له أمير فاضل حاج يسمى فَرَبًا سليمان ، مشهور بالشجاعة والشدة ، لا يتعاطى أحد التزع

(١) الدرقة : الترس .

في قوسه^(١). ولم أر في السودان أطول منه ولا أضخم جسما. واحتجت بهذه
البلدة إلى شيء من الذرة بخرت إليه ، وذلك يوم مولد رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فسأمت عليه وسألني عن مَقْدَمِي ، وكان معه فقيه يكتب له ،
فأخذت لوحا كان بين يديه وكتبت فيه : يا فقيه ، قل لهذا الأمير : إنا نحتاج
إلى شيء من الذرة للزاد ، والسلام . وناولت الفقيه اللوح يقرأ ما فيه سرا ،
ويكلم الأمير في ذلك بلسانه . فقرأه جهرا ، وفهمه الأمير ، فأخذ بيدي
وأدخلني إلى (مشوره) ، وبه سلاح كثير من الدَّرَق والقسي والرماح . ووجدت
عنده كتاب (المُدْهَش لابن الجَوْزِي) ، فجعلت أقرأ فيه . ثم أتى بمشروب لهم
يسمى الدَّقْنُو ، وهو ماء فيه جَرِيش الذرة مخلوطا بيسير عسل أولبن . وهم
يشربونه عوض الماء . لأنهم إن شربوا الماء خالصا أضربهم . وإن
لم يجحدوا الذرة خلطوه بالعسل أو اللبن . ثم أتى ببطيخ أخضر فأكلنا منه .
ودخل غلام ، فدعاه وقال لي : هذا ضياقتك ، فاحفظه لثلاث يفر . فأخذته
وأردت الانصراف ، فقال : أقم حتى يأتي الطعام . وجاءت إلينا
جارية له دِمَشْقِيَّة عربية ، فكلمتني بالعربي . فبينما نحن في ذلك ، إذ سمعنا
صراخا بداره ، فوجه الجارية لتعرف خبر ذلك ، فعادت إليه ، فأعلمته أن
بتنا له قد توفيت ، فقال : إني لا أحب البكاء ، فتعال نتمش إلى البحر ،
يعني النيل ، وله على ساحله ديار . فأتيت بالفرس فقال لي : اركب ، فقلت :
لا أركبه وأنت ماش . فمشينا جميعا ، ووصلنا إلى دياره على النيل ، وأتتني
بالطعام فأكلنا ، وودعته وانصرفت . ولم أر في السودان أكرم منه ولا أفضل .
والغلام الذي أعطانيه باق عندي إلى الآن .

(١) ماهر في الرماية ، فائق فيها .

ثم سرت إلى مدينة كوكو ، وهي مدينة كبيرة على النيل ، من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها ، فيها الأرز الكثير واللبن والدجاج والسمك . وبها الفُقوص^(١) العِنَابِي الذي لا نظير له . وتعامل أهلها في البيع والشراء بالودع ، وكذلك أهل مائي . وأقيمت بها نحو شهر . وأضافني بها محمد بن عمر من أهل مكّاسة . وكان ظريفاً مزاحاً فاضلاً . وتوفى بها بعد خروجي عنه . وأضافني بها الحاج محمد الوجدي التازي ، وهو ممن دخل اليمن .

ثم سافرت منها إلى تكّدا في البر مع قافلة كبيرة للغدَامِسِيِّين^(٢) ، ودليلهم ومقدمهم الحاج وُجَيْن ، ومعناه الذئب بلسان السودان . وكان لي جمل لركوبي وناقة لحمل الزاد . فلما رحلنا أول مرحلة وقفت الناقة ، فأخذ الحاج وُجَيْن ما كان عليها وقسمه على أصحابه ، فتوزّعوا حمّله . وكان في الرُفقة مغربي من أهل تادّلا ، فأبى أن يرفع من ذلك شيئاً ، كما فعل غيره . وعطش غلامي يوماً ، فطلبت منه الماء فلم يسمح به .

ثم وصلنا إلى بلاد بردّامة ، وهي قبيلة من البربر ، ولا تسير القوافل إلا في حَفّارتهم . والمرأة عندهم في ذلك أعظم شأنًا من الرجل . وهم رحالة لا يقيمون . وبيوتهم غريبة الشكل ، يقيمون أعوادًا من الخشب ويضعون عليها الحُصْر . وفوق ذلك أعواد مشبّكة ، وفوقها الجلود أو ثياب القطن . ونسأؤهم أتم النساء جمالا وأبدعهن صُورًا ، مع البياض الناصع ، ولم أرى في البلاد من يبلغ مبلغهن في السمن . وطعامهن حليب البقر وجرّيش الذرة ، يشربته مخلوطًا بالماء غير مطبوخ ، عند المساء والصباح . وأصابني المرض في هذه البلاد لاشتداد الحر وغلبة الصفراء . واجتهدنا في السير إلى أن وصلنا إلى

(١) الفُقوص البطيخة قبل النضج ، مصرية أو قاموس . ولكن الذي يظهر أن هذا نوع آخر غير البطيخ .

(٢) غُدَامِسِ بلدة بالمغرب ضاربة في بلاد السودان أو قاموس .

مدينة تكدا . ونزلت بها في جوار شيخ المغاربة سعيد بن علي الجزولي .
وأضافني قاضيها أبو إبراهيم إسحق الجاناتي . وهو من الأفاضل . وأضافني
جعفر بن محمد المسوفي .

وإديار تكدا مبنية بالحجارة الحجر . وماؤها يجري على معادن النحاس فيتغير
لونه وطعمه بذلك . ولا زرع بها إلا يسيرا من القمح يأكله التجار والغرباء .
ويباع بحساب عشرين مُدًّا^(١) من أمدادهم بمئقال ذهب . ومُدُّهم ثلث
المد ببلادنا . وتباع الذرة عندهم بحساب تسعين مُدًّا بمئقال ذهب . وهي
كثيرة العقارب . وعقاربها تقتل من كان صبيا لم يبلغ . وأما الرجال فقلما
تقتلهم . ولقد لدغت يوما وأنا بها ولدا للشيخ سعيد بن علي عند الصبح ،
فمات لحينه وحضرت جنازته . ولا شغل لأهل تكدا غير التجارة ، يسافرون
كل عام إلى مصر ، ويحلبون من كل ما بها من حسان الثياب وسواها . ولأهلها
رفاهية وسعة حال . ويتفانرون بكثرة العبيد والخدمات . وكذلك أهل
مالي وإيوالاتن . ولا يبيعون المعلمات منهن إلا نادرا وبالثلث الكثير .

حكاية

أردت لما دخلت تكدا شراء خادِم مُعَلِّمة فلم أجدها . ثم بعث إلى
القاضي أبو إبراهيم بخادم لبعض أصحابه ، فاشترتها بخمسة وعشرين مثقالا .
ثم إن صاحبها ندم ورغب في الإقالة ، فقلت له : إن دلتني على سواها أقلتك .
فدلتني على خادِم لعلِّي أغبُول ، وهو المغربي التادلي ، الذي أبي أن يرفع شيئا
من أسباني^(٢) ، حين وقعت ناقتي ، وأبي أن يسقي غلامي الماء حين عطش .

(١) المد ميكال ، وهو مل . كفى الانسان المعتدل ا ه قاموس .

(٢) مناعى .

فاشتريتها منه وكانت خيرا من الأولى . وأقلتُ صاحبي الأول . ثم ندم هذا المغربي على بيع الخادم ، ورغب في الإقالة وألح في ذلك ، فأبيت إلا أن أجازيه بسوء فعله ، فكاد أن يمين أو يهلك أسفا . ثم أقلته بعد .

ذكر معدن النحاس

ومعدن النحاس بخارج تكداً يحفرون عليه الأرض ، ويأتون به إلى البلد ، فيسبكونه في دورهم ، يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم . فإذا سبكوه نحاساً أحمر ، صنعوا منه قُضباناً في طول شبر ونصف ، بعضها رقاق وبعضها غلاظ ، فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمائة قضيب بمئقال ذهب ، وتباع الرقاق بحساب ستمائة وسبعمائة بمئقال . وهي صرْفهم ، يشترون براقها اللحم والخطب ، ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح . ويحملون النحاس منها إلى مدينة كُوبر ، من بلاد الكفار ، وإلى زغاي ، وإلى بلاد برنو ، وهي على مسيرة أربعين يوماً من تكداً . وأهلها مسلمون لهم ملك اسمه إدريس ، لا يظهر للناس ، ولا يكلمهم إلا من وراء حجاب . ومن هذه البلاد يؤتى بالحواري الحسان والفتيان ، وبالثياب المُجسّدة (١) .

ذكر سلطان تكداً

وفي أيام إقامتي بها توجه القاضي أبو إبراهيم ، والخطيب مجد ، والمدرس أبو حفص ، والشيخ سعيد بن علي ، إلى سلطان تكداً ، وهو بربري يسمى إزار . وكان على مسيرة يوم منها . ووقعت بينه وبين التكركري ، وهو من

(١) مصبوغة بالجد وهو الزعفران .

سلاطين البربر أيضا منازعة ، فذهبوا للإصلاح بينهما . فأردت أن ألقاه ، فاكترت دليلا وتوجهت إليه . وأعلمه هؤلاء بقدومي ، فبغاء إلى رابكا فرسا دون سرج ، وتلك عادتهم . وقد جعل عوض السرج طِنْفِيسَة (١) حمراء بديعة . وعليه مِأخِفة وسراويل وعمامة ، كلها زُرُق . ومعه أولاد أخته ، وهم الذين يرثون ملكه . فقمنا إليه وصاحناه . وسأل عن حالي ومقدمي ، فأعلم بذلك .

وانزلني بيت من بيوت اليناطيين ، وهم كالوُصْفَان (٢) عندنا ، وبعث برأس شاة مشوي في السَّقُود ، وقَعَب (٣) من حليب البقر . وكان في جوارنا بيت أمه وأخته ، فبغاءتا إلينا وسامتا علينا . وكانت أمه تبعث لنا الحليب بعد العتمة ، وهو وقت حلبهم . ويشربونه ذلك الوقت وبالغُدُو . وأما الطعام (٤) فلا يأكلونه ولا يعرفونه . وأقت عندهم ستة أيام . وفي كل يوم يبعث بكبشين مشويين عند الصباح والمساء . وأحسن إلى بناقة وعشرة مثاقيل من الذهب . وانصرفت عنه ، وعدت إلى تكدا .

ذكر وصول الأمر الكريم إلى

ولما عدت إلى تكدا ، وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السجّامسي ، بأمر مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين ، المتوكل على رب العالمين ، أمرا لي بالوصول إلى حضرته العلية ، فقبلته وامثلته على الفور . واشترت جملين لركوبي بسبعة وثلاثين مثقالا وثلث . وقصدت السفر إلى توات ، ورفعت زاد سبعين ليلة ،

(١) هي البساط .

(٢) جمع وصيف وهو الخادم . ولكن اجمع المَعُول عليه (وصفاء) .

(٣) القعب : القدح الضخم الجافى .

(٤) المقصود بالطعام هنا القمح .

إذ لا يوجد الطعام فيما بين تككدا وتوات ، وإنما يوجد اللحم واللبن والسمن ،
يشتري بالأثواب . وخرجت من تككدا يوم الخميس الحادى عشر لشعبان ،
سنة أربع وخمسين فى رفقة كبيرة ، فىهم جعفر التواتى ، وهو من الفضلاء ،
ومعنا الفقيه محمد بن عبد الله قاضى تككدا . وفى الرفقة نحو ستمائة خادم .
فوصلنا إلى كاهر ، من بلاد السلطان التكر كرى . وهى أرض كثيرة الأعشاب ،
يشتري بها الناس من برابرها الغنم ويقددون لحمها ، ويحمله أهل توات إلى
بلادهم .

ودخلنا منها فى برية لا عمارة بها ولا ماء ، وهى مسيرة ثلاثة أيام .
ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوما فى برية لا عمارة بها ، إلا أن بها الماء .
ووصلنا إلى الموضع الذى يفرق به طريق غات الآخذ إلى ديار مصر ،
وطريق توات . وهناك أحساء ماء يجرى على الحديد ، فإذا غسل به الثوب
الأبيض اسود لونه . وسرنا من هنالك عشرة أيام ، ووصلنا إلى بلاد هكار ،
وهى طائفة من البربر ملثمون ، لا خير عندهم . ولقينا أحد كبرائهم ، فخبس
القافلة حتى غرموا له أثوابا وسواها . وكان وصولنا إلى بلاهم فى شهر رمضان ،
وهم لا يغيرون فيه ولا يعترضون القوافل . وإذا وجد سراقها المتاع بالطريق
فى رمضان ، لم يعرضوا له . وكذلك جميع من بهذه الطريق من البرابر .

وسرنا فى بلاد هكار شهرا ، وهى قليلة النبات ، كثيرة الحجارة ، طريقها
وعمر . ووصلنا يوم عيد الفطر إلى بلاد برابر أهل لثام كهؤلاء ، فأخبرونا
بأخبار بلادنا ، وأعلمونا أن أولاد خراج وابن يغمور خالفوا ، وسكنوا
تسايت ، من توات . يخاف أهل القافلة ذلك . ثم وصلنا إلى بودا وهى
من أكبر قرى توات ، وأرضها رمال وسبخ^(١) ، وتمرها كثير ليس بطيب ،

(١) جمع سبخة ، وهى أرض ذات تر و ملح .

لكن أهلها يفضلونه على تمر سِجِّلمَاسة . ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت . وإنما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب . وأكل أهلها التمر والجراد ، وهو كثير عندهم يخترنونه كما يُخترن التمر ، ويقتاتون به ، ويخرجون إلى صيده قبل طلوع الشمس . فإنه لا يطير إذ ذاك لأجل البرد . وأقمنا بيوداً أياما . ثم سافرنا في قافلة ، ووصلنا في أوسط ذى القعدة إلى مدينة سِجِّلمَاسة ، وخرجت منها في ثانی ذی الحجة ، وذلك أوان البرد الشديد . ونزل بالطريق ثلج كثير . ولقد رأيت الطرق الصعبة والثلج الكثير يُخَارَى وسَمْرَقَنْدٌ وحِرَاسَانٌ وبلاد الأتراك ، فلم أر أصعب من طريق أم جُنَيْبَةَ .

ووصلنا ليلة عيد الأضحى إلى دار الطَّمَع ، فأقمت هناك يوم الأضحى . ثم خرجت فوصلت إلى حضرة فاس ، حضرة مولانا أمير المؤمنين أيده الله . فقبَّلت يده الكريمة ، وتيمنت بمشاهدة وجهه المبارك . وأقمت في كَنَفٍ إحسانه بعد طول الرحلة . والله تعالى يشكر ما أولانيه من جزيل إحسانه ، وسابغ امتنانه ، ويديم أيامه ، ويمتع المسلمين بطول بقائه .

وها هنا انتهت الرحلة المسماة (تحفة النظَّار) في غرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار) . وكان الفراغ من تقييدها في ثالث ذی الحجة ، عام ستة وخمسين وسبعائة . والحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

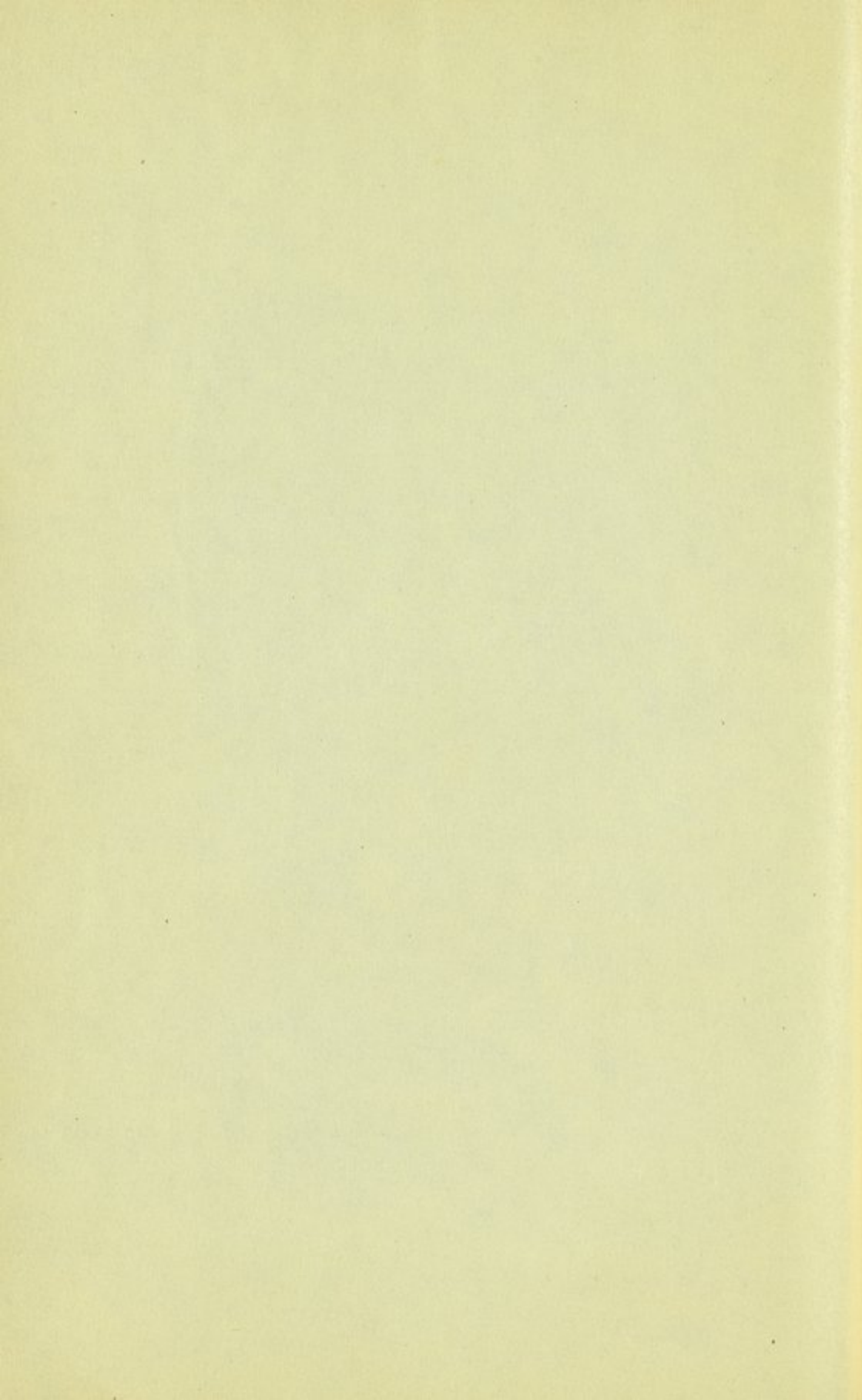
قال ابن جزيّ

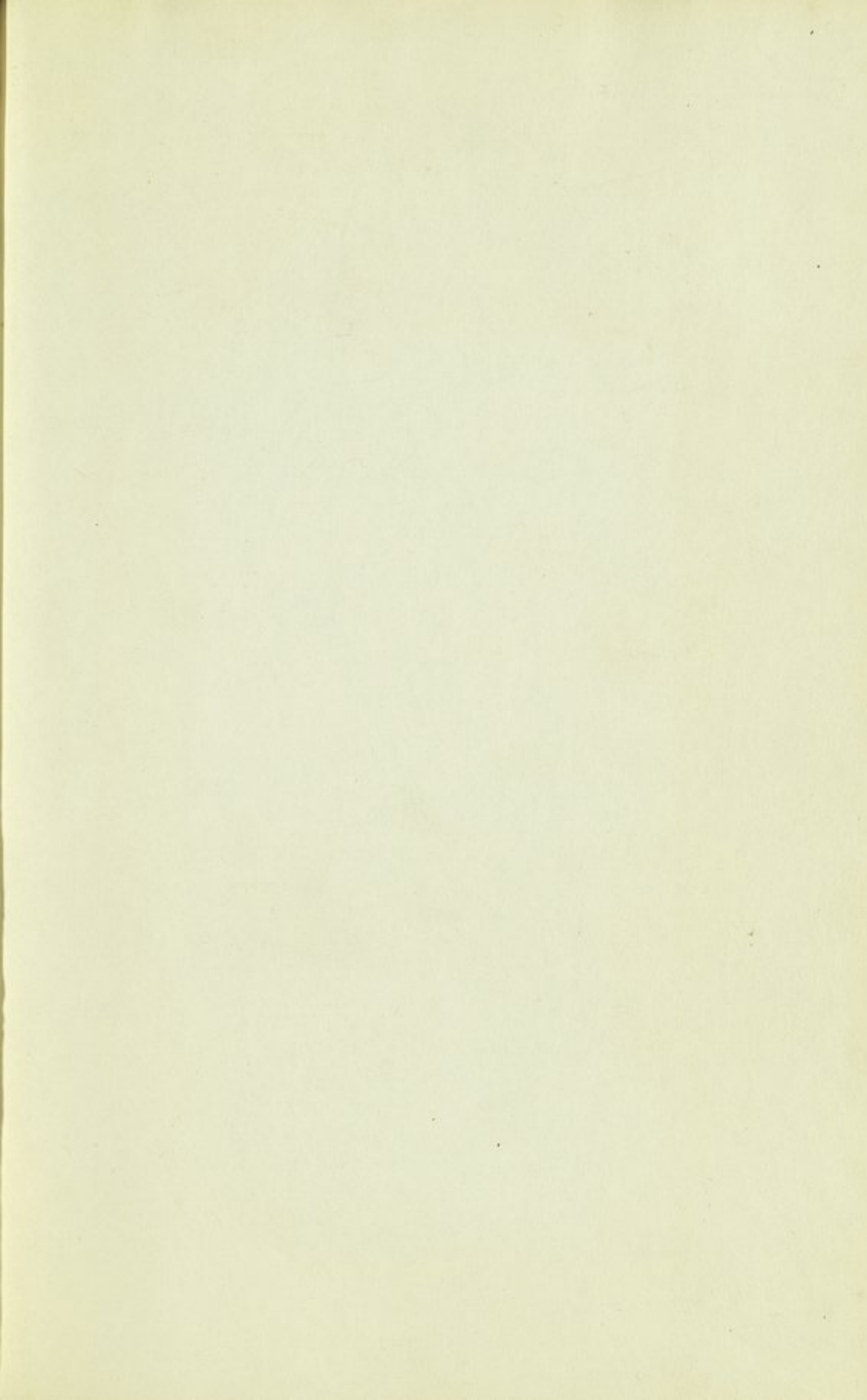
انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بطوطة ، أكرمه الله .
ولا يخفى على ذي عقل أن هذا الشيخ هو رحّل العصر . ومن قال : رحال هذه
الملة ، لم يبعد . ولم يجعل بلاد الدنيا للرحلة واتخذ حضرة فاس قرارا ومستوطنًا ،
بعد طول جولانه ، إلا لما تحقق أن مولانا أيده الله أعظم ملوكها شأنًا ،
وأعمهم فضائل ، وأكثرهم إحسانًا ، وأشدّهم بالواردين عليه عناية ،
وأتمهم لمن ينتمى إلى طلب العلم حماية .

فيجب على من مثلي أن يحمّد الله تعالى ، لأن وفقه في أول حلّه وترحاله ،
لاستيطان هذه الحضرة ، التي اختارها هذا الشيخ ، بعد رحلة خمسة وعشرين
عامًا . إنها لنعمة لا يُقدّر قدرها ، ولا يُوفّى شكرها . والله تعالى يرزقنا الإعانة
على خدمة مولانا أمير المؤمنين ، ويبقى علينا ظلّ حرّمته ورحمته ، ويجزّيه
عنا معشر الغرباء المنقطعين إليه أفضل جزاء المحسنين .

اللهم وكما فضلته على الملوك بفضيلتي العلم والدين ، وخصصته بالحلم والعقل
الرصين ، فمدّ ملكه أسباب التأييد والتمكين ، وعرفه عوارف النصر العزيز
والفتح المبين ، واجعل الملك في عقبه إلى يوم الدين ، وأره قوّة العين في
نفسه وبنيه وملكه ورعيته ، يا أرحم الراحمين . وصلى الله على سيدنا ونبينا
ومولانا محمد خاتم النبيين ، وإمام المرسلين . والحمد لله رب العالمين .

وكان الفراغ من تأليفها في شهر صفر ، عام سبعة وخمسين وسبعمائة .







0315332985

DATE DUE ~~JAN 31 1976~~ JUL 31 1975
 JAN 24 1989

06665977

INSERT

BOOK CARD

PLEASE DO NOT REMOVE
 A TWO DOLLAR FINE WILL
 BE CHARGED FOR THE LOSS
 OR MUTILATION OF THIS CARD.

PRINTED IN U.S.A.

JTC 22693

06665977

